





THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY

البداية والنهاية في التاريخ

للإمام العالم الخافظ عماد الدين أبي الفراء

إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م)

تحقيق ومراجعة وتعليق وتصحيح

محمد بن العزيز النجد

المفتش العام السابق بوزارة التربية والتعليم
بالجمهورية العربية المتحدة

الجزء الأول

طبعة جديدة منقحة كاملة

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده

بميدان الأزهر - تليفون ٩٠٦٥٨٠

البداية والنهاية في التاريخ

الإمام العالم الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل
ابن عمر بن كثير الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م)

تحقيق ومراجعة وتعليق وتصحيح

محمد بن العزى النجد

المفتش العام السابق بوزارة التربية والتعليم
بالجمهورية العربية المتحدة

الجزء الأول

طبعة جديدة منقحة كاملة

يطلب من

مكتبة الفلاح

شارع البطحاء بالرياض

مطبعة البعث الجديدة

شارع القويسني خلف مدرسة التجارة بالظاهر

0

17

I 12

v. 1

مقدم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، سيدنا محمد أفضل الخلق أجمعين ، وعلى آله وأصحابه الذين نهجوا سبيله ، واهتدوا بهديه ، فأضاءوا للبشرية طريق الهدى والرشاد ، وعلى سائر أوليائه المقربين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا كتاب « البداية والنهاية في التاريخ » للشيخ الحافظ الإمام ابن كثير ، تقدمه لقراء العربية ونشره بينهم ؛ كنزاً من كنوز التاريخ ، وموسوعة من أعظم الموسوعات فيه إلى المائة الثامنة الهجرية . راجين بذلك أن نسهم في نشر العلم وإظهار ماخفي على كثير من الناس وبالله توفيقنا .

تعريف مختصر بالمؤلف

هو الشيخ الإمام العالم الحافظ ، المفسر البارع ، والمؤرخ الثبت ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير ، البصرى ، ثم الدمشقى ، الفقيه الشافعى .

نشأته : ولد بمجدل من أعمال مدينة بصرى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) ، إذ كان أبوه خطيباً بها ، ثم انتقل إلى دمشق مع أخيه سنة ٧٠٦ هـ ونشأ بها وتعلم في مدارسها ، وسمع الدروس على علماءها ، وأقبل على علم الحديث والأصول وحفظ المتن والتواريخ ، وعنى بالفقه والتفسير ، وأمعن النظر في النحو حتى برع في ذلك كله وهو شاب ، فصار فقيهاً مقدماً ، ومحدثاً محققاً ، ومفسراً نقاداً ، ومؤرخاً ثبتاً ، وإماماً في جميع ما كتب وكانت له صلة كبيرة بالشيخ ابن تيمية ، واتبعه في كثير من آرائه ، وامتنحن بسببه ؛ وكان حسن الفأكة ، حلو المحاضرة .

تصنيفه : وله تصانيف كثيرة منها :

١ — تفسيره الكبير في عشرة أجزاء ، وهو من أعظم كتب التفسير وأفيدها بالرواية ، لأنه يتكلم في أسانيد الروايات جرحاً وتعديلاً ، ولا يرسلها إرسالاً كما يفعل غالب المفسرين والرواة ، ولم يؤلف على نمطه مثله ، وقد طبع أكثر من مرة .

٢ — وكتاب الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن ، وهو المعروف بجامع المسانيد ، وقد جمع فيه أحاديث الكتب الستة والمسانيد الأربعة : « مسند الإمام أحمد ، والبخاري ، وأبو يعلى ، وابن أبي شيبه » ورتبه على الأبواب ، وهو من أنفع الكتب .

٣ — ثم كتاب التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والجاهيل في خمسة أجزاء .

٤ — تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب . ٥ — ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح .

٦ — والفصول في سيرة الرسول . . . وغير ذلك كثير من المصنفات .

وقد انتشرت مؤلفاته في البلاد وانتفع بها كثير من الناس . وتوفي بدمشق في شعبان سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م) ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية . رحمهما الله رحمة واسعة .

البداية والنهاية :

أما كتابه « البداية والنهاية في التاريخ » الذي تقدمه للقراء من طلاب وعلماء وباحثين — فيعد من الكنوز العظيمة . وهو في مقدمة الموسوعات المبسطة في التاريخ الإسلامي ، وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام : الأول : وقصد به البداية ، وقد أتى فيه على تاريخ مبدأ الخليفة وماورد في خلق السموات والأرض وما بينهما ، والعرش والكرسى والملائكة والجن والأفلاك وما إلى ذلك ، ثم قصص الأنبياء السابقين وأخبار الأمم والقبائل والملوك الماضين وغيرهم مما يشوق الكشف عنهم ؛ كإجوج ومأجوج ، وسبأ ، وذى القرنين ، وأصحاب الأخدود . . . فهو تاريخ مفصل مبسوط لما قبل الإسلام إلى مولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . وقد اعتمد فيما كتب على نصوص الكتاب والسنة مميّزاً الصحيح منها من السقيم ، ثم أتبع ذلك بالسيرة النبوية العطرة منذ مولده عليه السلام ، ثم بعثته وجهاده في سبيل دعوته ، وهجرته وغزواته . ورتب ما بعد الهجرة على السنين إلى وفاته عليه السلام ، مع إشباع في القول وبسطة فيه ، حتى أغنى بكتابه هذا عن كل ما كتب ، واستوعب هذا كله خمسة أجزاء من الكتاب .

الثاني : ما يمكن أن نسميه تاريخ الإسلام ، وهو من الجزء السادس إلى الجزء الخامس عشر . وقد ابتدأه بذكر آثار النبي ومخلفاته ووصف ذاته الشريفة وصفاً مفصلاً ، وذكر أخلاقه وشمائله العطرة ومعجزاته ، ثم تاريخ الخلفاء الراشدين وأعمالهم وجهادهم في تثبيت دعوته عليه السلام ، فالدولة الأموية وأشهر رجالاتها وعلمائها وشعرائها ، ثم الدولة العباسية كذلك والدول التي تفرعت منها ، وإغارة التتار على البلاد الإسلامية وماحدث من الفتن والحروب ، ثم انتصار المسلمين عليهم وهزيمتهم نهائياً . وما بعد ذلك من الحوادث إلى قبيل سنة ٧٧٤ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها . وقد رتب ما كتب على السنين واستقصى الحوادث استقصاء تاماً ، وعنى بذكر الشعراء والكتاب والأعيان والحكام وحملة العلم من كل طبقة ووفياتهم ، مع البسط في ذلك حتى جاء تاريخه مغنياً عن كل تاريخ تقدمه .

الثالث : وعنى به النهاية ، وقد تكلم فيه عن الملاحم والفتن والبعث والنشور وأحوال يوم القيامة وغير ذلك من الأمور السمعية ، وجعل هذا خاتمة تلك الموسوعة ، وهو الجزء الأخير منها .

ومما هو جدير بالذكر أنه لم يطبع من الكتاب في طبعته السابقة إلا أربعة عشر جزءاً ، وقد انتهى الجزء الرابع عشر بحوادث سنة ٧٦٧ هـ ومقتل الأمير الكبير يلبغا . وسنعمل إن شاء الله في هذه الطبعة على تكميله من الأصول الخطية ، والله الموفق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الأول الآخر ، الباطن الظاهر ، الذى هو بكل شىء عليم ، الأول فليس قبله شىء ، الآخر فليس بعده شىء ، الظاهر فليس فوقه شىء ، الباطن فليس دونه شىء ، الأزلى القديم الذى لم يزل موجوداً بصفات الكمال ، ولا يزال دائماً مستمراً باقياً سرمدياً بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال ، يعلم ديب الخلة السوداء على الصخرة السماء ، فى الليلة الظلماء وعدد الرمال . وهو العلى الكبير المتعال ، العلى العظيم الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً .

ورفع السموات بغير عمد ، وزينها بالكواكب الزاهرات ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً . وسوى فوقهن سريراً ، شرجعاً^(١) عالياً منيفاً متسعاً مقبباً مستديراً — وهو العرش العظيم — له قوائم عظام تحمله الملائكة الكرام ، وتحفه الكروبيون^(٢) عليهم الصلاة والسلام ولهم زجل بالتقديس والتعظيم . وكذا أرجاء السموات مشحونة بالملائكة ، ويفد منهم كل يوم سبعون ألفاً إلى البيت المعمور بالسماء الرابعة لا يعودون إليه ، آخر ما عليهم^(٣) فى تهليل وتحميد وتسكبير ، وصلاة وتسليم .

ووضع الأرض للأنام على تيار الماء ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام قبل خلق السماء ، وأنبت فيها من كل زوجين اثنين ، دلالة للألباء من جميع ما يحتاج العباد إليه فى شتائمهم وصيفهم ، ولكل ما يحتاجون إليه ويملكونه من حيوان بهيم^(٤) .

وبدأ خلق الإنسان من طين ، وجعل نسله من سلالة من ماء مهين ، فى قرار مكين ، فجعله سمياً بصيراً ، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وشرفه بالعلم والتعليم . خاق بيده الكريمة آدم أبا البشر ، وصور جسده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وخلق منه زوجه حواء أم البشر فأنس بها وحدته ، وأسكنهما جنته ، وأسبغ عليهما نعمته . ثم أهبطهما إلى الأرض لما سبق فى ذلك من حكمة الحكيم ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء . وقسمهم بقدرة العظيم ملوكاً ورعاة ، وفقراء وأغنياء ، وأحراراً وعبيد ، وحراراً وإماء . وأسكنهم أرجاء الأرض ، طولها والعرض ، وجعلهم خلائف فيها يخلف البعض منهم البعض ، إلى يوم الحساب والعرض على العليم الحكيم . وسخر لهم الأنهار ، من سائر الأقطار ، تشق

(١) الشرجع : الطويل ، والعالى المنيف .

(٢) هم سادة الملائكة المقربون .

(٣) آخر : خبر لبتدأ محذوف أى هذا آخر ما عليهم .

(٤) أمجم لا يميز .

الأقاليم إلى الأمصار ، ما بين صغار وكبار ، على مقدار الحاجات والأوطار ، وأنبع لهم العيون والآبار ، وأرسل عليهم السحائب بالأمطار ، فأنت لهم سائر صنوف الزرع والثمار . وآتاهم من كل ماسألوه بلسان حالهم وقالهم : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) . فسبحان الكريم العظيم الخليم . وكان من أعظم نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، بعد أن خلقهم ورزقهم ، ويسر لهم السبيل وأنطقهم ، أن أرسل رسله إليهم ، وأنزل كتبه عليهم ، مبينة حلاله وحرامه ، وأخباره وأحكامه ، وتفصيل كل شيء في المبدأ والمعاد إلى يوم القيامة . فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم ، والأوامر بالانقياد والنواهي بالتعظيم ؛ ففاز بالنعيم المقيم ، وزحزح عن مقام المكذبين في الجحيم ، ذات الزقوم والحميم ، والعذاب الأليم .

أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً يملأ أرجاء السموات والأرضين ، دائماً أبد الآبدين ، ودهر الدهرين ، إلى يوم الدين ، في كل ساعة وأن وقت وحين ، كما ينبغي لجلاله العظيم ، وسلطانه القديم ووجهه الكريم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لا ولد له ولا والد له ، ولا صاحبة له ، ولا نظير ولا وزير له ، ولا مشير له ، ولا عديد ولا نديد ولا قسيم .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وحبيبه وخليته ، الصطفى من خلاصة العرب العرباء من الصميم ، خاتم الأنبياء ، وصاحب الحوض الأكبر الرواء ، صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة ، وحامل اللواء الذى يبعثه الله للمقام المحمود الذى يرغب إليه فيه الخلق كلهم حتى الخليل إبراهيم صلى الله عليه وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين ، وسلم وشرف وكرم أزكى صلاة وتسليم ، وأعلى تشریف وتكريم . ورضى الله عن جميع أصحابه الغر الكرام ، السادة النجباء الأعلام ، خلاصة العالم بعد الأنبياء ؛ ما اختلط الظلام بالضياء ، وأعلن الداعي بالنداء ، ومانسخ النهار ظلام الليل البهيم .

﴿ أما بعد ﴾ فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسره الله تعالى بحوله وقوته ، من ذكر مبدأ المخلوقات : من خلق العرش والكرسى والسموات والأرضين ؛ وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشیاطين ، وكيفية خلق آدم عليه السلام وقصص النبيين ، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بنى إسرائيل ، وأيام الجاهلية حتى تنتهى النبوة ، إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فنذكر سيرته كما ينبغي فحشى الصدور والغليل ، وتزيح الداء عن العليل .

ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا ، ونذكر الفتن والملاحم^(١) وأشرطة الساعة ، ثم البعث والنشور وأهوال القيامة ، ثم صفة ذلك وما فى ذلك اليوم ، وما يقع فيه من الأمور الهائلة ؛ ثم صفة النار ، ثم

(١) الملاحم : جمع ماحمة وهى الوقائع والحروب التى يعظم فيها القتل والفتن ؛ مأخوذ من اشتباك الناس واختلاطهم فيها كاشتباك لحمه الثوب بالسدى .

صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان ، وغير ذلك وما يتعلق به ، وما ورد في ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة المقبولة عند العلماء وورثة الأنبياء ، الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية الحمديّة ، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

ولسنا نذكر من الإسرائيليات — إلا ما أذن الشارع في نقله ، مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب ؛ مما فيه بسط لمختصر عندنا ، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا ، مما لا فائدة في تعيينه لنا ؛ فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه . وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، ما صح نقله أو حسن ، وما كان فيه ضعف بينه ، وبالله المستعان وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة الا بالله العزيز الحكيم العلي العظيم .

فقد قال الله تعالى في كتابه : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً) ، وقد قص الله على نبيه ﷺ خبر ماضى من خلق المخلوقات ، وذكر الأمم الماضين ، وكيف فعل بأوليائه ، وماذا أحل بأعدائه . وبين ذلك رسول الله ﷺ لأمته بياناً شافياً ، سنورد عند كل فصل ما وصل إلينا عنه — صلوات الله وسلامه عليه — من ذلك تلو الآيات الواردة في ذلك ، فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك ، وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ، ويتراجم في فهمه ، طوائف من علماء أهل الكتاب ، مما لا فائدة فيه لكثير من الناس إليه ، وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ولسنا نحذو حذوهم ، ولا ننحو نحوهم ، ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار . ونبين ما فيه حق مما وافق ما عندنا ، وما خالفه فوقع فيه الإنكار .

فأما الحديث الذي رواه البخارى رحمه الله في صحيحه عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، وحدثوا عنى ولا تكذبوا عنى ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » — فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا ، فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها ، فيجوز روايتها للاعتبار . وهذا هو الذى نستعمله فى كتابنا هذا . فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بما عندنا ، وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود ، لا يجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال .

فإذا كان الله — سبحانه وله الحمد — قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع ، وبكتابه عن سائر الكتب ، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خلط وخبط ، وكذب ووضوع ، وتحريف وتبديل ، وبعد ذلك كله نسخ وتبديل .

فالحاجة إليه قد بينه لنا رسولنا ، وشرحه وأوضحه ؛ عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ، كما قال على

ابن أبي طالب : كتاب الله فيه خبر من قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . وقال أبو ذر رضى الله عنه : لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا أذكرنا منه علماً . وقال البخارى فى كتاب بدء الخلق ، وروى عن عيسى بن موسى غنجار عن رقية عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قام فىنا رسول الله ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه . قال أبو مسعود الدمشقي فى أطرافه هكذا قال البخارى ، وإما رواه عيسى غنجار عن أبي حمزة عن رقية . وقال الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله فى مسنده : حدثنا أبو عاصم ^(١) حدثنا عزرة بن ثابت ، حدثنا علباء بن أحرر الشكري ، حدثنا أبو زيد الأنصارى ، قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، ثم نزل فصلى الظهر . ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى العصر ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس ، فحدثنا بما كان وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه فى كتاب الفتن من صحيحه عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي وحباج ابن الشاعر ، جميعاً عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد النبيل عن عزرة عن علباء عن أبي زيد عمرو بن أخطب بن رفاعة الأنصارى رضى الله عنه عن النبي ﷺ بنحوه .

فصل

قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل) ^(٢) فكل ما سواه تعالى فهو مخلوق له ، مربوب مدبر ، مكون بعد أن لم يكن محدث بعد عدمه . فالعرش الذى هو سقف الخلوقات إلى ماتحت الثرى ، وما بين ذلك من جامد وناطق الجميع خلقه ، وملسكه وعبيده وتحت قهره وقدرته ، وتحت تصرفه ومشيتته (هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير) ^(٣) .

وقد أجمع العلماء قاطبة — لا يشك فى ذلك مسلم — أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام كما دل عليه القرآن الكريم ؛ فاختلفوا فى هذه الأيام أهي كأيامنا هذه ، أو كل يوم كألف سنة مما تعدون ؟ على قولين كما بينا ذلك فى التفسير ، وسنتعرض لإيراده فى موضعه . واختلفوا هل كان قبل خلق السموات والأرض شىء مخلوق قبلهما ؟ فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شىء

(١) فى رواية : أبو عامر . (٢) الآية ٦٢ من سورة الزمر (٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

وأنها خلقتا من العدم المحض . وقال آخرون : بل كان قبل السموات والأرض مخلوقات أخر لقوله : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ^(١)) الآية ، وفى حديث عمران ابن حصين كما سيأتى : « كان الله ولم يكن قبله شيء وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو يعلى بن عطاء عن وكيع ابن حدس عن عمه أبى رزين لقيط بن عامر العقيلي أنه قال : يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال : « كان فى عماء مافوقه هواء وماتحته هواء ثم خلق عرشه على الماء » ورواه عن يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة به ، ولفظه : أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ وباقيه سواء . وأخرجه الترمذى عن أحمد بن منيع وابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبه ومحمد بن الصباح ثلاثهم عن يزيد بن هرون ، وقال الترمذى حسن .

واختلف هؤلاء فى أيها خلق أولا ، فقال قائلون : خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها ، وهذا هو اختيار ابن جرير وابن الجوزى وغيرهما . قال ابن جرير : وبعد القلم السحاب الرقيق . واحتجوا بالحديث الذى رواه الإمام أحمد ، وأبو داود والترمذى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له اكتب ، فخرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » لفظ أحمد . وقال الترمذى حسن صحيح غريب .

والذى عليه الجمهور — فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره — أن العرش مخلوق قبل ذلك ، وهذا هو الذى رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس كما دل على ذلك الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه . حيث قال : حدثنى أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح ، حدثنا ابن وهب أخبرنى أبو هانىء الخولاني عن أبى عبد الرحمن الجليلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال وعرشه على الماء » قالوا فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المتداير . وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذى كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير . ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم .

ويؤيد هذا ما رواه البخارى عن عمران بن حصين قال : قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ : جئناك لتنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال : « كان الله ولم يكن شيء قبله » وفى رواية معه ،

وفي رواية غيره «وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض» وفي لفظ: «ثم خلق السموات والأرض» فسألوه عن ابتداء خلق السموات والأرض. ولهذا قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الأمر، فأجابهم عما سألوهم فقط، ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رزين المتقدم. قال ابن جرير وقال آخرون: بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش رواه السدي عن أبي مالك. وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: قالوا: إن الله كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء. وحكى ابن جرير عن محمد بن اسحاق أنه قال: أول ما خلق الله عز وجل النور والظلمة ثم ميز بينهما؛ فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلماً، وجعل النور نهراً مضيئاً مبصراً.

قال ابن جرير وقد قيل: إن الذي خلق ربنا بعد القلم الكرسى ثم خلق بعد الكرسى العرش، ثم خلق بعد ذلك الهواء والظلمة، ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل فيما ورد في صفة خلق العرش والكرسى

قال الله تعالى: (رفيع الدرجات ذو العرش^(١)) وقال تعالى: (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم^(٢)) وقال: (وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد^(٣)) وقال تعالى: (الرحمن على العرش استوى^(٤)) وقال: (ثم استوى على العرش) في غير ما آية من القرآن، وقال تعالى: (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً^(٥)) وقال تعالى: (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية^(٦)) وقال تعالى: (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين^(٧))

وفي الدعاء المروي في الصحيح في دعاء الكرب «لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله رب العرش الكريم. لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد حدثني سماك ابن حرب عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن عباس بن عبد المطلب قال كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذا؟ قال: قلنا: السحاب، قال: والمزن؟ قال قلنا: والمزن، قال والعنان؟ قال فسكتنا فقال: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة

(١) الآية ١١٥ من سورة غافر (٢) الآية ١١٦ من سورة المؤمنون (٣) الآيتان ١٤، ١٥ من سورة البروج (٤) الآية ٤ من سورة طه (٥) الآية ٧ من سورة غافر (٦) الآية ١٧ من سورة الحاقة. (٧) آخر سورة الزمر.

سنة ، وكشف كل سماء^(١) مسيرة خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعله كما بين السماء والأرض ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال^(٢) بين ركبين وأظلافهن كما بين السماء والأرض ، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعله كما بين السماء والأرض ، والله فوق ذلك ، وليس ينحني عليه من أعمال بني آدم شيء « هذا لفظ الإمام أحمد . ورواه أبو داود وابن ماجه والترمذى من حديث سماك بإسناده نحوه ، وقال الترمذى هذا حديث حسن . وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك ووقفه . ولفظ أبي داود : « وهل تدرون بعد ما بين السماء والأرض ؟ قالوا لا ندري . قال : « بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتين أو ثلاثة وسبعون سنة » والباقي نحوه .

وقال أبو داود : حدثنا عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن المثني ومحمد بن بشار ، وأحمد بن سعيد الرباطى قالوا : حدثنا وهب بن جرير ، قال أحمد كتبناه من نسخته وهذا لفظه . قال : حدثنا أبي قال سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن يعقوب بن عقبة عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال يا رسول الله جهدت الأنفس وجاعت العيال^(٣) ونهكت الأموال ، وهلكت الأنعام . فاستسقى الله لنا ، فإننا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك ، قال رسول الله ﷺ : « ويحك أتدري ما تقول ؟ » وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه . ثم قال : « ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ويحك ، أتدري ما الله ؟ إن عرشه على سمواته هكذا » وقال بأصابعه مثل القبة عليه ، وإنه ليخط به أطيط الرجل بالراكب . قال ابن بشار في حديثه : « إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته » وساق الحديث . وقال عبد الأعلى وابن المثني وابن بشار عن يعقوب بن عقبة وجبير بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده . قال أبو داود والحديث بإسناد أحمد بن سعيد وهو الصحيح . وافقه عليه جماعة منهم يحيى ابن معين وعلي بن المديني ، ورواه جماعة منهم عن ابن إسحاق كما قال أحمد أيضاً ، وكان سماع عبد الأعلى وابن المثني وابن بشار في نسخة واحدة فيما بلغني . تفرد بإخراجها أبو داود .

وقد صنف الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي جزءاً في الرد على هذا الحديث ، سماه : « بيان الوهم والتخاطب الواقع في حديث الأطيط »^(٤) واستفرغ وسعه في الطعن على محمد بن إسحاق بن بشار راويه . وذكر كلام الناس فيه ، ولكن قد روى هذا اللفظ من طريق أخرى عن غير محمد بن إسحاق ، فرواه عبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما ، وابن أبي عاصم والطبراني في كتابي السنة لهما ،

(١) أي غلظها وثخنها . (٢) جمع وعل : وهو تيس الجبل ، والمراد لائكة على صورة الأوعال ، وهذا ما قيل في تفسير قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . (٣) وفي رواية : وضاعت العيال . (٤) الأطيط : صوت الرجل والإبل من ثقل أحماهما ، وهو أيضاً صوت النع الجديد وصوت الباب .

والبزار في مسنده ، والحافظ الضياء المقدسي في مختاراته من طريق أبي إسحاق السبيعي عن عبد الله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت ادع الله أن يدخلني الجنة ، قال : فعظم الرب تبارك وتعالى وقال : « إن كرسيه وسع السموات والأرض ، وإن له أطيطاً كأطيط الرحل الجديد من ثقله » . عبد الله بن خليفة هذا ليس بذلك المشهور . وفي سماعه من عمر نظر ، ثم منهم من يرويه موقوفاً ومرسلاً ، ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة والله أعلم .

وثبت في صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا سألتم الله الجنة فسلوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن » . يروى وفوقه بالفتح على الظرفية ، وبالضم . قال شيخنا الحافظ المزى وهو أحسن ، أى وأعلىها عرش الرحمن . وقد جاء في بعض الآثار : أن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش وهو تسبيحه وتعظيمه ، وماذا إلا لقرابهم منه . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » ، وذكر الحافظ بن الحافظ محمد بن عثمان ابن أبى شينة في كتاب صفة العرش عن بعض السلف : أن العرش مخلوق من ياقوتة حمراء بعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة . وذكرنا عند قوله تعالى : (تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة^(١)) أنه بعد ما بين العرش إلى الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة واتساعه خمسون ألف سنة .

وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ، ولذا سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس والأثير . وهذا ليس بجيد لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة ، والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل . وأيضاً فإنه فوق الجنة والجنة فوق السموات وفيها مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فالبعد الذى بينه وبين الكرسي ليس هو نسبة فلك إلى فلك . وأيضاً فإن العرش في اللغة عبارة عن السرير الذى للملك كما قال تعالى : (ولها عرش عظيم) ، وليس هو فلكاً ولا تفهم منه العرب ذلك ، والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالتبة على العالم وهو سقف المخلوقات . قال الله تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا^(٢)) وقد تقدم في حديث الأوعال أنهم ثمانية ، وفوق ظهورهن العرش ، وقال تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية^(٣)) .

وقال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حاملك بعد علمك . وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك » .

(١) الآية ٤ من سورة المعارج (٢) الآية ٧ من سورة غافر (٣) الآية ١٧ من سورة الحاقة .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد ، حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عقبة عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ صدق أمية يعني ابن أبي الصلت في بيتين من شعره فقال :

رَجُلٌ وَثُورٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى وَلِيْثٌ مَرصِدٌ
فقال رسول الله ﷺ : « صدق » . فقال :

وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ حَمْرَاءُ مَطْلَعُ لَوْنِهَا مَتورد
تَأبَى فَلَآ تَبْدُو لَنَا فِي رَسْلِهَا إِلَّا مَعذِبَةٌ وَإِلَّا تَجَلدٌ

فقال رسول الله ﷺ « صدق » - فإنه حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات . وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة ، فيعارضه حديث الأوعال . اللهم إلا أن يقال إن إثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لا ينفى ما عداهم ، والله أعلم . ومن شعر أمية بن أبي الصلت في العرش قوله :

مَجْدُوا اللَّهَ فَهُوَ لَهُ جَدُّ أَهْلِ رَبَّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرا
بِالْبِنَاءِ الْعَالَى الَّذِى بِهِرِ النَّاسِ وَسَوْى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرا
شَرْجَعًا لَا يَنْالُهُ بَصَرُ الْعِيَانِ تَرَى حَوْلَهُ الْمَلَائِكَةَ صُورا

صور : جمع أصور ، وهو المائل العنق لنظره إلى العلو . والشرجع : هو العالى المنيف ، والسرير : هو العرش فى اللغة . ومن شعر عبد الله بن رواحة رضى الله عنه الذى عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمتہ بجاريته :

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ مِثْوَى الْكَافِرِينَا
وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٌ وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا
وَتَحْمَلُهُ مَلَائِكَةٌ كَرَامٌ مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مَسْومِينَا

ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأُمَّةِ .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله حدثنى أبى حدثنا إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال : « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » . ورواه ابن أبي عاصم^(١) ولفظه مخفق الطير مسيرة سبعمائة عام .

(١) وفى نسخة : ابن أبي حاتم .

وأما الكرسي

فروى ابن جرير من طريق جويبر وهو ضعيف - عن الحسن البصرى أنه كان يقول : الكرسي هو العرش ، وهذا لا يصح عن الحسن ، بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره ، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالوا في قوله تعالى : (وسع كرسيه السموات والأرض) أى علمه ، والمحفوظ عن ابن عباس كما رواه الحاكم في مستدركه ، وقال إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من طريق سفيان الثوري عن عمار الدهنى عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل . وقد رواه شجاع بن مخلد الفلاس في تفسيره عن أبي عاصم النبيل عن الثوري فجعله مرفوعاً والصواب أنه موقوف على ابن عباس . وحكاها ابن جرير عن أبي موسى الأشعري والضحاك بن مزاحم وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير ومسلم البطين . وقال السدى عن أبي مالك : الكرسي تحت العرش . وقال السدى : السموات والأرض في جوف الكرسي والكرسي بين يدي العرش ، وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال : لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ، ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المغازة .

وقال ابن جرير : حدثني يونس حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد حدثني أبي قال : قال رسول الله ﷺ : « ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس » قال : وقال أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ﷺ يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض » أول الحديث مرسل ، وعن أبي ذر منقطع .

وقد روى عنه من طريق أخرى موصولاً فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره : أخبرنا سليمان ابن أحمد الطبراني ، أنبأنا عبد الله بن وهيب المغربي ، أنبأنا محمد بن أبي سري العسقلاني ، أنبأنا محمد بن عبد الله التميمي عن القاسم بن محمد الثقفي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكرسي ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » .

وقال ابن جرير في تاريخه : حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبي عن سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس عن قوله عز وجل : (وكان عرشه على الماء) على أى شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح ، قال والسموات والأرضون وكل ما فيهن من شيء تحيط بها

البحار ويحيط بذلك كله الهيكل ، ويحيط بالهيكل فيما قيل الكرسي . وروى عن وهب بن منبه نحوه ، وفسر وهب الهيكل فقال : شيء من أطراف السموات يمدق بالأرضين والبحار كأطناب^(١) الفسطاط . وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة - أن الكرسي عبارة عن الفلك الثامن الذي يسمونه فلك الكواكب الثوابت . وفيما زعموه نظر ؛ لأنه قد ثبت أنه أعظم من السموات السبع بشيء كثير ، وورد في الحديث المتقدم بأن نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة ، وهذا ليس نسبة فلك إلى فلك . فإن قال قائلهم فنحن : نعرف بذلك ونسميه مع ذلك فلنكافئقول : الكرسي ليس في اللغة عبارة عن الفلك وإنما هو كما قال غير واحد من السلف - بين يدي العرش كالمراة إليه ، ومثل هذا لا يكون فلنكافئ . وزعم أن الكواكب الثوابت مرصعة فيه لا دليل لهم عليه . هذا مع اختلافهم في ذلك أيضاً كما هو مقرر في كتبهم والله أعلم .

ذكر اللوح المحفوظ

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني ، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال : « إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء صفحتها من ياقوتة حمراء ، قلبه نور وكتابه نور ، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة ، يخلق ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويعزل ويذل ، ويفعل ما يشاء » . وقال إسحاق بن بشر أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده ، دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله - أدخله الجنة . قال : واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافته الدر والياقوت ، ودفناه ياقوتة حمراء ، وقلبه نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله في حجر ملك . وقال أنس بن مالك ، وغيره من السلف : اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل . وقال مقاتل : هو عن يمين العرش .

باب ما ورد في خلق السموات والأرض وما بينهما

قال الله تعالى : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا برهم يعدلون^(٢)) وقال تعالى : (خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام^(٣)) في غير ما آية من القرآن . وقد اختلف المفسرون في مقدار هذه الستة الأيام على قولين : فالجمهور على أنها كأيامنا هذه . وعن

(١) جمع طناب : وهو جبل تشد به الخيمة .

(٢) أول سورة الأنعام (٣) الآية ٤ من سورة السجدة .

ابن عباس ومجاهد والضحاك وكعب الأحبار : أن كل يوم منها كآلف سنة مما تعدون ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . واختار هذا القول الإمام أحمد بن حنبل في كتابه الذي رد فيه على الجهمية ، وابن جرير وطائفة من المتأخرين والله أعلم . وسيأتى ما يدل على هذا القول . وروى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم وغيره — أن أسماء الأيام الستة : أبجد هوّز حُطى كَلَمَن سَعَفَص قَرَشَتْ . وحكى ابن جرير في أول الأيام ثلاثة أقوال : فروى عن محمد بن إسحاق أنه قال : يقول أهل التوراة ابتداء الله الخلق يوم الأحد ، ويقول أهل الإنجيل : ابتداء الله الخلق يوم الاثنين ، ونقول نحن المسلمون فيما انتهى إلينا عن رسول الله ﷺ : «ابتداء الخلق يوم السبت» . وهذا القول الذي حكاه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم . وسيأتى فيه حديث أبي هريرة : «خلق الله التربة يوم السبت» والقول بأنه الأحد رواه ابن جرير عن السدي عن أبي مالك ، وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن جماعة من الصحابة ، ورواه أيضاً عن عبد الله بن سلام ، واختاره ابن جرير ، وهو نص التوراة . ومال إليه طائفة آخرون من الفقهاء ، وهو أشبه بلفظ الأحد ، ولهذا كمل الخلق في ستة أيام فكان آخرهن الجمعة فاتخذوه المسلمون عيدهم في الأسبوع وهو اليوم الذي أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتى بيانه إن شاء الله .

وقال تعالى : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم ^(١)) وقال تعالى : (قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ^(٢)) .

فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء ، كما قال تعالى : (الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فباركوا لله رب العالمين) ^(٣) وقال تعالى : (ألم نجعل الأرض مهاداً والجببال أوتاداً) إلى أن قال : (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً * وجعلنا سراجاً وهاجاً) ^(٤) وقال : (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض

(١) الآية ٢٩ من سورة البقرة (٢) الآيات ٩ — ١٢ من سورة فصلت .

(٣) الآية ٦٤ من سورة غافر (٤) الآيات ٦ — ١٣ من سورة عم يقساء لون

كانتا رتقاً ففتقناها وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون^(١)) أى فصلنا ما بين السماء والأرض حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار ، وجرت العيون والأنهار ، وانتعش الحيوان . ثم قال : (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون) أى عما خلق فيها من الكواكب الثوابت ، والسيارات الزاهرات والأجرام النيرات ، وما فى ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسموات كما قال تعالى : (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)^(٢) .

فأما قوله تعالى : (أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحائها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم)^(٣) فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية الكريمة ، فإن مقتضى هذه الآية أن دحى الأرض وإخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء . وقد كان ذلك مقدراً فيها بالقوة كما قال تعالى : (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها)^(٤) أى هياً أما كن الزرع ومواضع العيون والأنهار .

ثم لما أكمل خالق صورة العالم السفلى والعلوى ، دحى الأرض فأخرج منها ما كان مودعاً فيها ، فخرجت العيون وجرت الأنهار ، ونبت الزرع والثمار ، ولهذا فسر الدحى بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال فقال : (والأرض بعد ذلك دحائها * أخرج منها ماءها ومرعاها) ، وقوله : (والجبال أرساها) أى قررهما فى أماكنها التى وضعها فيها وثبتها وأكدها وأطدها ، وقوله : (والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون * ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)^(٥) بأيدٍ : أى بقوة ، وإنا لموسعون : وذلك أن كل ماعلا اتسع ، فكل سماء أعلى من التى تحتها فهى أوسع منها . ولهذا كان الكرسى أعلى من السموات ، وهو أوسع منهن كلهن ، والعرش أعظم من ذلك كله بكثير . وقوله بعد هذا : (والأرض فرشناها) أى بسطناها وجعلناها مهداً أى قارة ساكنة غير مضطربة ولا مائتة بكم . ولهذا قال : (فنعم الماهدون) والواو لاتقتضى الترتيب فى الوقوع ، وإنما تقتضى الإخبار المطلق فى اللغة ، والله أعلم .

وقال البخارى : حدثنا عمر بن جعفر بن غياث حدثنا أبى حدثنا الأعمش حدثنا جامع بن شداد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن حصين قال : دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتى بالباب

(١) الآية : ٣٠ من سورة الأنبياء (٢) الآيات : ١٠٥ و ١٠٦ من سورة يوسف (٣) الآيات : ٢٧ — ٣٢ من سورة النازعات (٤) الآية : ١٠ من سورة فصلت (٥) الآيات : ٤٧ — ٤٩ من سورة الذاريات .
(٣ — بداية — أول)

فأتاه ناس من بنى تميم فقال : « اقبلوا البشرى يا بنى تميم » قالوا قد بشرتنا فأعطينا مرتين ، ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال : « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إن لم يقبلها بنى تميم » قالوا قد قبلنا يارسول الله ، قالوا جئناك نسألك عن هذا الأمر . قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض » فنادى مناد ذهب ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فإذا هي تقطع دونها السراب ، فوالله لو ددت أنى كنت تركتها ، هكذا رواه ها هنا . وقد رواه في كتاب المغازى وكتاب التوحيد وفي بعض ألفاظه : « ثم خلق السموات والأرض » وهو لفظ النسائي أيضاً .

وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا حجاج حدثني ابن جريج أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب ابن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ، آخر خلق خلق في آخر ساعات من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » .

وهكذا رواه مسلم عن سريج بن يونس وهرورث بن عبد الله والنسائي عن هرون ويوسف بن سعيد ثلاثتهم عن حجاج بن محمد المصيصي الأعور عن ابن جريج به مثله سواء .

وقد رواه النسائي في التفسير عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني عن محمد بن الصباح عن أبي عبيدة الحداد عن الأخضر بن مجلان عن ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال : « يا أبا هريرة إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش يوم السابع ، وخلق التربة يوم السبت » وذكر تمامه بنحوه ، فقد اختلف فيه على ابن جريج ، وقد تكلم في هذا الحديث على ابن المديني والبخاري والبيهقي وغيرهم من الحفاظ .

قال البخاري في التاريخ : وقال بعضهم عن كعب وهو أصح ، يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة وتلقاه من كعب الأبحار فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث ، فهذا يحدثه عن صحفه ، وهذا يحدثه بما يصدقه عن النبي ﷺ ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه ، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، وأكدر رفعه بقوله : أخذ رسول الله ﷺ بيدي . ثم في متنه غرابة شديدة : فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات ، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام ، وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ، ثم خلقت السموات في يومين من دخان^(١) ؛ وهو بخار الماء الذي ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من ربة الأرض^(٢)

(١) اقرأ من سور فصلت : الآيات من ١٠ - ١٣ من قوله تعالى : (قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين

— ذلك تقدير العزيز العليم) . (٢) كل قدر فيها .

بالقدرة العظيمة البالغة كما قال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في خبر ذكره عن أبي مالك ،

وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ (هو الذي خالق لكم مافي الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) قال إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسماه عليه فسماه سماء ، ثم أيدس الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فتقها فجعل سبع أرضين في يومين : الأحد والاثنين ، وخلق الأرض على حوت وهو النون الذي قال الله تعالى فيه : (ن والقلم وما يسطرون) والحوت في الماء ، والماء على صفاة ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة في الريح . وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض ، فتتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسي عليها الجبال فقمرت . وخلق الله يوم الثلاثاء الجبال وما فيها من المنافع ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب ، وفتق السماء وكانت رتقاً^(١) فجعلها سبع سموات في يومين : الخميس والجمعة .

وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض وأوحى في كل سماء أمرها . ثم قال : خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد وما لا يعلمه غيره ، ثم زين السماء بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً يحفظ من الشياطين ، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش .

هذا الإسناد يذكر به السدي أشياء كثيرة فيها غرابة ، وكان كثير منها متلقى من الإسرائيليات ، فإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفاً له ، وتعجباً ، مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر ، فاستجاز كثير من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا ، ولما جاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل . لكن كثيراً ما يقع مما يرويه غلط كبير وخطأ كثير .

وقد روى البخارى في صحيحه عن معاوية أنه كان يقول في كعب الأحبار : « وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب^(٢) » أى فيما ينقله لا أنه يتعمد ذلك والله أعلم .

ونحن نورد ما نورد من الذى يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين عنهم ، ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ، ويبقى الباقي مما لا يصدق ولا يكذب ، وبه المستعان وعليه التكلان .

(١) ملتزمة ملتصقة . (٢) كان معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : « إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب » .

قال البخارى^(١) : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشى عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتى غلبت غضبى » وكذا رواه مسلم والنسائي عن قتيبة به . ثم قال البخارى :

باب ماجاء فى سبع أرضين

وقوله تعالى : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شىء قدير * وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً) ثم قال^(٢) حدثنا على بن عبد الله أخبرنا ابن علية عن على بن المبارك حدثنا يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وكانت بينه وبين أناس خصومة فى أرض ، فدخل على عائشة فذكر لها ذلك ، فقالت : يا أبا سلمة اجتنب الأرض ، فإن رسول الله ﷺ قال : « من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين » .

ورواه أيضاً فى كتاب المظالم ومسلم من طرق عن يحيى بن كثير به . ورواه أحمد من حديث محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة به ، ورواه أيضاً عن يونس عن أبان عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عائشة بمثله .

ثم قال البخارى : حدثنا بشر بن محمد قال أخبرنا عبد الله عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال : قال النبي ﷺ : « من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه حُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين » ، ورواه فى المظالم أيضاً عن مسلم بن إبراهيم عن عبد الله بن المبارك عن موسى بن عقبة به وهو من إفراده وذكر البخارى ها هنا حديث محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ، قال قال رسول الله ﷺ : « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً . . . الحديث^(٣) » . ومراده والله أعلم تقرير قوله تعالى : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أى فى العدد ، كما أن عدة الشهور الآن اثنا عشر مطابقة لعدة الشهور عند الله فى كتابه الأول ، فهذه مطابقة فى الزمان كما أن تلك مطابقة فى المكان .

ثم قال البخارى : حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن سعيد بن زيد ابن عمر بن نفييل أنه خاصمته أروى^(٤) فى حق زعمت أنه انتقصه لها إلى مروان ، فقال سعيد رضى الله

(١) هذا الحديث وما بعده فى البخارى فى كتاب بدء الخلق .

(٢) أى البخارى .

(٣) تمامه : منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بن جمادى وشعبان .

(٤) هى بنت أويس ، ولا يدري أصحابية هى أم تابعة ؟ .

عنه : أنا أنتقص من حقها شيئاً؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أخذ شبراً من الأرض ظالماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عبد الله بن لبيعة حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبي عبد الرحمن عن ابن مسعود قال : « قلت يا رسول الله أى الظلم أعظم ؟ قال : « ذراع من الأرض ينتقصه المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذى خالقها » تفرد به أحمد وهذا إسناد لا بأس به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوقه من سبع أرضين » تفرد به من هذا الوجه وهو على شرط مسلم . وقال أحمد حدثنا يحيى عن ابن مجلان حدثني أبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من اقتطع شبراً من الأرض بغير حقه طوقه إلى سبع أرضين » تفرد به أيضاً وهو على شرط مسلم . وقال أحمد أيضاً : حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه طوقه من سبع أرضين » تفرد به أيضاً . وقد رواه الطبراني من حديث معاوية بن قرة عن ابن عباس مرفوعاً مثله .

فهذه الأحاديث كالماتورة في إثبات سبع أرضين ، والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى والتي تحتها في وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهى الأمر إلى السابعة وهى صماء لاجوف لها ، وفى وسطها المركز وهى نقطة مقدره متوهمة وهو محط الأتقال ، إليه ينتهى ما يهبط من كل جانب إذا لم يعاوقه مانع .

واختلفوا هل هن مترامكات بلا تفصل أو بين كل واحدة والتي تليها خلاء؟ على قولين ، وهذا الخلاف جار فى الأفلاك أيضاً ، والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة ، لظاهر قوله تعالى : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثاهن يتنزل الأمر بينهما)^(١) الآية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا شريح حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ مررت سحابة فقال : « أندرون ماهذه ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : العنان^(٢) وزوايا الأرض تسوقه إلى من لا يشكرونه من عباده ولا يدعونه أندرون ماهذه فوقكم ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : الرفيع موج مكفوف وسقف محفوظ ، أندرون كم بينكم وبينها ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال : أندرون ما الذى فوقها ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال : مسيرة خمسمائة عام حتى عد سبع سموات . ثم قال : أندرون ما فوق ذلك ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ؟ قال : العرش ،

(١) آخر سورة الطلاق . (٢) هى السحاب التي تمسك الماء .

أندرون كم بينه وبين السماء السابعة؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: مسيرة خمسمائة عام. ثم قال: أندرون ما هذه تحتكم؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: أرض، أندرون ماتحتها؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: أرض أخرى، أندرون كم بينهما؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: مسيرة سبعمائة عام حتى عد سبع أرضين، ثم قال: وأيم الله لو دليتم أحدكم إلى الأرض السفلى السابعة لهبط « ثم قرأ: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) ورواه الترمذى عن عبد بن حميد، وغير واحد عن يونس بن محمد المؤدب عن شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة، قال: حدث الحسن عن أبي هريرة وذكره، إلا أنه ذكر أن بعد ما بين كل أرضين خمسمائة عام، وذكر في آخره كلمة^(١) ذكرناها عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد، ثم قال الترمذى هذا حديث غريب من هذا الوجه.

قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد أنهم قالوا لم يسمع الحسن من أبي هريرة. ورواه أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي جعفر الرازى عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة فذكر مثل لفظ الترمذى سواء بدون زيادة في آخره. ورواه ابن جرير في تفسيره عن بشر عن يزيد عن سعيد بن أبي عمرو عن قتادة مرسلًا، وقد يكون هذا أشبه والله أعلم. ورواه الحافظ أبو بكر البزار والبيهقى من حديث أبي ذر الغفارى عن النبي ﷺ ولكن لا يصح إسناده والله أعلم. وقد تقدم عند صفة العرش من حديث الأوعال ما يخالف هذا في ارتفاع العرش عن السماء السابعة وما يشهد له، وفيه: و بعد ما بين كل سماءين خمسمائة عام، وكثفها — أى سمكها — خمسمائة عام. وأما ما ذهب إليه بعض المتكلمين على حديث: «طوقه من سبع أرضين» — أنها سبعة أقاليم فهو قول يخالف ظاهر الآية والحديث الصحيح، وصرح كثير من ألقاظه مما يعتمد من الحديث الذى أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة. ثم إنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل والله أعلم.

وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والى تحتها من حديد، والأخرى من حجارة من كبريت، والأخرى من كذا. فكل هذا إذا لم يخبر به ويصح سنده إلى معصوم — فهو مردود على قائله. وهكذا الأثر المروى عن ابن عباس أنه قال: فى كل أرض من الخلق مثل ما فى هذه حتى آدم كآدمكم وإبراهيم كإبراهيمكم — فهذا ذكره ابن جرير مختصراً واستقصاه البيهقى فى الأسماء والصفات، وهو محمول — إن صح نقله عنه — على أنه أخذه ابن عباس رضى الله عنه عن الإسرائيليات والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد نخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت،

(١) نصها «والذى نفس محمد بيده لو أنسكم دليتم رجلاً بجبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ثم قرأ هو الأول والآخر الخ».

فتعجبت الملائكة من خلق الجبال ، فقالت يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد ، قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال نعم النار ، قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم الريح ، قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله « تفرد به أحمد .

وقد ذكر أصحاب الهيئة أعداد جبال الأرض في سائر بقاعها شرقاً وغرباً ، وذكروا طولها وبعدها وامتدادها وارتفاعها وأوسعوا القول في ذلك بما يطول شرحه هنا . وقد قال الله تعالى : (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود)^(١) . قال ابن عباس وغير واحد : الجدد : الطرائق ، وقال عكرمة وغيره : الغرايب الجبال الطوال السود . وهذا هو المشاهد الجبال في سائر الأرض ، تختلف باختلاف بقاعها وألوانها . وقد ذكر الله تعالى في كتابه : (الجودي) على التعيين وهو جبل عظيم شرقي جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة عند الموصل ، امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام ، وارتفاعه مسيرة نصف يوم ، وهو أخضر لأن فيه شجراً من البلوط ، وإلى جانبه قرية يقال لها قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام في موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسرين ، والله أعلم .

فصل في البحار والأنهار

قال الله تعالى : (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون * أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون * وإن تعدوا نعمت الله لاتحصوها إن الله لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٢) ، وقال تعالى : (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا مالح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)^(٣) وقال تعالى : (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا مالح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً)^(٤) ، وقال تعالى : (مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان)^(٥) فالمراد بالبحرين البحر المالح المر وهو الأجاج ، والبحر العذب هو هذه الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار لمصالح العباد ، قاله ابن جريج وغير واحد من الأئمة ، وقال تعالى : (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور * أو يوبقهن بما كسبنوا ويعفو عن كثير)^(٦) ، وقال تعالى : (ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله ليريكم

(٢) الآيات ١٤ - ١٨ من سورة النحل .

(٤) الآية ٥٣ من سورة الفرقان .

(٦) الآيات ٣٢ - ٣٤ من سورة الشورى .

(١) الآية ٢٧ من سورة فاطر

(٣) الآية ١٢ من سورة فاطر

(٥) الآيتان ١٩ - ٢٠ من سورة الرحمن

من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور * وإذا غشيهم موج كالأظلال دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فهمهم مقتصد وما يمجّد بآياتنا إلا كل ختال كفور (١) ، وقال تعالى : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) (٢) . فامتّن تعالى على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار . فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض وما ينبت منه في جوانبها الجميع مالح الطعم مر ، وفي هذا حكمة عظيمة لصحة الهواء ، إذ لو كان حلواً لأنّ الجوففسد الهواء بسبب ما يموت فيه من الحيوانات ، فكان يؤدي إلى تغاني بني آدم ، ولكن اقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة ، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن البحر قال : « هو الظهور ماؤه الخل ميتته » .

وأما الأنهار فمأؤها حلوة عذب فرات سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، وجعلها جارية سارحة ينبعها تعالى في أرض ويسوقها إلى أخرى رزقاً للعباد ، ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصاحبة . وقد تكلم أصحاب علم الهيئة والتفسير على تعداد البحار والأنهار الكبار وأصول منابعتها ، وإلى أين ينتهي سيرها — بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى وأنه فاعل بالاختيار والحكمة . وقوله تعالى : (والبحر المسجور) فيه قولان : أحدهما أن المراد به البحر الذي تحت العرش المذكور في حديث الأوعال ، وأنه فوق السموات السبع ، بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء ، وهو الذي ينزل منه المطر قبل البعث فتحيا منه الأجساد من قبورها . وهذا القول هو اختيار الربيع بن أنس . والثاني أن البحر اسم جنس يم سائر البحار التي في الأرض وهو قول الجمهور .

واختلفوا في معنى البحر المسجور : فقيل المملوء ، وقيل يصير يوم القيامة ناراً تؤجج فيحيط بأهل الموقف كما ذكرناه في التفسير عن علي وابن عباس وسعيد بن جبير وابن مجاهد وغيرهم . وقيل : المراد به المنوع المكفوف الحروس عن أن يطفئ فيغمر الأرض ومن عليها فيغرقوا ، رواه الواجب عن ابن عباس وهو قول السدي وغيره . ويؤيده الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا العوام حدثني شيخ كان مرابطاً بالساحل قال : لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله عز وجل أن يتفصح (٣) عليهم ، فيكفه الله عز وجل » . ورواه إسحاق بن راهويه عن يزيد بن هرون عن العوام بن حوشب ، حدثني شيخ مرابط قال : خرجت ليلة لمحرس لم يخرج أحد من المحرس غيري ، فأتيت الميناء فصعدت فجعل يخيل إلى أن البحر يشرف يحاذي برءوس الجبال ، فعل ذلك مراراً وأنا مستيقظ فلقيت

(١) الآيتان : ٣١ و ٣٢ من سورة لقمان (٢) الآية : ١٦٤ من سورة البقرة (٣) أي يتكلم ويفصح .

أبا صالح فقال : حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : « مامن ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات يستأذن الله أن يتفصح عليهم فيكفه الله عز وجل » في إسناده رجل مبهم^(١) والله أعلم .
وهذا من نعمه تعالى على عباده أن كف شر البحر عن أن يطغى عليهم ، و سخره لهم يحمل سراكبهم ليلبغوا عليها إلى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها ، وهداهم فيه بما خلقه في السماء والأرض من النجوم والجبال التي جعلها لهم علامات يهتدون بها في سيرهم ، وبما خلق لهم فيه من الآلىء والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التي لا توجد إلا فيه ، وبما خلق فيه من الدواب الغريبة وأهلها لهم حتى ميقتها كما قال تعالى : (أحل لكم صيد البحر وطعامه)^(٢) ، وقال النبي ﷺ : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » .
وفي الحديث الآخر : « أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال » رواه أحمد وابن ماجه وفي إسناده نظر .

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : وجدت في كتاب عن محمد بن معاوية البغدادي ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه قال : « كلم الله هذا البحر الغربي ، وكلم البحر الشرقي ، فقال للغربي : إني حامل فيك عباداً من عبادي فكيف أنت صانع بهم ؟ قال أغرقهم ، قال بأسك في نواحيك وحرمة الحلية والصيد . وكلم هذا البحر الشرقي فقال : إني حامل فيك عباداً من عبادي فما أنت صانع بهم ؟ قال أحلهم على يدي ، وأكون لهم كالوالدة لولدها ، فأتابه الحلية والصيد » ، ثم قال : لا نعلم أحداً ، مارواه عن سهيل إلا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر وهو منكر الحديث .

قال : وقد رواه سهيل عن عبد الرحمن بن أبي عيش عن عبد الله بن عمرو موقوفاً . قلت الموقوف على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبه ؛ فإنه قد كان وجد يوم اليرموك زيبيلين^(٣) مملوءين كتباً من علوم أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات ، منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود . فأما المعروف فتفرد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدني قاضيها . قال فيه الإمام أحمد ليس بشيء ، وقد سمعته منه ثم مزقت حديثه ، كان كذاباً وأحاديثه مناكير . وكذا ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والجوزجاني والبخاري وأبو داود والنسائي ، وقال ابن عدى : عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر .

قال علماء التفسير المتكلمون على العروض والأطوال والبحار والأنهار والجبال والمساحات ، وما في الأرض من المدن والخراب والعمارات ، والأقاليم السبعة الحقيقية في اصطلاحهم ، والأقاليم المتعددة العرفية

(١) في نسخة : متهم . (٢) الآية : ٩٦ من سورة المائدة . (٣) الزبيل : التفة أو الجراب أو الوعاء .

ومافى البلدان والأقاليم من الخواص والنباتات ، وما يوجد فى كل قطر من صنوف المعادن والتجارات ، قالوا الأرض مغمورة بالماء العظيم إلامقدار الربع منها وهو تسعون درجة ، والعناية الإلهية اقتضت انحسار الماء عن هذا القدر منها لتعيش الحيوانات عليها وتنبت الزروع والثمار منها كما قال تعالى : (والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأى آلاء ربكما تكذبان^(١)) . قالوا : المعمور من هذا البادى منها — قريب الثلاثين منه أو أكثر قليلا ، وهو خمس وتسعون درجة . قالوا فالبحر المحيط الغربى — ويقال له أوقيانوس وهو الذى يتأخم بلاد المغرب وفيه الجزر الخالدات ، وبينها وبين ساحله عشر درج مسافة شهر تقريبا ، وهو بحر لا يمكن سلوكه ولا ركوبه لكثرة موجه واختلاف مافيه من الرياح والأمواج ، وليس فيه صيد ولا يستخرج منه شئ ، ولا يسافر فيه لمتجر ولا لغيره ، وهو أخذ فى ناحية الجنوب حتى يسامت الجبال القمر ، ويقال جبال القمر التى منها أصل منبع نيل مصر ويتجاوز خط الاستواء . ثم يمتد شرقا ويصير جنوبى الأرض ، وفيه هناك جزر الزايج وعلى سواحله خراب كثير . ثم يمتد شرقا وشمالا حتى يتصل ببحر الصين والهند . ثم يمتد شرقا حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة ، وهناك بلاد الصين . ثم يعطف فى شرق الصين إلى جهة الشمال حتى يجاوز بلاد الصين ، ويسامت سد بأجوج ومأجوج . ثم يعطف ويستدير على أراضى غير معلومة الأحوال . ثم يمتد مغربا فى شمال الأرض ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها ، ويعطف مغربا وجنوبا ويستدير على الأرض ويعود إلى جهة الغرب ، وينبثق من الغربى إلى متن الأرض الزقاق الذى ينتهى أفضاء إلى أطراف الشام من الغرب ، ثم يأخذ فى بلاد الروم حتى يتصل بالقسطنطينية وغيرها من بلادهم .

وينبعث من المحيط الشرقى بحار آخر فيها جزائر كثيرة ، حتى إنه يقال إن فى بحر الهند ألف جزيرة وسبعمائة جزيرة ، فيها مدن وعمارات سوى الجزائر العاطلة ، ويقال لها البحر الأخضر ، فشرقيه بحر الصين وغربيه بحر اليمن ، وشماله بحر الهند ، وجنوبيه غير معلوم .

وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبالا فاصلة بينهما ، وفيها فجاج تسلك المراكب بينها ، يسيرها لهم الذى خلقها ، كما جعل مثلها فى البر أيضا قال الله تعالى : (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلمهم يهتدون^(٢)) .

وقد ذكر بطليموس أحد ملوك الهند فى كتابه المسمى بالمجسطى الذى عرب فى زمان المأمون — وهو أصل هذه العلوم — أن البحار المتفجرة من المحيط الغربى والشرقى والجنوبى والشمالى كثيرة جدا ؛ فمنها ماهو واحد ، ولكن يسمى بحسب البلاد المتاخمة له ؛ فن ذلك بحر القلزم — والقلزم قرية على ساحله قريبة من أيلة ، وبحر فارس وبحر الخزر وبحر ورنك وبحر الروم ، وبحر بنطش وبحر الأزرق مدينة

على ساحله وهو بحر القرم أيضاً ، ويتضايق حتى يصب في بحر الروم عند جنوبي القسطنطينية وهو خليج القسطنطينية ، ولهذا تسرع المراكب في سيرها من القرم إلى بحر الروم ، وتبطن إذا جاءت من الإسكندرية إلى القرم لاستقبالها جريان الماء . وهذا من العجائب في الدنيا ، فإن كل ماء جار فهو حلو إلا هذا ، وكل بحر راكد فهو ملح أجاج ، إلا ما يذكر عن بحر الخزر وهو بحر جرجان وبحر طبرستان — أن فيه قطعة كبيرة ماء حلوّاً فراتاً على ما أخبر به المسافرون عنه .

قال أهل الهيئة : وهو بحر مستدير الشكل إلى الطول . وقيل : إنه مثلث كالقلمع وليس هو متصلاً بشيء من البحر المحيط بل منفرد وحده ، وطوله ثمانمائة ميل وعرضه ستائة ، وقيل أكثر من ذلك والله أعلم .

ومن ذلك البحر الذي يخرج منه المد والجزر عند البصرة ، وفي بلاد المغرب نظيره أيضاً يتزايد الماء من أول الشهر ولا يزال في زيادة إلى تمام الليلة الرابعة عشر منه وهو المد ، ثم يشرع في النقص وهو الجزر إلى آخر الشهر . وقد ذكروا تحديد هذه البحار ومبتدأها ومنتهاها ، وذكروا مافي الأرض من البحيرات المجتمعة من الأنهار وغيرها من السيول وهي البطائح .

وذكروا مافي الأرض من الأنهار المشهورة الكبار ، وذكروا ابتداءها وانتهاءها ، ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه ، وإنما نتكلم على ما يتعلق بالأنهار الوارد ذكرها في الحديث . وقد قال الله تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظالم كفار^(١)) . ففي الصحيحين من طريق قتادة عن أس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ لما ذكر سدرة المنتهى قال : « فإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران ؛ فأما الباطنان : ففي الجنة ، وأما الظاهران : فالنيل والفرات » . وفي لفظ في البخاري وعنصرهما أي مادتهما أو شكلهما وعلى صفتها ونعتهما وليس ، في الدنيا مما في الجنة إلا سماوية . وفي صحيح مسلم من حديث عبيد الله بن عمر عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ويزيد أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « فجرت أربعة أنهار من الجنة : الفرات والنيل وسيحان وجيحان » وهذا إسناد

صحيح على شرط مسلم . وكان المراد والله أعلم من هذا أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة في صفاتها وعذوبتها وجريانها ، ومن جنس تلك في هذه الصفات ونحوها ، كما قال في الحديث الآخر الذي رواه الترمذى وصححه من طريق سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم » أى تشبه ثمر الجنة لأنها مجتناة من الجنة ، فإن الحس يشهد بخلاف ذلك ، فتعين أن المراد غيره وكذا قوله ﷺ : « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » . وكذا قوله : « إذا اشتدت الحمى فأبردوها بالماء فإن شدة الحر من فيح جهنم » * وهكذا هذه الأنهار أصل منبعها مشاهد من الأرض .

أما النيل : وهو النهر الذى ليس فى أنهار الدنيا له نظير فى خفته ولطافته ، وبعد مسراه فيما بين مبتداه إلى منتهاه — فمبتداه من الجبال القمر أى البيض ، ومنهم من يقول : جبال القمر بالإضافة إلى الكواكب وهى فى غربى الأرض وراء خط الاستواء إلى الجانب الجنوبى . ويقال إنها حمر ينبع من بينها عيون ، ثم يجتمع من عشر مسيلات متباعدة ، ثم يجتمع كل خمسة منها فى بحر ، ثم يخرج منها أنهار ستة ، ثم تجتمع كلها فى بحيرة أخرى ، ثم يخرج منها نهر واحد هو النيل فيمر على بلاد السودان والحبشة ، ثم على النوبة ومدينتها العظمى دمقلة^(١) ، ثم على أسوان ثم يفد على ديار مصر . وقد تحمل إليها من بلاد الحبشة زيادات أمطارها واجترف من ترابها ، وهى محتاجة إليهما معاً لأن مطرها قليل لا يكفى زروعها وأشجارها ، وتربها رمال لا تنبت شيئاً حتى يحيى النيل زيادته وطينه فينبت فيه ما يحتاجون إليه وهى من أحق الأراضي بدخولها فى قوله تعالى : (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون)^(٢) ، ثم يجاوز النيل مصر قليلاً فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه يقال لها شطنوف ؛ فيمر الغربى على رشيد ويصب فى البحر ، المالح ، وأما الشرقى فيفترق أيضاً عند جوجر فرقتين ، تمر الغربية منهما على دمياط من غربها ويصب فى البحر والشرقية منهما تمر على « أشمون طنح » فيصب هناك فى بحيرة شرق دمياط يقال لها بحيرة تينس وبحيرة دمياط . وهذا بعد عظيم فيما بين مبتداه إلى منتهاه ، ولهذا كان أنطف المياه .

قال ابن سينا له خصوصيات دون مياه سائر الأرض ، فمنها : أنه أبعدها مسافة من مجراه إلى أقصاه ومنها : أنه يجرى على صخور ورمال ليس فيه ختر^(٣) ولا طحاب ولا أوحال ، ومنها : أنه لا يخضر فيه حجر ولا حصاة ، وما ذاك إلا لصحة مزاجه وحلاوته ولطافته ، ومنها : أن زيادته فى أيام نقصان سائر الأنهار ، ونقصانه فى أيام زيادتها وكثرتها . وأما ما يذكره بعضهم من أن أصل منبع النيل من مكان

(١) المعروفة الآن باسم دنقلة . (٢) الآية ٢٧ من سورة السجدة . (٣) أى تن .

مرتفع اطلع عليه بعض الناس ، فرأى هناك هولا عظيماً وجوارى حسناً وأشياء غريبة ، وأن الذى اطلع على ذلك لا يمكنه الكلام بعد هذا فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين .

وقد قال عبد الله بن لميعة عن قيس بن الحجاج عن حدثه قال : لما فتح عمرو بن العاصى مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر بؤنة من أشهر العجم « القبطية » فقالوا أيها الأمير : إن لنينا هذا سنة لايجرى إلا بها ، فقال لهم : وما ذلك ؟ قالوا : إذا كان لثنتى عشرة ليلة خلت من هذا الشهر — عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها ، وجمانا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى هذا النيل ، فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله ، فأقاموا بؤنة والنيل لايجرى لا قليلاً ولا كثيراً . وفى رواية فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لايجرى حتى هموا بالجلء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه عمر : إنك قد أصبت بالذى فعلت ، وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابى هذا فألقها فى النيل ، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد : فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك . فألقى عمرو البطاقة فى النيل فأصبح يوم السبت^(١) وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم .

وأما الفرات فأصلها من شمالى أرزن الروم ، فتمر إلى قرب ملطية ، ثم تمر على شمشاط ، ثم على البيرة قبلها ، ثم تشرق إلى بالس^(٢) وقلعة جعبر ، ثم الرقة ثم إلى الرحبة شمالها ، ثم إلى عانة ثم إلى هيت ثم إلى الكوفة ، ثم تخرج إلى فضاء العراق ويصب فى بطائح كبار أى بحيرات ، وترد إليها ويخرج منها أنهار كبار معروفة .

وأما سيحان : ويقال له سيحون أيضاً ، فأوله من بلاد الروم ويجرى من الشمال والغرب إلى الجنوب والشرق وهو غربى مجرى جيحان ودونه فى القدر ، وهو ببلاد الأرض التى تعرف اليوم ببلاد سيس^(٣) ، وقد كانت فى أول الدولة الإسلامية فى أيدي المسلمين ، فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية وملكوا الشام وأعمالها ، عجزوا عن صونها عن الأعداء فتغلب تغفور الأرمنى على هذه البلاد ، أعنى بلاد سيس فى حدود الثلاثمائة وإلى يومنا هذا ، والله المسؤل عودها إلينا بحوله وقوته . ثم يجتمع سيحان وجيحان عند أذنة فيصيران نهراً واحداً ، ثم يصبان فى بحر الروم بين أياس وطرسوس .

(١) الذى فى حسن المحاضرة للسيوطى : فألقى عمر البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم ، وقد تهبأ أهل مصر للجلء والخروج منها لأنه لايقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل ، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً . وقد زالت تلك السنة السوء عن أهل مصر .

(٢) بلدة بن حلب والرقة لها وقائع تاريخية .

(٣) الذى فى القاموس : سيسة ولا تغل سيس ، بلد بين أنطاكية وطرسوس .

وأما جيحان : ويقال له جيحون أيضاً ، وتسميه العامة جاهان ، وأصله في بلاد الروم ويسير في بلاد ميسة من الشمال إلى الجنوب ، وهو يقارب الفرات في القدر ، ثم يجتمع هو وسيحان عند أذنة فيصيران نهراً واحداً ، ثم يصبان في البحر عند آياس وطرسوس والله أعلم .

فصل

قال الله تعالى : (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعالم بقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (١)

وقال تعالى : (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبأنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون) (٢) ، وقال تعالى : (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميةون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون * وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (٣) .

فذكر تعالى ما خلق في الأرض من الجبال والأشجار ، والثمار والسهول والأوعار ، وما خاق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات في البراري والقفار ، والبر والبحار — ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه ، وما سهل لكل دابة من الرزق الذي هي محتاجة إليه في ليالها ونهارها ، وصيفها وشتائها ، وصباحها ومساءها ، كما قال تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) (٤) . وقد روى الحافظ أبو يعلى عن محمد بن المنثري عن عبيد بن واقد عن محمد بن عيسى بن كيسان عن محمد بن المنكدر عن جابر عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خلق الله ألف أمة ، منها ستائة في البحر وأربعمائة في البر ، وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد ، فإذا هلك تتابعت مثل النظام (٥) إذا قطع سلكه » .

(١) الآيات ٢ — ٤ من سورة الرعد (٢) الآيات ٦٠ و٦١ من سورة النحل .

(٣) الآيات ١٠ — ١٣ من سورة النحل (٤) الآية ٦ من سورة هود .

(٥) النظام : كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه .

« عبید بن واقد » أبو عباد البصرى ضعفه أبو حاتم ، وقال ابن عدی : عامة ما يرويه لا يتابع عليه وشيخه أضعف منه . قال الفلاس والبخارى : منكر الحديث ، وقال أبو زرعة : لا ينبغي أن يحدث عنه ، وضعفه ابن حبان والدارقطنى ، وأنكر عليه ابن عدی هذا الحديث بعينه وغيره والله أعلم .
وقال تعالى : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون)^(١) .

باب ذكر ما يتعلق بخلق السموات وما فيه من الآيات

قد قدمنا أن خلق الأرض قبل خلق السماء كما قال تعالى : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم)^(٢) ، وقال تعالى : (قل أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فىهارواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسانين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فمضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم)^(٣) ، وقال تعالى : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاهما)^(٤) فإن الدحى غير الخلق وهو بعد خلق السماء . وقال تعالى : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور * الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين * وأعتدنا لهم عذاب السعير)^(٥) ، وقال تعالى : (وبنينا فوقكم سبعة أشداداً * وجعلنا سراجاً وهاجاً)^(٦) ، وقال تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً)^(٧) ، وقال تعالى : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر ينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً)^(٨) ، وقال تعالى : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً * وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً)^(٩) ، وقال تعالى : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب)^(١٠) وقال تعالى : (ولقد

(١) الآية ٣٨ من سورة الأنعام (٢) الآية ٢٩ من سورة البقرة (٣) سورة فصلت .

(٤) سورة النازعات (٥) سورة تبارك (٦) سورة النبأ (٧) سورة نوح (٨) آخر سورة الطلاق .

(٩) الآيتان ٦١ و٦٢ من سورة الفرقان (١٠) الآيات ٦ — ١٠ من سورة الصافات .

جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلامن استرق السمع فأتبعه شهاب مبين^(١)، وقال تعالى : (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون)^(٢)، وقال تعالى : (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون * وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) وقال تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقرها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)^(٣)، وقال تعالى : (فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون)^(٤)، وقال تعالى : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين)^(٥) .

والآيات في هذا كثيرة جداً وقد تكلمنا على كل منها في التفسير .

والمقصود أنه تعالى يخبر عن خلق السموات وعظمة اتساعها وارتفاعها ، وأنها في غاية الحسن والبهاء ، والكمال والسناء ، كما قال تعالى : (والسماء ذات الحجب) . أي الخلق الحسن ، وقال تعالى : (فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير)^(٦) أي خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللاً ، وهو حسير : أي كليل ضعيف ، ولو نظر حتى يعى ويكل ويضعف لما اطاع على نقص فيها ولا عيب ، لأنه تعالى قد أحكم خلقها وزين بالكواكب أفقها كما قال : (والسماء ذات البروج) أي النجوم . وقيل محال الحرس التي يرمى منها بالشهب مسترق السمع ، ولا منافاة بين القولين . وقال تعالى : (ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم) فذكر أنه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات «الشمس والقمر والنجوم الزاهرات» ، وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها وهذا زينة معنى ، فقال : (وحفظناها من كل شيطان رجيم) كما قال : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى)^(٧) .

وقال البخارى في كتاب بدء الخلق : وقال قتادة (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) خلق هذه النجوم لثلاث : جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول بفسير ذلك فقد أخطأ ، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به . وهذا الذي قاله قتادة مصرح به في قوله تعالى : (ولقد زينا

(١) الآيات : ١٦ — ١٨ من سورة الحجر (٢) الآية : ٤٧ من سورة الناريات (٣) الآيات : ٣٨ — ٤٠ من سورة يس (٤) الآيتان : ٩٦ و ٩٧ من سورة الأنعام (٥) الآية : ٥٤ من سورة الأعراف .
(٦) سورة تبارك (٧) سورة الصافات .

السماء الدنيا بمصاييح وجعلناها رجوماً للشياطين) ، وقال تعالى : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) فمن تكلف غير هذه الثلاث — أى من علم أحكام ما تدل عليه حركاتها ومقارناتها فى سيرها ، وأن ذلك يدل على حوادث أرضية — فقد أخطأ . وذلك أن أكثر كلامهم فى هذا الباب ليس فيه إلا حدس وظنون كاذبة ودعاوى باطلة . وذكر تعالى أنه خلق سبع سموات طباقاً — أى واحدة فوق واحدة .

واختلف أصحاب الهيئة هل هن مترامكات أو متفصلات بينهما خلاء ؟ على قولين . والصحيح الثانى لما قدمنا من حديث عبد الله بن عميرة عن الأحنف عن العباس فى حديث الأوعال أن رسول الله ﷺ قال : « أندرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : بينهما مسيرة خمسمائة عام ، ومن كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء خمسمائة سنة » الحديث بتامه رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه . وفى الصحيحين من حديث أنس فى حديث الإسراء قال فيه : « ووجد فى السماء الدنيا آدم ، فقال له جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فرد عليه السلام ، وقال مرحباً وأهلاً بابنى ، نعم الابن أنت — إلى أن قال : « ثم عرج إلى السماء الثانية » وكذا ذكر فى الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة . فدل على التفاضل بينها لقوله « ثم عرج بنا حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا ؟ » الحديث وهذا يدل على ما قلناه والله أعلم .

وقد حكى ابن حزم وابن المنير وأبو الفرج بن الجوزى وغير واحد من العلماء — الإجماع على أن السموات كرة مستديرة . واستدل على ذلك بقوله : (كل فى فلك يسبحون) قال الحسن : يدورون ، وقال ابن عباس : فى فلكة مثل فلكة المغزل . قالوا ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع فى آخرها من المشرق ، كما قال أمية بن أبى الصلت^(١) .

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء مطلع لونها متورد
تأبى فلا تبدو لنا فى رسالها إلا معذبة وإلا تجلد

فأما الحديث الذى رواه البخارى حيث قال : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس :

(١) شاعر مخضرم من شعراء تقيف ، يتميز شعره بالسهولة والدخيل من الألفاظ ، وتناول الأساطير والأمر الدينية مع الحكم والمدح ، واسم أبى الصلت : عبد الله بن أبى ربيعة . نشأ بالطائف وتعبد وتلمس المعارف الدينية وليس المسوح . وكان يرجو أن يكون نبى العرب الموعود به ، فلما بعث النبي عليه السلام حثد عليه وحسده وقال : كنت أرجو أن أكونه ، وناضله مع أعدائه حتى مات بالطائف سنة ٩ هـ ، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) سورة الأعراف .

« أتدرى أين تذهب؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، يقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها » فذلك قوله تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) .

هذا لفظه في بدء الخلق ورواه في التفسير ، وفي التوحيد من حديث الأعمش أيضاً ، ورواه مسلم في الإيمان من طريق الأعمش ومن طريق يونس بن عبيد ، وأبو داود من طريق الحكم بن عتبة ، كلهم عن إبراهيم بن يزيد بن شريك عن أبيه عن أبي ذر به نحوه ، وقال الترمذى حسن صحيح .

إذا علم هذا — فإنه حديث لا يعارض ما ذكرناه من استدارة الأفلاك التي هي السموات على أشهر القولين . ولا يدل على كرية العرش كما زعمه زاعمون ، وقد أبطنا قولهم فيما سلف . ولا يدل على أنها تصعد إلى فوق السموات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش ، بل هي تقرب عن أعيننا وهي مستمرة في فلكها الذي هي فيه ، وهو الرابع فيما قاله غير واحد عن علماء التفسير . وليس في الشرع ما ينفيه بل في الحس — وهو الكسوفات — ما يدل عليه ويقتضيه ، فإذا ذهبت فيه حتى تتوسطه — وهو وقت نصف الليل مثلاً في اعتدال الزمان بحيث يكون بين القطبين الجنوبي والشمالي — فإنها تكون أبعد ما يكون من العرش ؛ لأنه مقبب من جهة وجه العالم وهذا محل سجودها كما يناسبها ، كما أنها أقرب ما تكون من العرش وقت الزوال من جهتنا ، فإذا كانت في محل سجودها استأذنت الرب جل جلاله في طلوعها من الشرق فيؤذن لها فتبدو من جهة الشرق ، وهي مع ذلك كارهة لعصاة بني آدم أن تطلع عليهم ولهذا قال أمية :

تأبى فلا تبدو لنا في رساها إلا معـذبة وإلا تجلد

فإذا كان الوقت الذي يريد الله طلوعها من جهة مغربها — تسجد على عاداتها وتستأذن في الطلوع من عاداتها فلا يؤذن لها ، فجاء أنها تسجد أيضاً ثم تستأذن فلا يؤذن لها ، ثم تسجد فلا يؤذن لها ، وتطول تلك الليلة كما ذكرنا في التفسير ، فتقول يارب إن الفجر قد اقترب وإن المدى بعيد ، فيقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها ، فإذا رآها الناس آمنوا جميعاً وذلك حين (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً) ، وفسروا بذلك قوله تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها) قيل لوقتها الذي تؤمر فيه تطلع من مغربها ، وقيل مستقرها موضعها الذي تسجد فيه تحت العرش ، وقيل منتهى سيرها وهو آخر الدنيا .

وعن ابن عباس أنه قرأ (والشمس تجري لمستقر لها) أي ليست تستقر ، فعلى هذا تسجد وهي سائرة . ولهذا قال تعالى : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) أي لا تدرك الشمس القمر فتطلع في سلطانه ودولته ، ولا هو أيضاً ، ولا الليل سابق النهار

أى ليس سابقه بمسافة يتأخر ذلك عنه فيها ، بل إذا ذهب النهار جاء الليل فى إثره متعقباً له ، كما قال فى الآية الأخرى : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين)^(١) .

وقال تعالى : (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً^(٢)) أى يخلف هذا لهذا وهذا لهذا ، كما قال رسول الله ﷺ : « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم » . فالزمان المحقق ينقسم إلى ليل ونهار وليس بينهما غيرهما ، ولهذا قال تعالى : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى^(٣)) « فيولج من هذا فى هذا ، أى يأخذ من طول هذا فى قصر هذا فيعتدلان كما فى أول فصل الربيع : يكون الليل قبل ذلك طويلاً والنهار قصيراً ، فلا يزال الليل ينقص والنهار يتزايد حتى يعتدلا وهو أول الربيع . ثم يشرع النهار يطول ويتزايد والليل يتناقص حتى يعتدلا أيضاً فى أول فصل الخريف . ثم يشرع الليل يطول ويقصر النهار إلى آخر فصل الخريف . ثم يترجح النهار قليلاً قليلاً ويتناقص الليل شيئاً فشيئاً حتى يعتدلا فى أول فصل الربيع كما قدمنا ، وهكذا فى كل عام . ولهذا قال تعالى : (وله اختلاف الليل والنهار) أى هو المتصرف فى ذلك كله ، الحاكم الذى لا يخالف ولا يمانع ، ولهذا يقول فى ثلاث آيات عند ذكر السموات والنجوم والليل والنهار : (ذلك تقدير العزيز العليم) أى العزيز الذى قد قهر كل شىء ، ودان له كل شىء فلا يمانع ولا يغالب ، العليم بكل شىء ، فقدر كل شىء تقديراً على نظام لا يختلف ولا يضطرب . وقد ثبت فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله يؤذنى ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » وفى رواية : « فأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » .

قال العلماء كالشافعى وأبى عبيد القاسم بن سلام وغيرهما : يسب الدهر ، أى يقول فعل بنا الدهر كذا ، ياخيبة الدهر : أيتم الأولاد ، وأرمل النساء . قال الله تعالى : « وأنا الدهر » أى أنا الدهر الذى يعنيه ، فإنه فاعل ذلك الذى أسنده إلى الدهر والدهر مخلوق ، وإنما فعل هذا هو الله فهو يسب فاعل ذلك ويعتده الدهر ، والله هو الفاعل لذلك ، الخالق لكل شىء ، المتصرف فى كل شىء كما قال : « وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب ليله ونهاره » ، وكما قال تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير * تولى الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب)^(٤) . وقال

(١) الآية ٥٤ من سورة الأعراف

(٢) الآية ٦٢ من سورة الفرقان .

(٣) الآية ١٣ من سورة فاطر

(٤) الآيتان ٢٧ — ٢٨ من سورة آل عمران .

تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون * إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) ^(١) أى فاوت بين الشمس والقمر فى نورهما وفى شكلهما وفى وقتها وفى سيرهما ؛ فجعل هذا ضياء : وهو شعاع الشمس برهان ساطع وضوء باهر ، والقمر نوراً : أى أضعف من برهان الشمس وجعله مستغاداً من ضوءها ، وقدره منازل : أى يطلع أول ليلة من الشهر صغيراً ضئيلاً قايل النور لقربه من الشمس وقلة مقابله لها ، فبقدر مقابله لها يكون نوره ، ولهذا فى الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف ما كان فى الليلة الأولى فيكون نوره بضعف النور أول ليلة ، ثم كلما بعد ازداد نوره حتى يتكامل إبداره ليلة مقابله إيها من المشرق ، وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر . ثم يشرع فى النقص لاقترابه إليها من الجهة الأخرى إلى آخر الشهر ، فيستتر حتى يعود كما بدأ فى أول الشهر الثانى . فبه تعرف الشهور ، وبالشمس تعرف الليالى والأيام ، وبذلك تعرف السنين والأعوام ، ولهذا قال تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقال تعالى : (وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئء فصلناه تفصيلاً) ^(٢) وقال تعالى : (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) ^(٣) .

وقد بسطنا القول على هذا كله فى التفسير . فالكواكب التى فى السماء : منها سيارات وهى المتحيرة فى اصطلاح علماء التفسير ، وهو علم غالبه صحيح ، بخلاف علم الأحكام فإن غالبه باطل ودعوى لا دليل عليه ، وهى سبعة : القمر فى سماء الدنيا ، وعطارد فى الثانية ، والزهرة فى الثالثة ، والشمس فى الرابعة ، والمريخ فى الخامسة ، والمشتري فى السادسة ، وزحل فى السابعة . وبقية الكواكب يسمونها الثوابت وهى عندهم فى الفلك الثامن وهو الكرسى فى اصطلاح كثير من المتأخرين . وقال آخرون : بل الكواكب كلها فى السماء الدنيا ولا مانع من كون بعضها فوق بعض .

وقد يستدل على هذا بقوله تعالى : (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) ^(٤) وبقوله : (فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم) ^(٥) ، فنخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب ، فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك ، وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون . والله أعلم .

وعندهم أن الأفلاك السبعة بل الثمانية تدور بما فيها من الكواكب الثوابت ، والسيارات تدور

(١) الآيتان ٦ و ٧ من سورة يونس (٢) الآية ١٣ من سورة الأسراء (٣) الآية ١٨٩ من سورة البقرة .

(٤) سورة الملك (٥) الآية ١٣ من سورة فصلت .

على خلاف فلكه من المغرب إلى المشرق ؛ فالقمر يقطع فلكه في شهر ، والشمس تقطع فلكها وهو الرابع في سنة ، فإذا كان السيران ليس بينهما تفاوت وحرركاتهما متقاربة — كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا ثنتي عشرة مرة ، وزحل يقطع فلكه وهو السابع في ثلاثين سنة ، فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثمانمائة وستين مرة .

وقد تكلموا على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحرركاتها ، وتوسعوا في هذه الأشياء حتى تعدوا إلى علم الأحكام وما يترتب على ذلك من الحوادث الأرضية ، ومما لاعلم لكثير منهم به . وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور — لهم في هذا كلام كثير يطول بسطه ، وهم الذين بنوا مدينة دمشق ، وجعلوا لها أبواباً سبعة ، وجعلوا على رأس كل باب هيكلًا على صفة الكواكب السبعة ، يعبدون كل واحد في هيكله ، ويدعون بدعاء يأثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ وغيرهم .

وذكره صاحب السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم وغيره من علماء الحرانيين^(١) « فلاسفة حران في قديم الزمان » . وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة ، وهم طائفة من الصابئين ، ولهذا قال الله تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون^(٢)) . وقال تعالى إخباراً عن المهدد أنه قال لسليمان عليه السلام مخبراً عن بلقيس وجنودها ملكة سبأ في اليمن وما والاها : (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * أن لا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم)^(٣) . وقال تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجنبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهين الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء^(٤)) . وقال تعالى : (أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفییؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون * والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون^(٥)) . وقال تعالى : (والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال^(٦)) . وقال تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء

(٢) الآية : ٣٨ من سورة فصلت .

(٤) الآية : ١٩ من سورة الحج .

(٦) الآية : ١٧ من سورة الرعد .

(١) نسبة إلى حران على غير قياس ، والقياس حراني

(٣) الآيات : ٢٤ — ٢٧ من سورة النمل

(٥) الآيات : ٤٨ : ٥١ من سورة النحل

إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً^(١) . والآيات في هذا كثيرة جداً . ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة في السموات والأرض هي الكواكب ، وأشرفهن منظراً وأشرفهن معتبراً الشمس والقمر — استدلل الخليل على بطلان آلهية شئ منهن ، وذلك في قوله تعالى : (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفان) أي الغائبين (فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين^(٢)) فيبين بطريق البرهان القطعي أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس — لا يصلح شئ للآلهية ، لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة في سيرها ، لا تحيد عما خلقت له ، ولا تزيع عنه إلا بتقدير متقن محرر لاتضطرب ولا تختلف ، وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة ، ولهذا قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون^(٣)) . وثبت في الصحيحين في صلاة الكسوف من حديث ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

وقال البخارى في بدء الخلق : حدثنا مسدد حدثنا عبد العزيز بن المختار حدثنا عبد الله الداناخ حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الشمس والقمر مكوران يوم القيامة » انفرد به البخارى .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار بأبسط من هذا السياق ، فقال حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي حدثنا يونس بن محمد حدثنا عبد العزيز بن المختار عن عبد الله الداناخ سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن زمن خالد بن عبد الله القسرى في هذا المسجد — مسجد الكوفة — وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال : حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشمس والقمر ثوران في النار يوم القيامة » فقال الحسن وما دينهما ؟ فقال أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول وما دينهما ؟ ثم قال البزار : لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ، ولم يرو عبد الله الداناخ عن أبي سلمة سوى هذا الحديث . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى من طريق يزيد الرقاشي وهو ضعيف عن أنس قال : قال رسول

(١) الآية : ٤٤ من سورة الإسراء .

(٢) الآيات : ٧٧ — ٨٠ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٨ من سورة فصلت .

الله ﷺ « الشمس والقمر ثوران عقيران في النار » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد الله الأزدي حدثنا أبو أسامة عن مجالد عن شيخ من بجيلة عن ابن عباس (إذا الشمس كورت) قال : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فتضرمها ناراً ، فذلت هذه الأنار على أن الشمس والقمر من مخلوقات الله خلقها الله لما أراد ، ثم يفعل فيها ما يشاء ، وله الحجة الدافعة والحكمة البالغة ، فلا يسأل عما يفعل لعلمه وقدرته ومشيتته النافذة ، وحكمه الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب . وما أحسن ما أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في أول كتاب السيرة من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل في خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك . قال ابن هشام هي لأمية بن أبي الصلت :

إلى الله أهدي مدحتي وثنائيا	وقولا رضيعاً لا يني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه	إله ولا رب يكون مدانيا
ألا أيها الإنسان إياك والردى	فإنك لا تخفى من الله خافيا
وإياك لا تجعل مع الله غيره	فإن سبيل الرشد أصبح باديا
حنانك ^(١) إن الجن كانت رجاءهم	وأنت إلهي ربنا ورجائيا
رضيت بك اللهم رباً فلن أرى	أدين إلهاً غيرك الله ثانيا
وأنت الذي من فضل منّ ورحمة	بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له اذهب وهرون فادعوا	إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له : أنت سويت هذه	بلا وتد حتى اطمانت كما هيا
وقولا له : أنت رفعت هذه	بلا عمد ارفق إذا بك بانيا
وقولا له : أنت سويت وسطها	منيراً إذا ماجنه الليل هاديا
وقولا له : من يرسل الشمس غدوة	فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له : من ينبت الحب في الثرى	فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رهوسه	وفي ذلك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونساً	وقد بات في أضعاف حوت لياليا
وإني لو سبحت باسمك ربنا	لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فرب العباد ألق سيباً ورحمة	على وبارك في بني وماليا

فإذا علم هذا ، فالكواكب التي في السماء من الثوابت والسيارات — الجميع مخلوقة خلقها الله تعالى

(١) تحنن على مرة بعد مرة ، وحناناً بعد حنان ، والحنن : الترحم .

كما قال : (وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم) (١) .
وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت : من أن الزهرة كانت امرأة فراودها
على نفسها فأبى إلا أن يعلمها الاسم الأعظم ، فعلمها فقالت فرفعت كوكباً إلى السماء — فهذا أظنه من
وضع الإسرائيليين ، وإن كان قد أخرج كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل
الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل .

وقد روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه في ذلك حديثاً رواه أحمد عن يحيى بن بكير عن زهير
ابن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ وذكر القصة بطولها . وفيه : فثلت لها
الزهرة امرأة من أحسن البشر ، فجاءت فسالها نفسها ، وذكر القصة .

وقد رواه عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن كعب الأحبار به ،
وهذا أصح وأثبت .

وقد روى الحاكم في مستدركه وابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس فذكره ، وقال فيه : وفي
ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب وذكر تمامه . وهذا أحسن
لفظ روى في هذه القصة والله أعلم .

وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن عبد الملك الواسطي حدثنا يزيد بن
هرون حدثنا مبشر بن عبيد عن يزيد بن أسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ . وحدثنا عمرو بن عيسى
حدثنا عبد الأعلى حدثنا إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر
سهيلاً فقال : « كان عشاراً ظالماً فمسخه الله شهاباً » ثم قال لم يروه عن زيد بن أسلم إلا مبشر بن عبيد
وهو ضعيف الحديث ، ولا عن عمرو بن دينار إلا إبراهيم بن يزيد وهو لين الحديث . وإنما ذكرناه
على ما فيه من علة لأننا لم نحفظه إلا من هذين الوجهين .

قلت : أما مبشر بن عبيد القرشي فهو أبو حفص الحمصي وأصله من الكوفة — فقد ضعفه الجميع ،
وقال فيه الإمام أحمد والدارقطني كان يضع الحديث ويكذب . وأما إبراهيم بن يزيد فهو الخوزي وهو
ضعيف باتفاقهم ، وقال فيه أحمد والنسائي متروك . وقال ابن معين ليس بثقة وليس بشيء . وقال البخاري
سكتوا عنه ، وقال أبو حاتم وأبو زرعة منكر الحديث — ضعيف الحديث . ومثل هذا الإسناد لا يثبت به
شيء بالسكينة . وإذا أحسننا الظن قلنا هذا من أخبار بني إسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب
الأحبار ، ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها والله أعلم .

الكلام على المجرة وقوس قزح

قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا عارم بن النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن هرقل كتب إلى معاوية وقال : إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبروني عما أسألهم عنه ، قال فكتب إليه يسأله عن المجرة ، وعن القوس ، وعن بقعة لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة . قال فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال : إن هذا الشيء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومى هذا ، من لهذا ؟ قيل ابن عباس ، فطوى معاوية كتاب هرقل فبعث به إلى ابن عباس فكتب إليه : إن القوس أمان لأهل الأرض من الفرق ، والمجرة باب السماء الذى تنشق منه الأرض ، وأما البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة من النهار فالبحر الذى أفرج عن بنى إسرائيل . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنه .

فأما الحديث الذى رواه الطبراني حدثنا أبو الزينع روح بن الفرغ حدثنا إبراهيم بن مخلد حدثنا الفضل بن المختار عن محمد بن مسلم الطائفي عن ابن أبي يحيى عن مجاهد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ إني مرسلك إلى قوم أهل كتاب ، فإذا سئلت عن المجرة التى فى السماء فقل هى لعاب حية تحت العرش » — فإنه حديث منكر جداً ، بل الأشبه أنه موضوع وراويه الفضل بن المختار هذا أبو سهل البصرى . ثم انتقل إلى مصر قال فيه أبو حاتم الرازى : هو مجهول حدث بالأباطيل ، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي : منكر الحديث جداً ، وقال ابن عدى : لا يتابع على أحاديثه لامتناناً ولا إسناداً .

وقال الله تعالى : (هو الذى يرىكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقيل * ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد الحمال ^(١)) وقال تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ^(٢)) .

وروى الإمام أحمد : عن يزيد بن هرمون عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن شيخ من بنى غفار قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ينشئ السحاب فينطق أحسن النطق ، ويضحك أحسن الضحك » . وروى موسى بن عبيدة بن سعد بن إبراهيم أنه قال : إن نطقه الرعد وضحكه البرق .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى عن محمد بن مسلم قال : بلغنا أن

(١) الآيات : ١٤ - ١٥ من سورة الرعد . (٢) الآية : ١٦٤ من سورة البقرة .

البرق ملك له أربعة وجوه ، وجه إنسان ، ووجه ثور ، ووجه نسر ، ووجه أسد . فإذا مصع بذنبه فذاك البرق . وقد روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى والبخارى فى كتاب الأدب والحاكم فى مستدرکه من حديث الحجاج بن أرطاة حدثنى ابن مطر عن سالم عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لاتقتلنا بفضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » * وروى ابن جرير من حديث ليث عن رجل عن أبى هريرة رفعه كان إذا سمع الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » . وعن على أنه كان يقول : « سبحان من سبحت له » . وكذا عن ابن عباس والأسود ابن يزيد وطاوس وغيرهم .

وروى مالك عن عبد الله بن عمر أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » . ويقول : إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « قال ربكم لو أن عبىدى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولما أسمعتهم صوت الرعد ، فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذا كراً » . وكل هذا مبسوط فى التفسير والله الحمد والمنة .

باب ذكر خلق الملائكة وصفاتهم عليهم السلام

قال الله تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ^(١)) . وقال تعالى : (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض إلا إن الله هو الغفور الرحيم ^(٢)) . وقال تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ^(٣)) . وقال تعالى : (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون ^(٤)) . وقال تعالى : (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون ^(٥)) . وقال تعالى : (وما لنا لنحن المصحفون ^(٦)) . وقال تعالى : (وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين

(١) الآيات ٢٦ — ٢٨ من سورة الأنبياء (٢) الآية ٥ من سورة الشورى .

(٣) الآيتان ٨ و ٩ من سورة غافر (٤) الآية ٢٩ من سورة فصلت .

(٥) الآيتان ٢٠ و ٢١ من سورة الأنبياء (٦) الآيات ١٦٥ — ١٦٧ من سورة الصافات .

ذلك وما كان ربك نسياً^(١) . وقال تعالى : (وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون^(٢))
وقال تعالى : (وما يعلم جنود ربك إلا هو^(٣)) . وقال تعالى : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب
سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار^(٤)) . وقال تعالى : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل
الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير^(٥)) .
وقال تعالى : (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً * الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً
على الكافرين عسيراً^(٦)) . وقال تعالى : (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى
ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين
ويقولون حجراً محجوراً^(٧)) . وقال تعالى : (من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال
فإن الله عدو للكافرين^(٨)) . وقال تعالى : (يأأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها
الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون^(٩)) .

والآيات في ذكر الملائكة كثيرة جداً يصفهم الله تعالى بالقوة في العبادة وفي الخلق وحسن المنظر ،
وعظمة الأشكال وقوة الشكل في الصور المتعددة ، كما قال تعالى : (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم
وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات^(١٠))
الآيات ، فذكرنا في التفسير ما ذكره غير واحد من العلماء ، من أن الملائكة تبدو لهم في صورة شباب
حسان امتحاناً واختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وكذلك كان جبريل يأتي إلى النبي ﷺ في صفات متعددة فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة
الكلابي ، وتارة في صورة أعرابي ، وتارة في صورته التي خالق عليها ، له ستائة جناح ما بين كل جناحين
كما بين المشرق والمغرب ، كما رآه على هذه الصفة مرتين مرة منهبطاً من السماء إلى الأرض ، وتارة
عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، وهو قوله تعالى : (علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو
بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى) أي جبريل كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة ، منهم ابن مسعود
وإبو هريرة وأبو ذر وعائشة (فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى) أي إلى عبد الله
محمد ﷺ ثم قال : (ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة
ما يغشى * مازاغ البصر وما طغى^(١١)) .

(١) الآية ٦٥ من سورة مريم (٢) سورة الانفطار (٣) الآية ٣١ من سورة المذثر .
(٤) الآيات ٢٦ و ٢٧ من سورة الرعد (٥) أول سورة فاطر (٦) سورة الفرقان .
(٨) الآية ٩٨ من سورة البقرة (٩) سورة التحريم
(١٠) الآيات ٧٨ و ٧٩ من سورة هود (١١) الآيات ٥ - ١٧ من سورة النجم .

وقد ذكرنا في أحاديث الإسراء في سورة سبحان : أن سدرة المنتهى في السماء السابعة ، وفي رواية في السادسة ، أى أصلها وفروعها في السابعة ، فلما غشيها من أمر الله ماغشيها ؛ قيل غشيها نور الرب جل جلاله ، وقيل غشيها فراش من ذهب ، وقيل غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة ، وقيل غشيها الملائكة مثل الغربان ، وقيل غشيها من نور الله تعالى فلا يستطيع أحد أن ينعثها — أى من حسنها وبهائها — ولا منافاة بين هذه الأقوال ، إذ الجميع ممكن حصوله في حال واحدة .

وذكرنا أن رسول الله ﷺ قال : « ثم رفعت لى سدرة المنتهى فإذا نبقها كالقلال ^(١) » . وفي رواية كقلال هجر « وإذا ورقها كأذان الفيلة ، وإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران ، فأما الباطنان : ففي الجنة ، وأما الظاهران : فالنيل والقرات » : وتقدم الكلام على هذا في ذكر خلق الأرض وما فيها من البحار والأنهار . وفيه : « ثم رفع لى البيت المعمور وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم » . وذكر أنه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مستنداً ظهره إلى البيت المعمور . وذكرنا وجه المناسبة في هذا — أن البيت المعمور هو في السماء السابعة بمنزلة الكعبة في الأرض .

وقد روى سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عمر عروة أن ابن الكواسال على بن أبي طالب عن البيت المعمور فقال : هو مسجد في السماء يقال له الضراح ، وهو بجبال الكعبة من فوقها ، حرمة في السماء كحرمة البيت في الأرض ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه أبداً . وهكذا روى على بن ربيعة وأبو الطفيل عن علي بن أبي طالب .

وقال الطبراني : أنبانا الحسن بن علوية القطان حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار حدثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة حدثنا ابن جريج عن صفوان بن سليم عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « البيت المعمور في السماء يقال له الضراح وهو على مثل البيت الحرام بجباله ، لو سقط لسقط عليه ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يرونه قط فإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة » . يعني في الأرض . وهكذا قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع بن أنس والسدي وغير واحد .

وقال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : « هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : مسجد في السماء بجبال الكعبة لو خر نخر عليها ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم » . وزعم الضحاك أنه تعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الجن ، من قبيلة إبليس لعنه الله ، كان يقول سدنته وخدامه منهم والله أعلم .

وقال آخرون : في كل سماء بيت تعمره ملائكته بالعبادة فيه ، ويفدون إليه بالنوبة والبذل كما يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج في كل عام ، والاعتبار في كل وقت ، والطواف والصلاة في كل آن . قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في أوائل كتابه المغازي : حدثنا أبو عبيد في حديث مجاهد ، أن الحرم حرم مناه - يعني قدره - من السموات السبع والأرضين السبع ، وأنه رابع أربعة عشر بيتاً ، في كل سماء بيت ، وفي كل أرض بيت ، لو سقطت سقط بعضها على بعض . ثم روى مجاهد قال مناه : أى مقابله وهو حرف مقصور .

ثم قال : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سليمان مؤذن الحجاج سمعت عبد الله بن عمرو يقول : إن الحرم محرم في السموات السبع مقداره من لأرض ، وإن بيت المقدس مقدس في السموات السبع مقداره من الأرض ، كما قال بعض الشعراء :

إن الذي سمك السماء^(١) بنى لنا بيتاً دعائمه أشد وأطول

واسم البيت الذي في السماء بيت العزة واسم الملك الذي هو مقدم الملائكة فيها إسماعيل . فعلى هذا يكون السبعون ألفاً من الملائكة الذين يدخلون في كل يوم إلى البنت المعمور ثم لا يعودون إليه ، آخر ما عليهم - أى لا يحصل لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر - يكونون من سكان السماء السابعة وحدها ، ولهذا قال تعالى : (وما يعلم جنود ربك إلا هو)^(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورك عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «إني أرى ملا ترون وأسمع ملا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفراشات ، ونلر جتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل» فقال أبو ذر : والله لوددت أنى شجرة تعضد . ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث إسرائيل فقال الترمذى حسن غريب ، ويروى عن أبي ذر موقوفاً .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا حسين بن عرفة المصرى ، حدثنا عمرو بن عمران الرقى ، حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم ، أو ملك ساجد ، أو ملك راكع ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً : ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لانشرك بك شيئاً » . فدل هذان الحديثان على أنه مامن موضع فى السموات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة ، وهم فى صنوف من العبادة : منهم من هو قائم أبداً ، ومنهم من هو راكع أبداً ، ومنهم من هو ساجد

أبداً ، ومنهم من هوفى صنوف آخر والله أعلم بها . وهم دائمون في عبادتهم وتسييحهم وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم الله بها ، ولهم منازل عند ربهم كما قال تعالى : (وما منا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون)^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا تصفون كما تصف للملائكة عند ربها ؟ قالوا وكيف يصفون عند ربهم ؟ قال : يكملون الصف الأول ويتراصون في الصف » وقال : « فضلنا على الناس بثلاث : جعلت لنا الأرض مسجداً ، وتربتها لنا طهوراً ، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، » وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب جل جلاله صفوفًا كما قال تعالى : (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)^(٢) ويقفون صفوفًا بين يدي ربهم عز وجل يوم القيامة كما قال تعالى : (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً)^(٣) . والمراد بالروح ههنا بنو آدم ، قاله ابن عباس والحسن وقتادة . وقيل ضرب من الملائكة يشبهون بنى آدم في الشكل ، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش . وقيل جبريل ، قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك . وقيل ملك يقال له الروح بقدر جميع المخلوقات . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (يوم يقوم الروح) : قال هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن خلف العسقلاني حدثنا داود بن الجراح عن أبي حمزة عن الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود قال : الروح في السماء الرابعة هو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة ، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يحيى يوم القيامة صفاً وحده ، وهذا غريب جداً .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم المصري حدثنا ابن وهب بن رزق أبو هبيرة حدثنا بشر بن بكر حدثنا الأوزاعي حدثني عطاء عن عبد الله بن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لله ملكاً لو قيل له التقم السموات والأرضين بلقمة واحدة لفعل ، تسبيحه سبحانه حيث كنت » وهذا أيضاً حديث غريب جداً ، وقد يكون موقوفاً .

وذكرنا في صفة حملة العرش عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » رواه أبو داود وابن أبي حاتم ، ولفظه : مخفق الطير سبعمائة عام .

وقد ورد في صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم ، قال الله تعالى : (علمه شديد القوى) قالوا كان من شدة قوته أنه رفع مداين قوم لوط وكن سبعمائة من فيها من الأمم ، وكانوا قريباً من أربع مائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات ، وما لتلك المدن من الأراضي والمعتملات والعمارات وغير ذلك ، رفع

ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء ، حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكهم ، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ، فهذا هو شديد القوى . وقوله : (ذو مرة) أى خلق حسن وبهاء وسناء ، كما قال فى الآية الأخرى : (إنه لقول رسول كريم) أى جبريل رسول من الله كريم — أى حسن المنظر (ذى قوة) أى له قوة وبأس شديد (عند ذى العرش مكين) أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله ذى العرش المجيد (مطاع ثم) أى مطاع فى الملائكة الأعلى (أمين) أى ذى أمانة عظيمة ، ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام الذى ينزل عليهم بالوحى ؛ فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة .

وقد كان يأتى إلى رسول الله ﷺ وينزل عليه فى صفات متعددة كما قدمنا . وقد رآه على صفته التى خلقه الله عليها مرتين . له ستائة جناح ، كما روى البخارى عن طلق بن غنم عن زائدة الشيبانى ، قال سألت زراً عن قوله تعالى : (فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى) قال حدثنا عبد الله — يعنى ابن مسعود — أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستائة جناح .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن جامع بن راشد عن أبى وائل عن عبد الله قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه التهاويل ^(١) من الدر والياقوت ما الله به عليم .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود فى هذه الآية : (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) * قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل وله ستائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل — الدر والياقوت » .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنا الحسين ^(٢) حدثنى عاصم بن بهدلة سمعت شقيق بن سلمة يقول سمعت ابن مسعود يقول : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل على السدرة المنتهى وله ستائة جناح » فسألت عاصماً عن الأجنحة فأبى أن يخبرنى ، قال فأخبرنى بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب ، وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنى حسين حدثنى حصين حدثنى شقيق سمعت ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبريل فى خضر ^(٣) تعلق به الدر » إسناده صحيح .
وقال ابن جرير : حدثنا ابن بزيع البغدادي قال حدثنا إسحاق بن منصور قال حدثنا إسرائيل

(١) أى الأشياء المختلفة الألوان — واحدها التهاويل .

(٢) هو ابن واقد مولى عبد الله بن عامر بن كرز أبو عبدالله المروزى قاضيا .

(٣) بفتح فكسر : أى فى لباس أخضر .

يؤذن له؟ قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا». رواه أحمد والترمذي من حديث عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن سعد الطائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد قال: ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور فقال: «عن يمينه جبريل، وعن يساره ميكائيل عليهم السلام».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى، حدثني عن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ ومعه جبريل بناحية إذ انشق أفق السماء، فأقبل إسرافيل يدنو من الأرض ويتمايل، فإذا ملك قد مثل بين يدي النبي ﷺ فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تحتار بين نبي عبد أو ملك نبي، قال فأشار جبريل إلى بيده أن تواضع، فعرفت أنه لي ناصح، فقلت: «عبد نبي»، فخرج ذلك الملك إلى السماء فقلت: «يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلني عن المسألة، فمن هذا يا جبريل؟ فقال هذا إسرافيل عليه السلام، خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافاً قدميه لا يرفع طرفه، بينه وبين الرب سبعون نوراً ما منها من نور يسكاد يدنو منه إلا احترق، بين يديه لوح فإذا أذن الله في شيء من السماء أو في الأرض، ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر: فإن كان من عملي أمرني به، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به، وإن كان من عمل ملك الموت أمره به. قلت: يا جبريل وعلى أي شيء أنت؟ قال: على الريح والجنود. قلت: وعلى أي شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر. قلت: وعلى أي شيء ملك الموت؟ قال: على قبض الأنفس، وما ظننت أنه نزل إلا لقيام الساعة، وما الذي رأيت مني إلا خوفاً من قيام الساعة. هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وفي صحيح مسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» وفي حديث الصور: أن إسرافيل أول من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ في الصور.

وذكر محمد بن الحسن النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة فجوزى بولاية اللوح المحفوظ، حكاه أبو القاسم السهيلي في كتابه: «التعريف والإعلام، بما أبهم في القرآن من الأعلام» وقال تعالى: (من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكائيل) عطفهما على الملائكة لشرفهما، فجبريل ملك عظيم قد تقدم ذكره. وأما ميكائيل فهو كل بالفطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عز وجل، ومن أشرف الملائكة المقربين.

(٧ — بداية — أول)

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا ابن عباس عن عمارة بن غزينة الأنصاري أنه سمع حميد بن عبيد مولى بنى المعلّى يقول : سمعت ثابتاً البنانى يحدث عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل : « مالى لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟ فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار » ، فهو لاء الملائكة المصرح بذكرهم في القرآن . وفي الصحاح هم المذكورون في الدعاء النبوى : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل » . فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم . وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه ، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله . وقد روينا أنه مامن قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض . وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور للقيام من القبور ، والحضور يوم البعث والنشور ؛ ليفوز الشكور ويجازى الكفور ، فذاك ذنبه مغفور وسعيه مشكور ، وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور ، وهو يدعو بالويل والثبور . فجبريل عليه السلام يحصل بما ينزل به الهدى ، وميكائيل يحصل بما هو موكل به الرزق ، وإسرافيل يحصل بما هو موكل به النصر والجزاء . وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح . وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون)^(١) وله أعوان يستخرجون روح العبد من جنته حتى تباع الخلقوم ، فيتناولها ملك الموت بيده ، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه ، فيلقوها في أكفان تليق بها كما قد بسط عند قوله : (ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة)^(٢) . ثم يصعدون بها ، فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا غلقت دونها وأتى بها إلى الأرض ، قال الله تعالى : (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين)^(٣) .

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنهم قالوا : إن الأرض بين يدي ملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء ، وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الإنسان على حسب عمله ؛ إن كان مؤمناً أنه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب طيبة الألواح ، وإن كان كافراً فبالضد من ذلك ، عياداً بالله العظيم من ذلك .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقرئ ، حدثنا عمرو بن شمر قال :

(١) الآية : ١١ من سورة السجدة (٢) الآية : ٢٧ من سورة إبراهيم (٣) الآيتان : ٦١-٦٢ من سورة الأنعام :

سمعت جعفر بن محمد قال سمعت أبي يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبي ﷺ : « ياملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن » فقال ملك الموت : يا محمد طب نفساً وقر عيناً ، فإنني بكل مؤمن رقيق . واعلم أن ماني الأرض بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر ، إلا وأنا أنفحصهم في كل يوم خمس مرات ، حتى إنني أعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها .

قال جعفر بن محمد أبي هو الصادق : بلغني أنه يتفحصهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضر عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » في تلك الحال العظيمة ، هذا حديث مرسل وفيه نظر .

وذكرنا في حديث الصور من طريق إسماعيل بن رافع المدني القاص ، عن محمد بن زياد عن محمد ابن كعب القرظي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ - الحديث بطوله . وفيه : ويأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ، فإذا هم قد خمدوا جاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول : يارب قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت ، فيقول الله - وهو أعلم بمن بقي - فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحى الذى لا يموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقي جبريل وميكائيل . فيقول : ليمت جبريل وميكائيل ، فينطق الله العرش فيقول : يارب يموت جبريل وميكائيل ؟ فيقول اسكت ، فإنني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى فيموتان ، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول : يارب قد مات جبريل وميكائيل ، فيقول الله - وهو أعلم بمن بقي - فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحى الذى لا يموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقيت أنا ، فيقول الله : لمت حملة عرشى ، فتموت . ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يأتي ملك الموت فيقول : يارب قد مات حملة عرشك ، فيقول الله - وهو أعلم بمن بقي - فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحى الذى لا يموت وبقيت أنا ، فيقول الله : أنت خلق من خلقي ، خلقتك لما أردت فمت فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد - كان آخرها كما كان أولاً . وذكر تمام الحديث بطوله رواه الطبراني وابن جرير والبيهقي ، ورواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب الطوالات^(١) ، وعنده زيادة غريبة وهي قوله : فيقول الله له أنت خلق من خلقي خلقتك لما أردت فمت موتاً لا تحيا بعده أبدا .

ومن الملائكة المنصوص على أسمائهم في القرآن : هاروت وماروت في قول جماعة كثيرة من

(١) كتاب في مجلدين للحافظ الكبير أبي موسى محمد بن أبي بكر عمر المدني المتوفى سنة ٥٨١ فيه الوامى والموضوع

السلف : وقد ورد في قصتهما وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبها إسرائيليّات . وروى الإمام أحمد حديثاً مرفوعاً عن ابن عمر وصححه ابن حبان في تقاسيمه . وفي صحته عندي نظر ، والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر ، ويكون مما تلقاه عن كعب الأحبار كما سيأتي بيانه والله أعلم . وفيه أنه تمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر . وعن علي وابن عباس وابن عمر أيضاً أن الزهرة كانت امرأة وأنهما لما طلبا منها ما ذكر أبت إلا أن يعلاها الاسم الأعظم ، فعلاها فقالت فارتفعت إلى السماء فصارت كوكباً .

وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال : وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب ، وهذا اللفظ أحسن ما ورد في شأن الزهرة ، ثم قيل كان أمرهما وقصتهما في زمان إدريس ، وقيل في زمان سليمان بن داود كما حررنا ذلك في التفسير .

وبالجملة فهو خبر إسرائيلي مرجعه إلى كعب الأحبار كما رواه عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار بالقصة . وهذا أصح إسناداً وأثبت رجلاً والله أعلم .

ثم قد قيل إن المراد بقوله : (وما أنزل على الملّكين بيابل هاروت وماروت)^(١) قبيلان من الجن ، قال ابن حزم : وهذا غريب وبعيد من اللفظ ، ومن الناس من قرأ : (وما أنزل على الملّكين) بالكسر ويجعلهما علجين^(٢) من أهل فارس ، قاله الضحاك . ومن الناس من يقول هما ما كان من السماء ولكن سبق في قدر الله لهما ما ذكره من أمرهما إن صح به الخبر ، ويكون حكمهما حكم إبليس إن قيل إنه من الملائكة ، لكن الصحيح أنه من الجن كما سيأتي تقريره .

ومن الملائكة المسمين في الحديث : منكر ونكير عليهما السلام ، وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر . وقد أوردناها عند قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)^(٣) وهما فتانا القبر موكلان بسؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه ، ويمتحنان البر والفاجر ، وهما أزرقان أفرقان ، لها أنياب وأشكال مزججة وأصوات مفرجة ، أجارنا الله من عذاب القبر ، وثبتنا بالقول الثابت آمين .

وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا ابن وهب ، حدثني يونس عن ابن شهاب ، حدثني عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ «قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة»^(٤) ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ليلى^(٥) بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق

(١) الآية : ١٠٢ من سورة البقرة (٢) العليج بالكسر : الواحد من كفار العجم والجمع علوج وأعلاج .

(٣) آخر سورة إبراهيم (٤) مكان يني (٥) كان من أكابر أهل الطائف من ثقيف .

إلا وأنا بقرن الثعالب^(١) فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم على ثم قال : يا محمد ، فقال ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين^(٢) ، فقال النبي ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »^(٣) ورواه مسلم من حديث ابن وهب به .

فصل

ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له - أقسام : فمنهم حملة العرش كما تقدم ذكرهم . ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش ، وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون)^(٤) ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام . وقد ذكر الله عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كما قال تعالى : (ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم)^(٥) .

ولما كانت سجايهم هذه السجوية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة ، فثبت في الحديث عن الصادق المصدوق أنه قال : « إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثل » . ومنهم سكان السموات السبع ، يعمرونها عبادة دائبة ليلاً ونهاراً صباحاً ومساءً كما قال : (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فمنهم الراكع دائماً ، والقائم دائماً ، والساجد دائماً ، ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم . ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن وما كل ومشارب ، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وخازن الجنة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث . ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية ، ومقدموهم تسعة عشر ، وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة ، وهم المذكورون في قوله تعالى : (وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) الآية . وقال تعالى : (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ، قال إنكم ما كشون * لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون)^(٦) وقال تعالى : (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)^(٧) .

(١) موضع بقرب مكة وهو ميقات أهل نجد . (٢) قال في التاموس : الأخشبان : جبلا مكة أبو قبيس والأحمر وجبلا منى . (٣) الحديث في باب بدء الخلق - ذكر الملائكة (٤) الآية : ١٧٢ من سورة النساء (٥) الآيات من ٧ - ٩ من سورة غافر . (٦) الآيات : ٧٧ و ٧٨ من سورة الزخرف . (٧) الآية : ٦ من سورة التحريم .

وقال تعالى : (عليها تسعة عشر * وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً * ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا * كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو)^(١) .

ومنهم الموكلون بحفظ بنى آدم كما قال تعالى : (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال)^(٢) .

قال الوالي عن ابن عباس : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وهي الملائكة : وقال عكرمة عن ابن عباس : (يحفظونه من أمر الله) قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه . وقال مجاهد : ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام ، وليس شيء يأتيه يريده إلا قال وراءك إلا شيء بأذن الله فيه فيصيبه . وقال أبو أسامة^(٣) : ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له . وقال أبو مجاز^(٤) جاء رجل إلى عليّ فقال : إن نقرأ من مراد يريدون قتلك ، فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، إن الأجل جنة حصينة .

ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى : (عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)^(٥) ، وقال تعالى : (وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون)^(٦) قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في تفسيره : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ومسعر عن علقمة بن يزيد عن مجاهد قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الجنابة والغائط ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجذم^(٧) حائط أو غيره ، أو يستتره أخوه » هذا مرسل من هذا الوجه ، وقد وصله البزار في مسنده من طريق جعفر بن سليمان وفيه كلام .

عن علقمة عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينهاكم عن التعرى فاستحيوا من الله والذين معكم من الكرام الكاتبين الذي لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط والجنابة والغسل ، فإذا اغتسل أحدكم بالعرء فليستتر بثوبه أو بجذم حائط أو غيره » ومعنى إكرامهم — أن يستحي منهم فلا يلى عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها ، فإن الله خلقهم كراماً في خلقهم

(١) سورة المدثر (٢) الآيتان ١٠ — ١١ من سورة الرعد (٣) في نسخة أبو أمامة (٤) هو لاحق بن حميد تابعي (٥) الآيتان : ١٧ — ١٨ من سورة ق (٦) سورة الانقطار . (٧) أى بأصل .

وأخلاقهم . ومن كرمهم أنه قد ثبت في الحديث المروى في الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب » . وفي رواية عن عاصم بن ضمرة عن علي « ولا بول » ، وفي رواية رافع عن أبي سعيد مرفوعاً : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا تمثال » . وفي رواية مجاهد عن أبي هريرة مرفوعاً « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو تمثال » ؛ وفي رواية ذكوان أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس » . ورواه زرارة بن أوفى عنه : « لا تصحب الملائكة رفقة معهم جرس » .

وقال البزار : حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقلوس ، حدثنا بيان بن حمران ، حدثنا سلام عن منصور بن زاذان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ملائكة الله يعرفون بني آدم — وأحسبه قال — ويعرفون أعمالهم ، فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكره بينهم وسموه ، وقالوا : أفلح الليلة فلان ، نجأ الليلة فلان ، وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكره بينهم وسموه ، وقالوا : هلك فلان الليلة » ثم قال سلام أحسبه سلام المدائني وهو لين الحديث .

وقد قال البخاري : حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الملائكة يتعاقبون ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويحتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم فيقول : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » هذا اللفظ في كتاب بدء الخلق بهذا السياق ، وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الوجه . وقد أخرجاه في الصحيحين في البدء من حديث مالك عن أبي الزناد به .

وقال البزار : حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي ، حدثنا تمام بن نجيح عن الحسن يعني البصري عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل محافظاً في يوم ، فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله : غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة » ، ثم قال تفرد به تمام بن نجيح وهو صالح الحديث . قلت وقد وثقه ابن معين وضعفه البخاري وأبو حاتم وأبو زرعة والنسائي وابن عدي ، ورماه ابن حبان بالوضع . وقال الإمام أحمد لا أعرف حقيقة أمره .

والمقصود أن كل إنسان له حافظان ملكان اثنان : واحد من بين يديه ، وآخر من خلفه يحفظانه من أمر الله بأمر الله عز وجل ، وملكان كاتبان عن يمينه وعن شماله ، وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال . كما ذكرنا ذلك عند قوله تعالى : (عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا سفيان ، حدثنا منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياي ، ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير » انفرد بإخراجه مسلم من حديث منصور به — فيحتمل أن هذا القرين من الملائكة غير القرين بحفظ الإنسان ، وإنما هو موكل به ليهديه ويرشده بإذن ربه إلى سبيل الخير وطريق الرشاد ، كما أنه قد وكل به القرين من الشياطين لا يألوه جهداً في الخبال والإضلال ، والمعصوم من عصمه الله عز وجل وبالله المستعان .

وقال البخاري : حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن والأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر ^(١) » وهكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه ، وهو في الصحيحين من وجه آخر . وقد قال الله تعالى : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) ^(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسباط ، حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ . وحدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) قال : « تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار » . ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أسباط ، وقال الترمذي حسن صحيح ، قلت وهو منقطع .

وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » يقول أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) .

وقال البخاري : حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح » تابعه شعبة وأبو حمزة وأبو داود وأبو معاوية عن الأعمش .

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » وفي صحيح البخاري : حدثنا إسماعيل بلفظ « إذا قال الإمام آمين فإن الملائكة تقول في السماء آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » . وفي

صحيح البخارى : حدثنا إسماعيل ، حدثني مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا : اللهم ربنا ولك الحمد ، فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » . ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث مالك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد هو شك — يعنى الأعمش — قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس ، فإذا وجدوا أقواماً يذكرون الله نادوا هلموا إلى بغيثكم ، فيجيئون بهم إلى السماء الدنيا ، فيقول الله : أى شىء تركتم عبادى يصنعون ؟ فيقولون : تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك ، فيقول : وهل رأونى ؟ فيقولون لا ، فيقول : كيف لو رأونى ؟ فيقولون : لو رأوك لكانوا أشد تميداً وتمجيداً وذكرأ ، قال فيقول : فأى شىء يطلبون ؟ فيقولون يطلبون الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون لا فيقول : وكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً ، قال فيقول : من أى يتعوذون ؟ فيقولون من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون لا فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها هرباً وأشد منها خوفاً ، قال فيقول : أشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال فيقول : إن فيهم فلاناً الخطاء لم يردهم إنما جاء لحاجة فيقول : هم القوم لايشقى بهم جايسهم » .

وهكذا رواه البخارى عن قتيبة عن جرير بن عبيد الحميد عن الأعمش به ، وقال رواه شعبة عن الأعمش ولم يرفعه . ورفعه سهيل عن أبيه . وقد رواه أحمد عن عفان عن وهيب عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه كما ذكره البخارى معلقاً عن سهيل . ورواه مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد عن وهب به . وقد رواه الإمام أحمد أيضاً عن غندر عن شعبة عن سليمان — هو الأعمش — عن أبي صالح عن أبي هريرة كما أشار إليه البخارى رحمه الله .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش وابن نمير ، أخبرنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة وذكروهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه » .

وكذا رواه مسلم من حديث أبي معاوية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن أبي إسحاق عن الأغر أبي مسلم ، عن

أبي هريرة وأبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وكذا رواه أيضاً من حديث إسرائيل وسفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق به نحوه . ورواه مسلم من حديث شعبة والترمذي من حديث الثوري وقال حسن صحيح . ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن آدم عن عمار بن زريق عن أبي إسحاق بإسناد نحوه ، وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة .

وفي مسند الإمام أحمد والسنن عن أبي الدرداء مرفوعاً : « وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » أى تتواضع له كما قال تعالى : (واخفض جناح الذل من الرحمة) وقال تعالى : (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض ليبلغونى عن أمتى السلام » وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان الأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري عن عمروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع وعبد بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به . والأحاديث فى ذكر الملائكة كثيرة جداً ، وقد ذكرنا ما يسره الله تعالى وله الحمد .

فصل

وقد اختلف الناس فى تفضيل الملائكة على البشر على أقوال : فأكثر ما توجد هذه المسئلة فى كتب المتكلمين ، والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم ، وأقدم كلام رأيت فى هذه المسئلة ما ذكره الحافظ بن عساكر فى تاريخه فى ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص : أنه حضر مجلساً لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة ، فقال عمر : ما أحد أكرم على الله من كريم بنى آدم ، واستدل بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) (٢) ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد فقال عراك بن مالك : ما أحد أكرم على الله من ملائكته ، هم خدمة داريه ورسله إلى أنبيائه . واستدل بقوله تعالى : (مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) (٣) ، فقال عمر بن عبد العزيز ل محمد بن كعب القرظي : ماتقول أنت ياأبا حمزة ؟ فقال : قد أكرم الله آدم خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ومن يزوره الملائكة ،

(١) الآية : ٢١٦ من سورة الشعراء (٢) سورة البينة (٣) الآية : ٢٠ من سورة الأعراف .

فوافق عمر بن عبد العزيز في الحكم واستدل بغير دليله . وأضعف دلالة ما صرح به من الآية وهو قوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مضمونه أنها ليست بخاصة بالبشر ، فإن الله قد وصف الملائكة بالإيمان في قوله : (ويؤمنون به) ^(١) وكذلك الجن في قوله : (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به) (وأنا منا المسلمون) ^(٢) . قلت وأحسن ما يستدل به في هذه المسئلة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً وهو أصح ، قال : لما خلق الله الجنة قالت الملائكة يا ربنا اجعل لنا هذه نأكل منها ونشرب ، فإنك خلقت الدنيا لبني آدم فقال الله : لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ، كمن قلت له كمن فكان .

باب ذكر خلق الجن وقصة الشيطان

قال الله تعالى : (خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجن من نار * فبأى آلاء ربكما تكذبان) ^(٣) وقال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجن خلقناه من قبل من نار السموم) ^(٤) وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد (من نار من نار) قالوا من طرف اللهب ، وفي رواية من خالصه وأحسنه . وقد ذكرنا آنفاً من طريق الزهري عن عمرو بن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » رواه مسلم . قال كثير من علماء التفسير : خلقت الجن قبل آدم عليه السلام ، وكان قبلهم في الأرض الخن ^(٥) والبن ^(٦) ، فسلط الله الجن عليهم فقتلهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم . وذكر السدي في تفسيره عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن ، وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة ، وكان إبليس مع ملكه خازناً فوقع في صدره وإنما أعطاني الله هذا لمزية لي على الملائكة . وذكر الضحاك عن ابن عباس أن الجن لما أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء — بعث الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة فقتلهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور .

وقال محمد بن إسحاق عن خلاد بن عطاء عن طاوس عن ابن عباس : كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل ، وكان من سكان الأرض ، ومن أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً ، وكان من حى يقال لهم الجن . وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : كان من أشرف الملائكة من أولى الأجنحة الأربعة . وقد أسند عن حجاج بن ابن جريح قال ابن عباس : كان إبليس

(١) من الآية : ٨ من سورة غافر (٢) سورة الجن (٣) سورة الرحمن . (٤) ٢٧ - ٢٨ من سورة الحجر

(٥) الخن : بالحاء المهملة : سفلة الجن وضعفاؤهم ، أو خلق بين الجن والإنس . (٦) لم نعر على معنى مناسب لهذه

الكلمة ، ولعلها محرفة عن التث مثلاً ، وهو يبيس الحشيش إذا كثرت وركب بعضه بعضاً ، وذلك مساكن الجن

من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان الأرض . وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس : كان يسوس ما بين السماء والأرض ، رواه ابن جرير . وقال قتادة عن سعيد بن المسيب : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال الحسن البصرى : لم يسكن من الملائكة طرفة عين ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر . وقال شهر بن حوشب وغيره : كان إبليس من الجن الذين طردهم الملائكة فأسره بعضهم وذهب به إلى السماء ، رواه ابن جرير .

قالوا فلما أراد الله خلق آدم ليكون في الأرض هو وذريته من بعده ، وصور جثته منها — جعل إبليس وهو رئيس الجن وأكبرهم عبادة إذ ذاك — وكان اسمه عزازيل بطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتالك ، وقال : أما لئن سلطت عليك لأهلكنك ، ولئن سلطت على لأعصينك ، فلما أن نفخ الله في آدم من روحه كما سيأتي ، وأمر الملائكة بالسجود له — دخل إبليس منه حسد عظيم ، وامتنع من السجود له وقال : (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) تخالف الأمر واعترض على الرب عز وجل ، وأخطأ في قوله وابتعد من رحمة ربه ، وأنزل من مرتبته التي كان قد نالها بعبادته ، وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم ، لأنه مخلوق من نار وهم من نور ، فخانه طبعه في أحوج ما كان إليه ورجع إلى أصله الناري (فسجد للملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين^(١)) وقال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لسكم عدو ، بئس للظالمين بدلاً^(٢)) فأهبط إبليس من الملائكة الأعلى وحرّم عليه قدر أن يسكنه ، فنزل إلى الأرض حقيراً ذليلاً مذموماً مدحوراً متوعداً بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس ، إلا أنه مع ذلك جاهد كل الجهد على إضلال بني آدم بكل طريق وبكل مرصد كما قال : (أرأيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته^(٣)) إلا قليلاً * قال اذهب فن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً^(٤)) وسند ذكر القصة مستفاداً عند ذكر خلق آدم عليه السلام .

والمقصود أن الجن خلقوا من النار وهم كبنى آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون ، ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون ، كما أخبر تعالى عنهم في سورة الجن في قوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى لولا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً

(١) الآيتان : ٧٤ و ٧٥ من سورة ص (٢) الآية : ٢٥ من سورة الكهف .

(٣) لأستأصلهم بالإغواء (٤) الآيات : ٦٣ — ٦٦ من سورة الإسراء .

أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرم من عذاب أليم * ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين) وقال تعالى : (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً * يهدي إلى الرشd فأمننا به ولن نشرك بربنا أحداً * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً * وأنه كان يقول سفيهننا على الله شططاً * وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً * وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً * وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنا نعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً * وأنا لاندري أشراً يريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً * وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً * وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً * وأنا لما سمعنا الهدى آمننا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً * لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً) .

وقد ذكرنا تفسير هذه السورة وتام القصة في آخر سورة الأحقاف ، وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك هنالك ، وأن هؤلاء النفر كانوا من جن « نصيبين » ^(١) وفي بعض الآثار من جن « بصرى » وأنهم مروا برسول الله ﷺ وهو قائم يصلي بأصحابه ببيت نخل من أرض مكة فوقوا فاستمعوا لقراءته ثم اجتمع بهم النبي ﷺ ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها ونهاهم عنها ، وسألوه الزاد ، فقال لهم : « كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً ، وكل روثة علف لدوابكم » ونهى النبي ﷺ أن يستنجى بهما ، وقال : « إنهما زاد إخوانكم الجن » . ونهى عن البول في السرب ^(٢) لأنها مساكن الجن وقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة الرحمن : فما جعل يمر فيها بآية (فبأى آلاء ربكما تكذبان) . إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . وقد أثنى عليهم النبي ﷺ في ذلك لما قرأ هذه السورة على الناس فسكتوا ، فقال : « الجن كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد » رواه الترمذى عن جبير وابن جرير والبخاري عن ابن عمر .

وقد اختلف في مؤمنى الجن : هل يدخلون الجنة ؟ أو يكون جزاء طائعتهم ألا يعذب بالنار فقط ؟ على قولين : الصحيح أنهم يدخلون الجنة لعموم القرآن ، وعموم قوله تعالى : (ولن يخاف مقام ربه جنتان * فبأى آلاء ربكما تكذبان) ^(٣) فامتن تعالى عليهم بذلك ، فلولا أنهم ينالونه لما ذكره وعده عليهم

(١) قرية من قرى اليمن (٢) هو جحر الوحشى ، والحفير تحت الأرض (٣) سورة الرحمن .

من النعم ، وهذا وحده دليل مستقل كاف في المسئلة وحده والله أعلم .

وقال البخارى : حدثنا قتيبة عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصارى عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى قال له : إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فأرفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة . قال أبو سعيد سمعته من رسول الله ﷺ انفراد به البخارى دون مسلم .
وأما كافرو الجن فمنهم الشياطين ، ومقدمهم الأكبر إبليس عدو آدم أبى البشر ، وقد سلطه هو وذريته على آدم وذريته ، وتكفل الله عز وجل بعصمة من آمن به وصدق رساله واتبع شرعه منهم ، كما قال : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً^(١)) وقال تعالى : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ^(٢)) وقال تعالى : (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون)^(٣) وقال : (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك أن لاتسكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بما أغويتنى لأزینن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين * لإعبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط على مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم)^(٤)

وقد ذكر تعالى هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف ، وههنا ، وفي سورة سبحان ، وفي سورة طه وفي سورة ص . وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه في كتابنا التفسير والله الحمد ، وسنوردها في قصة آدم إن شاء الله . والمقصود أن إبليس أنظره الله إلى يوم القيامة محنة لعباده واختباراً منه لهم ، كما قال تعالى (وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ) ، وقال تعالى : (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم

(١) الآية : ٦٥ من سورة الإسراء .

(٢) الآيات : ٢٠ - ٢١ من سورة سبأ (٣) الآية : ٢٧ من سورة الأعراف

(٤) الآيات : ٢٨ - ٤٤ من سورة الحجر

فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم قاستجبت لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أتم بمصرخى ، إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم * وأدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام) (١)
فإبليس لعنه الله حى الآن منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن ، وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ، ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن ، وقد قال الله تعالى : (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) وكان اسمه قبل معصيته العظيمة - عزازيل قال النقاش وكنيته : أبو كردوس ، ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صائد (٢) ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على الماء ، فقال له النبي ﷺ : احسأ فإن تعدو قدرك فعرى أن مادة مكاشفته التى كاشفه بها شيطانية مستمدة من إبليس الذى هو يشاهد عرشه على البحر ، ولهذا قال له احسأ فإن تعدو قدرك ، أى لن تجاوز قيمتك الدنية الخسيسة الحقيرة .

والدليل على أن عرش إبليس على البحر - الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، حدثنى معاذ التميمى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « عرش إبليس فى البحر يبعث سراياه فى كل يوم يفتنون الناس ، فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للناس » .

وقال أحمد : حدثنا روح ، حدثنا ابن جريج ، أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عرش إبليس على البحر يبعث سراياه فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة » ، تفرد به من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد ، حدثنا على بن زيد عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ لابن صائد : « ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على الماء - أو قال على البحر - حوله حيات ، قال رسول الله ﷺ : « ذلك عرش إبليس » هكذا رواه فى مسند جابر . وقال فى مسند أبى سعيد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا على بن زيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال لابن صائد : « ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على البحر حوله الحيات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « صدق ذلك عرش إبليس » .

وروى الإمام أحمد من طريق معاذ التميمى وأبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون ، ولكن فى التحريش بينهم (٣) . وروى الإمام مسلم من حديث الأعمش عن أبى سفيان طلحة بن نافع عن جابر عن النبي ﷺ قال : « إن الشيطان يضع

(١) الآيات : ٢٢ - ٢٣ من سورة إبراهيم .

(٢) ابن صائد أو ابن صياد رجل من اليهود أو دخيل فيهم كان يظن أنه الدجال ، وكان فتنة امتحن الله به عباده المؤمنين ، وكان عنده شئ من الكهانة أو السحر ومات بالمدينة وقيل فقد يوم الحرة فلم يجدوه والله أعلم .

(٣) أى سمى بينهم فى التحريش - أى الإغراء بالمصومات والشحناء والحروب والفتن .

عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجيء أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً ، ويجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، قال : فيقر به ويدنيه ويقول : نعم أنت « يروى بفتح النون بمعنى : نعم أنت ذلك الذي تستحق الإكرام ، وبكسرهما ، أى نعم منك . وقد استدل به بعض النحاة على جواز كون فاعل نعم مضمراً ، وهو قليل . واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج الأول ، ورجحه ووجهه بما ذكرناه والله أعلم .

وقد أوردنا هذا الحديث عند قوله تعالى : (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) يعنى أن السحر المتلقى عن الشياطين من الإنس والجن — يتوصل به إلى التفرقة بين المتآلفين غاية التألف ، المتوادين المتحابين ، ولهذا يشكر إبليس سعى من كان السبب في ذلك ، فالذى ذمه الله يمدحه ، والذي يفضب الله يرضيه ، عليه لعنة الله . وقد أنزل الله عز وجل سورتي المعوذتين مطردة لأنواع الشر وأسبابه وغاياته ، ولا سيما سورة (قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنة والناس) . وثبت في الصحيحين عن أنس ، وفي صحيح البخارى عن صفية بنت حيي أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا محمد بن جبير ، حدثنا عدى بن أبى عمارة ، حدثنا زياد النميرى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس^(١) وإن نسى التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس » .

ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب ، كان فيه تذكير للناس كما قال تعالى : (واذكر ربك إذا نسيت^(٢)) ، وقال صاحب موسى^(٣) : (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره^(٤)) وقال تعالى : (فأنساه الشيطان ذكر ربه^(٥)) يعنى الساقى ، لما قال له يوسف اذكرنى عند ربك ، نسى الساقى أن يذكره لربه يعنى مولاه الملك . وكان هذا النسيان من الشيطان فلبث يوسف في السجن بضع سنين ، ولهذا قال بعده : (وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة) أى مدة . وقرىء بعد أمة أى نسيان . وهذا الذى قلنا من أن الناسى هو الساقى — هو الصواب من القولين ، كما قررناه في التفسير والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عاصم سمعت أبا تيممة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حماره ، فقلت نفس الشيطان ، فقال النبي ﷺ : « لا تنقل نفس

(١) أى تأخر وتقهقر . والخناس الشيطان لأنه يخنس إذا ذكر اسم الله (٢) الآية ٢٤ من سورة الكهف .

(٣) هو فناه يوشع بن نون وكان يخدمه ويتبعه (٤) من الآية : ٦٣ من سورة الكهف .

(٥) من الآية : ٤٢ من سورة يوسف .

الشیطان ، فإنك إذا قلت نفس الشیطان تعاضم وقال بقوتی صرعته ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى یصیر مثل الذباب » . تفرد به أحمد وهو إسناد جيد .

وقال أحمد : حدثنا أبو بكر الحنفي ، حدثنا الضحاک بن عثمان عن سعید المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشیطان فأبس به ^(١) كما یبس الرجل بدابته ، فإذا سكن له زنقه أو ألجمه » ، قال أبو هريرة وأتم ترون ذلك ، أما المزنون فتراه مائلا كذا لا یذكر إلا الله ، وأما الملجم فإه لا یذكر الله عز وجل ، تفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا ثور بن یزید عن مكحول عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « العین حق ویحضرها الشیطان وحسد ابن آدم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن ذر بن عبد الله الهمداني عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إني أحدث نفسي بالشئ لأن آخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة » . ورواه أبو داود والنسائي من حديث منصور ، زاد النسائي والأعمش كلاهما عن أبي ذر به .

وقال البخاري : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرني عمرو قال : قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « يأتي الشیطان أحدكم فيقول من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ، ولينته » ، وهكذا رواه مسلم من حديث الليث ومن حديث الزهري وهشام بن عمرو كلاهما عن عمرو به . وقد قال الله تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشیطان تذكروا فإذا هم مبصرون) ^(٢) ، وقال تعالى : (وقل رب أعوذ بك من هزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون) ^(٣) ، وقال تعالى : (وإما ينزغناك من الشیطان نزع فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) ^(٤) ، وقال تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشیطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) ^(٥) . وروى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشیطان الرجيم من هزته ونفخه ونفته » .

وجاء مثله من رواية جنير بن مطعم وعبد الله بن مسعود وأبي أسامة الباهلي . وتفسه في الحديث ، فهزته الموتة وهو الخلق الذي هو الصرع ، ونفخه الكبر ، ونفته الشعر . وثبت في الصحيحين عن أنس

(١) أي دعاه ووسوس إليه (٢) الآية : ٢٠١ من سورة الأعراف . (٣) الآيات : ٩٩ ، ١٠٠ من

سورة المؤمنون . (٤) الآية : ٣٧ من سورة فصلت . (٥) الآيات : ٩٨ — ١٠٠ من سورة النحل .

(٩ — بداية — أول)

أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال : « أعوذ بالله من الخبث والخبائث » ، قال كثير من العلماء : استعاذ من ذكران الشياطين وإناهم . وروى الإمام أحمد عن شريح عن عيسى بن يونس عن ثور عن الحسين عن ابن سعد الخير وكان من أصحاب عمر ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتى الغائط فليستتر ، فإن لم يجد إلا أن يجمع كتيباً فليستدبره ، فإن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم ، من فعل فقد أحسن ومن لا فلا حرج » . ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث ثور بن يزيد به .

وقال البخاري : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن الأعمش عن عدى بن ثابت قال : قال سليمان بن سرد : استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس ، فأحدهما يسب صاحبه مفضباً قد احمر وجهه ، فقال النبي ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ^(١) » فقالوا للرجل ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ ؟ فقال إني لست بمجنون . ورواه أيضاً مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن الأعمش .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا يأكل أحدكم بشماله ، ولا يشرب بشماله ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » وهذا على شرط الصحيحين بهذا الإسناد وهو في الصحيح من غير هذا الوجه . وروى الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن أبي حكيم عن عمرو بن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أكل بشماله أكل معه الشيطان ، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر أنبأنا شعبة عن أبي زياد الطحان قال سمعت أبا هريرة يقول عن النبي ﷺ أنه رأى رجلاً يشرب قائماً فقال له « قه » قال لم ؟ قال : أيسرك أن يشرب معك الهر ؟ قال لا ، قال : « فإنه قد شرب معك من هو شر منه الشيطان » . تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال أيضاً : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري عن رجل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لو يعلم الذي يشرب وهو قائم ماني بطنه لاستقاء » قال وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثل حديث الزهري .

وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى ، حدثنا ابن لهيعة عن ابن الزبير أنه سأل جابراً : سمعت النبي ﷺ ^(٢) قال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان لا مميت لكم ولا عشاء هبنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال أدر كنتم المميت ، وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال أدر كنتم المميت والعشاء ، قال : نعم .

(١) تمامه كما في البخاري — ذهب عنه ما يجد (٢) سمعت بفتح التاء — استفهام من جابر بخذف الهجزة .

وقال البخارى : حدثنا محمد ، حدثنا عبدة ، حدثنا محمد عن هشام بن عروة عن أبيه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يبرز ، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يغيب ، ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرني الشيطان » أو الشياطين ، لا أدري أى ذلك قال هشام . ورواه مسلم والنسائي من حديث هشام به .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن مساعة عن مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق فقال : « ها إن الفتنة ههنا ، إن الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان » ، هكذا رواه البخارى منفرداً به من هذا الوجه . وفي السنن أن رسول الله ﷺ نهى أن يجلس بين الشمس والظل ، وقال : « إنه مجلس الشيطان » وقد ذكروا في هذا معاني ؛ من أحسنها أنه لما كان الجلوس في مثل هذا الموضع فيه تشويه بالخلقة فيما يرى كان يحبه الشيطان ، لأن خلقته في نفسه مشوه وهذا مستقر في الأذهان . ولهذا قال تعالى : (طلعتها كأنه رءوس الشياطين)^(١) . الصحيح أنهم الشياطين لا ضرب من الحيات كما زعمه من زعمه من المفسرين والله أعلم ؛ فإن النفوس مفروز فيها قبح الشياطين وحسن خلق الملائكة وإن لم يشاؤا ، ولهذا قال تعالى : (طلعتها كأنه رءوس الشياطين) ، وقال النسوة لما شاهدن جمال يوسف : (حاش لله ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم) .

وقال البخارى : حدثنا يحيى بن جعفر ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، حدثنا ابن جريج أخبرني عطاء عن جابر عن النبي ﷺ قال : « إذا استجنح^(٢) - أو كان جنح الليل - أو أمسيتم فكفوا صبيانكم^(٣) ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم^(٤) ، واذكر اسم الله ، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله ، وأولك^(٥) سقاءك واذكر اسم الله ، وخمر^(٦) إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرض^(٧) عليه شيئاً » .

ورواه أحمد عن يحيى عن ابن جريج ، وعنده : فإن الشيطان لا يفتح مغلقاً . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أغلقوا أبوابكم وخمروا آياتكم ، وأوكوا أسقيتكم ، وأطفئوا سرجكم ، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ولا يكشف غطاء ، ولا يحل وكاء ، وإن الفو يسقة تضرم البيت على أهله - يعنى الغارة » .

وقال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة عن منصور عن سالم بن أبي الجعد عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتني ، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه » . وحدثنا الأعمش عن سالم عن كريب عن ابن عباس مثله .

(١) الآية : ٦٥ من سورة الصافات (٢) أى أظلم . (٣) ضموم إليهم . (٤) أى أدخلوا سبيلهم . (٥) أى شد ، وهو أمر من الإيكاء وهو الشد (٦) أى غط ، والتخمير التغطية (٧) أى تمده عليه عرضاً ،

ورواه أيضاً عن موسى بن إسماعيل عن همام عن منصور عن سالم عن كريب عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « أما لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فرزقا ولداً لم يضره الشيطان » . وقال البخارى : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أخى عن سليمان عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية^(١) رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »^(٢) هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم عن حمزة ، حدثني ابن أبي حازم عن يزيد — يعنى ابن الهادى — عن محمد بن إبراهيم عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثاً ؛ فإن الشيطان يبيت على خيشومه » ورواه مسلم عن بشر بن الحكم عن الدراوردى والنسائى عن محمد بن زنبور عن عبد العزيز بن أبي حازم ، كلاهما عن يزيد بن الهادى به .

وقال البخارى : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن عبد الله قال : ذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليله ثم أصبح ، قال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه » أو قال « فى أذنه » .

ورواه مسلم عن عثمان وإسحاق كلاهما عن جرير به . وأخرجه البخارى أيضاً والنسائى وابن ماجه من حديث منصور بن المعتمر به . وقال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف أنبأنا الأوزاعى عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط ، فإذا قضى أقبل ، فإذا توب بها أدبر ، فإذا قضى أقبل ، حتى يخاطر بين الإنسان وقلبه فيقول : اذكر كذا وكذا ، حتى لا يدري أثلاثاً صلى أم أربعاً ، فإذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً — سجد سجدة السهو »^(٣) هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا جعفر — يعنى الأحر — عن عطاء بن السائب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « راصوا الصفوف فإن الشيطان يقوم فى الخلل » . وقال أحمد : حدثنا أبان ، حدثنا قتادة عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يقول : « راصوا الصفوف وقاربوا بينها ، وحاذوا بين الأعناق ، فوالذى نفس محمد بيده إنى لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنه الحذف »^(٤) . وقال البخارى : حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا يونس عن حميد بن هلال عن أبي

(١) هى مؤخر الرأس (٢ ، ٣) البخارى : كتاب بدء الخلق « باب صفة إبليس » .

(٤) قال فى القاموس : الحذف محرمة طائر أبيض صغير . وغنم سود صغير حجازية أو جرشية بلا أذنان ولا آذان .

صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مر بين يدي أحدكم شيء فليمنعه ، فإن أبي فليمنعه ، فإن أبي فليقاتله ، وإنما هو شيطان » ورواه أيضاً مسلم وأبو داود من حديث سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا بشير بن معبد ، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي فذهبت أسر بين يديه فردني ، ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه يقرأ ، فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين : الإبهام والتي تليها ، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد ، يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » . وروى أبو داود منه : فمن استطاع إلى آخره عن أحمد بن أبي سريح عن أبي أحمد محمد بن عبد الله بن محمد بن الزبير به . وقال البخاري : حدثنا محمود حدثنا شبابة حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه صلى صلاة فقال : « إن الشيطان عرض لي فسد على لقطع الصلاة على ، فأمكنني الله منه » فذكر الحديث . وقد رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به مطولاً .

ولفظ البخاري عند تفسير قوله تعالى إخباراً عن سليمان عليه السلام أنه قال : (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب^(١)) من حديث روح وغندر عن شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجن تفلت^(٢) على البارحة — أو كلمة نحوها . ليقطع على الصلاة . فأمكنني الله منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان : (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) قال روح فرده خاسئاً^(٣) .

وروى مسلم من حديث أبي إدريس عن أبي الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ثم قال : « ألعنك بلعنة الله ثلاثاً » وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك فقال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجمعه في وجهي ، فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة » .

(١) الآية : ٣٦ من سورة سآ (٢) توب (٣) ذليلاً مطروداً .

وقال تعالى : (فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور)^(١) يعنى الشيطان . وقال تعالى :
(إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)^(٢) . فالشيطان
لا يألو الإنسان خبالاً جهده وطاقته في جميع أحواله وحركاته وسكناته ، كما صنف الحافظ أبو بكر بن أبي
الدنيا كتاباً في ذلك سماه : مصادد الشيطان ، وفيه فوائد جمة .

وفي سنن أبي داود : أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه : « أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان
عند الموت » ، وروينا في بعض الأخبار أنه قال : يارب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت
أرواحهم في أجسادهم ، فقال الله تعالى : « وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني » . وقال الله
تعالى : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم)^(٣) فوعد
الله هو الحق المصدق ووعد الشيطان هو الباطل . وقد روى الترمذى والنسائى وابن حبان في صحيحه وابن
أبي حاتم في تفسيره من حديث عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود قال : قال رسول الله
ﷺ : « إن للشيطان لئمة^(٤) ابن آدم وللملك لمة ؛ فأما لمة الشيطان فإبعاد بالشر وتكذيب بالحق ،
وأما لمة الملك فإبعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد
الأخرى فليتعوذ من الشيطان » ثم قرأ : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه
وفضلاً والله واسع عليم) .

وقد ذكرنا في فضل سورة البقرة أن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه . وذكرنا في فضل آية
الكرسى : أن من قرأها في ليلة لا يقربه الشيطان حتى يصبح .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن يوسف ، أنبأنا مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة أن
رسول الله ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء
قدير في يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ،
وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر
من ذلك »^(٥) . وأخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه عن حديث مالك ، وقال الترمذى حسن صحيح .

وقال البخارى : أنبأنا أبو الهيثم ، أنبأنا شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال :
قال رسول الله ﷺ : « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه بإصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم ، ذهب يطعن
فطعن في الحجاب »^(٦) تفرد به من هذا الوجه . وقال البخارى : حدثنا عاصم بن علي ، حدثنا ابن أبي

(١) الآية : ٣٣ من سورة لقمان (٢) الآية : ٦ من سورة فاطر .

(٣) الآية : ٢٦٨ من سورة البقرة (٤) اللمة : الصعبة والرفقة والمؤنس للواحد والجمع .

(٥) هذا الحديث وما بعده في كتاب بدء الخلق . (٦) هو الجلدة التي فيها الجنين وهي المشيمة .

ذئب عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « التثاؤب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا قال «ها» ضحك الشيطان » . ورواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه النسائي من حديث ابن أبي ذئب به . وفي لفظ « إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع فإن الشيطان يدخل » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا سفيان عن محمد بن مجلان عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب العطاس ويُبغض أو يكره التثاؤب ، فإذا قال أحدكم هاهاها فإتما ذلك الشيطان يضحك من جوفه » ورواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن مجلان به .

وقال البخاري : حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص عن أشعث عن أبيه عن مسروق قال : قالت عائشة سألت النبي ﷺ عن التفات الرجل في الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم » ، وكذا رواه أبو داود والنسائي من رواية أشعث بن أبي الشعثاء سليم بن أسود المحاربي عن أبيه عن مسروق به .

وروى البخاري من حديث الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير ، حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم حلمًا يخافه فليبصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى أحدكم ، لعل الشيطان أن يزرع في يده فيقع في حفرة من النار » . أخرجاه من حديث عبد الرزاق . وقال الله تعالى : (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين * وأعتدنا لهم عذاب السعير)^(١) وقال : (إنا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملائ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً * ولم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب)^(٢) . وقال تعالى : (ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين)^(٣) . وقال تعالى : (وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون)^(٤) ، وقال تعالى إخباراً عن الجن : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً)^(٥) .

(١) الآية : ٥ من سورة الملك (٢) الآيات : ٦ — ١٠ من سورة الصافات (٣) الآيات : من ١٦ — من الحجر : (٤) الآيات : ٢١٠ : ٢١٢ من سورة الشعراء (٥) الآيات : ٨ و ٩ من سورة الجن .

وقال البخارى : وقال الليث ، حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ قال : الملائكة تتحدث في العنان — والعنان الغمام — بالأمر يكون في الأرض ، فسمع الشياطين الكلمة ، فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة ، فيزيدون معها مائة كلمة ^(١) هكذا رواه في صفة إبليس معلقاً عن الليث به . ورواه في صفة الملائكة عن سعيد بن أبي مريم عن الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود عن عروة عن عائشة بنحوه . تفرد بهذين الطريقين دون مسلم . وروى البخارى في موضع آخر ومسلم من حديث الزهري عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال : قالت عائشة سألت ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : « إنهم ليسوا بشيء » ، فقالوا يارسول الله : إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً ، فقال ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجنى فيقرقرها ^(٢) في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة » هذا لفظ البخارى .

وقال البخارى : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يقول : إن نبي الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا — للذي قال — الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض » . ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه « فسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته ، ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدرك الشهاب ، قبل أن يلقها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا — كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء » ، انفرد به البخارى ^(٣) وروى مسلم من حديث الزهري عن علي بن الحسين زين العابدين عن ابن عباس عن رجال من الأنصار عن النبي ﷺ نحو هذا .

وقال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإنيهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) ^(٤) وقال تعالى : (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم — الآية) ^(٥) ، وقال تعالى : (قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد * قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد) ^(٦) ، وقال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين

(١) في النسخ التي بأيدينا مائة كذبة .

(٢) أى ردها . وفي رواية يقرها والقر : ترديدك الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه . وقر الدجاجة : صوتها إذا قطعت

(٣) الحديث في كتاب التفسير « سورة سبأ » (٤) الآيات : ٣٦ — ٣٨ من سورة الزخرف .

(٥) الآية : ٢٥ من سورة فصلت . (٦) الآيات : ٢٧ — ٢٩ من سورة ق .

الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون *
ولتصني إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون (١) .

وقد قدمنا في صفة الملائكة ما رواه أحمد ومسلم من طريق منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه -
واسمه رافع - عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من
الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ، ولكن الله أعانني عليه فلا
يأسرنى إلا بخير » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه - واسمه حصين بن
جندب - وهو أبو ظبيان الجني ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منكم من أحد إلا
وقد وكل به قرينه من الشياطين ، قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن الله أعانني عليه فأسلم » .
تفرد به أحمد وهو على شرط الصحيح .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هارون ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أخبرني أبو صخر عن يزيد بن قسيط ،
حدثه أن عمرو بن الزبير ، حدثه أن عائشة زوج النبي ﷺ ، حدثته : أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم خرج من عندها ليلاً ، قالت فغرت عليه ، قالت فجاء فرأى ما أصنع ، فقال مالك يا عائشة ؟
أغررت ؟ قالت : فقلت ومالي أن لا يغار مثلى على مثلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أفأخذك شيطانك ؟
قالت يا رسول الله أو معي شيطان ؟ قال نعم . قلت ومع كل إنسان ؟ قال نعم . قلت ومعك يا رسول الله ؟
قال نعم ، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم » وهكذا رواه مسلم عن هارون - وهو ابن سعيد الأبي -
بإسناده نحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبي هريرة
أن النبي ﷺ قال : « إن المؤمن لينصى شيطانه كما ينصى أحدكم بغيره في السفر » تفرد به أحمد من
هذا الوجه . ومعنى لينصى شيطانه : ليأخذ بناصيته فيغلبه ويقهره كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه . وقوله
تعالى إخباراً عن إبليس : (قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم
ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكركن) (٢) .

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل - هو عبد الله بن عقيل الثقفي - حدثنا
موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي فاكه ، قال سمعت رسول الله ﷺ قال :
« إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه (٣) فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟

(١) الآيتان : ١١٢ و ١١٣ من سورة الأنعام . (٢) الآيتان : ١٦ و ١٧ من سورة الأعراف .

(٣) جمع طريق ، مثل طرق .

قال فعصاه وأسلم . قال : وقعدله بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماؤك ؟ وإنما مثل المهاجر كالفارس في الطول ، فعصاه وهاجر . ثم قعدله بطريق الجهاد ، وهو جهد النفس المال ، فقال : أتقاتل فتقتل فتتكح المرأة ويقسم المال ؟ قال فعصاه وجاهد . قال رسول الله ﷺ : « فمن فعل ذلك منهم كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن كان غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقصته^(١) دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا عبادة بن مسلم الغزاري ، حدثني جبير بن أبي سليمان بن ، جبير بن مطعم قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسى : « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة . اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي . اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي . اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي » قال وكيع يعني الخسف ، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به . وقال الحاكم صحيح الإسناد .

باب ماورد في خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، أبى واستكبر وكان من الكافرين * وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)^(٢) ، وقال تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)^(٣) وقال تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها

(١) أوقفته ودقت عنقه . (٢) الآيات : ٣٠ - ٣٩ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٥٩ من سورة آل عمران .

وبث منها رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً^(١) .
 كما قال : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)^(٢) . وقال تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ... الآية)^(٣) . وقال تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال أنظرني إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين * قال فما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين * ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لها الشيطان ليبدى لها ما وورى عنهما من سواتهما ، وقال ما نها كما ربكنا عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمها إني لسكنا من الناصحين * فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة ؟ وأقل لسكنا إن الشيطان لسكنا عدو مبين ؟ * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون)^(٤) .

كما قال في الآية الأخرى : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)^(٥) . وقال تعالى :
 (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط على مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم)^(٦) . وقال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، قال أسجد لمن خلقت

(١) أول سورة النساء (٢) الآية : ١٣ من سورة الحجرات (٣) الآية : ١٨٩ من سورة الأعراف .

(٤) الآيات : ١٦-٢٥ من سورة الأعراف (٥) الآية : ٥٥ من سورة طه (٦) الآيات : ٢٦-٤٤ من سورة الحجر .

طيفاً؟ * قال أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستغفر من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدمهم وما يعدمهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا (١) . وقال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو؟ بئس للظالمين بدلاً) (٢) . وقال تعالى : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنت لا تضاماً فيها ولا تضحى * فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟ * فأكلا منها فبدت لهما سواتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى * قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) (٣) . وقال تعالى : (قل هو نبا عظيم * أتم عنه معروضون * ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون * إن يوحى إلى إلا أمأ أنا نذير مبين * إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد للملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ أستكبرت أم كنت من العالين؟ * قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق وأقول لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين * قل ما سألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين * إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين) (٤) .

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن

وقد تكلمنا على ذلك كله فى التفسير ، ولنذكر ههنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمة

وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله ﷺ ، والله المستعان

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) أعلم بما يريد أن يخلق

(١) الآيات : ٦١ - ٦٥ من سورة الإسراء (٢) الآية : ٥٠ من سورة الكهف .
(٣) الآيات : ١١٥ - ١٢٦ من سورة طه (٤) الآيات : من ٦٧ إلى آخر سورة ص .

من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته ، كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه ، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة ، لا على وجه الاعتراض والتنقص لبنى آدم والحسد لهم ، كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين ، قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟) قيل علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن ، قاله قتادة .

وقال عبد الله بن عمر : كانت الجن قبل آدم بألفى عام فسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور . وعن ابن عباس نحوه ، وعن الحسن أنهم قالوا ذلك . وقيل لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ ، فقيل أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له السجل . رواه ابن أبي حاتم عن أبي جعفر الباقر ، وقيل لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالباً ، (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أى نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد ، فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فهنا نحن لانقر ليلاً ولا نهاراً (قال إني أعلم ما لا تعلمون) أى أعلم من المصاحبة الراجعة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون ، أى سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء .

ثم بين لهم شرف آدم عليهم فى العلم فقال : (وعلم آدم الأسماء كلها) . قال ابن عباس : هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . وفى رواية : علمه اسم الصخرة ، والقدر ، حتى الفسوة والفسية . وقال مجاهد : علمه اسم كل دابة ، وكل طير وكل شىء . وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد .

وقال الربيع : علمه أسماء الملائكة . وقال عبد الرحمن بن زيد : علمه أسماء ذريته . والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها ، مكبرها ومصغرها ، كما أشار إليه ابن عباس رضى الله عنهما .

وذكر البخارى هنا مارواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام عن قتادة عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا ، فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر ، خلقتك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شىء » وذكر تمام الحديث .

(ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) . قال الحسن البصرى : لما أراد الله خلق آدم ، قالت الملائكة لا يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه ، فابتلوا بهذا . وذلك قوله : (إن كنتم صادقين) وقيل غير ذلك كما بسطنا فى التفسير ، قالوا : (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) ، أى سبحانك أن يحيط أحد بشىء من علمك من غير

تعليمك كما قال : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) . (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟) أى أعلم السر كما أعلم العلانية . وقيل إن المراد بقوله : (أعلم ما تبدون) ما قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها ، وبقوله (وما كنتم تكتمون) المراد بهذا الكلام إبليس حين أسر الكبر والتخيرة على آدم عليه السلام ، قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثورى واختاره ابن جرير . وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة (وما كنتم تكتمون) قولهم : إن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه .

قوله : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر) هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، كما قال : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) فهذه أربع تشریفات : خلقه له بيده الكريمة ، ونفخه فيه من روحه ، وأمره الملائكة بالسجود له ، وتعليمه أسماء الأشياء . ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملاء الأعلى وتناظرا كما سيأتى : أنت آدم أبو البشر الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء . وهكذا يقول أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم ، وكما سيأتى إن شاء الله تعالى . وقال في الآية الأخرى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

قال الحسن البصرى : قاس إبليس وهو أول من قاس . وقال محمد بن سيرين : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس ، رواها ابن جرير . ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم ، فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له ، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار . ثم هو فاسد في نفسه ؛ فإن الطين أنفع وخير من النار ، لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو ، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق .

ثم آدم شرفه الله بخلق له بيده ونفخه فيه من روحه ، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له ، كما قال : (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * إلى — يوم الدين) ، استحق هذا من الله تعالى لأنه استأزم تنقصه لآدم وازدراءه به وترفعه عليه — مخالفة الأمر الإلهى ، ومعاندة الحق فى النص على آدم على التعيين . وشرع فى الاعتذار بما لا يجدى عنه شيئاً ، وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى فى سورة سبجان : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجدت لمن خلقت طيناً ؟ ... إلى — وكفى بربك وكيلًا) .

وقال في سورة الكهف : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) أى خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره ، وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها ، فإنه مخلوق من نار كما قال ، وكما جاء في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من مارح من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

قال الحسن البصرى : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط . وقال شهر بن حوشب : كان من الجن ، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار ، وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك ، فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه . وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون : كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا ، قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل ، وفي رواية عن الحارث قال النقاش وكنيته : أبو كردوس . قال ابن عباس : وكان من حى من الملائكة يقال لهم الجن ، وكانوا خزان الجنان ، وكان من أشرفهم وأكثرهم علماً وعبادة ، وكان من أولى الأجنحة الأربعة فسخه الله شيطاناً رجياً . وقال في سورة ص : (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين * ... إلى — لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) .

وقال في سورة الأعراف : (قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لأنينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمنهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين) أى بسبب إغوانك إياي لأقعدن لهم كل مرصد ، ولأنينهم من كل جهة منهم ، فالسعيد من خالفه والشقي من اتبعه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل — هو عبد الله بن عقيل الثقفي — حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي الفاكه قال سمعت رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان يقعد لابن آدم بأطرقه » وذكر الحديث كما قدمناه في صفة إبليس .

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم : أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات ؟ وهو قول الجمهور . أو المراد بهم ملائكة الأرض ؟ كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس ، وفيه انقطاع وفي السياق نكارة^(١) ، وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه . ولكن الأظهر من السياقات الأول ، ويدل عليه الحديث : « وأسجد له ملائكته » وهذا عموم أيضاً والله أعلم . وقوله تعالى لإبليس : (اهبط منها) و (اخرج منها) دليل على أنه كان في السماء فأمر بالهبوط

منها ، والخروج من المنزل والمكانة التي كان قد نالها بعبادته ، وتشبهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه ، فأهبط إلى الأرض مذموماً مدحوراً .

وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) . وقال في الأعراف : (قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين *) ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وقال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدوك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنت لا تضاماً فيها ولا تضجى) وسياق هذه الآيات يقضى أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة لقوله : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) وهذا قد صرح به إسحاق بن بشر وهو ظاهر هذه الآيات .

ولكن حكى السدى عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا : أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة ، خلقها الله من ضلعه . فسألها من أنت ؟ قالت امرأة ، قال ولم خلقت ؟ قالت لتسكن إلى ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه : ما سمها يا آدم ؟ قال حواء ، قالوا ولم كانت حواء ؟ قال لأنها خلقت من شيء حى . وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ، ولأم مكانه لحماً . ومصداق هذا في قوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء . . . الآية) وفي قوله تعالى : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به . . . الآية) وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفي الصحيحين من حديث زائدة عن ميسرة الأشجعي ، عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً) لفظ البخارى . وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى : (ولا تقربا هذه الشجرة) فقيل هى الكرم ، وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبي وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس والسدى في رواية عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ، قال : وتزعم يهود أنها الحنطة ، وهذا مروى عن ابن عباس والحسن البصرى ووهب بن منبه وعطية العوفى وأبي مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

قال وهب : والحبة منه ألين من الزبد وأحلى من العسل . وقال الثوري عن أبي حصين عن أبي مالك : ولانقربا هذه الشجرة — هي النخلة . وقال ابن جريج عن مجاهد : هي التينة ، وبه قال قتادة وابن جريج وقال أبو العالية كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي في الجنة حدث .

وهذا الخلاف قريب ، وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها . ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن . وإنما الخلاف الذي ذكره في أن هذه الجنة التي دخلها آدم : هل هي في السماء أو في الأرض — هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه . والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى ، لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) والألف واللام ليست للعموم وللمعهود لفظي ، وإنما تعود على معهود ذهني وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى ، وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام : « علام أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ . . . الحديث » كما سيأتي الكلام عليه .

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي — واسمه سعد بن طارق — عن أبي حازم سلامة ابن دينار عن أبي هريرة ، وأبو مالك عن ربيعي عن حذيفة قالوا : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ » وذكر الحديث بطوله . وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى وليست تخلو عن نظر .

وقال آخرون : بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد ، لأنه كلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة ، ولأنه نام فيها وأخرج منها ، ودخل عليه إبليس فيها ، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى . وهذا القول محكى عن أبي بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة ، واختاره ابن قتيبة في المعارف ، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره وأفرد له مصنفاً على حدة . وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله . ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي بن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصبهاني . ونقله القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية . وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب . ومن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في المال والنحل ، وأبو محمد بن عطية في تفسيره ، وأبو عيسى الرماني في تفسيره .

وحكى عن الجمهور الأول ، وأبو القاسم الراغب والقاضي الماوردي في تفسيره فقال : واختلف في الجنة التي أسكنها يعني آدم وحواء على قولين : أحدهما أنها جنة الخلد ، والثاني جنة أعدها الله لها وجعلها دار ابتلاء ، وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء . ومن قال بهذا اختلفوا على قولين : أحدهما أنها في السماء لأنه أهبطهما منها ، وهذا قول الحسن ، والثاني أنها في الأرض لأنه امتحنها فيها بالنهي عن

الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار . وهذا قول ابن يحيى ، وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم ، والله أعلم بالصواب من ذلك .

هذا كلامه . فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة ، وأشعر كلامه أنه متوقف في المسألة . ولقد حكى أبو عبد الله الرازى في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال : هذه الثلاثة التي أوردها الماوردى ، ورابعها الوقف . وحكى القول بأنها في السماء وليست جنة المأوى — عن أبي على الجبائى .

وقد أورد أصحاب القول الثانى سؤالاً يحتاج مثله إلى جواب ، فقالوا : لاشك أن الله سبحانه وتعالى طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية ، وأمره بالخروج عنها والهبوط منها ، وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته ، وإنما هو أمر قدرى لا يخالف ولا يمانع ، ولهذا قال : (اخرج منها مذهباً ومدحوراً) : وقال : (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) وقال : (اخرج منها فإنك رجيم) والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة ، وأياً ما كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدرأفى المكان الذى طرد عنه وأبعد منه ، لاعلى سبيل الاستقرار ولاعلى سبيل المرور والاجتياز .

قالوا : ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له : (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟) وبقوله : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلها ما بغرور . . . الآية) وهذا ظاهر فى اجتماعه معها فى جنتهما . وقد أجبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما فى الجنة على سبيل المرور فيها لاعلى سبيل الاستقرار بها ، وأنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء . وفى الثلاثة نظر ، والله أعلم .

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة : ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى الزيادات عن هديبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن حميد ، عن الحسن البصرى عن يحيى بن زمره السعدى ، عن أبي بن كعب قال : إن آدم لما احتضر انتهى قطفأ من عنب الجنة ، فانطلق بنوه ليطلبوه له ، فلقيتهم الملائكة فقالوا : أين تريدون يا بنى آدم ؟ فقالوا إن أبانا انتهى قطفأ من عنب الجنة . فقالوا لهم : ارجعوا فقد كفيتموه . فانتهاوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه ، وصلى عليه جبريل ومن خلفه من الملائكة ودفنوه ، وقالوا : هذه سنتكم فى موتاكم . وسيأتى الحديث بسنده ، وتام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام . قالوا : فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التى كان فيها آدم التى انتهى منها القطف ممكناً — لما ذهبوا يطلبون ذلك ، فدل على أنها فى الأرض لا فى السماء ، والله تعالى أعلم .

قالوا : والاحتجاج بأن الألف واللام فى قوله : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهنى — مسلم ، ولكن هو مادل عليه سياق الكلام ، فإن آدم خلق

من الأرض ولم ينقل أنه رفع إلى السماء ، وخلق ليكون في الأرض ، وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال : (إني جاعل في الأرض خليفة)

قالوا : وهذا كقوله تعالى : (إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة)^(١) ، فالألف واللام ليس للعموم ، ولم يتقدم معهود لفظي ، وإنما هي للمعهود الذهني الذي دل عليه السياق وهو البستان .

قالوا : وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء ، قال الله تعالى : (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . . . الآية)^(٢) ، وإنما كان في السفينة حين استقرار على الجودي ونضب الماء عن وجه الأرض ، وأمر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركا عليه وعليهم . وقال الله تعالى : (اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم . . . الآية)^(٣) وقال تعالى : (وإن منها لما يهبط من خشية الله . . . الآية)^(٤) وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير .

قالوا : ولأمانع — بل هو الواقع — أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ، ذات أشجار وتमार وظلال ونعيم ونضرة وسرور ، كما قال تعالى : (إن لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى) : أى لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعرى (وأنتك لانظماً فيها ولا تضحي) : أى لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس ، ولهذا قرن بين هذا وهذا ، وبين هذا وهذا ، لما بينهما من الملاءمة . فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نهى عنها ، أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والسكد والسعي والنكد ، والابتلاء والاختبار والامتحان ، واختلاف السكان ديناً وأخلاقاً وأعمالاً ، وقصوداً وإرادات وأقوالاً وأفعالاً ، كما قال تعالى : (ولستم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) ، ولا يلزم من هذا أنهم كانوا في السماء كما قال : (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لغيفا)^(٥) ، ومعلوم أنهم كانوا فيها ولم يكونوا في السماء .

قالوا : وليس هذا القول مفرعاً على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم ، ولا تلازم بينهما ، فكل من حكى عنه هذا القول من السلف وأكثرتهم الخلف — ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم ، كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح كما سيأتي إيرادها في موضعها ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وقوله تعالى : (فأرلها الشيطان عنها) أى عن الجنة (فأخرجهما مما كانا فيه) أى من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والسكد والنكد ، وذلك بما وسوس لها وزينه في صدورهما ، كما قال تعالى : (فوسوس لها الشيطان ليندى لها ماوورى عنهما من سواتهما ، وقال ما أنها كما ربكنا عن هذه الشجرة)

(١) الآية : ١٧ من سورة نآ (٢) الآية : ٤٨ من سورة هود .

(٣) الآية : ٦١ من سورة البقرة (٤) الآية : ٧٤ من سورة البقرة (٥) الآية : ١٠٤ من سورة الإسراء .

إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) يقول : ما نها كما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، أى ولو أكلتما منها لصرتما كذلك ، (وقاسمهما) أى حلف لها على ذلك (إني لكما من الناصحين) ، كما قال في الآية الأخرى : (فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟) : أى هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم ، واستمررت في ملك لا يبسد ولا ينقضى ؟ وهذا من التفرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع .

والمقصود أن قوله شجرة الخلد - التي إذا أكلت منها خلدت ، وقد تكون هي الشجرة التي قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا شعبة عن أبي الضحاك سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، شجرة الخلد » . وكذا رواه أيضاً عن غندر وحجاج عن شعبة ، ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده عن شعبة أيضاً به . قال غندر : قلت لشعبة هي شجرة الخلد ، قال ليس فيها هي . تفرد به الإمام أحمد .

وقوله : (فدلاهما بفرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتها ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) كما قال في طه (فأكلا منها فبدت لهما سواتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم ، وهي التي حدثه على أكلها والله أعلم .

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري : حدثنا بشر بن محمد ، حدثنا عبد الله ، أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه : « لولا بنو إسرائيل لم يخنز^(١) اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » : تفرد به من هذا الوجه ، وأخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة به ، ورواه أحمد ومسلم عن هارون بن معروف عن أبي وهب عن عمرو بن حارث عن أبي يونس عن أبي هريرة به . وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب : أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية ، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها ، فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام ، وليس فيها ذكر لإبليس ، فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان ، فوصلا من ورق التين وعملا ميازر . وفيها أنهما كانا عريانين . وكذا قال وهب بن منبه كان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها .

وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم — غلط منهم ، وتحريف وخطأ في التعريب ؛ فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يكاد يتيسر لسلك أحد ، ولا سيما لمن لا يعرف كلام العرب جهداً ، ولا

(١) أى لم يتن ولم تتغير رائحته ؛ ذلك لأنهم كانوا يدخرون اللحم والطعام لندم .

يحيط علماً بفهم كتابه ، أيضاً فلماذا وقع في تعريبهم لها خطأً كبيراً لفظاً ومعنى . وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله : (ينزع عنها لباسهما ليريهما سوأتهم) فهذا لا يرد لغيره من الكلام والله تعالى أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن بن اسكاب ، حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن الحسن بن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس ، كأنه نخلة سحوق^(١) ، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه ، فأول ما بدا منه عورته ، فلما نظر إلى عورته جعل يشتم في الجنة ، فأخذت شعره شجرة فنازعها ، فناداه الرحمن عز وجل : يا آدم منى تفر ؟ ، فلما سمع كلام الرحمن قال : يارب لا ، ولكن استحياء . »

وقال الثوري عن ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ورق التين . وهذا إسناد صحيح إليه ، وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب ، وظاهر الآية يقتضى أعم من ذلك ، وبتقدير تسليمه فلا يضر ، والله تعالى أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن بن ذكوان عن الحسن البصرى عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ، ستين ذراعاً ، كثير الشعر مواري العورة ، فلما أصاب الخبيثة في الجنة بدت له سوأته ، فخرج من الجنة ، فلقيته شجرة فأخذت بناصيته ، فناداه ربه : أفراراً منى يا آدم ؟ قال : بل حياء منك والله يارب مما جئت به . » ثم رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن الحسن بن يحيى بن ضمرة ، عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ بنحوه . وهذا أصح ؛ فإن الحسن لم يدرك أياً . ثم أورده أيضاً من طريق خيشمة ابن سليمان الإطرابلسي عن محمد بن عبد الوهاب أبي قرصافة العسقلاني ، عن آدم بن أبي إياس عن شيبان عن قتادة عن أنس مرفوعاً بنحوه .

(وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكا الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ *
قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة ، وتذلل وخضوع واستكانة ، وافتقار إليه تعالى في الساعة الراهنة ، وهذا السر ما سرى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأخراه .

(قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس ، قيل والحية معهم ، أمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونهم متعادين متحاربين .

(١) أى طويلة . قال في القاموس : والسحوق من النخل والحمر والأذن - الطويلة ، والجمع سحق بالسقم .

وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات ، وقال : « ما سالناهن منذ حارباهن » ، وقوله في سورة طه : (قال اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو) هو أمر لآدم وإبليس ، واستتبع آدم حواء وإبليس الحية . وقيل هو أمر لهم بصيغة التثنية كما في قوله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين^(١)) .

والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدع ومدعى عليه — قال وكنا لحكمهم شاهدين ، وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله : (وقلنا اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، ولستم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعاً فيما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار فيها خالدون) — فقال بعض المفسرين : المراد بالإهباط الأول : الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا ، وبالثاني : من السماء الدنيا إلى الأرض . وهذا ضعيف لقوله في الأول : (قلنا اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، ولستم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) فدل على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول والله أعلم .

والصحيح أنه كرره لفظاً وإن كان واحداً وناط مع كل مرة حكماً ؛ فناطق بالأول عداوتهم فيما بينهم ، وبالثاني الاشتراط عليهم أن من تبع هداي الذي ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ، ومن خالفه فهو الشقي ، وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الحكيم .

وروى الخافظ ابن عساكر عن مجاهد قال : أمر الله ملكين أن يخرجوا آدم وحواء من جواره ، فنزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، وتعلق به غصن ، فظن آدم أنه قد عوجل بالمعقوبة ، فنكس رأسه يقول : العفو العفو ، فقال الله : أفراراً مني ؟ قال بل حياء منك ياسيدي . وقال الأوزاعي عن حسان — هو ابن عطية — مكث آدم في الجنة مائة عام ، وفي رواية ستين عاماً ، وبكى على الجنة سبعين عاماً ، وعلى خطيئته سبعين عاماً ، وعلى ولده حين قتل أربعين عاماً . رواه ابن عساكر .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن سعيد عن ابن عباس قال : أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها « دحني »^(٢) بين مكة والطائف . وعن الحسن قال : أهبط آدم بالهند ، وحواء بمجدة ، وإبليس بدستميستان من البصرة على أميال ، وأهبطت الحية بأصبهان ، رواه ابن أبي حاتم أيضاً . وقال السدي : نزل آدم بالهند ، ونزل معه بالحجر الأسود وبقبضة

(١) الآية : ٧٨ من سورة الأنبياء (٢) وقيل : اسمها دحني . قال في القاموس : ودحني بالضم أو بالكسر وقد يمد : أرض خلق منها آدم عليه السلام ، أو هي بالحاء المهملة .

من ورق الجنة ، فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك . وعن ابن عمر قال : أهبط آدم بالصفاء ، وحواء بالمروة . رواه ابن أبي حاتم أيضاً .

وقال عبد الرزاق : قال معمر أخبرني عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري قال : إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء ، وزوده من ثمار الجنة ، فثماركم هذه من ثمار الجنة ، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير . وقال الحاكم في مستدركه : أنبأنا أبو بكر بن بالوية عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمر عن زائدة عن عمار بن أبي معاوية البجلي عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس . ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وفي صحيح مسلم من حديث الزهري عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ؛ فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » وفي الصحيح من وجه آخر « وفيه تقوم الساعة » . وقال أحمد : حدثنا محمد بن مصعب ، حدثنا الأوزاعي عن أبي عمار عن عبد الله بن فروخ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة » على شرط مسلم .

فأما الحديث الذي رواه ابن عساكر من طريق أبي القاسم البغوي ، حدثنا محمد بن جعفر الوركاني ، حدثنا سعيد بن ميسرة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « هبط آدم وحواء عريانين جميعاً ، عليهما ورق الجنة ، فأصابه الحر حتى قعد يبكي ويقول لها : يا حواء قد أذاني الحر ، قال فجاءه جبريل بقطن ، وأمرها أن تنزل وعلمها ، وأمر آدم بالحياكة وعلمه أن ينسج » ، وقال : « كان آدم لم يجامع امرأته في الجنة ، حتى هبط منها للخطيئة التي أصابتهما بأكلهما من الشجرة » ، قال : « وكان كل واحد منهما ينام على حدة ؛ ينام أحدهما في البطحاء والآخر من ناحية أخرى ، حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتي أهله » ، قال : « وعلمه كيف يأتيها ، فلما أتاه جاءه جبريل فقال : كيف وجدت امرأتك ؟ قال : صالحة » — فإنه حديث غريب^(١) ورفع منكر جداً . وقد يكون من كلام بعض السلف ، وسعيد بن ميسرة هذا هو أبو عمران البكري البصري ، قال فيه البخاري : منكر الحديث ، وقال ابن حبان : يروى الموضوعات ، وقال ابن عدى : مظالم الأمر .

وقوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) قيل هي قوله : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)^(٢) . روى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي

(١) قوله : فإنه حديث غريب — جواب قوله : فأما الحديث الذي رواه ابن عساكر .

(٢) الآية : ٢٣ من سورة الأعراف .

العالية والربيع بن أنس والحسن وقناة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب ، حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عمرو عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « قال آدم عليه السلام : أرأيت يارب إن تبت ورجعت أعادى إلى الجنة ؟ قال : نعم » فذلك قوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع .

وقال ابن أبي نجيب عن مجاهد قال : الكلمات : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فاعفر لي إنك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فاعفر لي إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فتاب علي إنك أنت التواب الرحيم » . وروى الحاكم في مستدركه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) قال : قال آدم يارب ألم تخلقني بيدك ؟ قيل له بلى ، ونفخت في من روحي ؟ قيل له بلى ، وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له بلى ، وكتبت علي أن أعمل هذا ؟ قيل له بلى ، قال : أفأرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة ؟ قال نعم . ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وروى الحاكم أيضاً والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد أن غفرت لي ، فقال الله : فكيف عرفت محمداً ولم أخلق بعد ؟ فقال : يارب لأنك لما خلقتني بيدك ، ونفخت في من روحي — رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلي ، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك . قال البيهقي تفرد به عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف . والله أعلم . وهذه الآية كقوله تعالى : (وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباها ربه فتاب عليه وهدى) (١) .

ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

قال البخاري : حدثنا قتيبة . حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « حاج موسى آدم عليها السلام فقال له : أنت الذي أخرجت الناس بذنبيك

من الجنة وأشقيتهم ، قال آدم : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتومنى على أمر قد كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى ، أو قدره علىّ قبل أن يخلقنى ؟ « قال رسول الله ﷺ : « فخرج آدم موسى » . وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد ، والنسائى عن محمد بن عبد الله بن يزيد عن أيوب بن النجار به . قال أبو مسعود الدمشقى ولم يخرجاه عنه فى الصحيحين سواه ، وقد رواه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن هام عن أبي هريرة ، ورواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا إبراهيم ، حدثنا أبو شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة ؟ » فقال له آدم : وأنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه تلومنى على أمر قدر علىّ قبل أن أخلقى ؟ قال رسول الله ﷺ : « فخرج آدم موسى ، فخرج آدم موسى » مرتين . قلت وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلم من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة » ، قال : « فقال آدم : وأنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه تلومنى على عمل أعمه ، كتبه الله علىّ قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال : فخرج آدم موسى » .

وقد رواه الترمذى والنسائى جميعاً عن يحيى بن حبيب بن عدى عن معمر بن سليمان عن أبيه عن الأعمش به . قال الترمذى : وهو قريب من حديث سليمان التيمى عن الأعمش . قال : وقد رواه بعضهم عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد ، قلت هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده عن محمد بن مثنى عن معاذ بن أسد عن الفضل بن موسى عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد . ورواه البزار أيضاً : حدثنا عمرو بن على الفلاس ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه .

وقال أحمد : حدثنا سفيان عن عمرو سمع طاووساً سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فقال له آدم : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله بكلامه — وقال مرة برسالاته — وخط لك بيده ، أتومنى على أمر قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ؟ » قال : « حجج آدم موسى ، حجج آدم موسى » . وهكذا رواه البخارى عن على بن المدنى ، حدثنا عن سفيان قال حفظناه من عمرو عن طاووس ، قال

سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فقال له آدم : يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده ، أتولمني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى فحج آدم موسى « هكذا ثلاثاً » .
قال سفيان : حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مثله . وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه من عشر طرق ، عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه .

وقال أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد عن عمار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لقي آدم موسى ، فقال : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك الجنة ، ثم فعلت ما فعلت ؟ فقال : أنت موسى الذي كلمك الله واصطفاك برسالته ، وأنزل عليك التوراة ، أنا أقدم أم الذكر ؟ قال : لا بل الذكر ، فحج آدم موسى » .

قال أحمد : وحدثنا عفان ، حدثنا حماد عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، وحميد عن الحسن عن رجل — قال حماد أظنه جندب بن عبد الله البجلي — عن النبي ﷺ قال : « لقي آدم موسى » فذكر معناه . تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا الحسن ، حدثنا جرير — هو ابن حازم — عن محمد ، هو ابن سيرين — عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لقي آدم موسى فقال : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، ثم صنعت ما صنعت ؟ قال آدم : يا موسى أنت الذي كلمه الله ، وأنزل عليه التوراة ؟ قال نعم قال : فهل تجده مكتوباً على قبل أن أخاق ؟ قال نعم . قال : فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » .

وكذا رواه حماد بن زيد عن أيوب ، وهشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رفعه . وكذا رواه علي بن عاصم عن خالد ، وهشام عن محمد بن سيرين ، وهذا على شرطها من هذه الوجوه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب أخبرني أنس بن عياض عن الحارث بن أبي ذباب ، عن يزيد بن هرمز سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك جنته ، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك ؟ قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نبياً ؟ فبكم وجدت الله كتب التوراة ؟ قال موسى بأربعين عاماً ، قال آدم : فهل وجدت فيها : (وعصى آدم ربه

فغوى؟) قال نعم . قال أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله على أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال : قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى » .

قال الحارث : وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك . عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ . وقد رواه مسلم عن إسحاق بن موسى الأنصاري ، عن أنس بن عياض عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب ، عن يزيد بن هرمز والأعرج ، كلاهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى لآدم : يا آدم أنت الذي أدخلت ذريتك النار ، فقال آدم : يا موسى اصطفاك الله برسالانه وبكلامه ، وأنزل عليك التوراة ، فهل وجدت أن أهبط؟ قال نعم ، قال فحج آدم » . وهذا على شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه ، وفي قوله ، أدخلت ذريتك النار — نكارة .

فهذه طرق هذا الحديث عن أبي هريرة ، رواه عنه حميد بن عبد الرحمن ، وذكر أن أبو صالح السمان ، وطاووس بن كيسان وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وعمار بن أبي عمار ، ومحمد بن سيرين ، وهام بن منبه ، ويزيد بن هرمز ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : حدثنا الحارث بن مسكين المصري ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال : « قال موسى عليه السلام : يا رب أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة ، فأراه آدم عليه السلام ، فقال : أنت آدم؟ فقال له آدم : نعم . فقال : أنت الذي نفخ الله فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك الأسماء كلها؟ قال نعم . قال : فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم : من أنت؟ قال أنا موسى ، قال : أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب ، فلم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه؟ قال نعم . قال تلومني على أمر قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبل؟ » قال رسول الله ﷺ « فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » .

ورواه أبو داود عن أحمد بن صالح المصري عن ابن وهب به . قال أبو يعلى : وحدثنا محمد بن المنثري حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعي ، حدثنا عمران عن الرديني عن أبي مجز عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر — قال أبو محمد أكبر ظني أنه رفعه — قال : « التقى آدم وموسى ، فقال موسى لآدم : أنت أبو البشر ، أسكنك الله جنته ، وأسجد لك ملائكته . قال آدم : يا موسى أما تجده على مكتوباً؟ قال فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » وهذا الإسناد أيضاً لا بأس به ، والله أعلم .

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد ، ورواية الإمام أحمد له عن عفان عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن رجل . قال حماد : أظنه جندب بن عبد الله البجلي ، عن النبي ﷺ : « لقي آدم موسى » فذكر معناه .

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث : فرده قوم من القدرية ^(١) لما تضمن من إثبات القدر السابق واحتج به قوم من الجبرية ، ^(٢) وهو ظاهر لهم بادئ الرأي حيث قال فنج آدم موسى لما احتج عليه بتقديم كتابه ، وسيأتي الجواب عن هذا . وقال آخرون : إنما حججه لأنه لامة على ذنب قد تاب منه والثائب من الذنب كمن لا ذنب له . وقيل إنما حججه لأنه أكبر منه وأقدم . وقيل لأنه أبوه . وقيل لأنهما في شريعتين متغايرتين . وقيل لأنهما في دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمونه .

والتحقيق أن هذا الحديث روى بألفاظ كثيرة بعضها مروى بالمعنى . وفيه نظر . ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنه لامة على إخراج نفسه وذريته من الجنة ، فقال له آدم : أنا لم أخرجكم ، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكل من الشجرة ، والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق - هو الله عز وجل ، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إلى أكثر من أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها ، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي ، فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة ، وإنما كان هذا من قدرة الله وصنعه ، وله الحكمة في ذلك ، فلهذا حجج آدم موسى .

ومن كذب بهذا الحديث فعماد ؛ لأنه متواتر عن أبي هريرة رضى الله عنه ، وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقاناً . ثم هو مروى عن غيره من الصحابة كما ذكرنا ، ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً . فهو بعيد من اللفظ والمعنى ، وما فيهم من هو أقوى مسلماً من الجبرية .

وفيما قاله نظر من وجوه : «أحدها» أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب عنه فاعله .

« الثاني » أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها وقد سأل الله في ذلك بقوله : (رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له . . . الآية) ^(٣) .

« الثالث » أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد - لا نفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله ، فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصص والحدود . ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار ، وهذا يفضي

(١) فرقة من المعتزلة تقول : بأن الله لا يخلق أفعال الناس ، ولكن الناس يعملون أعمالهم بالقدر التي خلقها الله فيهم ، فهم أحرار فيما يعملون ؛ فإن عمل عملاً صالحاً أثيب عليه ، وإن أساء لقي جزاء ما جنته يده .
(٢) الجبرية : هم الذين لا يثبتون للعبد فعلاً ولا قدرة على العمل ، أو له قدرة غير مؤثرة ويضيفون كل شيء إلى المولى سبحانه وتعالى .
(٣) من الآية : ١٦ من سورة القصص .

إلى لوازم فظيمة . فلهذا قال من قال من العلماء - بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا المعصية . والله تعالى أعلم .

ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم عليه السلام

قال الإمام أحمد . حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر ، حدثنا عوف حدثني قسامة بن زهير عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن وإبين ذلك .

ورواه أيضاً عن هوزة عن عوف عن قسامة بن زهير سمعت الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك » . وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث عوف بن أبي جميلة الأعمرابي ، عن قسامة بن زهير المازني البصري ، عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقد ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : فبعث الله عز وجل جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني ، فرجع ولم يأخذ ، وقال : رب إنها عاذت بك فأعذتها . فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعذها ، فرجع فقال كما قال جبريل . فبعث ملك الموت فعاذت منه ، فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلطه ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، فصعد به قبل التراب حتى عاد طيناً لازباً . واللازب : هو الذي يلزق بعضه ببعض ، ثم قال للملائكة : (إني خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) فخلق الله بيده لثلاً يتكبر إبليس عنه ، فخلقه بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرت به الملائكة ففرغوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم منه فرغاً إبليس ، فكان يمر به فيضربه ، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يسكون له صلصلة ، فذلك حين يقول : (من صلصال كالفخار) ويقول لأمر ما خلقت ، ودخل من فيه وخرج من دبره ، وقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد^(١) وهذا أجوف ، أئن سلطت عليه لأهلكته ،

(١) من معاني الصمد : الصمت الذي لا جوف له .

فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح ، قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس ، فقالت الملائكة قل : الحمد لله ، فقال : الحمد لله ، فقال له الله : رحمك ربك ، فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجله مجلان إلى ثمار الجنة ، وذلك حين يقول الله تعالى : (خلق الإنسان من عجل)^(١) . (فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبي أن يكون مع الساجدين) وذكر تمام القصة .

ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات . فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قال : « لما خلق الله آدم تركه ماشاء أن يدعه ، فجعل إبليس يطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك » . وقال ابن حبان في صحيحه : حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا هذبة بن خالد ، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، فقال له تبارك وتعالى : يرحمك الله » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يحيى بن محمد بن السكن ، حدثنا حبان بن هلال ، حدثنا مبارك ابن فضالة عن عبيد الله عن حبيب عن حفص — هو ابن عاصم بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب — عن أبي هريرة رفعه قال : « لما خلق الله آدم عطس ، فقال الحمد لله ، فقال له ربه رحمك ربك يا آدم » . وهذا الإسناد لأبأس به ولم يخرجوه . وقال عمر بن عبد العزيز : لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم إسرافيل ، فاتاه الله أن كتب القرآن في جبهته . رواه ابن عساکر .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا عمرو بن محمد ، عن إسماعيل بن رافع ، عن المقبري ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق آدم من تراب ، ثم جعله طيناً ثم تركه ، حتى إذا كان حماً مسنوناً خلقه وصوره ثم تركه ، حتى إذا كان صلصالاً كالفضار قال : فكان إبليس يمر به فيقول لقد خلقت لأمر عظيم ، ثم نفخ الله فيه من روحه فكان أول ماجرى فيه الروح بصره وخياشيمه ، فعطس فلقاه الله رحمة ربه ، فقال الله : يرحمك ربك ، ثم قال الله : يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر^(٢) فقل لهم^(٣) فانظر ماذا يقولون ؟ فجاء فسلم عليهم فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقال يا آدم : هذا تحيتك وتحية ذريتك . قال يا رب : وما ذريتي ؟ قال : اختر يدي يا آدم ، قال : أختار يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين ، وبسط كفه فإذا من

(١) من الآية : ٣٧ من سورة الأنبياء . (٢) النفر : الناس كلهم وعدة رجال من ثلاثة إلى عشرة .

(٣) لم يذكر في الأصل المقول ، ولعله السلام عليكم كما يدل عليه ما بعده .

هو كائن من ذريته في كف الرحمن ، فإذا رجال منهم أفواهمم النور ، فإذا رجل يعجب آدم نوره ، قال يارب من هذا ؟ قال ابنك داود ، قال يارب : فكم جعلت له من العمر ، قال جعلت له ستين ، قال يارب : فأتم له من عمري حتى يكون له من العمر مائة سنة ، ففعل الله ذلك ، وأشهد على ذلك ، فلما نفذ عمر آدم بعث الله ملك الموت ، فقال آدم : أو لم يبق من عمري أربعين سنة ؟ قال له الملك : أو لم تعطها ابنك داود ؟ فوجد ذلك ، فوجدت ذريته ، ونسى فنسيت ذريته . »

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار والترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث صفوان بن عيسى عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . وقال الترمذي حديث حسن غريب من هذا الوجه . وقال النسائي هذا حديث منكر ، وقد رواه محمد بن عجلان عن أبيه عن أبي سعيد المقبري عن عبد الله بن سلام .

وقال الترمذي : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً^(١) من نور : ثم عرضهم على آدم فقال : أي رب من هؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال : أي رب من هذا ؟ قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال ستين سنة ، قال : أي رب زده من عمري أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، قال أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فوجد فوجدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته ، وخطى آدم فخطت ذريته . » ثم قال الترمذي حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . ورواه الحاكم في مستدرکه من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين ، وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة مرفوعاً ، فذكره وفيه : « ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الأجدم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يارب لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال كي تشكر نعمتي . » ثم ذكر قصة داود . وستأتي من رواية ابن عباس أيضاً .

وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا الهيثم بن خارجة ، حدثنا أبو الربيع عن يونس بن ميسرة عن أبي إدريس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى ،

(١) أي لمعاناً وضياء . يقال : وبس البرق - لمع وبرق .

فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم^(١) ، فقال للذي في يمينه : إلى الجنة ولا أبالي ، وقال للذي في كتفه اليسرى : إلى النار ولا أبالي .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا خلف بن هشام ، حدثنا الحكم بن سنان عن حوشب عن الحسن قال : خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى ، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى ، فألقوا على وجه الأرض ؛ منهم الأعمى والأصم والميتلى . فقال آدم : يارب ألا سويت بين ولدي ؟ قال يا آدم . إني أردت أن أشكر . وهكذا روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن بنحوه .

وقد رواه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه فقال : حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا صفوان بن عيسى ، حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس ، فقال الحمد لله ، فحمد الله بإذن الله ، فقال له ربه : يرحمك ربك يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة ، إلى ملائمتهم ، فجلس فسلم عليهم ، فقال السلام عليكم ، فقالوا وعليكم السلام ورحمة الله . ثم رجع إلى ربه فقال هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم ، وقال الله ويدها مقبوضتان : اختر أيهما شئت ، فقال اخترت يمين ربى ، وكلتا يدي ربى يمين مباركة ، ثم بسطهما فإذا فيهما آدم وذريته ، فقال أى رب ما هؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك ، وإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه ، وإذا فيهم رجل أضوئهم - أو من أضوئهم - لم يكتب له إلا أربعون سنة ، قال يارب من هذا ؟ قال هذا ابنك داود وقد كتب الله عمره أربعين سنة ، قال أى رب زد في عمره ، فقال ذلك الذى كتب له ، قال فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة ، قال أنت وذلك . اسكن الجنة ، فاسكن الجنة ماشاء الله ثم هبط منها ، وكان آدم يعد لنفسه ، فأناه ملك الموت فقال له آدم : قد عجبت ، قد كتب لى ألف سنة ، قال بلى ، واسكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة ، فوجد آدم فجحدت ذريته ، ونسى فسيت ذريته ، فيومئذ أمر بالكتاب والشهود » هذا لفظه .

وقد قال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم قال اذهب فسلم على أولئك من الملائكة ، واستمع ما تحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال السلام عليكم ، فقالوا السلام عليكم ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص

(١) الحمم : الفحم والرماد ، وكل ما احترق من النار - الواحدة حممة .

حتى الآن . وهكذا رواه البخارى فى كتاب الاستئذان ، عن يحيى بن جعفر ومسلم ، عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان طول آدم ستين ذراعاً فى سبع أذرع عرضاً » . انفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم ، إن أول من جحد آدم ، إن أول من جحد آدم ، إن أول من جحد آدم . إن الله لما خلق آدم مسح ظهره ، فأخرج منه ما هو ذارى إلى يوم القيامة ، فجعل يعرض ذريته عليه . فرأى فيهم رجلاً يزهر ، قال : أى رب من هذا ؟ قال هذا ابنك داود ، قال أى رب كم عمره ؟ قال ستون عاماً . قال أى رب زد فى عمره ، قال : لا . إلا أن أزيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً . فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة ، فلما احتضر آدم أتته الملائكة لقبضه ، قال إنه قد بقى من عمرى أربعون عاماً ، فقيل له : إنك قد وهبتها لابنك داود قال ما فعلت ، وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة .

وقال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم ، قالها ثلاث مرات . إن الله عز وجل لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه ، فرأى فيهم رجلاً يزهر ، فقال أى رب زد فى عمره ، قال لا — ، إلا أن تزيده أنت من عمرك ، فزاده أربعين سنة من عمره . فكتب الله تعالى عليه كتاباً وأشهد عليه الملائكة ، فلما أراد أن يقبض روحه قال : إنه بقى من أجلي أربعون سنة ، فقيل له : إنك قد جعلتها لابنك داود ، قال فجحد ، قال : فأخرج الله الكتاب ، وأقام عليه البيعة ، فأتها لداود مائة سنة ، وأنتم لآدم عمره ألف سنة ، تفرد به أحمد وعلى بن زيد ، فى حديثه نكارة .

ورواه الطبرانى : عن على بن عبد العزيز ، عن حجاج بن منهال ، عن حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس وغير واحد ، عن الحسن قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم ثلاثاً » وذكره . وقال الإمام مالك بن أنس فى موطنه عن زيد بن أبى أنيسة : أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا بلى ^(١)) الآية ، فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها

(١) الآية : ١٧٢ سورة الأعراف .

فقال : « إن الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، قال خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون » ، فقال رجل : يا رسول الله فقيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ : « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة ، وإذا خلق الله العبد للنار ، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار » . وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم ، وأبو حاتم ابن حبان في صحيحه من طرق عن الإمام مالك به . وقال الترمذي هذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر . وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة ، زاد أبو حاتم : وبينهما نعيم بن ربيعة . وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى عن بقره ، عن عمر بن جثعم عن زيد بن أبي أنيسة ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث قال الحافظ الدارقطني : وقد تابع عمر بن جثعم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوي ، عن زيد بن أبي أنيسة قال : وقولها أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله .

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراج آدم من ظهره كالذر ، وقسمتهم قسمين : أهل اليمين وأهل الشمال ، وقال هؤلاء للجنة ولأبلى ، وهؤلاء للنار ولأبلى . فأما الإشهاد عليهم واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية — فلم يحىء في الأحاديث الثابتة . وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا — فيه نظر كما بيناه هناك . وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيد وألفاظ متونها ، فمن أراد تحريره فليراجعه ثم . والله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا جرير — يعني ابن حازم — عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بيمينه ^(١) يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنشرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلا قال : (ألسنتم بكم ؟ قالوا بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آبائنا ... إلى قوله — المبتلون) ^(٢) فهو بإسناد جيد قوى على شرط مسلم . رواه النسائي وابن جرير والحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد المروزي به . وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر فروى عنه مرفوعاً هو قوفاً ، وكذا روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً . وهكذا رواه العوفي والوالي والضحاك وأبو جرة عن ابن عباس قوله . وهذا أكثر

(١) جبل بقره عرفة ، ويقال نعمان السحاب . قال في اللسان : وأضافه إلى السحاب لأنه ركد فوقه لعلوه .

(٢) الآيتان : ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة الأعراف .

وأثبت والله أعلم . وهكذا روى عن عبد الله بن عمر موقوفاً ومرفوعاً ، والموقوف أصح .

وامتأنس القائلون بهذا القول — وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور — بما قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثني شعبة عن أبي عمران الجوني ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : لو كان لك ما على الأرض من شيء أ كنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول نعم . فيقول : قد أردت منك ما هو أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بي » . أخرجه من حديث شعبة به .

وقال أبو جعفر الرازي : عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى : (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ..) الآية والتي بعدها ، قال : فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كأئن منه إلى يوم القيامة ، فخلقهم ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهد عليهم أنفسهم (أست بر بكم ؟ قالوا : بلى ..) الآية ، قال فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم ، أن لا تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا . اعلموا أنه لا إله غيره ولا رب غيره ، ولا تشركوا بي شيئاً ، وإني سأرسل إليكم رسلاً ينذرونكم عهدي وميثاقى ، وأنزل عليكم كتابى — قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لأرب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك ، فأقروا له يومئذ بالطاعة ، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم ، فرأى فيهم الغنى والفقير ، وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : يارب لوسويت بين عبادك ؟ فقال : إني أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، فهو الذى يقول الله تعالى : (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومالك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً)^(١) وهو الذى يقول : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)^(٢) وفى ذلك قال : (هذا نذير من النذر الأولى)^(٣) وفى ذلك قال : (وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاستقين) رواه الأئمة : عبد الله بن أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه — فى تفاسيرهم من طريق أبي جعفر ، وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصرى وقتادة والسدى ، وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث .

وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم — امتثلوا كلهم الأمر الإلهى ، وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له ، فطرده الله وأبعده ، وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها ، وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجماً .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، ويعلى ومحمد ابنا عبيد ، قالوا حدثنا الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد — اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فصيت في النار » . ورواه مسلم من حديث وكيع وأبي معاوية عن الأعمش به . ثم لما أسكن آدم الجنة التي أسكنها ، سواء كانت في السماء أم في الأرض على ما تقدم من الخلاف فيه — أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام ، يأكلان منها رغداً حيث شاآ ، فلما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها — سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض . وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطه منها .

واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة : فقيل بعض يوم من أيام الدنيا ، وقد قدمنا ما رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً . وخلق آدم في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة ، وتقدم أيضاً حديثه عنه ، وفيه — يعني يوم الجمعة — خلق آدم ، وفيه أخرج منها . فإن كان اليوم الذي خلق فيه — فيه أخرج ، وقلنا إن الأيام الستة كهذه الأيام — فقد لبث بعض يوم من هذه ، وفي هذا نظر . وإن كان لإخراجه في غير اليوم الذي خلق فيه ، أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره ابن جرير — فقد لبث هناك مدة طويلة .

قال ابن جرير : ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة ، والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فسكث مصوراً طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة ، وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر ، والله تعالى أعلم .

وقد روى عبد الرزاق عن هشام بن حسان عن سوار خبير عطاء بن أبي رباح : أنه كان لما أهبط رجلاه في الأرض ورأسه في السماء ، فخطه الله إلى ستين ذراعاً . وقد روى عن ابن عباس نحوه . وفي هذا نظر ؛ لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » ، وهذا يقتضى أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً ، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن .

وذكر ابن جرير عن ابن عباس : إن الله قال : يا آدم إن لي حرماً بحيال عرشي ، فانطلق فابن لي فيه بيتاً ، فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي ، وأرسل الله له ملكاً فعرفه مكانه وعلمه المناسك ، وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك .

وعنه : أن أول طعام أكله آدم في الأرض — أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة ، فقال : ما هذا ؟ قال هذا من الشجرة التي نهيت عنها فأكلت منها ، فقال وما أصنع بهذا ؟ قال ابذره

في الأرض ، فبذره . وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف ، فنبتت فخصده ، ثم درسه ثم ذراه ، ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ، فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد ، وذلك قوله تعالى : (فلا يخرجنكما من الجنة فذشق) .

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن : جزاه ثم غزلاه ، ففسج آدم له جبة ، ولحواء درعاً وخماراً . واختلفوا : هل ولد لها بالجنة شيء من الأولاد ؟ فقيل : لم يولد لها إلا في الأرض ، وقيل بل ولد لها فيها ، فكان قابيل وأخته ممن ولد بها . والله أعلم .

وذكروا أنه كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى ، وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخته التي ولدت معه ، والآخر بالأخرى وهلم جرا ، ولم يكن تحل لأخيها الذي ولدت معه .

ذكر قصة ابني آدم : « قابيل ، وهابيل »

قال الله تعالى : (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ، إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين * إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين * فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ، قال يا ويلتي ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأواري سوءة أخي ، فأصبح من النادمين ^(١)) . وقد تكلمنا على هذه القصة في سورة المائدة في التفسير بما فيه كفاية . والله الحمد .

ولنذكر هنا ما يخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك : فذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة — أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى ، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل ، وكان كبر من هابيل وأخت هابيل أحسن ، فأراد هابيل أن يستأثر بها على أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى ، فأمرهما أن يقربا قرباناً ، وذهب آدم ليحجج إلى مكة ، واستحفظ السموات على بنيه فأبين ، والأرضين والجبال فأبين ، فتقبل قابيل بحفظ ذلك . فلما ذهب قربا قربانهما ؛ فقرب هابيل جذعة سمينة ، وكان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من زرع من ردىء زرع ، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلك حتى لا تنكح أختي ، فقال إنما يتقبل الله من المتقين . وروى عن ابن عباس

من وجوه أخر ، وعن عبد الله بن عمرو . وقال عبد الله بن عمرو ، وأيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ،
ولسكن منعه التخرج أن يبسط إليه يده .

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشراً لتقربهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل ، فقال
قابيل لآدم : إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي ، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه . فلما كان ذات ليلة
أبطأ هابيل في الرعى ، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به ، فلما ذهب إذا هو به ، فقال له : تقبل منك
ولم يتقبل مني ، فقال : إنما يتقبل الله من المتقين ، فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله .
وقيل : إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته . وقيل : بل خنقه خنقاً شديداً وعضه
كما تفعل السباع فمات . والله أعلم .

وقوله له لما توعد بالقتل : (أئن بسطت إلى يدك لتقتلني ، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ؛ إني أخاف
الله رب العالمين) — دل على خلق حسن ، وخوف من الله تعالى وخشية منه ، وتورع أن يقابل أخاه
بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله . ولهذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا
تواجه^(١) المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا يارسول الله هذا القاتل . فما بال المقتول ؟ قال :
إنه كان حربصاً على قتل صاحبه » وقوله : (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار
وذلك جزاء الظالمين) : أي إني أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى — إذ قد عزمت
على ما عزمت عليه — أن تبوء بإثمي وإثمك ؛ أي تتحمل إثم قتلي مع مالك من الآثام المتقدمة قبل
ذلك . قاله مجاهد والسدي وابن جرير وغير واحد . وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله
إلى القاتل كما قد توهمه بعض من قال ؛ فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك .

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ أنه قال : ماترك القاتل على المقتول من
ذنب — فلا أصل له ، ولا يعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً .
ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة ، أن يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لاتني
بهذه المظلمة ، فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل ، كما ثبت به الحديث الصحيح في سائر المظالم ، والقتل
من أعظمها والله أعلم . وقد حررنا هذا كله في التفسير والله الحمد .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي : عن سعد بن أبي وقاص ، أنه قال عند فتنة عثمان بن
عفان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « إنها ستكون فتنة ؛ القاعد فيها خير من القائم ، والقائم
خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي » قال أفرأيت إن دخل على بيتي فبسط يده إلى ليقتلني ، قال

« كن كبن آدم » . ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً . وقال : كن كخير ابني آدم . وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا .

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ووكيع ، قالا : حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه كان أول من سن القتل » . ورواه الجماعة سوى أبي داود من حديث الأعمش به . وهكذا روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وإبراهيم النخعي أنهما قالوا مثل هذا سواء . وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم ، مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هاويل عندها ، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب . فإله أعلم بصحة ذلك .

وقد ذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة أحمد بن كثير - وقال إنه كان من الصالحين - أنه رأى النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وهاويل ، وأنه استجلف هاويل أن هذا دمه فخاف له ، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء - فأجابه إلى ذلك ، وصدقه في ذلك رسول الله ﷺ ، وقال : إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس . وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا - لم يترتب عليه حكم شرعي . والله أعلم .

وقوله تعالى : (فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ، قال ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأواري سوءة أخي ؟ فأصبح من النادمين) ذكر بعضهم أنه لما قتله حملة على ظهره سنة ، وقال آخرون حملة مائة سنة ، ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين . قال السدي بإسناده عن الصحابة : أخوين ، فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر ، فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه ، فلما رآه يصنع ذلك قال : ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي ؟ ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه .

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هاويل حزناً شديداً ، وأنه قال في ذلك شعراً ، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى لون وطعم وقل بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم : أبا هاويل قد قتلتا جميعاً وصار الحى كالميت الذبيح
وجاء بشرة قد كان منها على خوف نجاء بها بصيح

وهذا الشعر فيه نظر . وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاماً يتحزن به بلغته ، فألفه بعضهم إلى هذا ، وفيه أقوال والله أعلم . وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه ؛ فعلمت ساقه إلى نخذه ، وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت ، تنكيباً به وتمجيلاً لذنبه وبغية وحسده لأخيه لأبويه . وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة - من البغي وقطيعة الرحم » .

والذي رأيت في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة : أن الله عز وجل أجله وأنظره ، وأنه سكن في أرض « نود » في شرقي عدن وهم يسمونه قنين . وأنه ولد له خنوخ ، وخنوخ عنذر ، ولعنذر محوایل ، وخنوخ متوشيل ، وملتوشيل لامك . وتزوج هذا امرأتين : عدا وصالا . فولدت « عدا » ولداً اسمه ابل ، وهو أول من سكن القباب واقتنى المال . وولدت أيضاً نوبل ، وهو أول من أخذ في ضرب النج والصبج^(١) . وولدت « صلا » ولداً اسمه توبلقين ، وهو أول من صنع النحاس والحديد ، وبناتاً اسمها « نعمى » . وفيها أيضاً أن آدم طاف على امرأته فولدت غلاماً ودعت اسمه « شيث » ، وقالت من أجل أنه قد وهب لى خلفاً من هابيل الذي قتله قابيل . وولد لشيث أنوش ، قالوا وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائة وثلاثين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة ، وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمسة وستين ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين . وولد له بنون وبنات غير أنوش : فولد لأنوش « قينان » وله من العمر تسعون سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان عمر قينان سبعين سنة ولد له مهلاييل ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة ستة وأربعين سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له « يرد » ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة وولد له بنون وبنات . فلما كان ليرد مائة سنة واثنان وستون سنة ولد له « خنوخ » ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات . فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له متوشلح ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان لمتوشلح مائة وسبع وثمانون سنة ولد له « لامك » وعاش بعد ذلك سبعاً وثمانين وثمانين سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان للامك من العمر مائة واثنان وثمانون سنة ولد له « نوح » وعاش بعد ذلك خمساً وخمسة وستين سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان لنوح خمساً وستين سنة ولد له بنون : سام وحام ويافث . هذا مضمون ما في كتابهم صريحاً .

وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر ، كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين

(١) قال في القاموس : النج محرمة ضرب من الأوتار أو العود أو المعزف . والصبج : شيء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر ، وآلة بأوتار يضرب بها .

عليهم في ذلك . والظاهر أنها مقحمة فيها ، ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير . وفيها غلط كثير كما سنذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه عن بعضهم : أن حواء ولدت لآدم أربعين ولدًا في عشرين بطنًا . قاله ابن اسحق وسماه والله تعالى أعلم . وقيل مائة وعشرين بطنًا في كل واحد ذكر وأنثى ، أولهم قابيل وأخته قايلما ، وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث . ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا ، وامتدوا في الأرض ونموا ؛ كما قال الله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . . .) (١) الآية .

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة . والله أعلم . وقال تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما نفشاها حملت حملا خفيفًا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحًا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاها صالحًا جعلنا له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون) (٢) الآيات . فهذا تنبيه أولاد آدم ، ثم استطراد إلى الجنس . وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء - بل لما جرى ذكر الشخص استطراد إلى الجنس كما في قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) (٣) وقال تعالى : (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين) (٤) ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء ، وإنما استطراد من شخصها إلى جنسها .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبراهيم ، حدثنا قتادة عن الحسن بن سمرة ، عن النبي ﷺ قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاث ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » وهكذا رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم عند هذه الآية ، وأخرجه الحاكم في مستدركه كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به - فقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . فهذه علة قاذحة من الحديث أنه روى موقوفًا على الصحابي وهذا أشبه . والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات ، وهكذا روى موقوفًا على ابن عباس . والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأبحار ودونه . والله أعلم .

وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا ، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه

(١) أول سورة النساء (٢) الآيات : ١٨٩ - ١٩٠ من سورة الأعراف

(٣) الآيات : ١٣ - ١٤ من سورة المؤمنون (٤) من الآية : ٦ من سورة اللك .

إلى غيره والله أعلم . وأيضاً فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر ، وليبث منهما رجلاً كثيراً ونساء ، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً ؟ .

والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبي ﷺ خطأ ، والصواب وقفه . والله أعلم . وقد حررنا هذا في كتابنا التفسير والله الحمد .

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا ؛ فإن آدم أبو البشر الذي خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته . وقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال : قلت يارسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » . قلت يارسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير » قلت يارسول الله من كان أولهم ؟ قال : آدم . قلت يارسول الله نبي مرسل ؟ قال : نعم . خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً وقال الطبراني : حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني ، حدثنا شيبان بن فروح ، حدثنا نافع بن هرم عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل الملائكة — جبريل ، وأفضل النبيين آدم ، وأفضل الأيام يوم الجمعة ، وأفضل الشهر شهر رمضان ، وأفضل الليالي ليلة القدر ، وأفضل النساء مريم بنت عمران » وهذا إسناد ضعيف ، فإن نافعاً أباهم من كذبه ابن معين ، وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم . والله أعلم .

وقال كعب الأحبار : ليس أحد في الجنة له الحية إلا آدم ، لحيته سوداء إلى سرتة . وليس أحد يكنى في الجنة إلا آدم ؛ كنيته في الدنيا أبو البشر وفي الجنة أبو محمد . وقد روى ابن عسدي من طريق سبج ابن أبي خالد عن حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله مرفوعاً : أهل الجنة يدعون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد . ورواه ابن عسدي أيضاً من حديث علي بن أبي طالب ، وهو ضعيف من كل وجه . والله أعلم .

وفي حديث الإسراء الذي في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ لما مر بآدم وهو في السماء الدنيا ، قال له مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح ، قال : وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى فقلت يا جبريل ما هذا ؟ قال هذا آدم وهؤلاء نسمة بنيه ، فإذا نظر قبل أهل اليمين — وهم أهل الجنة — ضحك ، وإذا نظر قبل أهل الشمال — وهم أهل النار — بكى . هذا معنى الحديث . وقال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المنثري حدثني يزيد بن هارون ، أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن قال : كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده .

وقال بعض العلماء في قوله ﷺ : « فررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن » — قالوا : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام . وهذا مناسب ، فإن الله خلق آدم وصوره بيده السكرمة ،

ونفخ فيه من روحه ، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشباه . وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عمرو أيضاً موقوفاً ومرفوعاً : أن الله تعالى لما خلق الجنة ، قالت الملائكة يا ربنا اجعل لنا هذه ، فإنك خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان . وقد ورد الحديث المروي في الصحيحين وغيرهما من طرق : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق آدم على صورته ^(١) » وقد تكلم العلماء على هذا الحديث ، فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها . والله أعلم .

ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث « عليه السلام »

ومعنى شيث : هبة الله ، وسميها بذلك لأنهما رزقاها بعد أن قتل هابيل . قال أبو ذر في حديثه عن رسول الله ﷺ : « إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف ، على شيث خمسين صحيفة » . قال محمد بن إسحاق : ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار ، وعلمه عبادات تلك الساعات ، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك . قال : ويقال إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث ، وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا . والله أعلم .

ولما توفي آدم عليه السلام — وكان ذلك يوم الجمعة — جاءته الملائكة بحنوط ، وكفن من عند الله عز وجل من الجنة ، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثا عليه السلام . قال ابن إسحاق : وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن . وقد قال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا هديبة بن خالد ، حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن بن يحيى — هو ابن ضمرة السعدي — قال : رأيت شيثاً بالمدينة تكلم فسأت عنه فقالوا هذا أبي بن كعب ، فقال : إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه : أي بني ! إني أشتي من ثمار الجنة ، قال فذهبوا يطلبون له ، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ، ومعهم الفوس والمساحي والمكاتل ، فقالوا لهم : يا بني آدم ماتريدون وما تطلبون؟ أو ماتريدون وأين تطلبون؟ قالوا أبونا مريض واشتت من ثمار الجنة ، فقالوا لهم ارجعوا فقد قضى أبوكم . فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم ، فقال إليك عنى فإني إنما أتيت من قبلك ، فغلى بيني وبين ملائكة ربي عز وجل . فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه ، وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه ، ثم أدخلوه قبره فوضعوه في قبره ، ثم حثوا عليه ، ثم قالوا : يا بني آدم هذه سنتكم إسناد صحيح إليه .

وروى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ عن محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « كبرت الملائكة على آدم أربعا ، وكبر أبو بكر على فاطمة أربعا ، وكبر عمر على أبي بكر أربعا ، وكبر صهيب على عمر أربعا » . قال ابن عساكر : ورواه غيره عن ميمون فقال عن ابن عمر .

(١) أي على هيئته النامة الخلق ، فلم ير بأطوار الجنين ؛ فيكون علقه فضضة . إلخ .

واختلفوا في موضع دفنه : فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط منه في الهند ، وقيل بجبل أبي قبيس بمكة . ويقال إن نوحاً عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمه هو وحواء في تابوت ، فدفنهما بيت المقدس . حكى ذلك ابن جرير . وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال : رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس . وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة . واختلف في مقدار عمره عليه السلام ؛ فقد منا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة سرفوعاً : أن عمره اكتب في اللوح المحفوظ ألف سنة . وهذا لا يعارضه مافي التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة ؛ لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود ، إذا خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم . وأيضاً فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين مافي الحديث ؛ فان مافي التوراة إن كان محفوظاً — محمول على مدة مقامه في الأرض بعد الإهباط ، وذلك تسعمائة وثلاثون سنة شمسية — وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخسون سنة ، ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره ، فيكون الجميع ألف سنة .

وقال عطاء الخراساني : لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام ، رواه ابن عساكر . فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام ، وكان نبياً بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه ، عن أبي ذر سرفوعاً أنه أنزل عليه خمسون صحيفة . فلما حانت وفاته أوصى إلى ابنه أنوش فقم بالأمر بعده ، ثم بعده ولده قاين ، ثم من بعده ابنه مهلاييل — وهو الذي يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة ، وأنه أول من قطع الأشجار ، وبنى المدائن والحصون الكبار . وأنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى . وأنه قهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها . وأنه قتل خلقاً من سرده الجن والغيلان ، وكان له تاج عظيم ، وكان يخطب الناس . ودامت دولته أربعين سنة ، فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده خنوخ — وهو إدريس عليه السلام على المشهور .

ذكر إدريس عليه السلام

قال الله تعالى : (واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً * ورفعناه مكاناً علياً^(١)) فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصدقية ، وهو خنوخ هذا . وهو في عموود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب . وكان أول بني آدم ، أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام . وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم ، وقد أردك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثمانين سنين . وقد قال طائفة من الناس إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم

غن الخطط بالرمل فقال : « إنه كان نبي يخط به فمن وافق خطه فذاك » . ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك ، ويسمونه هرمس الهرامسه ، ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكام والأولياء . وقوله تعال (ورفعناه مكاناً علياً) هو كما ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء — أن رسول الله ﷺ مر به وهو في السماء الرابعة . وقد روى ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى ، عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية ، عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له : ما قول الله تعالى لإدريس (ورفعناه مكاناً علياً) ؟ فقال كعب : أما إدريس فإن الله أوحى إليه : إنى أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم — لعله من أهل زمانة — فأحب أن يزداد عملاً ، فأناه خليل له من الملائكة فقال : إن الله أوحى إلى كذا وكذا ، فكلم ملك حتى أزداد عملاً ، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء ، فاما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً ، فكلم ملك الموت في الذي كله فيه إدريس ، فقال وأين إدريس ؟ قال هو ذا على ظهري ، فقال ملك الموت يا للعجب ! بعثت وقيل لي أقبض روح إدريس في السماء الرابعة ، فجعلت أقول : كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض ؟ فقبض روحه هناك . فذلك قول الله عز وجل (ورفعناه مكاناً علياً) . ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها . وعنده فقال لذلك الملك : سل لي ملك الموت كم بقي من عمري ؟ فسأله وهو معه كم بقي من عمره ؟ فقال لا أدري حتى أنظر ، فنظر فقال إنك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين ، فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر . وهذا من الاسرائليات ، وفي بعضه نكارة . وقول ابن أبي نجیح عن مجاهد في قوله : (ورفعناه مكاناً علياً) قال : إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى . إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففي هذا نظر ، وإن أراد أنه رفع حياً إلى السماء ثم قبض هناك — فلا ينافي ما تقدم عن كعب الأحبار . والله أعلم .

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (ورفعناه مكاناً علياً) : رفع إلى السماء السادسة فمات بها ، وهكذا قال الضحاك . والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصح ، وهو قول مجاهد وغير واحد . وقال الحسن البصرى : (ورفعناه مكاناً علياً) قال إلى الجنة ، وقال قائلون رفع في حياة أبيه يرد بن مهلابيل . والله أعلم . وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل في زمان بني إسرائيل .

قال البخارى : ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس — أن إلياس هو إدريس ، واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء : أنه لما مر به عليه السلام قال له : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح . قالوا فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قال له . وهذا لا يدل ولا بد لأنه قد لا يكون الراوى حفظه جيداً ، أو لعله قاله على سبيل الهضم والتواضع ، ولم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر ، وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أولي العزم بعد محمد . صلوات الله عليهم أجمعين

قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلايل بن قين بن أنوش بن شيب بن آدم أبي البشر عليه السلام . كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة ، فيما ذكره ابن جرير وغيره . وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة ، وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه : حدثنا محمد بن عمر ابن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه ، حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد ابن سلام ، سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة : أن رجلاً قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : نعم مكلم . قال فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون . قلت وهذا على شرط مسلم ولم يخرج به .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . فإن كان المراد بالقرن مائة سنة - كما هو المتبادر عند كثير من الناس - فينبغي أن يكون بينهما ألف سنة لا محالة ، لكن لا ينبغي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام ، إذ قد يكون بينهما قرون آخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام ، لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون ، وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام . وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب - أن قابيل وبنيه عبدوا النار . والله أعلم .

وإن كان المراد بالقرن الجليل من الناس كما في قوله تعالى : (وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح) وقوله : (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) وقال تعالى : (وقرونا بين ذلك كثيراً) وقال : (وكم أهلكتنا قبلهم من قرن) وكقوله عليه السلام : « خير القرون قرني . . . » الحديث ، فقد كان الجليل قبل نوح يعمررون الدهر الطويلة - فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين . والله أعلم .

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس في الضلالة والكفر ، فبعثه الله رحمة للعباد . فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة . وكان قومه يقال لهم بنو راسب فيما ذكره ابن جبير وغيره .

واختلفوا في مقدار سنة يوم بعث ؛ فقيل كان ابن خمسين سنة ، وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة ، وقيل ابن أربعائة وثمانين سنة . حكاه ابن جرير ، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس .

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة - في غير ما موضع من كتابه العزيز ؛ ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون

والشعراء والعنكبوت والصفات واقتربت . وأنزل فيه سورة كاملة^(١) . فقال في سورة الأعراف :
 (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم *
 قال الملائكة من قومه إنا لنراك في ضلال مبين * قال يا قوم ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين *
 أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم
 على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون * فكذبوه فأنجيناها والذين معه في الفلك ، وأغرقنا
 الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين^(٢)) وقال في سورة يونس : (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه
 يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم
 لا يكن أمركم عليكم غمّة ، ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر ، إن أجرى
 إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين * فكذبوه فنجيناها ومن معه في الفلك ، وجعلناهم
 خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين^(٣)) وقال تعالى في سورة هود :
 (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين * أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب
 يوم أليم * فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا
 بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة
 من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أن لنزكموها وأنتم لها كارهون * ويا قوم لا أسألكم
 عليه مالا إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون *
 ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب
 ولا أقول إني ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيتهم الله خيراً ، الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا
 لمن الظالمين * قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما
 يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين * ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن
 يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون * أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجماعي وأنا بريء مما تجرمون *
 وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون * واصنع الفلك بأعيننا
 ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرّقون * ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ،
 قال : إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه
 عذاب مقيم * حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق
 عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل * وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور
 رحيم * وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابني اركب معنا ولا تسكن مع

الكافرين * قال ساوى إلى جبل يعصمى من الماء ، قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المفترقين * وقيل يأرض ابلى ماءك ويأسماء ألقى ، وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين * ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمى أكن من الخاسرين * قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم * تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين^(١) * وقال تعالى فى سورة الأنبياء : (ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين^(٢)) وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لآنزل ملائكة ، ما سمعنا بهذا فى آياتنا الأولى * إن هو إلا رجل به جنة فترى صوا به حتى حين * قال رب انصرنى بما كذبون * فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، فإذا جاء أمرنا وفار انتور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك : إلا من سبق عليه القول منهم ، ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغروقون * فإذا استوتبت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين * وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين^(٣)) وقال تعالى فى سورة الشعراء : (كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * فاتقوا الله وأطيعون * قالوا أنؤمن لك واتبعك الأزدون * قال وما علمى بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين * قالوا انن لم تفته يا نوح لتسكونن من المرجومين * قال رب إن قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجى ومن معى من المؤمنين * فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم^(٤)) وقال تعالى فى سورة العنكبوت : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فىهم ألف سنة إلا خمسين عاماً

(١) الآيات : ٢٦ — ٥٠ (٢) الآيات : ٢٧ ، ٢٨

(٣) الآيات : ٢٤ — ٣١ (٤) الآيات : ١٠٦ — ١٢٣

فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناه آية للعالمين) ، وقال تعالى في سورة
والصافات : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم
الباقون * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على نوح في العالمين * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه
من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الآخرين^(١)) ، وقال تعالى في سورة اقتربت : (كذبت قبلهم قوم
نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازجر * فدعاه ربه أنى مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء
منهمر * ونجرتنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري
بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد
يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر^(٢)) وقال تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم * إنا أرسلنا نوحاً إلى
قومه أن أذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم * قال يا قوم إني لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله
واتقوه وأطيعوه * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو
كنتم تعلمون * قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدتهم دعائى إلا فراراً * وإني كلما دعوتهم
لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً * ثم إني دعوتهم
جهاراً * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء
عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً * ما لكم لا ترجون
لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً * ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً
وجعل الشمس سراجاً * والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً * والله جعل
لكم الأرض بساطاً * لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً * قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد
ماله وولده إلا خساراً * ومكروا مكراً كباراً * وقالوا لا تذرنا آلهتكم ، ولا تذرنا ودأ ولا سواعا
ولا يعوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً * مما خطيئاتهم أغرقوا
فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين
دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً * رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل
بيتي مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تباراً^(٣)) وقد تكلمنا على كل موضع من هذه
في التفسير . وسندكر مضمون القصة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرقة ، ومما دلت عليه الأحاديث
والآثار . وقد جرى ذكره أيضاً في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه ؛ فقال تعالى
في سورة النساء : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحيا إلى إبراهيم وإسماعيل

(١) الآيات : ٧٦ - ٨٣ . (٢) الآيات ١٠ - ١٧ (٣) سورة نوح بتامها .

وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبوراً * ورسلاً
 قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً * رسلاً مبشرين
 ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً^(١)) وقال في سورة الأنعام :
 (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له
 إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى
 وهرون ، وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل
 واليسع ويونس ولوطاً ، وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم
 إلى صراط مستقيم^(٢)) الآيات ، وتقدمت قصته في الأعراف . وقال في سورة براءة : (ألم يأتهم
 نبأ للذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات ،
 فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون^(٣)) ، وتقدمت قصته في يونس وهود . وقال
 في سورة إبراهيم : (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم
 إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم ، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ،
 وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب^(٤)) ، وقال في سورة سبحان : (ذرية من حملنا مع نوح إنه
 كان عبداً شكوراً) ، وقال فيها أيضاً : (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب
 عباده خبيراً بصيراً) ، وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت . وقال في سورة
 الأحزاب : (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا
 منهم ميثاقاً غليظاً^(٥)) وقال في سورة ص : (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود
 وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب^(٦)) وقال في
 سورة غافر : (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا
 بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب * وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا
 أنهم أصحاب النار^(٧)) وقال في سورة الشورى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا
 إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين
 ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب^(٨)) وقال تعالى في سورة ق : (كذبت
 قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل
 كذب الرسل فحق وعيد^(٩)) وقال في الذاريات : (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين^(١٠)) وقال

(١) الآيات : ١٦٣ — ١٦٥ (٢) الآيات : ٨٤ — ٨٨ (٣) الآية : ٧٢ (٤) الآية : ١٠

(٥) الآية : (٧) ٦ الآيات : ١١ — ١٣ (٧) الآيات : ٥ — ٦

(٨) الآية : ١٢ (٩) الآيات : ١١ — ١٣ (١٠) الآية : ٤٥

في النجم : (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) ، وتقدمت قصته في سورة أقتربت الساعة . وقال تعالى في سورة الحديد : (ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ؛ فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون^(١)) وقال تعالى في سورة التحريم : (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين) .

وأما مضمون ماجرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار ، فقد قدمنا عن ابن عباس : أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، رواه البخارى . وذكرنا أن المراد بالقرن الجليل أو المدة على ماسلف . ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الاصنام . وكان سبب ذلك مارواه البخارى من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يعقوب ويعوق ونسراً) قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجالسون فيها أنصائباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ^(٢) العلم عبت . قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح — في العرب بعد . وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق .

وقال ابن جرير في تفسيره : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران عن سفيان ، عن موسى عن محمد بن قيس قال : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ويهم يسقون المطر فعبدوهم . وروى ابن أبي حاتم عن عروة ابن الزبير أنه قال : ود و يعقوب ويعوق وسواع ونسر — أولاد آدم ، وكان «ود» أكبرهم وأبرهم به . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا يعقوب عن أبي الطاهر قال : ذكروا عند أبي جعفر — هو الباقر — وهو قائم بصلى يزيد بن المهلب ، قال : فلما انفتل من صلواته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب ، أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله تعالى . قال ذكروا قال : كان رجلاً صالحاً ، وكان محبباً في قومه ، فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال : إني أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا نعم . فصور لهم مثله ، قال : فوضعه في ناديهم وجعلوا يذكرونه .

فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له في بيته فتدكرونه ؟ قالوا نعم . قال فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أبناءهم فجعلوا يرون ما يصنعون به . قال : وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهًا يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول ما عبد غير الله « ودأ » الصنم الذي سموه ودأ .

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس . وقد ذكر أنه لما تطاولت اليهود والأزمان — جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم ، ثم عبدت بهد ذلك من دون الله عز وجل . ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير . والله الحمد والمنة . وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ : أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة — تلك الكنيسة التي رأيها بأرض الحبشة ، ويقال لها مارية ، وذكرتا من حسناتها وتصاوير فيها قال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، ثم صوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل » .

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعباد الأصنام فيها — بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام ، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه . فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة ، قال : « فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربى قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن شجرة فعصيت ، نفسى نفسى . اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل ؟ فيقول : ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، نفسى نفسى » وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخارى في قصة نوح (١) : فلما بعث الله نوحاً عليه السلام ، دعاهم إلى إفراذ عبادة الله وحده لا شريك له ، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالا ولا طاغوتاً (٢) وأن يعترفوا بوحدايته ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته ، كما قال تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين (٣)) . وقال

(١) تمامه : اثنا النبي صلعم : فيأتونى فأسجد تحت العرش ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعطه . (٢) الطاغوت : الكاهن والشيطان وكل رأى ضلال (٣) الآية : ٧٩ من سورة الصافات .

فيه وفي إبراهيم : (وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) — أى كل نبى من بعد نوح فمن ذريته .
وكذلك إبراهيم . قال الله تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)
وقال تعالى : (واسئـل من أرسلنا قبلك من رسلنا ، أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) وقال تعالى :
(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ولهذا قال نوح لقومه :
(اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقال : (ألا تعبدوا إلا الله إني
أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وقال : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) وقال : (يا قوم
إني لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون... إلى .. وقد خلقكم أطوارا) الآيات الكريمة (١) .
فذكر أنهم دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة فى الليل والنهار ، والسر والإجهار ، بالترغيب تارة والترهيب
أخرى ، وكل هذا لم ينجح فيهم ، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطفیان وعبادة الأصنام والأوثان .
ونصبوا له العداوة فى كل وقت وأوان ، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به ، وتوعدوهم بالرحم والإخراج ،
ونالوا منهم وبالغوا فى أمرهم . (قال الملائكة من قومه) أى السادة الكبراء منهم : (إنا أنزلك فى ضلال
مبين * قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين) — أى لست كما تزعمون من أنى
ضال ، بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين ، أى الذى يقول للشيء كن فيكون ، (أبلغكم
رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) . وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً — أى
فصيحاً ناصحاً — أعلم الناس بالله عز وجل . وقالوا له فيما قالوا : (ما نراك إلا بشرا مثننا ، وما نراك اتبعك
إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل ننظكم كاذبين (٢)) . تعجبوا أن يكون
بشراً رسولا ، وتنقصوا من اتبعه ورأوه أراذلهم . وقد قيل إنهم كانوا من أفئدة الناس وهم ضعفاؤهم —
كما قال هرقل وهم أتباع الرسل ، وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق . وقولهم بادي الرأي — أى
بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية . وهذا الذى رموه به هو عين ما يمدحون
بسببه رضى الله عنهم ؛ فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر ، بل يجب اتباعه
والانقياد له متى ظهر . ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحاً للصديق : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام
إلا كانت له كبوة غير أبى بكر ؛ فإنه لم يتلعم » . ولهذا كانت بيعة يوم الثقيفة أيضاً سرية من غير
نظر ولا روية ؛ لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضى الله عنهم . ولهذا قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب الكتاب الذى أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه ،
قال : « يأبى الله والمؤمنون إلا أبابكر رضى الله عنه » . وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به :
(وما نرى لكم علينا من فضل) أى لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا (بل

نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأتم لها كارهون^(١) .

وهذا تالطف في الخطاب معهم : وترفق بهم في الدعوة إلى الحق ، كما قال تعالى : (فقولوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى^(٢)) وقال تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن^(٣)) وهذا منه يقول لهم : (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده) أي النبوة والرسالة ، (فعميت عليكم) أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها ، (أنلزمكموها) أي أنفضبكم بها ونجبركم عليها ؟ (وأتم لها كارهون) أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه . (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) أي لست أريد منكم أجره على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم ، إن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي ، وأبقى مما تعطونني أتم .

وقوله : (وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ، ولكني أراكم قوماً تجهلون) كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك ، فأبى عليهم ذلك وقال : (إنهم ملاقوا ربهم) أي فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله عز وجل . ولهذا قال : (ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون) . ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين ؛ كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم — نهاه الله عن ذلك ، كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف ، (ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك) أي بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به ، ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه ، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . (ولا أقول للذين تزدري أعينكم) يعني من أتباعه : (إن يؤتيتهم الله خيراً ، الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين) أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة ، الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم : إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، كما قالوا في المواضع الأخر : (أنؤمن لك واتبعك الأردلون * قال وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين^(٤)) .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى : (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم ، وكان كل ما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربتة ومخالفته . وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه

(١) الآية : ٢٨ من سورة هود (٢) الآية : ٤٦ من سورة طه (٣) الآية : ١٣٧ من سورة النحل .

(٤) الآيات : ١١٣ — ١١٧ من سورة الشعراء

كلامه — وصاه فيما بينه وبينه ، ألا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقى . وكانت سجايهم تأبى الإيمان واتباع الحق ، ولهذا قال : (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) ولهذا قالوا : (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ^(١)) أى إنما يقدر على ذلك الله عز وجل ، فإنه الذى لا يعجزه شيء ولا يكثره أمر ، بل هو الذى يقول للشيء كن فيكون . (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن الله كان يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون) أى من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته ، هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد ، وهو العزيز الحكيم ، العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

(وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) تسلية له عما كان منهم إليه ، (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) . وهذه تعزية لنوح عليه السلام فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ، أى لا يسوأئك ماجرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) . وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يتأس من صلاحهم وفلاحهم ، ورأى أنهم لا خير فيهم ، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق ، من فعال ومقال — دعا عليهم دعوة غضب ، فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وقومه من الكرب العظيم ^(٢)) . وقال تعالى : (ونوحاً إذا نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) . وقال تعالى : (قال رب إن قومى كذَّبون * فافتح يدي وبينهم فتحاً ونجى ومن معى من المؤمنين) . وقال تعالى : (فدعاربه أنى مغلوب فانتصر) . وقال تعالى : (قال رب انصرنى بما كذبون) . وقال تعالى : (مما خطيأتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً * فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم . فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك — وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها . وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره ، وحل بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين — أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعهم ؛ فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم ، فإنه ليس الخبر كالمعاينة . ولهذا قال : (ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون * ويصنع الفلك وكلامر عليه ملاً من قومه سخروا منه) أى يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به ، (قال إن تسخروا منا فإنا

(١) الآيتان : ٣٤ — ٣٥ من سورة هود ، وكذلك الآيات بعد . (٢) سورة الصافات .

نسخر منكم كما تسخرون) أى نحن الذين نسخر منكم ونتمجب منكم فى استمراركم على كسفركم وعندكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم . (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) . وقد كانت سجايهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا ، وهكذا فى الآخرة فإنهم يحدون أيضاً أن يكون جاءهم رسول ، كما قال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي سعيد قال ، قال رسول الله ﷺ « يحيى نوح عليه السلام وأمه ، فيقول الله عز وجل هل بلغت ؟ فيقول : نعم أى رب ، فيقول لأمه هل بلغتكم ؟ فيقولون : لا — ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمه ، فتشهد أنه قد بلغ » . وهو قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا) (١) . والوسط العدل . فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق ، بأن الله قد بعث نوحاً بالحق ، وأنزل عليه الحق وأمره به ، وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ، ولم يدع شيئاً مما ينفعهم فى دينهم إلا وقد أمرهم به ، ولا شيئاً مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه ، وحذرهم منه .

وهكذا شأن جميع الرسل ، حتى إنه حذر قومه المسيح الدجال ، وإن كان لا يتوقع خروجه فى زمانهم ؛ حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم ، كما قال البخارى : حدثنا عبدان ، حدثنا عبد الله عن يونس عن الزهرى ، قال سالم قال ابن عمر : قام رسول الله ﷺ فى الناس فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : « إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه . لقد أنذره نوح قومه ، ولكنى أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه : تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور » . وهذا الحديث فى الصحيحين أيضاً من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً ما حدث به نبي قومه ؟ إنه أعور . وإنه يحيى معه بمثل الجنة والنار (٢) » والتى يقول عليها الجنة هى النار ، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه » . لفظ البخارى .

وقد قال بعض علماء السلف : لما استجاب الله له ، أمره أن يفرس شجراً ليعمل منه السفينة ، ففرسه وانتظره مائة سنة ، ثم نجره فى مائة أخرى ، وقيل فى أربعين سنة والله أعلم . قال محمد بن إسحق عن الثورى : وكانت من خشب الساج ، وقيل من الصنوبر وهو نص التوراة . قال الثورى : وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً ، وعرضها خمسين ذراعاً ، وأن يطفى ظاهرها وباطنها بالقار ،

(١) من الآية : ١٤٥ من سورة البقرة . والحديث فى البخارى فى كتاب : أجابيث الأنبياء .
(٢) عند ابن عساکر : تمثالو — أى صورة

وأن يجعل لها جوجوا^(١) أزور^(٢) يشق الماء . وقال قتادة : كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين ذراعاً . وهذا الذي في التوراة على ما رأيت . وقال الحسن البصرى : ستمائة في عرض ثلثمائة ، وعن ابن عباس ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ذراع . وقيل كان طولها ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع . قالوا كلهم : وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ، وكانت ثلاث طبقات ، كل واحدة عشرة أذرع ؛ فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للناس ، والعليا للطيور . وكان بابها في عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها . قال الله تعالى : (قال رب انصرني بما كذبون : فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا) — أى بأمرنا لك ، وبمرأى منا لصنعتك لها ، ومشاهدتنا لذلك ، لترشدك إلى الصواب في صنعتها . (فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول منهم ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون)^(٣) فتقدم إليه بأمره العظيم العالى : أنه إذا جاء أمره وحل بأسه — أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات ، وسائر ما فيه روح من الماء كولات وغيرها لبقاء نسلها ، وأن يحمل معه أهله — أى أهل بيته — إلا من سبق عليه القول منهم ؛ أى إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد . وأمر أنه لا يراجعهم فيهم إذا حل بهم ما يعانیه من العذاب العظيم ، الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد ، كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالتنور عند الجمهور — وجه الأرض ، أى نبعت الأرض من سائر أرجائها ، حتى نبعت التنائير التي هي محال النار . وعن ابن عباس : التنور عين في الهند ، وعن الشعبي بالكوفة ، وعن قتادة بالجزيرة . وقال على بن أبي طالب : المراد بالتنور فلق الصبح وتنوير الفجر — أى إشراقه وضيؤه . أى عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين . وهذا قول غريب . وقوله تعالى : (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) هذا أمر بأنه عند حلول النعمة بهم — أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . وفي كتاب أهل الكتاب : أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ، ومالا يؤكل زوجين ذكر وأنثى . وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق . (اثنين) إن جعلنا ذلك مفعولاً به ، وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول به محذوف — فلا ينافى . والله أعلم .

وذكر بعضهم — ويروى عن ابن عباس : أن أول ما دخل من الطيور الدرة ، وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار . ودخل إبليس متعلقاً بذنب الحمار . وقال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن

صالح ، حدثني الليث ، حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين - قال أحبابه : وكيف نظمتن ؟ أو كيف تطمنن المواشي ومعنا الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى ، فكانت أول حمى نزلت في الأرض . ثم شكوا الفأرة ، فقالوا : الفو يسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى الله إلى الأسد فعض ، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها . هذا مرسل . وقوله : (وأهلك إلا من سبق عليه القول) أى من استجبت فيهم الدعوة النافذة من كفر ، فكان منهم ابنه « يام » الذى غرق كما سيأتى بيانه . (ومن آمن) أى واحمل فيها من آمن بك من أمتك ، قال الله تعالى : (وما آمن معه إلا قليل) هذا مع طول المسدة والمقام بين أظهرهم ، ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات ، والتهديد والوعيد تارة ، والترغيب والوعيد أخرى .

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة . فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم ، وعن كعب الأحمبار كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل كانوا عشرة ، وقيل إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة وكنايته^(١) الأربع بامرأة « يام » الذى انخزل وانزل ، وتسلسل عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل . وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية ، بل هى نص فى أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به ، كما قال : (ونجى ومن معى من المؤمنين) ، وقيل كانوا سبعة . وأما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم : وهم حام وسام ، ويافث ، ويام « ويسميه أهل الكتاب كنعان وهو الذى قد غرق » ، وعابر - فقد ماتت قبل الطوفان . قيل إنها غرقت مع من غرق ، وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها . وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة ، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك ، أو أنها أنظرت ليوم القيامة . والظاهر الأول لقوله : (لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) . قال الله تعالى : (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين *) وقال رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) أمره أن يحمده على ما سخر له من هذه السفينة ، فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه ، وأقر عينه بمن خالفه وكذبه ، كما قال تعالى : (والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستوتوا على ظهوره ثم تذكروا نعمه ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون)^(٢) . وهكذا يؤمر بالدعاء فى ابتداء الأمور : أن يكون على الخير والبركة ، وأن تكون عاقبتها محمودة ، كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر : (وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً)^(٣) . وقد امتثل نوح عليه

(١) جم كنة . بالفتح - وهى امرأة الابن (٢) الآيات : ١٢ - ١٤ من سورة الزخرف .

(٣) الآية : ٨٠ من سورة الإسراء .

السلام هذه الوصية (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) — أى على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاءه ؛ (إن ربي لغفور رحيم) أى وذو عقاب أليم ، مع كونه غفوراً رحيماً ، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره . قال الله تعالى : (وهي تجري بهم في موج كالجبال) . وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعده الأرض قبله ولا تمطره بعده ، كان كأفواه القرب ، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها . كما قال تعالى : (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) * ففتحتنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر^(١) . والدرس^(٢) المسامير (تجرى بأعيننا) أى بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها (جزاء لمن كان كافر) .

وقد ذكر ابن جرير وغيره : أن الطوفان كان في ثالث عشر من شهر آب في حساب القبط . وقال تعالى : (إن لما طغى الماء حملناكم في الجارية) أى السفينة (لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) قال جماعة من المفسرين : ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعاً ، وهو الذى عند أهل الكتاب . وقيل ثمانين ذراعاً ، وعم جميع الأرض طولها والعرض ، سهاتها وحزنها ، وجبالها وقفارها ورمالها . ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء — عين تطرف ، ولا صغير ولا كبير . قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم : كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لم تكن بقعة في الأرض إلا ولها مالك وحائز . رواها ابن أبي حاتم . (ونادى نوح ابنه وكان في معزل ، يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) * قال سائى إلى جبل يعصمى من الماء ، قال لعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين^(٣) وهذا الابن هو «يام» أخو سام وحام ويافث ، وقيل اسمه كنعان . وكان كافراً عمل عملاً غير صالح ، يخالف أباه في دينه ومذهبه فهلك مع من هلك . هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب ، لما كانوا موافقين في الدين والمذهب . (وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء ألقى ، وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين^(٤)) أى لما فرغ من أهل الأرض ، ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل — أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها ، وأمر السماء أن تقلع أى تمسك عن المطر ، (وغيض الماء) أى نقص عما كان ، (وقضى الأمر) أى وقع بهم الذى كان قد سبق في علمه وقدره ؛ من إحلاله بهم ما حل بهم ، (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى نودى عليهم بلسان القدرة : بعداً لهم من الرحمة والمغفرة ، كما قال تعالى : (فكذبوه فأنجيناهم والذين معه

(١) سورة اقتربت الساعة وانشق القمر . (٢) جمع دسار بالسكسر — وهي خيوط من ليف نشدتها ألواح السفينة ، وقيل هي المسامير . (٣) الآيتان : ٤٢ — ٤٣ من سورة هود (٤) الآية : ٤٤ من سورة هود .

في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين^(١) وقال تعالى : (فسكذبوه فنجيناها ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين)^(٢) وقال تعالى : (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين)^(٣) وقال تعالى : فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم^(٤) وقال تعالى : (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) وقال تعالى : (ثم أغرقنا الآخرين) وقال : (ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابى ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)^(٥) وقال تعالى : (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً)^(٦) . وقد استجاب الله تعالى وله الحمد والمنة - دعوته ، فلم يبق منهم عين تطرف .

وقد روى الإمامان : أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم - في تفسيريهما من طريق يعقوب ابن محمد الزهرى ، عن قائد مولى عبد الله بن أبي رافع : أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « فلورحم الله من قوم نوح أحد الرحم أم الصبي » . قال رسول الله ﷺ : « مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة - يعنى إلا خمسين عاماً - وغرس مائة سنة الشجر ، فعظمت وزهبت كل مذهب ، ثم قطعها ثم جعلها سفينة ، ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون : تعمل سفينة في البر كيف تجرى ؟ قال سوف تعلمون . فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً . فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتهما رفعتها بيديها فغرقا ، فلورحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي » . وهذا حديث غريب ، وقد روى عن كعب الأخبار ومجاهد وغير واحد - شبيه لهذه القصة . وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفاً متلقى عن مثل كعب الأخبار . والله أعلم .

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين دياراً ، فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق - ويقال ابن عناق^(٧) - كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى . ويقولون كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً . ويقولون كان لغير رشدة ، بل ولدته أمه بنت آدم من زنا . وأنه كان يأخذ من طول السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس ، وأنه كان يقول لنوح وهو في السفينة : ما هذه القصيدة التي

(١) الآية : ٦٤ من سورة الأعراف (٢) الآية : ٧٣ من سورة يونس (٣) الآية : ٧٧ من سورة الأنبياء

(٤) الآيات : ١١٩ - ١٢٢ من سورة الشعراء (٥) سورة القمر (٦) سورة نوح .

(٧) قال شارح القاموس : الصواب أنه ابن عوق لا كما اشتهر من أنه ابن عنق . وكذلك جاء في اللسان أنه ابن عوق

لك؟ ويستهزئ به . ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلاثاً ، إلى غير ذلك من الهذيان التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام النام - لما تعرضنا لحكايتها ؛ لسقاطتها وركاكتها . ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول :

أما المعقول فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره ، وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان - ولا يهلك عوج بن عنق ويقال عناق ، وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا؟ وكيف لا يرحم الله منهم أحداً ولا أم الصبي ولا الصبي؟ ويترك هذا الدعي الجبار العنيد الفاجر ، الشديد الكافر ، الشيطان المرید على ما ذكروا؟ وأما المنقول فقد قال الله تعالى : (ثم أغرقنا الآخرين) وقال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) . ثم هذا الطول الذي ذكره مخالف لما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى (إن هو إلا وحي يوحى) - أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك وهلم جرا إلى يوم القيامة . وهذا يقتضى أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه ، فكيف يترك هذا ويذهل عنه؟ ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب ، الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها؟ فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤمنون عليه . وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقاً من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء والله أعلم .

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده ، وسؤاله له عن غرقه - على وجه الاستلام والاستكشاف . ووجه السؤال أنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق ، فأجيب بأنه ليس من أهلك - أي الذين وعدت بنجاتهم . أي أنا قلنا لك : (وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) فكان هذا من سبق عليه القول منهم بأنه سيفرق بكفره ، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان ، ففرق مع حزبه أهل الكفر والظفیان . ثم قال تعالى : (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض ، وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها - أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي « وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور » . وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال . (بسلام منا وبركات) أي اهبط سالماً مباركاً عليك ، وعلى أمم ممن سيولد بعد - أي من أولادك ؛ فإن الله لم يجعل لأحد من كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقباً سوى نوح عليه السلام . قال

ثعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين) ، فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم — ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم : « سام ، وحام ، ويافث » .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبي ﷺ قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » . ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العقدي عن يزيد بن زريع ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعاً نحوه . وقال الشيخ أبو عمرو بن عبد البر ، وقد روى عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ مثله . قال : والمراد بالروم هنا الروم الأول ، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطى بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام . ثم روى من حديث اسمعيل بن عياش ، عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : ولد نوح ثلاثة : سام ويافث وحام ، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ؛ فولد سام : العرب وفارس والروم . وولد يافث : الترك والسقالية وأجوج ومأجوج . وولد حام : القبط والسودان والبربر . قلت وقد قال الخافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا إبراهيم بن هانىء ، وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالوا : حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوى ، حدثنى أبى عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ولد لنوح : سام وحام ويافث ؛ فولد لسام : العرب وفارس والروم والحير فيهم . وولد ليافث : يأجوج ومأجوج والترك والسقالية ولا خير فيهم . وولد لحام : القبط والبربر والسودان » . ثم قال : لا أعلم يروى مرفوعاً إلا من هذا الوجه . تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه ، وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه . ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلاً ولم يسنده ، وإنما جملة من قول سعيد . قلت وهذا الذى ذكره أبو عمرو — هو المحفوظ عن سعيد قوله . وهكذا روى عن وهب بن منبه مثله والله أعلم . ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوى ضعيف بمره لا يعتمد عليه . وقد قيل إن نوحاً عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان ، وإنما ولد له قبل السفينة : كنعان الذى غرق ، وعابر مات قبل الطوفان .

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه فى السفينة هم ونساؤهم وأمههم وهو نص التوراة . وقد ذكر أن « حاماً » واتبع امرأته فى السفينة ، فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته ، فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان . وقيل بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه ، فلهدا دعا عليه أن تغير نطفته ، وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته .

وذكر الامام أبو جعفر بن جرير من طريق على بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم : لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها . قال فانطلق بهم حتى أتى إلى كنيثب من تراب ، فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه ، وقال : أندرون ما هذا ؟ قالوا

الله ورسوله أعلم ، قال : هذا كعب حام بن نوح . قال : وضرب السكتيب بعصاه وقال : قم بإذن الله ، فإذا هو قائم ينفذ التراب عن رأسه قد شاب . فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت : قال لا — ولكني مت وأنا شاب ، واسكني ظننت أنها الساعة فن ثم شبت . قال : حدثنا عن سفينة نوح . قال كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير . فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام — أن اغمز ذنب القيل ، فغمزه فوق منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث . ولما وقع الغار يخرز السفينة بقرضه — أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام : أن اضرب بين عيني الأسد ، فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الغار . فقال له عيسى كيف علم نوح عاياه السلام أن البلاد قد غرقت ؟ قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها ، فدعا عليه بالخوف فإذ لك لا يألف البيوت . قال : ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها ، فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التي في عنقها ، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان ، فمن ثم تألف البيوت . قال : فقالوا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال كيف يتبعكم من لارزق له ؟ قال : فقال له عد بإذن الله ، فعاد ترابا . وهذا أثر غريب جداً .

وروى علباء بن أحر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلهم ، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً ، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ، ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه ، فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض ، فذهب فوق على الجيف فأبطأ عليه ، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين ، فعرف نوح أن الماء قد نضب ، فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية سماها ثمانين ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة ، إحداهما العربي . وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض ، فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم .

وقال قتادة وغيره : ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب ، فساروا مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودي شهراً . وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من الحرم . وقد روى ابن جرير خيراً مرفوعاً يوافق هذا ، وأنهم صاموا يومهم ذلك . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو جعفر ، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله ، عن شبل عن أبي هريرة قال : مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال ما هذا الصوم ؟ فقالوا هذا اليوم الذي نجا الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الفرق ، وغرق فيه فرعون ، وهذا اليوم استوت فيه السفينة على الجودي ، فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل ، فقال النبي ﷺ : « أنا

أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم » ، وقال لأصحابه : « من كان منكم أصح صائماً فليتم صومه ، ومن كان منكم قد أصاب من غد أهله فليتم بقية يومه » . وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من وجه آخر ، والمستغرب ذكر نوح أيضاً والله أعلم . وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ، ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها ، وطحنوا الحبوب يومئذ ، واكتحلوا بالأمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعدما كانوا في ظلمة السفينة — فكل هذا لا يصح فيه شيء ، وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بنى إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها . والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : لما أراد الله أن يسكن ذلك الطوفان — أرسل ريحاً على وجه الأرض ، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض ، فجعل الماء ينقص ويفيض ويدبر ، وكان استواء الفلك — فيما يزعم أهل التوراة — في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه . وفي أول يوم من الشهر العاشر رثيت رؤوس الجبال . فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعاً ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتفظر له ما فعل الماء فلم ترجع ، فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة ، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض . ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه ، فعلم نوح أن الأرض قد برزت ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين — برز وجه الأرض ، وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك .

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب . قال ابن إسحاق : وفي الشهر الثاني من سنة اثنين في ست وعشرين ليلة منه (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) . وفيما ذكر أهل الكتاب — أن الله كلم نوحاً قائلاً له : اخرج من الفلك أنت وامراتك وبنوك ونساء بنيك معك . وجميع الدواب التي معك ، ولينموا وليكبروا في الأرض . فخرجوا وابتنى نوح مذبحاً لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الخلال والطير الخلال فذبحها قرباناً إلى الله عز وجل . وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض . وجعل تذكاراً لميثاقه إليه — القوس الذي في الغمام ، وهو قوس قزح الذي قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الفرق . قال بعضهم : فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر ، أى أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة .

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان ، واعترف به آخرون منهم وقالوا : إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا . قالوا : ولم نزل نتوارث الملك كابراً عن كابر ، من لدن

كيومرث — يعنون آدم — إلى زماننا هذا ، وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان . وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ، ومكابرة للحسوسات ، وتكذيب لرب الأرض والسموات .

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن — مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان — على وقوع الطوفان ، وأنه عم جميع البلاد ، ولم يبق الله أحداً من كفررة العباد ؛ استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم ، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم .

ذكر شيء من أخبار نوح نفسه عليه السلام

قال الله تعالى : (إنه كان عبداً شكوراً)^(١) . قيل : إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أسامة ، حدثنا زكريا بن نبى زائدة عن سعيد بن أبي بردة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها » . وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث أسامة . والظاهر أن الشكور هو الذى يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية ؛ فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولسانى والضمير المحجبا

ذكر صومه عليه السلام

وقال ابن ماجة : باب صيام نوح عليه السلام . حدثنا سهل بن أبي سهل ، حدثنا سعيد بن أبي مریم عن ابن هبة عن جعفر بن ربيعة عن أبي فراس ، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى » . هكذا رواه ابن ماجة عن طريق عبد الله بن هبة بإسناده ولفظه . وقد قال الطبرانى : حدثنا أبو الزنباغ روح بن فرج ، حدثنا عمر بن خالد الحرانى ، حدثنا ابن هبة عن أبي قتادة عن يزيد بن رباح عن أبي فراس — أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى ، وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر » .

ذكر حججه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يلى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبي عن زمعة — هو ابن أبي صالح — عن سلامة بن وهرام ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادى عسفان قال :

(١) من الآية : ٣ من سورة الإسراء

« يا أبا بكر أيّ واد هذا؟ » قال هذا وادي عسفان . قال : « لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حر ، خطمهم الليف ، أزرقهم العباء وأرديتهم النمار^(١) يحجون البيت العتيق » . فيه غرابة .

ذكر وصيته لولده عليه السلام

قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد عن الصقعب بن زهير عن زيد بن أسلم — قال حماد — أظنه عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان^(٢) منزرورة بالدباج فقال : « ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس — أو قال — يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ، ورفع كل راع ابن راع » ، قال فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال : « لا أرى عليك لباس من لا يعقل » ، ثم قال : « إن نبي الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاص عليك وصية ؛ أسرك بائنتين وأنهاك عن اثنتين : أمرك بلا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لإله إلا الله في كفة — رجحت بهن لا إله إلا الله . ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمه^(٣) ضمتن لإله إلا الله وسبحان الله وبحمده — فإن بها صلوات كل شيء ، وبها يرزق الخلق . وأنهاك عن الشرك والكبر » . قال : قلت — أو قيل — يا رسول الله ، هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شرا كان حسنان؟ قال : « لا » . قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال : « لا » . قال : هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال : « لا » . قال : هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال : « لا » . قلت — أو قيل — يا رسول الله فما الكبر؟ قال : « سفه الحق وغمط الناس » . وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه .

ورواه أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « كان في وصية نوح لابنه : أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين » ، فذكر نحوه . وقد رواه أبو بكر البزار عن إبراهيم بن سعيد ، عن أبي معاوية الضرير عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عن النبي ﷺ بنحوه . والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، كما رواه أحمد والطبراني . والله أعلم .

ويزعم أهل الكتاب أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة — كان عمره ستائة سنة . وقدمنا عن ابن عباس مثله ، وزاد : وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة ، وفي هذا القول نظر . ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن — فهو خطأ محض ؛ فإن القرآن يقتضي أن نوحاً مكث في قومه بعد البعثة وقبل

(١) قال في القاموس: الثمرة: شملة فيها خطوط بيض وسود ، أو برده من صوف تلبسها الأعراب .

(٢) الذي في القاموس واللسان: السيج . العباءة المخططة . وضرب من البرود ، والجمع سيوح .

(٣) المبهم: المغلق من الأبواب ، والأصمت .

الطوفان — ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك ؟ فإن كان ما ذكر محفوظاً عن ابن عباس — من أنه بعث وله أربع مائة وثمانون سنة ، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة — فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبع مائة وثمانين سنة .

وأما قبره عليه السلام : فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلًا — أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام . وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين ، من أنه ببلدة البقاع تعرف اليوم بكرك نوح ، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك فيما ذكر . والله أعلم .

قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرنخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، ويقال إن هوداً هو عابر بن شالخ ابن أرنخشذ بن سام بن نوح ، ويقال هود بن عبد الله بن رباح الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . ذكره ابن جرير . وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح . وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف — وهي جبال الرمل — وكانت باليمن من عمان وحضرموت ، بأرض مظلة على البحر يقال لها الشحر ، واسم واديهم « مغيث » .

وكانوا كثيراً ما يسكنون انخيام ذوات الأعمدة الضخام ، كما قال تعالى : (ألم تركيب فعل ربك بعداء * إرم ذات العماد)^(١) أي عاد إرم وهم عاد الأولى . وأما عاد الثانية فتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه . وأما عاد الأولى فهم عاد (إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد) أي مثل القبيلة ، وقيل مثل العمدة . والصحيح الأول كما بيناه في التفسير .

ومن زعم أن « إرم » مدينة تدور في الأرض ؛ فتارة في الشام ، وتارة في اليمن ، وتارة في الحجاز ، وتارة في غيرها — فقد أبعد النجعة ، وقال مالا دليل عليه ، ولا برهان يعول عليه ، ولا مسند يركن إليه . وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه : « منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر » . ويقال إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية ، وزعم وهب ابن منبه أن أباه أول من تكلم بها ، وقال غيره : أول من تكلم بها نوح ، وقيل آدم وهو الأشبه ، وقيل غير ذلك . والله أعلم .

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام — العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة : منهم عاد ، وثمود ، وجرهم ، وطسم ، وجديس ، وأميس ، ومدين ، وعملاق ، وعبيل ، وجاسم ، وقحطان ، وبنو يقطن ، وغيرهم . وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل . وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام — أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة . وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم

(١) سورة الفجر . وذات العماد : ذات البناء الرفيع ، أو الرفعة وملو القدر والثبات

الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى ، ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان . وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ .

والمقصود أن عاداً — وهم عاد الأولى — كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان . وكانت أصنامهم ثلاثة : صدا ، وصمودا ، وهرا . فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح ، وما كان من أمرهم في سورة الأعراف : (وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تتفحون * قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجد لوني في أسماء سميتموها أتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إني معكم من المنتظرين * فأنجينا والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كان مؤمنين) (١) وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود : (وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أتم إلا مفترون * يا قوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون * ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين * قالوا يا هود ما جئنا بينة ، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ، فكيديني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أمرت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ، ولا تضره شئناً إن ربي على كل شئ حفيظ * ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ * وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود) (٢) . وقال تعالى في سورة « قد أفلح المؤمنون » بعد قصة قوم نوح : (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين * فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون * أيهدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً

أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين *
 إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرني بما كذبون * قال عما قليل
 ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غناء فبمداً للقوم الظالمين (١). وقال تعالى في سورة
 الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً : (كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ؟ إني لكم
 رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتبنون
 بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون *
 واتقوا الذي أمدمكم بما تعملون * أمدمكم بأنعام وبنين * وجنات وعميون * إني أخاف عليكم عذاب
 يوم عظيم * قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تسكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن
 بمعذبين * فكذبوه فأهلكناهم ، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز
 الرحيم (٢) وقال تعالى في سورة حم السجدة : (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد
 منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يمجدون * فأرسلنا عليهم ريحا
 صرصراً في أيام نحسات، لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (٣)
 وقال تعالى في سورة الأحقاف : (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ، وقد خلت النذر من بين
 يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا أجئتنا لتأفكنا عن
 آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني
 أراكم قوماً تجهلون * فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به
 ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم
 الجرمين (٤) . وقال تعالى في الذاريات : (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما نذر من شيء أتت
 عليه إلا جعلته كالرميم) وقال تعالى في النجم : (وأنه أهلك عاداً الأولى * وثمود فما أبقى * وقوم نوح من
 قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفة أهوى * ففشاها ماغشى * فبأى آلاء ربك تتارى) وقال
 تعالى في سورة اقتربت : (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في
 يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أمجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا
 القرآن للذكر فهل من مدكر) . وقال في الحاقة : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم
 سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أمجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية)
 وقال في سورة الفجر : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد *

(١) الآيات : ٣١ — ٤١ (٢) الآيات : ١٢٣ — ١٤٠ (٣) الآيات : ١٥ ، ١٦

(٤) الآيات : ٢١ — ٢٥

وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طفوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد . وقد تكلمنا على كل من هذه القصص فى أما كتبنا التفسير . والله الحمد والمنة .

وقد جرى ذكر عاد فى سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت ، وفى سورة ص ، وفى سورة ق . ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات ، مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار . وقد قدمنا أنهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان . وذلك بين فى قوله لهم : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة) — أى جعلهم أشد أهل زمانهم فى الخلق والشدة والبطش . وقال فى المؤمنون : (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) وهم قوم هود على الصحيح . وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله : (فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء) . قالوا : وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) . وهذا الذى قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتى فى قصة أهل مدين أصحاب الأيكة ؛ فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات ، ثم لاختلاف أن عاد أقبل ثمود . والمقصود أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين ، عتاة متمردين فى عبادة الأصنام ، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له ، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . فلما أمرهم بعبادة الله ورغبتهم فى طاعته واستغفاره ، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة ، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة — (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) أى هذا الأمر الذى تدعوننا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التى يرتجى منها النصر والرزق ، ومع هذا نظن أنك تكذب فى دعواك أن الله أرسلك . (قال يا قوم ليس بى سفاهة ولستى رسول من رب العالمين) ، أى ليس الأمر كما تظنون ولا كما تعتقدون (أبلغكم رسالات ربي وأنا لکم ناصح أمين) والبلاغ يستلزم عدم الكذب فى أصل المبلغ ، وعدم الزيادة فيه . الفقص منه ، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة ، لالبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب . وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة فى غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم ؛ لا يبتغى منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلاً ، بل هو مخلص لله عز وجل فى الدعوة إليه والنصح لخلقه ، لا يطلب أجره إلا من الذى أرسله ، فإن خير الدنيا والآخرة كله فى يديه وأمره إليه . ولهذا (قال يا قوم لأسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرني أفلا تعقلون) — أى أما لكم عقل تميزون به ؟ وتفهمون أنى أدعوكم إلى الحق المبين ؟ الذى تشهد به فطركم التى خلقتكم عليها ، وهو دين الحق الذى بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق . وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه ، بل أبتغى ذلك عند الله مالك الضر والنفع . ولهذا قال مؤمن «يس»^(١) : (اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون * ومالى لا أعبد الذى فطرني وإليه

(١) هو حبيب التجار من الحواريين . قيل كان يعبد الله فى غار ، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه .

ترجعون ؟) . وقال قوم هود له فيما قالوا: (ياهود ماجئتنا بينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ، يقولون ماجئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به ، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك ؛ بلا دليل أقتنه ولا برهان نصبته ، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه . وعندنا أنه إنما أصابك هذا - لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك ، فاعتراك جنون بسبب ذلك . وهو قولهم : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إني أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون) . وهذا تحد منه لهم ، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لها ، وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضر ، وأنها جهاد حكمها حكمه وفعلها فعله . فإن كانت - كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر - فما أنا برىء منها لاعتراقها (فكيدونى ثم لا تنظرون) أتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ، ولا تؤخرونى ساعة واحدة ولا طرفة عين ؛ فأبى لأبأى بكم ولا أفكر فيكم ، ولا أنظر إليكم . (إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم) أى أنا متوكل على الله ومتأيّد به ، وواقع بجنابه الذى لا يضيع من لاذبه واستند إليه ، فلست أبأى مخلوقاً سواه ، لست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه . وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله ، وأنهم على جهل وضلال فى عبادتهم غير الله ؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكرهاً . فدل على صدقه فيما جاءهم به ، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه .

وهذا الدليل بعينه قد استدلل به نوح عليه السلام قبله فى قوله : (يا قوم إن كان كبير عليكم مقامى وتذكروى آيات الله - فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ، ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ^(١)) . وهكذا قال الخليل عليه السلام : (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ، وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حججتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ^(٢)) (وقال الملأمن قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * وإنن أطعتم بشرأ مثلكم إنكم إذا نخاسرون * أيعدمكم أنكم إذا متم وكفتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ^(٣)) (استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشرياً . وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً ، كما قال تعالى : (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ^(٤)) وقال تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم

(١) من الآية : ٧١ من سورة يونس (٢) الآيات : ٨٠ - ٨٣ (٣) الآيات : ٣٣ - ٣٥

(٤) أول سورة يونس .

الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا * قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً^(١) . ولهذا قال لهم هود عليه السلام : (أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) . أى ليس هذا بعجيب ؛ فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقوله : (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرني بما كذبون) استعبدوا الميعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً ، وقالوا : هيهات هيهات - أى بعيد بعيد هذا الوعد ، (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) أى يموت قوم ويحيا آخرون . وهذا هو اعتقاد الدهرية ، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة : أرحام تدفع وأرض تبلع . وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة ، وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال ، وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل ، يستميل عقل الفجرة الكفرة من بنى آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون ، كما قال تعالى : (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون)^(٢) وقال لهم فيما وعظهم به : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) . يقول لهم : أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيمًا هائلًا كالقصور ونحوها ، تعبثون بينها لأنه لا حاجة لكم فيه ، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام ، كما قال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد) فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام .

ومن زعم أن «إرم» مدينة من ذهب وفضة وهي تنقل في البلاد - فقد غلط وأخطأ ، وقال مالادليل عليه . وقوله : (وتتخذون مصانع) قيل هي القصور ، وقيل بروج الحمام ، وقيل مأخذ الماء (لعلكم تخلدون) أى رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعماراً طويلة (وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمركم بما تعلمون * أمركم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . وقالوا له مما قالوا : (أجبثنا لعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ! فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) - أى أجبثنا لعبد الله وحده ، ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه ؟ فإن كنت صادقاً فيما جئت به فاتنا بما تعدنا من العذاب والنكال ، فإننا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك ، كما قالوا : (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين) . أما على قراءة فتح الخاء - فالمراد به اختلاق الأولين ، أى إن هذا الذى جئت به إلا اختلاق منك ،

أخذته من كتب الأولين . هكذا فسرهُ غير واحد من الصحابة والتابعين . وأما على قراءة ضم الخاء واللام — فالمراد به الدين ؛ أى إن هذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا ، ولن نتحول عنه ولا تتغير ، ولا نزال متمسكين به . ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم : (وما نحن بمعذبين) . قال : (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجدلوني فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إني معكم من المنتظرين) أى قد استحققتهم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله ، أنعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم تحتوها وسميتوها آلهة من تلقاء أنفسكم ؟ اصطاحتم عليها أنتم وآباؤكم ، ما نزل الله بها من سلطان . أى لم ينزل على مذهبهم إليه دليلاً ولا برهاناً . وإذا أبيتتم قبول الحق وتماديتم فى الباطل ، وسواء عليكم أنهيتمكم عما أنتم فيه أم لا — فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم ، وبأسه الذى لا يرد ، ونكاله الذى لا يصد .

وقال تعالى : (قال رب انصرنى بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غناء فبعداً للقوم الظالمين) وقال تعالى : (قالوا أجنثنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون * فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم ، قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين) .

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم فى غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلاً ، كقوله : (فأنجيناها والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) ، وكقوله : (ولما جاء أمر نأجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ * وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود) ، وكقوله : (فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غناء فبعداً للقوم الظالمين) ، وقال تعالى : (فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

وأما تفصيل إهلاكهم فلما قال تعالى : (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم) — كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب ، أنهم كانوا محملين^(١) مستئين^(٢) ، فطلبوا السقيا فرأوا عارضاً فى السماء وظنوه سقيا رحمة ، فإذا هو سقيا عذاب . ولهذا قال تعالى : (بل هو ما استعجلتم به) — أى من وقوع العذاب ، وهو قولهم : (فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) . ومثلها فى الأعراف .

وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الذى ذكره الإمام محمد بن إسحق بن بشار ، قال : فلما أبوا

(١) أصابهم المحل ، وهو الشدة واتقطاع المطر (٢) أصابهم السنة ، وهى الجدب والفتح

إلا الكفر بالله عز وجل — أمسك عنهم المطر ثلاث سنين ، حتى جهدهم ذلك . قال : وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه — إنما يطلبونه بجرمة ومكان بيته . وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان ، وبه العماليق مقيمون ، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له معاوية بن بكر ، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهذة ابنة الخيبرى^(١) . قال : فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستقوا لهم عند الحرم ، ففروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة ، فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً ؛ بشر بون الحمر ، وتغنيهم الجرادتان « قينتان لمعاوية^(٢) » ، وكانوا قد وصلوا إليه في شهر . فلما طال مقامهم عنده ، وأخذته شفقة على قومه ، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف — عمل شعراً يعرض لهم فيه بالانصراف ، وأمر القينتين أن تغنيهم به ، فقال :

ألا يا قيل ويحك قم - فهينم لعل الله يمنحنا غماماً
 فيسقى أرض عاد إن عاداً قد امسوا لا يبينون الكلاما
 من العطش الشديد وليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
 وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم أيامى
 وإن الوحش يأتهم جهارا ولا يخشى لعادى سهاما
 وأنتم ههنا فيما اشتبهتم نهاركم وليلكم تماما
 فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له ، فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم ، فدعا داعيهم وهو « قيل » ابن عنز ، فأنشأ الله سحابات ثلاثاً : بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء : اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب ، فقال : اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء ، فناداه مناد : اخترت رمادا رمدا ، لا تبقى من عاد أحدا ، لا والداً يترك ولا ولداً ، إلا جعلته همداً ، إلا بنى اللوزية الحمداء قال وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة ، فلم يصبهم ما أصاب قومهم . قال : ومن بقى من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة . قال : وساق الله السحابة السوداء التي اختارها « قيل » بن عنز بما فيها من النعمة إلى عاد ، حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث ، فلما رأوها استبشروا ، وقالوا هذا عارض ممطرنا ، فيقول تعالى : (بل هو ما استعجالتهم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها) أى تهلك كل شيء أمرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون — امرأة من عاد يقال لها « مهدي »^(٣) ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقوا قالوا ما رأيت يا مهدي ؟ قالت رأيت ريحاً فيها شبه النار ،

(١) في نسخة : كلهدة ، والخيبرى . (٢) قال في القاموس : الجرادتان : مغنيتان كانتا بمكة .

(٣) في نسخة : مهدي ، وفي أخرى : مهدي .

أمامها رجال يقودونها ، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما « والحسوم الدائمة » فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك . قال : واعتزل هود عليه السلام — فيما ذكر لي — في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود ، وتلذ الأنفس ، وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة . وذكر تمام القصة .

وقد روى الإمام أحمد حديثاً في مسنده يشبه هذه القصة فقال : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي ، حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث — وهو ابن حسان — ويقال ابن يزيد البكري ، قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فرمرت بالربذة^(١) ، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبدالله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة ، فهل أنت مبلغني إليه ؟ قال فحملتها فأنتيت للمدينة فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت ما شأن الناس ؟ قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها ، قال فجلست ، قال فدخل منزله — أو قال رحله — فاستأذنت عليه فأذن لي ، فدخلت فسألت فقال ﷺ : « هل كان بينكم وبين بني تميم شيء » ؟ فقلت نعم . وكانت لنا الدائرة عليهم وصررت بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فسألتني أن أحملها إليك وهامى بالباب ، فأذن لها فدخلت ، فقلت يارسول الله : إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً — فاجعل الدهماء فإنها كانت لنا ، قال فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يارسول الله فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال فقلت . إن مثلي ما قال الأول : « معزى حملت حتفها » ؛ حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لي خصماً ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ، قال : « هيه وما وافد عاد؟ » وهو أعلم بالحديث مني ولكن يستطعمه ، قلت : إن عاداً حطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له « قيل » ، فربعوا ية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة ، فقال : اللهم إنك تعلم أني لم أجد إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه . اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه ، فرب به سبحانه سود فنودي منها — اختر ، فأوماً إلى سحابة منها سوداء فنودي منها — خذها رماداً رمدداً ، لا تبقى من عاد أحداً . قال : فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هللكو . قال أبو وائل وصدق ، وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفداً لهم قالوا لا تسكن كوافد عاد . وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به . ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة ، ومن طريقه رواه ابن ماجه . وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة — غير واحد

١ الربذة بالتحريك . مدفن أبي ذر الغفاري قرب المدينة ؛ وهي أيضاً خربة من الصوف يهأ بها البعير ويجلو بها الصائغ الخلي .

من المفسرين كابن جرير وغيره . وقد يكون هذا السياق لإعلاء عاد الآخرة ؛ فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمسكة ، ولم تبين إلا بعد إبراهيم الخليل ، حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل ، فنزلت جرمهم عندهم كما سيأتي ، وعاد الأولى قبل الخليل . وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره ، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى ، ولا يشبه كلام المتقدمين . وفيه أن في تلك السحابة شرر نار ، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر . وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين : هي الباردة ، والعاتية الشديد الهبوب .

(سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) أى كوامل متتابعات . قيل كان أولها الجمعة ، وقيل الأربعاء (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤس لها ، وذلك لأن الريح كانت تهب ، إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ؛ ثم تنكسه على أم رأسه فشدخه فيبقى جثة بلا رأس ، كما قال : (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر) أى في يوم نحس عليهم ، مستمر عذابه عليهم ، (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) . ومن قال إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء ، وتشاءم به لهذا الفهم — فقد أخطأ وخالف القرآن ؛ فإنه قال في الآية الأخرى : (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات) ، ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات ، فلو كانت نحسات في نفسها لسكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤمة ، وهذا لا يقوله أحد . وإنما المراد في أيام نحسات — أى عليهم . وقال تعالى : (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) أى التي لا تنتج خيراً ، فإن الريح المفردة لا تثير سحاباً ولا تلقح شجراً ، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها ، ولهذا قال : (ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) أى كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكيفية . وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم بن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور »^(١) وأما قوله تعالى : (واذا كرأخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم)^(٢) — فالظاهر أن عاداً هذه هي عاد الأولى ، فإن سياقها شبيهه بسياق قوم هود وهم الأولى . ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية . ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها . وأما قوله : (فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) — فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشئ في الجو كالسحاب — ظنوه سحاب مطر ، فإذا هو سحاب عذاب . اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة . رجوافيه الخير فنالوا منه غاية الشر . قال الله تعالى : (بل هو ما استعجلتم به) أى من العذاب ، ثم فسره بقوله : (ريح

(١) الصبا : ريح طيبة تهب من المشرق عند استواء الليل والنهار ، ويقابلها الدبور التي تهب من جهة المغرب

(٢) الآية : ٢١ من سورة الأحقاف .

فيها عذاب أليم). . يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة المهبوط ، التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحداً ، بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران^(١) فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم ، وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة ، فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا : من أشد منا قوة — ساط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة ، وأقدر عليهم ، وهو الريح العقيم .

ويحتمل أن هذه الريح أنارت في آخر الأمر سبحانه ، ظن من بقي منهم أنها سبحانه فيها رحمة بهم وغيث لمن بقي منهم ، فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً ، كما ذكره غير واحد . ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين ، وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار ، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة ، مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون . والله أعلم .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس . حدثنا ابن فضل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكتها بها — إلا مثل موضع الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد — الريح وما فيها (قالوا هذا عارض ممطرنا) ، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة . وقد رواه الطبراني عن عبدان بن أحمد عن إسماعيل بن زكريا الكوفي ، عن أبي مالك عن مسلم الملائى ، عن مجاهد وسعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر ، فلما رآها أهل الحضر قالوا هذا عارض ممطرنا مستقبل أودبتنا . وكان أهل البوادي فيها ، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكتها » . قال عنت عن خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب . قلت : وقال غيره خرجت بغير حساب .

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر . ثم اختلف فيه على مسلم الملائى ، وفيه نوع اضطراب والله أعلم . وظاهر الآية أنه هزأوا عارضا والمفهوم منه لمة السحاب ، كدال عليه حديث الحارث بن حسان البكرى ، إن جعلناه مفسراً لهذه القصة . وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه حيث قال : حدثنا أبو بكر الطاهر ، حدثنا ابن وهب قال : سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » قالت : وإذا عبيت السماء تغير لونه ، وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر . فإذا أمطرت سرى عنه . فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال : « لعله

(١) جم غار ، وهو الحجر في الجبل بأوى إليه الوحشى .

يا عائشة كما قال قوم عاد : (فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، من حديث ابن جريج .

طريق أخرى . قال الإمام أحمد : حدثنا هرون بن معروف ، أنبأنا عبد الله بن وهب ، أنبأنا عمرو — وهو ابن الحارث — أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة أنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهوآته^(١) ، إنما كان يتبسّم . وقالت : كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه ، قالت يارسول الله : إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ، فقال : «يا عائشة ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ! قد عذب قوم نوح بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا» . فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً . فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية . وتسكون بقية السياقات في القرآن خبراً عن عاد الأولى ، والله أعلم بالصواب .

وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف ، وأخرجه البخارى وأبو داود من حديث ابن وهب . وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام . وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن . وذكر آخرون أنه بدمشق ، وبجانبها مكان في حائطه القبلى يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام . والله أعلم .

قصة صالح عليه السلام « نبي ثمود »

وهي قبيلة مشهورة ، يقال ثمود باسم جدّهم ثمود أخى جديس ، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح . وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك . وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتى بيانه . وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك ، فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبد الله ورسوله : صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر ابن ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح . فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئاً . فأمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهورهم ، ونالوا منه بالمقال والفعال ، وهو ما يقتله ، وقتلوا الناقة التى جعلها الله حجة عليهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . كما قال تعالى في سورة الأعراف : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب أليم) † واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين † قال الملائكة الذين استكبروا من قومهم للذين استضعفوا

لمن آمن منهم ، أنعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون * فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دراهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين^(١) وقال تعالى في سورة هود : (و إلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب * قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنبأنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما يزيدونى غير تخسير * ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب * فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب * فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دراهم جاثمين * كأن لم يفتنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعد التمود^(٢)) وقال تعالى في سورة الحجر : (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون^(٣)) وقال سبحانه وتعالى في سورة سبأ : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا^(٤)) وقال تعالى في سورة الشعراء : (كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتتركون فيما هاهنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون * قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم^(٥) . وقال تعالى في سورة النمل : (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله ، فإذا هم فريقان يختصمون * قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قالوا اطيرنا بك وبمن معك ، قال طائرکم

(١) الآيات : ٧٣ - ٧٩ (٢) الآيات : ٦١ - ٦٨ (٣) الآيات : ٨٠ - ٨٤ (٤) الآية : ٥٩

(٥) الآيات : ١٤١ - ١٥٩ .

عند الله بل أتم قوم تفتنون * وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ، ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون^(١) . وقال تعالى في سورة حم السجدة : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب المهنون بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون^(٢)) . وقال تعالى في سورة اقتربت : (كذبت ثمود بالنذر * فقالوا أبشراً منا واحد نبعه ، إنا إذا لنرى ضلال وسعر * ألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر * سيعلمون غدا من الكذاب الأشر * إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر^(٣)) . وقال تعالى : (كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها^(٤)) . وكثيراً ما يقرب الله في كتابه بين ذر عاد وثمود ، كما في سورة براءة وإبراهيم والفرقان ، وسورة ص ، وسورة ق ، والنجم والفجر . ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب ، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة . ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما ، كما قال تعالى في سورة إبراهيم : (وقال موسى إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد * ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات ..)^(٥) الآية . الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه ، ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ، ولا اعتنوا بحفظه ، وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى عليه السلام . وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير متقصياً . والله الحمد والمنة .

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم ، وكيف نجي الله نبيه صالحاً عليه السلام ومن آمن به ، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ، ومخالفتهم رسولهم عليه السلام . وقد قدمنا أنهم كانوا عرباً ، وكانوا بعد عاد ولم يمتبروا بما كلن من أمرهم . ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام : (اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بيعة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد عاد ،

(١) الآيات ٤٥ — ٥٣ (٢) الآيات ١٧ ، ١٨ (٣) الآيات ٢٣ — ٣٢ (٤) سورة والشمس وضحاها (٦) الآيات ٨ ، ٩ .

وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) أى إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان أمرهم ، وتعملوا بخلاف عملهم . وأباح لكم هذه الأرض تبنيون في سهولها القصور ، (وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين) - أى حاذقين في صنعتهما وإتقانها وإحكامها . فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح ، والعبادة له وحده لا شريك له . وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته ؛ فإن عاقبة ذلك وخيمة ، ولهذا وعظهم بقوله : (أتتركون فيما همنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم) أى متراكم كثير حسن بهى ناضج . (وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصالحون) . وقال لهم أيضاً : (يا قوم اعبدوا الله مالكم من آله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) - أى هو الذى خلقكم فأنشأكم من الأرض ، وجعلكم عمارها ، أى أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار ، فهو الخالق الرزاق ، وهو الذى يستحق العبادة وحده لا سواه . (فاستغفروه ثم توبوا إليه) أى أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته ؛ فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم (إن ربي قريب مجيب * قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا) أى قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة ، وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة ، وترك ما كنا نعبد من الأنداد ، والعدول عن دين الآباء والأجداد . ولهذا قالوا : (أتنهانا أن نترك ما يعبد آباؤنا؟ وإننا لنفي شك مما تدعونا إليه مريب * قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة؟ فمن ينصرني من الله إن عصيته؟ فأتزيدونني غير تحسیر) . وهذا تلميح منه لهم في العبارة واين الجانب ، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير . أى فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه؟ ماذا عذرکم عند الله؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأتم تطالبون منى أن أترك دعاءكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكننى هذا لأنه واجب على ، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني . فأنا لأزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له ، حتى يحكم الله بيني وبينكم . وقالوا له أيضاً : (إنما أنت من المسحورين) أى من المسحورين ، يعنون مسحوراً لا تدرى ماتقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده ، وخلع ماسواه من الأنداد . وهذا القول عليه الجمهور . وهو أن المراد بالمسحورين - المسحورين . وقيل من نلسحورين : أى ممن له سحر - وهو الرنى - كأنهم يقولون إنما أنت بشر مثلنا . وقولهم : (فأت بآية إن كنت من الصادقين) سألوها منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ماجاءهم (قال هذه ناقة لها شرب ، ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم) ، وقال : (قد جاءكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) ، وقال تعالى : (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) .

وقد ذكر المفسرون . أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديتهم ، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله ، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة ؛ من صفتها كيت وكيت ، وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعتوا فيها . وأن تكون عشراء طويلة ، من صفتها كذا وكذا . فقال لهم النبي صالح عليه السلام : أرأيتم إن أجبتمكم إلى ما سألتكم على الوجه الذي طلبتم ؟ أتؤمنون بما جئتمكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم . فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا . فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء ، على الوجه المطلوب الذي طلبوا - أو على الصفة التي نعتوا . فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً ، وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً . فآمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم . ولهذا قال : (فظلمو بها) أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها - أي أكثرهم . وكان رئيس الذين آمنوا : جندع بن عمرو ابن محلاه بن لبيد بن جواس . وكان من رؤسائهم . وهم بقية الأشراف بالإسلام فصدحهم ذؤاب بن عمرو ابن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعير بن جلس . ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة - وكان من أشرافهم ، فهم بالإسلام فيها أولئك ، فقال لهم ، فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش ابن غنمة بن الذميل رحمه الله .

وكانت عصابة من آل عمرو	إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعا	فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً	وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الفؤاة من آل حجر	تولوا بعد رشدهم ذآبا

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام : (هذه ناقة الله) أضافها الله سبحانه وتعالى إضافة تشرية وتعظيم ؛ كقوله بيت الله وعبد الله ، (لستم آية) أي دليلاً على صدق ما جئتمكم به (فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) . فانفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ، ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يوماً بعد يوم . وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك ، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم . ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ، ولهذا قال : (لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) ، ولهذا قال تعالى : (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم) أي اختباراً لهم ، أيؤمنون بها أم يكفرون ؟ والله أعلم بما يفعلون . (فارتقبهم) أي انتظر ما يكون من أمرهم (واصطبر) على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية . (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) . فلما طال عليهم الحال هذا -

اجتمع ملوهم ، وانفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ، ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم . وزين لهم الشيطان أعمالهم . قال الله تعالى : (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) . وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم : قدار بن سالف بن جندع ، وكان أحمر أزرق أصهب . وكان يقال إنه ولد زانية ولد على فراش سالف ، وهو ابن رجل يقال له صيبان . وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم ، فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم .

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين : أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما «صدوق» ابنة الحيا ابن زهير بن المختار . وكانت ذات حسب ومال ، وكانت تحت رجل من أسلم فقارقت ، فدعت ابن عم لها يقال له «مصرع» بن مهرج بن الحيا ، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة . واسم الأخرى «عنيزة» بنت غنيم بن مجلز ، وتكنى أم عثمان . وكانت عجوزا كافرة ، لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء . فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف ، إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء ، فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا فى قومهم بذلك ، فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة . وهم المذكورون فى قوله تعالى : (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) ، وسعوا فى بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها ، فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم فى ذلك . فانطلقوا يرصدون الناقة ، فلما صدرت من وردها كمن لها «مصرع» ، فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها ، وجاء النساء يزمرن القبيلة فى قتلها ، وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم . فابتدرهم قدار بن سالف ، فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض . ورغت رعاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ، ثم طعن فى لبتها فحرقها ، وانطلق سقبها — وهو فصيلها — فصعد جبلا منيعا ودعا ثلاثا .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن سمع الحسن أنه قال : يارب أين أمى ؟ ثم دخل فى صخرة فغاب فيها ، ويقال بل اتبعوه فمقروه أيضاً . قال الله تعالى : (فنادوا أصحابهم فتعطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذرى) . وقال تعالى : (إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) أى احذروها (فكذبوه فمقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها) .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا هاشم — هو أبو عذرة — عن أبيه عبد الله بن زمعة قال : خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال : « إذ انبعث أشقاها : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه — مثل أبى زمعة » ^(١) أخرجاه من حديث هشام عارم ، أى شهم . عزيز أى رئيس : منيع أى مطاع فى قومه . وقال محمد بن إسحاق : حدثنى يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب عن محمد بن خيثم عن يزيد بن عمار بن ياسر . قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « ألا

(١) هو : الأسود بن عبد المطلب ، عم الزبير بن العوام ، وكان ذا منعة وعز فى قومه .

أحدثك بأشقى الناس؟ قال: بلى. قال رجلان: أحدهما أحيمر ثمود الذى عقر الناقة، والذى يضر بك يا على على هذا — يعنى قرنه — حتى تبتل منه هذه — يعنى لحيته ». رواه ابن أبى حاتم. وقال تعالى: (فعمقروا الناقة وعتوا من أمر ربهم، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين). فجمعوا فى كلامهم هذابين كفر بليغ من وجوه: منها أنهم خالفوا الله ورسوله فى ارتكابهم النهى الأ كيد فى عقر الناقة التى جعلها الله لهم آية. ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين: أحدهما الشرط عليهم فى قوله: (ولا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب قريب) وفى آية عظيم، وفى الأخرى الأيم، والسكل حق. والثانى استعجالهم على ذلك. ومنها أنهم كذبوا الرسول الذى قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم. قال الله تعالى: (فعمقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب). وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف لعنه الله، فعمقروها فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسيا فمهم يقطعونها. فلما عاين ذلك سبقها — وهو ولدها — شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك، ورغا ثلاث مرات، فلماذا قال لهم صالح: (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) أى غير يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضاً فى هذا الوعد الأ كيد. بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا — فيما يزعمون — أن يلحقوه بالناقة. (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) أى لنكبسنه فى داره مع أهله فلنقتلنه، ثم نجحدن قتله وننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه. ولهذا قالوا: (ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون). قال الله تعالى: (ومكروا مكراً ومكراً مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجيننا الذى آمنوا وكانوا يتقون) (١).

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح — حجارة رضختهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس — وهو اليوم الأول من أيام النظرة — ووجوههم مصفرة، كما أنذرهم صالح عليه السلام. فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قدمضى يوم من الأجل. ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل — وهو يوم الجمعة — ووجوههم محمرة، فلما أمسوا نادوا: ألا قدمضى يومان من الأجل. ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع — وهو يوم السبت — ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا: ألا قدمضى الأجل. فلما كان صبيحة يوم الأحد تخنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم؟ ولا من أى جهة يأتيهم العذاب؟ فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل

منهم ، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس ، وسكنت الحركات ، وخشعت الأصوات ، وحقت الحقائق فأصبحو في دراهم جامين ، جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها . قالوا ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها « كلبة » بنت السلق — ويقال لها الذريعة — وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأته العذاب أطلقت رجلاها ، فقامت تسعى كأسرع شيء ، فأنت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأته وما حل بقومها واستسقتهم ماء ، فلما شربت ماتت . قال الله تعالى : (كأن لم يغبوا فيها) أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء ، (ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود) — أي نادى عليهم لسان القدر بهذا .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبي الزبير عن جابر قال : لما رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات فقد سأها قوم صالح ، فكانت — يعني الناقة — ترد من هذا الفجج^(١) وتصدر من هذا الفجج ، فعتوا عن أمر ربهم ففقروها . وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً ، ففقروها فأخذتهم صيحة أهد الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله » فقالوا : من هو يارسول الله ؟ قال : « هو أبو رغال^(٢) » ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه . وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة . والله أعلم .

وقد قال عبد الرزاق أيضاً ، قال معمر : أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال ، فقال : « أتدرون من هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : « هذا قبر أبي رغال رجل من ثمود ، كان في حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ، ودفن معه غصن من ذهب ، فنزل القوم فابتدروه بأسيا فهم ، فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن » . قال عبد الرزاق قال معمر قال الزهري : أبو رغال أبو ثقيف . هذا مرسل من هذا الوجه .

وقد جاء من وجه آخر متصلاً كما ذكره محمد بن إسحق في السيرة عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير ، قال سمعت عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه إلى الطائف ، فمرنا بقبر ، فقال : « إن هذا قبر أبي رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه . وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب — إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه ، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن » . وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحق به . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزني رحمه الله : هذا حديث حسن عزيز . قلت تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ، ولا يعرف إلا بهذا الحديث ، ولم يرو عنه سوى

(٢) اسمه : زيد بن مخلف وكان عبد ألسيدنا صالح

(١) الفجج : الطريق الواسع بين جبلين .

إسماعيل بن أمية . قال شيخنا فيحتمل أنه وهم في رفعه ، وإنما يسكون من كلام عبد الله بن عمرو من زامله . والله أعلم . قلت : لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضاً — شاهد له . والله أعلم . وقوله تعالى : (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) — إخبار عن صالح عليه السلام ، أنه خاطب قومه بعد هلاكهم ، وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم : (يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم) أي جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنتني ، وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي (ولكن لا تحبون الناصحين) — أي لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده ، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم ، المستمر بكم المتصل إلى الأبد ، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان . والذي وجب على من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ، ولكن الله يفعل ما يريد . وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر^(١) بعد ثلاث ليال : وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال : « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً » وقال لهم فيما قال : « بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم » . فقال له عمر : يارسول الله تخاطب أقواماً قد جيفوا ؟^(٢) فقال : « والذي نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يجيبون » . وسيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله . ويقال إن صالحاً عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما مر النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج قال : « يا أبا بكر أي واد هذا ؟ » قال : وادي عسفان قال : « لقد مر به هود وصالح عليها السلام على بكرات خطمها الليف ، أزرهم العباء ، وأردبتهم النار^(٣) يلبون يحجون البيت العتيق » . إسناده حسن . وقد تقدم في قصه نوح عليه السلام من رواية الطبراني ، وفيه نوح وهود وإبراهيم .

ذكر مرور النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوادي الحجر من أرض ثمود « عام تبوك »

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا صخر بن جويرة عن نافع عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا القدور ، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهراقوا القدور ، وعلفوا العجين

(١) القليب : البئر ، أو العادية القديمة منها ، ويؤنث . (٢) أي أنتنت أجسامهم . يقال : جافت الجيفة تجيف — أنتنت

(٣) قال في الغاموس : النمرة شملة فيها خطوط بيض وسود . أو بردة من صوف تلبسها الأعراب .

الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا^(١) « إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم » . وقال أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم » . أخرجاه في الصحيحين من غير وجه . وفي بعض الروايات : أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم . قنع رأسه^(٢) وأسرع رحلته ، ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين . وفي رواية : « فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم » . صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون ، حدثنا المسعودي عن إسماعيل بن أوسط عن محمد بن أبي كبشة الأنباري عن أبيه — واسمه عمرو بن سعد ويقال عامر بن سعد — رضى الله عنه قال : لما كان في غزوة تبوك سارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنأدى في الناس : « الصلاة جامعة » ، قال فأتيت النبي ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول : « ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم » ، فنأداه رجل : نعجب منهم يا رسول الله ! قال : « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسددوا ؛ فإن الله لا يعاب بعبادكم شيئاً . وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً » . إسناده حسن ولم يخرجوه .

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة ، فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم ، فنحتوا لهم بيوتاً في الجبال . وذكروا أن صالحاً عليه السلام لما سأله آية ، فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة — أمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها ، وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء ، وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك . وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب . فبعثوا القوايل في البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلونه ، فكانوا على ذلك دهرأ طويلاً ، وانقرض جيل وأتى جيل آخر . فلما كان في بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله في الرياسة ، فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة : وهو قدار بن سالف ، فلم تتمكن القوايل من قتله لشرف أبيه وجدية فيهم ، فنشأ نشأة سريرة ، فكان يشب في الجمعة كما يشب غيره في شهر ، حتى كان من أمره ، أن خرج مطاعاً فيهم رئيساً بينهم . فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانية من أشرفهم — وهم التسعة الذين أراذوا قتل صالح عليه السلام . فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة ، وبلغ ذلك صالحاً عليه السلام — جاءهم باكياء عليها ، فتلقوه يعتذرون إليه ، ويقولون : إن هذا لم يقع عن ملامنا .

وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا . فيقال إنه أمرهم باستدراك سبقها^(١) حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها ، فذهبوا وراءه فصعد جبلا هناك ، فلما تصاعدوا فيه وراءه — تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير ، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه . ثم استقبل صالحاً عليه السلام ودعا ثلاثاً ، فعندها قال صالح : (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب) وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صغراً ، ثم تحمر وجوههم في الثاني ، وفي اليوم الثالث تسود وجوههم . فلما كان في اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة ، فأخذتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين . وفي بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم كما قدمنا . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

قصة إبراهيم الخليل « عليه السلام »

هو إبراهيم بن تسارخ « ٢٥٠ » بن ناحور « ١٤٨ » بن ساروغ « ٢٣٠ » بن راعو « ٢٣٩ » ابن فالغ « ٤٣٩ » بن عابر « ٤٦٤ » بن شالح « ٤٣٣ » بن أرغشذ « ٤٣٨ » بن سام « ٦٠٠ » ابن نوح عليه السلام . هذا نص أهل الكتاب في كتبهم ، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كما ذكروه من المدد^(٢) . وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته . وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه ، عن إسحق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب المبتدأ — أن اسم أم إبراهيم « أميلة » . ثم أورد عنه في خبر ولادتها له — حكاية طويلة . وقال السكبي : اسمها « بونا » بنت كربنا بن كرتي — من بني أرغشذ بن سام بن نوح .

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال : كان إبراهيم عليه السلام يكنى « أبا الضيفان » قالوا : ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة — ولد له إبراهيم عليه السلام ، وناحور وهاران . وولد له هاران « لوط » . وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط ، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها ، وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل . وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار ، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر ، بعد ما روى من طريق هشام بن عمار عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول عن ابن عباس قال : ولد إبراهيم بغوطة دمشق ، في قرية يقال لها برزة ، في جبل يقال له قاسيون . ثم قال : والصحيح أنه ولد ببابل . وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام . قالوا فتزوج إبراهيم سارة ، وناحور « ملكا » ابنة هاران — يعنون

(١) السقب : ولد الناقة ، أو ساعة يولد .

(٢) « تنبيه » هذه الأرقام موافقة لما في التوراة ، أما الأسماء فأكثرها مخالف لما فيها . مثلاً : فيها تارخ بدل تسارخ ، وسروج بدل ساروغ ، وفالج بدل فالغ ، وأرفكشاد بدل أرغشذ ، ورعو بدل راعو . وأرقام الأعمار بعد كل اسم .

ابنة أخيه . قالوا : وكانت سارة عاقراً لاتلد ، قالوا : وانطلق تارخ بابنة إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران ، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، فنزلوا حران فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة . وهذا يدل على أنه لم يولد بجران ، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل وما والاها . ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين ، وهي بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بجران وهي أرض الكشدانيين في ذلك الزمان ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً . وكانوا يعبدون الكواكب السبعة . والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين ، يستقبلون القطب الشمالى ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال . ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة — هيكل لكوكب منها ، ويعملون لها أعياداً وقرابين . وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً ، سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام .

وكان الخليل عليه السلام هو الذى أزال الله به تلك الشرور ، وأبطل به ذاك الضلال ؛ فإن الله سبحانه وتعالى أتاه رشده فى صغره ، وابتعثه رسولا واتخذة خليلا فى كبره ، قال تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به علين ^(١)) أى كان أهلا لذلك .

وقال تعالى : (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون * وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين * أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير * يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون * وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ، فأنجاه الله من النار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ، وماواكم النار وما لكم من ناصرين * فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم * ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلناهم فى ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) ^(٢) . ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وكان أول دعوته لأبيه — وكان أبوه ممن يعبد الأصنام — لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له ، كما قال تعالى : (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً * إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً * ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً * ياأبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً * ياأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً * قال أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجنك واهجرني ملياً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيماً * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوربى ، عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيماً)^(١) . فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاوراة والمجادلة ، وكيف دعا أباه إلى الحق باللفظ عبارة وأحسن إشارة ؛ بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لاتسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه ، فكيف تغنى عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر ؟ ثم قال منبهاً على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سناً من أبيه : (ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً) — أى مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً ، يفضى بك إلى الخير في دنياك وأخراك فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه — لم يقبلها منه ، ولا أخذها عنه ، بل تهدده وتوعده . قال : (أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجنك) قيل بالمقال وقيل بالفعل . (واهجرني ملياً) أى واقطعني وأطل هجراني . فعمدها قال له إبراهيم : (سلام عليك) أى لا يصلك منى مكروه ولا ينالك منى أذى ، بل أنت سالم من ناحيتي . وزاده خيراً فقال : (سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيماً) . قال ابن عباس وغيره : أى لطيفاً ، يعنى فى أن هدى لعبادته والإخلاص له . ولهذا قال : (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوربى ، عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيماً) . وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده فى أدميته ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، كما قال تعالى : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حلیم)^(٢) .

وقال البخارى : حدثنا إسماعيل بن عبد الله ، حدثنى أخى عبد الحميد عن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لاتعصنى ؟ فيقول له أبوه : فالיום لأعصيك ، فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتني أن لاتخزيني يوم يبعثون . فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ماتحت رجلحك ؟ فينظر فإذا هو بذبح^(٣) متلطخ^(٤) ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » ، هكذا رواه فى قصة إبراهيم منفرداً .

(١) الآيات : ٤١ — ٤٨ من سورة مريم . (٢) الآية : ١١٤ من سورة التوبة

(٣) الذبح : كل ما يذبح ، وذكر الضبع الكثير الشعر . (٤) ملوث ماتي على الأرض

وقال في التفسير : وقال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبي ذؤيب عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة . وهكذا رواه النسائي عن أحمد بن حفص بن عبد الله عن أبيه عن إبراهيم بن طهمان به . وقد رواه البزار عن حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، وفي سياقه غرابة . ورواه أيضاً من حديث قتادة عن عتبة بن عبد الغافر عن أبي سعيد عن النبي ﷺ بنحوه . وقال تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين) . هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر ، وجهور أهل النسب منهم ابن عباس — على أن اسم أبيه تارح . وأهل الكتاب يقولون تارح بالخاء المعجمة ، فقيل : إنه لقب بصنم كان يعبده — اسمه آزر . وقال ابن جرير : والصواب أن اسمه آزر . ولعل له اسمان علمان ، أو أحدهما لقب والآخر علم . وهذا الذي قاله محتمل . والله أعلم .

ثم قال تعالى : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لنن لم يهدني ربي لأكون من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدانا؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ، وسع ربي كل شيء علماً ، أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم؟ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم — أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * ونلك حجبتنا آتيناه إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم)^(١) .

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة — لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل ؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ، تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقي بلا زوال ، لا إله إلا هو ولا رب سواه . فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب لذلك . قيل هو الزهرة ، ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسننها . ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً . فبين أنها مسخرة مسيرة مقدره مربوبة ، كما قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون)^(٢) ولهذا قال : (فلما رأى الشمس بازغة) أي طالعة (قال هذا ربي هذا أكبر) فلما أفلت قال

يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتأجوني في الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً . أى لست أبالي هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ؛ فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل ، بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها ، أو مصنوعة منحوتة منجورة .

والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران ؛ فإنهم كانوا يعبدونها . وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً ، كما ذكره ابن إسحق وغيره . وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ، ولا سيما إذا خالفت الحق .

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم ، وأهانها وبين بطلانها ، كما قال تعالى : (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ، وماؤكم النار وما لكم من ناصرين) ، وقال في سورة الأنبياء : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عاقلين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين * قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ * قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين * وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون * قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم ؟ * قال بل فعله كبيرهم هذا فاستلوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟ ، أف لستم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون * قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأَخسرِينَ)^(١) .

وقال في سورة الشعراء : (واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ * أو ينفعونكم أو يضرون ؟ * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أف رأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدولى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقئ * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطعم أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكماً وأخفنى بالصالحين)^(٢) وقال تعالى في سورة الصافات : (وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم * إذ قال لأبيه وقومه

ماذا تعبدن؟ * أنفكا آلهة دون الله تريدون؟ * فما ظنكم برب العالمين * فنظر نظرة في النجوم ، فقال
إني سقيم * فتولوا عنه مدبرين * فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون؟ * مالكم لا تنطقون؟ * فراغ
عليهم ضرباً باليمين * فأقبلوا إليه يزفون * قال أتعبدون ما تنجثون؟ * والله خلقكم وما تعملون * قال
ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين^(١).

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام ، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم
وصغرها وتنقصها ، فقال : (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟) أي معتكفون عندها وخاضعون
لها ، قالوا : (وجدنا آباءنا لها عابدين) . ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من
عبادة الأنداد . (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم ضالال مبين) كما قال تعالى : (إذ قال لأبيه وقومه ماذا
تعبدون * أنفكا آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين) . قال قتادة : فما ظنكم به أنه فاعل
بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وقال لهم : (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون؟ *
قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) . سألوا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئاً ، وإنما
الحامل لهم على عبادتها — الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال . ولهذا قال لهم :
(أفأرى ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ * فإنهم عدو لى إلرب العالمين) . وهذا برهان
قاطع على بطلان آلهية ما ادعوه من الأصنام ؛ لأنه تبرأ منها وتنقص بها ، فلو كانت تضر لضرته ، أو تؤثر
لأثرت فيه . (قالوا أجبثنا بالحق أم أنت من اللاعين؟) يقولون : هذا الكلام الذى تقوله لنا وتنقص
به آلهتنا ، وتطمئن بسببه فى آباءنا — أتقوله محققاً جاداً فيه أم لاعباً؟ (قال بل ربكم رب السموات
والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) ، يعنى بل أقول لكم ذلك جاداً محققاً ، إنما
إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ، ربكم ورب كل شىء ، فاطر السموات والأرض ، الخالق لها على غير
مثال سبق . فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وأنا على ذلكم من الشاهدين .

وقوله : (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) ، أقسم ليكيدن هذه الأصنام التى يعبدونها
بعد أن يولوا مدبرين إلى عيدهم . قيل إنه قال هذا خفية فى نفسه . وقال ابن مسعود : سمعه بعضهم ، وكان
لهم عيد يذهبون إليه فى كل عام مرة إلى ظاهر البلد ، فدعاه أبوه ليحضره فقال إني سقيم . كما قال تعالى :
(فنظر نظرة فى النجوم * فقال إني سقيم) . عرض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده : من
إهانة أصنامهم ، ونصرة دين الله الحق ، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر وأن
يهان غاية الإهانة . فلما خرجوا إلى عيدهم ، واستقر هو فى بلدهم (راغ إلى آلهتهم) — أى ذهب إليها
مسرعامستخفياً ، فوجدها فى بهو عظيم ، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها :

(فقال) لها على سبيل التهكم والازدراء (ألا تأكلون * مالكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضرباً باليمين) لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر ، فكسرها بقدم في يده ، كما قال تعالى : (جعلهم جذازا) أى حطاما ، كسرها كلها (إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون) . قيل إنه وضع القدم في يد الكبير ، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار . فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم — (قالوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين) .

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون ، وهو ما حل بأهتهم التي كانوا يعبدونها . فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرهاها بسوء ، لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقولهم وكثرة ضلالهم وخبالهم : (من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) أى يذكرها بالغيب والتنقص لها والازدراء بها ، فهو المقيم عليها والكاسر لها . وعلى قول ابن مسعود ، أى يذكرهم بقوله : (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون) — أى في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد ، لعلمهم يشهدون مقاتله ويسمعون كلامه ، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه . وكان هذا أكبر مقاصد الخليل — عليه السلام — أن يجتمع الناس كلهم ، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : (موعدهم يوم الزينة وأن يحشر الناس نحى) . فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا (قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا) . قيل معناه : هو الحامل لى على تكسيرهم ، وإنما عرض لهم في القول (فاستلوهم إن كانوا ينطقون) . وإنما أراد بقوله هذا — أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق ، فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجادات ، (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) أى فعادوا على أنفسهم باللامه ، فقالوا إنكم أنتم الظالمون — أى في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها . (ثم نكسوا على رؤوسهم) . قال السدى : أى ثم رجعوا إلى الفتنة ، فعلى هذا يكون قوله : (إنكم أنتم الظالمون) — أى في عبادتها .

وقال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء . أى فأطرقوا ثم قالوا : (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) أى لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق ، فكيف تأمرنا بـؤاها ؟ فمد ذلك قال لهم الخليل عليه السلام : (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟) كما قال : (فأقبلوا إليه يرفون) قال مجاهد : يسرعون . قال : (أتعبدون ما تنتحتون) أى كيف تعبدون أصناماً أنتم تنتحتونها من الخشب والحجارة ، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون (والله خلقكم وما تعملون) . وسواء كانت « ما » مصدرية أو بمعنى الذى — فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون ، وهذه الأصنام مخلوقة ، فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله ؟ فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم . وهذا باطل فالآخر باطل للتحكم ؛ إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له . (قالوا ابنوا له بنياناً

فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين). عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلا استعمال قوتهم وسلطانهم ، لينصروا ما هم عليه من سفهم وطغيانهم ، فكادهم الرب جل جلاله ، وأعلى كلمته ودبنه وبرهانه . كما قال تعالى : (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين) . وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فكتثوا مدة يجمعون له ، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحماني حطباً لحريق إبراهيم . ثم عمدوا إلى جوبة^(١) عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار ، فاضطربت وتأججت والتهبت وعلاها شرر لم ير مثله قط . ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق^(٢) صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له « هيزن » وكان أول من صنع المجانيق ، نحسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . ثم أخذوا يقيدون ويكتفونه وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك ، لا شريك لك . فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه منه إلى النار — قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، وقالها محمد حين قيل له : (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فأنقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء^(٣) . . .) الآية .

وقال أبو يعلى : حدثنا أبو هشام الرفاعي ، حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي جعفر الرازي عن عاصم ابن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال ﷺ : « لما ألقى إبراهيم في النار قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك » .

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا . ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبيرة أنه قال : جعل ملك المطر يقول : متى أوامر فأرسل المطر ؟ فسكان أمر الله أسرع . (قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) . قال علي بن أبي طالب : أي لا تضريه . وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله قال : وسلاماً على إبراهيم لأذى إبراهيم بردها . وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ، ولم يحرق منه سوى وثاقه . وقال الضحاك : يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شيء غيره . وقال السدي : كان معه أيضاً ملك الظل ، وصار إبراهيم عليه السلام في مثل الجوبة^(٤) حوله نار ، وهو في روضة خضراء ، والناس ينظرون إليه لا يقدر على الوصول إليه ، ولا هو يخرج إليهم . فعن أبي هريرة أنه قال : أحسن كلمة

(١) أي حفرة (٢) آلة مخصوصة ترمى بها الحجارة (٣) الآيتان : ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .

(٤) الجوبة : الحفرة والمكان الواطئ في جلد .

قالها أبو إبراهيم ، إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال : نعم الرب ربك يا إبراهيم . وروى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته : يا بني أنى أريد أن أجيء إليك فداع الله أن ينجيني من حر النار حولك ، فقال : نعم . فأقبلت إليه لا يمسه شيء من حر النار ، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت .

وعن المنهال بن عمرو أنه قال : أخبرني أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً ، وأنه قال : ما كنت أياماً ولا ليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها ، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل ما كنت فيها . صلوات الله وسلامه عليه . فأرادوا أن ينتصروا فغذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فأتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا . قال الله تعالى : (وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرس) ، وفي الآية الأخرى (الأسفلين) فغازوا بالخسارة والسفالة ، هذ في الدنيا . وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً ، بل هي كما قال تعالى : (إنها ساءت مستقراً ومقاماً) .

قال البخاري : حدثنا عبد الله بن موسى أو ابن سلام عنه : أنبأنا ابن جريج عن عبد الحميد بن جبيرة ، عن سعيد بن المسيب عن أم شريك : أن رسول الله ﷺ — أمر بقتل الوزغ^(١) ، وقال : « وكان ينفخ على إبراهيم » . ورواه مسلم من حديث ابن جريج . وأخرجاه النسائي وابن ماجه من حديث سفیان بن عيينة ، كلاهما عن عبد الحميد بن جبيرة بن شيبه به . وقال أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ابن جريج ، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أمية : أن نافعا مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم » . قال فكانت عائشة تقتلن . وقال أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن نافع — أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت : ما هذا الرمح ؟ فقالت : تقتل به الأوزاغ ، ثم حدثت عن رسول الله ﷺ : « أن إبراهيم لما ألقى في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ ، فإنه جعل ينفخها عليه » . تفرد به أحمد من هذين الوجهين .

وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا جرير ، حدثنا نافع ، حدثني سماعة مولاة الفاكه بن المغيرة قالت : دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحا موضوعا ، فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ قالت : هذا لهذه الأوزاغ تقتلن به ، فإن رسول الله ﷺ حدثنا : « أن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار ، غير الوزغ كان ينفخ عليه » ، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله . ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبه عن يونس بن محمد عن جرير بن حازم به .

(١) جمع وزغة وهي : سام أبرص ، سميت بذلك لخفتها وسرعة حركتها .

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع العظيم الجليل

في العظمة ورداء الكبرياء

فادعى الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى : (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ؛ إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين) (١) .

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار التمرد ، الذي ادعى لنفسه الربوبية ، فأبطل الخليل عليه دليله ، وبين كثرة جهله وقلة عقله ، وألجمه الخجعة ، وأوضح له طريق الحججة .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار : وهذا الملك هو ملك بابل ، واسمه النمرود بن كنعان ابن كوش بن سام بن نوح . قاله مجاهد . وقال غيره : نمرود بن فالخ بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح . قال مجاهد وغيره : وكان أحد ملوك الدنيا ، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة : مؤمنان وكافران ؛ فالؤمنان : ذو القرنين ، وسليمان . والكافران : النمرود ، وبختنصر . وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة . وكان طغيا وبغا ، وتجبر وعتا ، وآثر الحياة الدنيا . ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له — حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع ، فحاج إبراهيم الخليل في ذلك ، وادعى لنفسه الربوبية . فلما قال الخليل : (ربي الذي يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت) .

قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق : يعني أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلها ، فإذا أمر بقتل أحدها وغفا عن الآخر — فكأنه قد أحيى هذا وأمات الآخر . وهذا ليس بمعارضة للخليل . بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة ، ليس بمنع ولا بمعارضة . بل هو تشغيب محض ، وهو انقطاع في الحقيقة ؛ فإن الخليل استدلل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات ؛ من إحياء الحيوانات وموتها — على وجود فاعل . ذلك الذي لا بد من استنادها إلى وجوده ، ضرورة عدم قيامها بنفسها . ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة : من خلقها وتسخيرها ، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر ، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة ، ثم إماتها . ولهذا (قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت) فقول هذا الملك الجاهل : أنا أحيى وأميت : إن عني أنه الفاعل لهذه المشاهدات — فقد كابر وعاند ، وإن عني

(١) الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحق — فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل ؛ إذ لم يمنع مقدمة ، ولا عارض الدليل .

ولما كان انقطاع المناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم — ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع ، وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة . (قال فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) — أى هذه الشمس مسخرة كل يوم ، تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها — وهو الذى لا إله إلا هو خالق كل شيء . فإن كنت كما زعمت من أنك الذى يحيى ويميت — فأت بهذه الشمس من المغرب ؛ فإن الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء . فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت . وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا ، بل أنت أمجز وأقل من أن تخاق بعوضة أو تنتصر منها ، فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه ، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به ، بل انقطع وسكت . ولهذا قال : (فبهت الذى كفر : والله لا يهدى القوم الظالمين) .

وقد ذكر السدي : أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ، ولم يكن اجتمع به يومئذ ، فكانت بينهما هذه المناظرة . وقد روى عبد الرزاق عن معمر بن زيد بن أسلم : أن النمرود كان عنده طعام ، وكان الناس يقدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ، فكانت بينهما هذه المناظرة . ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس ، بل خرج وليس معه شيء من الطعام . فلما قرب من أهله عمد إلى كئيب من التراب ، فملا منه عدليه وقال أشغل أهلي إذا قدمت عليهم . فلما قدم وضع رحاله وجاء فانكأ فنام ، فقامت امرأته سارة إل العدلين فوجدتهما ملاً نين طعاماً طيباً ، فعملت منه طعاماً . فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه ، فقال : أنى لكم هذا ؟ قالت من الذى جئت به ، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل . قال زيد بن أسلم : وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار — ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه ، ثم دعا الثانية فأبى عليه ، ثم الثالثة فأبى عليه وقال : اجمع جموعك وأجمع جموعى . فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس ، فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم ، وتركتهم عظاماً بادية ، ودخلت واحدة منها في منخر الملك فمكثت في منخره أربعاً مائة سنة ، عذبه الله تعالى بها . فكان يضرب رأسه بالميزاب في هذه المدة كلها ، حتى أهلكه الله عز وجل بها .

ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام ، ودخوله الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة

قال الله : (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم * ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ^(١)) وقال تعالى : (ونجيناه لوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين * ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ^(٢)) . لما هجر قومه في الله ، وهاجر من بين أظهرهم ، وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها ، ولم يكن له من الولد أحد ، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر — وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب . فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده — فعلى أحد نسله وعقبه ؛ خلعة من الله وكرامة له ، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه ، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ، ودعوة الخلق إليه . والأرض التي قصدتها بالهجرة — أرض الشام ، وهي التي قال الله عز وجل : (إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) . قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم . وروى العوفي عن ابن عباس قوله : (إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) — مكة . ألم نسمع إلى قوله : (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين) ^(٣) . وزعم كعب الأحمار أنها حران .

وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب : أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط ، وأخوه ناحور ، وامرأة إبراهيم سارة ، وامرأة أخيه « ملكا » — فنزلوا حران ، فأتى إبراهيم بها .

وقال السدي : انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام ، فلقى إبراهيم سارة — وهي ابنة ملك حران — وقد طعنت على قومها في دينهم ، فتزوجها على أن لا يغيرها . رواه ابن جرير وهو غريب . والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذي تنسب إليه حران . ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش — فقد أبعده النجعة ، وقال بلا علم . ومن ادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً — فليس له على ذلك دليل . ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت — كما هو منقول عن الربانيين من اليهود — فإن الأنبياء لا تتعاطاه . والله أعلم . ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل — خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم . والله أعلم .

(٢) الآيتان : ٧١ — ٧٣ من سورة الأنبياء .

(١) الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ من سورة العنكبوت

(٣) الآية : ٩٦ من سورة آل عمران .

وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه : إني جاعل هذه الأرض خلقتك من بعدك ، فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة ، وضرب قبته شرق بيت المقدس ثم انطلق مرتحلاً ، إلى التيمن ، وأنه كان جوعاً — أى قحطاً وشدة وغلاء ، فارتحلوا إلى مصر . وذكروا قصة سارة مع ملكها ، وأن إبراهيم قال لها قولي أنا أخته ، وذكروا إيدام الملك إياها هاجر . ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن — يعنى أرض بيت المقدس وماوالها ، ومعه دواب وعبيد وأموال .

وقد قال البخارى : حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبي هريرة قال : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : ثنتان منهن فى ذات الله ، قوله : (إنى سقيم) ، وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) ، وقال : بينا هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبارة ، فقيل له : إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه وسأله عنها ، فقال من هذه ؟ قال أختى . فأتى سارة فقال : ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألتنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبنى . فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق . فدعا بعض حجبتة فقال : إنكم لم تأتونى بإنسان وإنما أتيتمونى بشيطان ، فأخدمها هاجر . فأتته وهو قائم يصلى فأوماً بيده مهميم؟^(١) فقالت رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره ، وأخدم هاجر . قال أبو هريرة : فقلت أمكم يا بنى ماء السماء . تفرد به من هذا الوجه موقوفاً .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن على الفلاس عن عبد الوهاب الثقفى عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات ، كل ذلك فى ذات الله ، قوله : (إنى سقيم) وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) ، وبينما هو يسير فى أرض جبار من الجبارة إذ نزل منزلاً ، فأتى الجبار فقيل له إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه فسأله عنها فقال إنها أختى . فلما رجع إليها قال : إن هذا سألتنى عنك فقلت إنك أختى ، وإنه ليس اليوم مسلم غيرى وغيرك ، وإنك أختى فلا تكذبنى عنده . فانطلق بها ، فلما ذهب يتناولها أخذ ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت له فأرسل . فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأرسل — ثلاث مرات ، فدعا أدنى حشمه فقال إنك لم تأتنى بإنسان ولكن أتيتنى بشيطان . أخرجها وأعطها هاجر . فجاءت وإبراهيم قائم يصلى ، فلما أحس بها انصرفت ، فقال مهميم ؟ فقالت كنى الله كيد الظالم ، وأخذ منى هاجر . وأخرجاه من حديث هشام . ثم

(١) هى كلمة استنهام . أى ما مالك وما شأنك ؟ أو ما وراءك ؟ أو أحدث لك شىء ؟

قال البزار : لا يعلم سنده عن محمد عن أبي هريرة إلا هشام . ورواه غيره موقوفا .

وقال الإمام أحمد . حدثنا علي بن حفص عن ورقاء - هو ابن عمر اليشكري - عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دعى إلى آلهتهم ، فقال : (إني سقيم) ، وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) ، وقوله لسارة : «إنها أختي» . قال : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، ففيل : دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك أو الجبار من هذمعك ؟ قال أختي . قال فأرسل بها ، قال فأرسل بها إليه ، وقال لا تكذبني قولي ، فإني قد أخبرته أنك أختي ، إن ماعلى الأرض مؤمن غيرى وغيرك . فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسلك . وأحصنت فرجى إلا على زوجى - فلا تساط على الكافر . قال ففقط حتى ركض برجله . قال أبو الزناد قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة إنها قالت : اللهم إن يمى يقال هى قتلته ، قال فأرسل . قال : ثم قام إليها ، قال فقامت تتوضأ وتصلى وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى - فلا تساط على الكافر . قال ففقط حتى ركض برجله . قال أبو الزناد وقال أبو سلمة عن أبي هريرة إنها قالت : اللهم إن يمى يقل هى قتلته ، قال فأرسل . قال : فقال فى الثالثة أو الرابعة - ما أرسلتم إلى إلا شيطاناً . أرجعوا إلى إبراهيم وأعطوها هاجر . قال فرجعت ، فقالت لإبراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة . تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح . وقد رواه البخارى عن أبي اليمان عن شعيب بن أبى حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ به مختصراً . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سفيان عن على بن زيد بن جعدان ، عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال : « ما منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله ؛ فقال إني سقيم ، وقال بل فعله كبيرهم هذا ، وقال للملك حين أراد امرأته هى أختي » . فقوله فى الحديث : هى أختي - أى فى دين الله . وقوله لها : إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك - يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك . ويتمين حمله على هذا لأن لو طأ كان معهم وهو نبي عليه السلام . وقوله لها لما رجعت إليه : مهيم ؟ معناه ما الخبر . فقالت إن الله رد كيد الكافرين . وفى رواية : الفاجر وهو الملك وأخدم جارية . وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك . قام يصلى لله عز وجل ، ويسأله أن يدفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء . وهكذا فعلت هى أيضاً . فلما أراد عدو الله أن ينال منها أسراً قامت إلى وضوئها وصلاتها ، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم . ولهذا قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلوة) ، فعصها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليفه إبراهيم عليه السلام .

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة : سارة ، وأم موسى ، ومريم عليهن السلام . والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضى الله عنهن وأرضاهن . ورأيت في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها ، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه . وكان مشاهداً لها وهي عند الملك ، وكيف عصمها الله منه ؛ ليكون ذلك أطيّب لقلبه وأقر لعينه وأشدّ لطماً نينته ، فإنه كان يحبها حباً شديداً ؛ لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر ؛ فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها - أحسن منها ، رضى الله عنها . والله الحمد والمنة .

وذكر بعض أهل التواريخ : أن فرعون مصر هذا - كان أخاً للضحاك - الملك المشهور بالظلم ، وكان عاملاً لأخيه على مصر . ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج بن عملاق بن لاود بن سام ابن نوح . وذكر ابن هشام في التيجان : أن الذى أرادها عمرو بن امرئ القيس بن مايلون بن سبأ ، وكان على مصر . نقله السهيلي والله أعلم .

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن - وهي الأرض المقدسة التي كان فيها - ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية . ثم إن لوطاً عليه السلام نزع بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك - إلى أرض الغور ، المعروف بغور زغر ، فنزل بمدينة سدوم وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان . وكان أهاها أشراراً كفاراً نجاراً . وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل : فأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وبشره بأن هذه الأرض كلها ساجداً لها لك وتخلفك إلى آخر الدهر ، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض . وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة ، بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة الحمديّة . ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ : « إن الله زوى ^(١) لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمّتي ما زوى لي منها » قالوا ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه ، وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ أمواله - قتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً ، وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شرقى دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة ، وأظن مقام إبراهيم إنما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل . والله أعلم .

ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده ، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين ، واستقر ببلاد . صلوات الله وسلامه عليه .

ذكر مولد إسماعيل « عليه السلام » من هاجر

قال أهل الكتاب : إن إبراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيبة ، وإن الله بشره بذلك . وإنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة — قالت سارة لإبراهيم عليه السلام : إن الرب قد أحرمنى الولد ، فادخل على أمتى هذه لعل الله يرزقنى منها ولدا ، فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام ، فحين دخل بها حملت منه . قالوا : فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاضمت على سيدتها ، ففارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم ، فقال لها : افعلى بها ما شئت ، نخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك . فقال لها ملك من الملائكة : لا تخافى فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيراً ، وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابناً وتسميه إسماعيل ، ويكون وحش الناس ؛ يده على الكل ، ويد الكل به ، ويملك جميع بلاد إخوته . فشكرت الله عز وجل على ذلك . وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه ؛ فإنه الذى سادت به العرب ، وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً ، وأناها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم . وماذا لك إلا بشرف وسولها على سائر الرسل ، وبركة رسالته ويمين بشارته ، وكاله فيما جاء به ، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض .

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام ، قالوا وولده لإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة ، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة . ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم ببشره بإسحاق من سارة ، فخر الله ساجداً ، وقال له : قد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جداً كثيراً ، ويولد له اثنا عشر عظيماً ، وأجعله ريئساً لشعب عظيم . وهذه أيضاً بشارة بهذه الأمة العظيمة ، وهؤلاء الاثنا عشر عظيمهم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر ، المبشر بهم فى حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ قال : « يكون اثنا عشر أميراً » . ثم قال كلمة لم أفهمها ، فسألت أبى ما قال . قال : « كلهم من قريش » . أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية : « لا يزال هذا الأمر قائماً — وفى رواية عزيزاً — حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش » ، فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضاً ، ومنهم بعض بنى العباس . وليس المراد أنهم يسكونون اثني عشر نسقاً بل لا بد من وجودهم . وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة ، الذين أولهم على بن أبى طالب وآخرهم المنتظر بسر داب ساسرا — وهو محمد بن الحسن العسكرى فيما يزعمون ؛ فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من على وابنه الحسن بن على ، حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية ، وأخذ نار الفتنة وسكن رضى الحروب بين المسلمين ، والباقون من جملة الرعايا لم يكن

لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور . وأما ما يعتقدونه بسر داب سامرا — فذاك هوس في الرؤوس ، وهذيان في النفوس ، لاجقيقة له ولا عين ولا أثر .

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل — اشتدت غيرة سارة منها ، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وولد لها ، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم . ويقال إن ولدها كان إذ ذاك رضيعا . فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما — قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه ، وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفيننا ؟ فلم يجبها ، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت فإذا لا يضيعنا . وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمه الله في كتاب النوادر : أن سارة غضبت على هاجر فخلقت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها ، فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها ، وأن تحفضها ، فتبر قسمها . قال السهيلي : فكانت أول من اختتن من النساء ، وأول من تثقت أذنها منهن ، وأول من طوات ذيلها .

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر — إلى جبال فاران وهي أرض مكة ، وبناءه البيت العتيق

قال البخارى : قال عبد الله بن محمد — هو أبو بكر بن أبي شيبة — حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن أيوب السخيتاني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة يزيد أحدهما على الآخر . عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق^(١) من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطلقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . فوضعهما هنالك ووضع عندها جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء . ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شئ ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت إذا لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه — استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : (ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، ورزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)^(٢) .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يلمتوى — أو قال يتلبط^(٣) فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا

(١) هو ما يشد به الوسط . (٢) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .
(٣) يتبرغ ويضرب : بلبه الأرض . وفى القاموس يتلبط — تحير واضطجع وتمرغ .

أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً . فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سمعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : « صه » — تريد نفسها . ثم سمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث^(١) فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه — أو قال بجناحه — حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم — أو قال : « لو لم تغرف من الماء لسكنت زمزم عيناً معيناً » . قال : فشربت وأرضعت ولدها . فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيتاً لله بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى صرت بهم رفقة من جرهم^(٢) — أو أهل بيت من جرهم — مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عاتقاً^(٣) : فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جرباً أو جريين^(٤) فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا ، قال : وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن نزل عندك ؟ قالت : نعم . ولكن لاحق لكم في الماء عندنا قالوا : نعم . قال عبد الله بن عباس : قال النبي ﷺ : « فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس »^(٥) فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب . فلما أدرك زوجته امرأة منهم .

وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت خرج بيتنغى لنا . ثم سألتها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ، وشكيت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت : نعم جاءنا شيخ كذا كذا فأسأنا عنك فأخبرته ، وسألتى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت نعم . أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك غير عتبة بابك . قال : ذلك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك فالحق بأهلك ؛ وطلقها

(١) رواه الأكثرون بفتح الغين ، وبعضهم بالضم وبالكسر . (٢) ابن قحطان ، حى من اليمن .

(٣) أى يتردد على الماء ، وبحوم حوله . (٤) الحرى : الرسول والأجير ، والوكيل ؛ لأنه يجرى

(٥) أى فوجد ذلك الحى أم إسماعيل وهي تحب الأنس . روى بضم الهمزة وبكسر ها .

وتزوج منهم أخرى ، ولبث عنهم إبراهيم ماشاء الله . ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت خرج بيتغنى لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأنت على الله عز وجل . فقال ما طعامكم ؟ قالت اللحم . قال فما شرابكم ؟ قالت الماء . قال : « اللهم بارك لهم في اللحم والماء » .

قال النبي ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه » ؛ قال فيها لا يخلو عليهما أحد^(١) بغير مكة إلا لم يوافقاه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال هل أنا كم من أحد ؟ قالت نعم . أنا شيخ حسن الهيئة وأنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشتنا ؟ فأخبرته أنا بخير . قال فأوصاك بشيء ؟ قالت نعم . هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نباله تجت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالولد . ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك به ربك ، قال : وتعينني ؟ قال وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبنى ههنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر^(٢) فوضعه له . فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : (ربنا تقبل منا إننا كنا من أمة لك على ما حوّلنا ، قال : فاعلموا أن الله قد سمع الدعاء . قال : فأجابهم بما أراد . قال : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) . قال : فجعلا بينيما حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) .

ثم قال : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان — خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ، ومعهم شاة^(٣) فيها ماء . وذكر تمامه بنحو ما تقدم . وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه ، وفي بعضه غرابة ، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات . وفيه أن إسماعيل كان رضيعاً إذ ذاك . وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بأن يحنن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فحننهم ، وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره ، فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة . وهذا امتثال لأمر الله عز وجل في أهله ، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب . ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال ، كما هو مقرر في موضعه .

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن

(١) أي لا يقتصر عليهما أحد . يقال خلا على بعض الطعام — اقتصر عليه .

(٢) هو الحجر الذي سمي بعد ذلك مقام إبراهيم .

(٣) الشاة والشن : القرية الخلق الصغيرة ، والجمع شنان .

القرشي عن أبي الزناد ، عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدم ^(١) » . تابعه عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي الزناد ، وتابعه عجلان عن أبي هريرة ، ورواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة . وهكذا رواه مسلم عن قتيبة به . وفي بعض الألفاظ : « اختتن إبراهيم بعد ما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدم » . والقدم هو الآلة ، وقيل موضع . وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين . والله أعلم ؛ لما سيأتي من الحديث عند ذكر وفاته . عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اختتن إبراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة » . رواه ابن حبان في صحيحه . وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه إسماعيل . ولم يذكر في قدمات إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث مرات : أو لاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر ، وكيف تركهم من حين صغر الولد — على ما ذكر — إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم . وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له . وقيل إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم ، فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة ؟ وكان بعض هذا السياق متاقى من الاسرائيليات ومطرز بشيء من المرفوعات ، ولم يذكر فيه قصة الذبيح . وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح في سورة الصافات

قصة الذبيح

قال الله تعالى : (وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين * رب هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حلیم * فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسأما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ^(٢)) . يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه ، سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، فبشره الله تعالى بغلام حلیم ، وهو إسماعيل عليه السلام ؛ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل . وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل ؛ لأنه أول ولده وبكره . وقوله : (فلما بلغ معه السعي) أي شب وصار يسعي في مصالحه كأبيه . قال مجاهد : (فلما بلغ معه السعي) أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل . فلما كان هذا — رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا . وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعاً : « رؤيا الأنبياء وحى » قاله عبيد بن عمير أيضاً . وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله

(١) القدم بالتشديد : قرية بالشام ، وبالتخفيف آلة التجار . (٢) الآيات : ٩٩ — ١١٣ من سورة الصافات

في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر، وقد طعن في السن، بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر، وواد ايس به حسيس ولا أنيس، ولا زرع ولا ضرع. فامتثل أمر الله في ذلك، وتركها هناك ثقة بالله وتوكلا عليه، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً، وورزقهما من حيث لا يحسبان.

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه، وهو بكره ووحيد الذي ايس له غيره — أجاب ربه وامتثل أمره، وسارع إلى طاعته. ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً، (قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟) فبادر الغلام الخليم، سر والده الخليل إبراهيم، فقال: (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين). وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد. قال الله تعالى: (فلما أسما وتله للجبين) قيل أسما — أي استسما لأمر الله وعزما على ذلك. وقيل هذا من المقدم والمؤخر. والمعنى: تله للجبين — أي ألقاه على وجهه. قيل أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك. وقيل بل أضجمه كما تضجع الذبائح وبقى جنبه لاصقا بالأرض، وأسما — أي سمى إبراهيم وكبر، وتشهد الولد للموت. قال السدي وغيره: أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً، ويقال جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس. والله أعلم.

فعند ذلك نودي من الله عز وجل: (أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتك إلى أمر ربك وبذلك ولدك للقربان — كما سمحت بيدك للنيران، وكما مالكت مبدول للضيفان. ولهذا قال تعالى: (إن هذا هو البلاء المبين) أي الاختبار الظاهر البين وقوله: (وفديناه بذبح عظيم) أي وجعنا فداء ذبح ولده — ما يسره الله تعالى له من العوض عنه.

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين^(١) أقرن^(٢)، رآه مربوطاً بسمرة في ثبير. قال الثوري عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كبش قد رمى في الجنة أربعين خريفاً. وقال سعيد بن جبير: كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير، وكان عليه عهد أحر. وعن ابن عباس: هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه، وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه. رواه ابن أبي حاتم. قال مجاهد: فذبحه بمني، وقال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام. فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا، وعن الحسن أنه كان تيساً من الأروى — واسمه جرير — فلا يكاد يصح عنهما.

ثم غالب ما هبنا من الآثار مأخوذ من الاسرائيليات. وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر، وأنه فدى بذبح عظيم، وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور عن خاله نافع عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة، وقالت

مرة إنها سألت عثمان : لم دعاك رسول الله ﷺ ؟ قال : قال لي رسول الله : « إني كنت رأيت قرني الكعبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن أمرك أن تخمرها ، فخرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي » . قال سفيان لم يزل قرنا الكعبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا . وكذا روى عن ابن عباس أن رأس الكعبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل ؛ لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحق لأنعلم أنه قدمها في حال صغره . والله أعلم . وهذا هو الظاهر من القرآن ، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل ؛ لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده : (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين) . ومن جعله حالاً فقد تكلف ، ومستنده أنه إسحق إنما هو إسرائيليات . وكتابهم فيه تحريف ، ولا سيما ههنا قطعاً لا محيد عنه ؛ فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ووحيداً ، وفي نسخة من المعربة بكره إسحق ، فلنظرة إسحق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة ؛ لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر . إنما ذلك إسماعيل .

وإنما حملهم على هذا حسد العرب ؛ فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ ، وإسحق والد يعقوب — وهو إسرائيل — الذين ينتسبون إليه ، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم — فخرقوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ، ولم يقرروا بأن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء . وقد قال بأنه إسحق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ، وإنما أخذوه — والله أعلم — من كعب الأبحار ، أو من صحف أهل الكتاب ، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز . ولا يفهم هذا من القرآن ، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل — على أنه إسماعيل . وما أحسن ما استدلل به ابن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحق — من قوله : (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) ، قال : فكيف تنزع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ، ثم يأمر بذبح إسحق وهو صغير قبل أن يولد له ؟ هذا لا يكون ؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة والله أعلم .

وقد اعترض السهيل على هذا الاستدلال بما حاصله : أن قوله : (فبشرناها بإسحق) — جملة تاممة ، وقوله : (ومن وراء إسحاق يعقوب) — جملة أخرى ليست في حيز البشارة . قال لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلا أن يعاد معه حرف الجر ؛ فلا يجوز أن يقال مررت يزيد ومن بعده عمرو ، حتى يقال ومن بعده بعمر . وقال : فقوله (ومن وراء إسحق يعقوب) — منصوب بفعل مضمر تقديره : (ووهبنا لإسحق يعقوب) . وفي هذا الذي قاله نظر . ورجح أنه إسحق ، واحتج بقوله : (فلما بلغ معه السعي) قال : وإسماعيل لم يكن عنده ، إنما كان في حال صغره هو وأمه بجبال مكة ، فكيف يبلغ معه السعي ؟ وهذا أيضاً فيه نظر ؛ لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب

في كثير من الأوقاف راكباً البراق إلى مكة ، يطلع على ولده وابنه ثم يرجع . والله أعلم .

فمن حكى القول عنه بأنه إسحق كعب الأخبار . وروى عن عمر والعباس وعلي وابن مسعود ، ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ، وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن عمر ، وأبي ميسرة وزيد ابن أسلم وعبد الله بن شقيق ، والزهرى والقاسم وابن أبي بردة ومكحول ، وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة ، وأبي الهذيل وابن سابط . وهو اختيار ابن جرير ، وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس . ولكن الصحيح عنه — وعن أكثر هؤلاء — أنه إسماعيل عليه السلام . قال مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد — عن ابن عباس : هو إسماعيل عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثني يونس أنبأنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال : المفدى إسماعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه : هو إسماعيل . وقال ابن أبي حاتم سألت أبي عن الذبيح فقال : الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام .

قال ابن أبي حاتم : وروى عن علي وابن عمر وأبي هريرة ، وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير والحسن ، ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب ، وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح — أنهم قالوا : الذبيح هو إسماعيل عليه السلام . وحكاها البغوي أيضاً عن الربيع بن أنس والسكبي وأبي عمرو بن العلاء . قلت : وروى عن معاوية ، وجاء عنه : أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : يا ابن الذبيحين ، فضحك رسول الله ﷺ . وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسار ، وكان الحسن البصري يقول لاشك في هذا .

وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفیان بن فروة الأسلمى عن محمد بن كعب : إنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام — يعني استدلاله بقوله بعد العصمة : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) — فقال له عمر : إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت . ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام ، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم . قال : فسأله عمر بن عبد العزيز : أى ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن اليهود لتعلم بذلك ، ولكمهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يحجدون ذلك ويزعمون أنه إسحق ، لأن إسحق أبوهم . وقد ذكرنا هذه المسئلة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا التفسير . والله الحمد والمنة .

ذكر مولد إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى : (و بشرناه بإسحق نبياً من الصالحين * و باركنا عليه و على إسحق و من ذريتهما محسن و ظالم لنفسه مبين) . و قد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم و سارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ، ليدمروا عليهم اكفرهم و فجورهم ، كما سيأتى بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى . قال الله تعالى : (و لقد جاءت رسلنا لإبراهيم بالبشرى قالوا سلاما ، قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم و أوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * و امرأته قائمة فضحكك فبشرناها بإسحق و من وراء إسحق يعقوب * قالت يا ويلتى أألد و أنا عجوز و هذا بعلى شيخاً ؟ إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله و بركانه عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ^(١)) . و قال تعالى : (و نبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال إنا منكم و جلون * قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشروني على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ؟ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قال و من يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ^(٢)) . و قال تعالى : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون ؟ * فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف و بشروه بغلام عليم * فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها و قالت عجوز عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ^(٣)) .

يذكر تعالى : أن الملائكة — قالوا : « و كانوا ثلاثة : جبريل و ميكائيل و إسرافيل » — لما وردوا على الخليل حسبهم أضيافاً ، فعاملهم معاملة الضيوف ، و شوى لهم عجلاً سمياً من خيار بقره ، فلما قربه إليهم و عرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالسكوية ، و ذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام (فنكرهم) إبراهيم (و أوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) — أى لندمر عليهم ، فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم . و كانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب و غيرهم . فلما ضحكت استبشاراً بذلك ، قال الله تعالى : (فبشرناها بإسحق و من وراء إسحق يعقوب) أى بشرتها الملائكة بذلك ، (فأقبلت امرأته في صرة) أى في صرخة (فصكت وجهها) أى كما يفعل النساء عند التعجب و قالت : (يا ويلتى أألد و أنا عجوز و هذا بعلى شيخاً) ، أى كيف يلد مثلى و أنا كبيرة و عقيم أيضاً ، و هذا بعلى — أى زوجى — شيخاً ؟ تعجبت من وجود ولد و الحالة هذه .

(٢) الآيات : ٥١ — ٥٦ من سورة الحجر .

(١) الآيات : ٦٩ — ٧٣ من سورة هود .

(٣) الآيات : ٢٤ — ٣٠ من سورة الذاريات .

ولهذا قالت : (إن هذا الشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) . وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحاً بها ، (قال أبشروني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ؟ * قالوا بشرناك بالحق فلا تسكن من القانتين) . أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه ، فبشروها (بـغلام عليم) ، وهو إسحق أخو إسماعيل . غلام عليم مناسب لمقامه وجره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر . وقال في الآية الأخرى : (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) . وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل ، وأن إسحق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيد — وهو المشوى — رغيفاً من مكة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن . وعندهم أنهم أكلوا وهذا غلط محض . وقيل كانوا يودون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى في الهواء . وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم : أما سارا امرأتك فلا يدعي اسمها سارا ولكن اسمها سارة ، وأبأرك عليها وأعطيك منها ابناً ، وأبأركه ، ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه . فخر إبراهيم على وجهه — يعني ساجداً — وضحك قائلاً في نفسه : أبعدهم سنة يولد لي غلام ؟ أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة ؟ وقال إبراهيم لله تعالى : ليت إسماعيل يعبدك قدامك ، فقال الله لإبراهيم : بحق إن امرأتك سارة تلد لك غلاماً وتدعو اسمه إسحق إلى مثل هذا الحين من قابل ، وأوثقه ميثاقاً إلى الدهر وخلفه من بعده . وقد استجبت لك في إسماعيل وباركت عليه وكبرته ونميتته جداً كثيراً ، ويولد له اثنا عشر عظيماً وأجعله رئيساً لشعب عظيم . وقد تسكلنا على هذا بما تقدم والله أعلم . فقوله تعالى : (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) — دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحق ، ثم من بعده يولد ولده يعقوب . أي يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قررت بولده . ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيب عليه من دون سائر نسل إسحق — فائدة . ولما عين بالذکر دل على أنهما يتمتعا به ويسران بولده كما سرا بولد أبيه من قبله . وقال تعالى : (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هديناه) ، وقال تعالى : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ووهبنا له إسحق ويعقوب ^(١)) وهذا إن شاء الله ظاهر قوى . ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الأقصى » . قلت كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » . قلت ثم أي ؟ قال : « ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد » .

وعند أهل الكتاب : أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى ، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله ، وهذا متجه . ويشهد له ما ذكرناه من الحديث ، فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو - إسرائيل - عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء . وقد كان بناؤها ذلك بعد وجود إسحق ؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا ، قال في دعائه كما قال تعالى : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم * ربنا إنى أسكنت من ذريتي بواد غيرى ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون * ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما نخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء * الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء * رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)^(١) . وما جاء فى الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثاً كما ذكرناه عند قوله : (رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى) ، وكما سنورده فى قصته - فالمراد من ذلك - والله أعلم - أنه جدد بناءه ؛ كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ، ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان فى تقاسيمه وأنواعه . وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه .

ذكر بناية البيت العتيق

قال الله تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا نشرك بي شيئاً ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق)^(٢) وقال تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين)^(٣) وقال تعالى : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتى ؟ قال لا ينال عهدى الظالمين * وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود * وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ، ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير * وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا

(١) الآيات : ٣٥ - ٤٣ من سورة إبراهيم (٢) الآيات : ٢٦ - ٢٧ من سورة الحج

(٣) الآيات : ٩٦ - ٩٧ من سورة آل عمران .

وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم (١).

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليته ، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه أفضل صلاة وتسليم : أنه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجد وضع لعموم الناس ، يعبدون الله فيه . وبوأه الله مكانه - أى أرشده إليه ودله عليه . وقد روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب وغيره : أنه أرشد إليه بوحي من الله عز وجل . وقد قدمنا فى صفة خلق السموات : أن الكعبة بحيال البيت المعمور ، بحيث أنه لو سقط لسقط عليها ، وكذلك معابد السموات السبع ؛ كما قال بعض السلف : إن فى كل سماء بيتاً يعبد الله فيه أهل كل سماء ، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض . فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام - أن يبنى له بيتاً يكون لأهل الأرض كذلك المعابد للملائكة السموات . وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له ، المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض ، كما ثبت فى الصحيحين : أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . ولم يجيء فى خبر صحيح عن معصوم - أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام . ومن تمسك فى هذا بقوله : (مكان البيت) - فليس بناهض ولا ظاهر ؛ لأن المراد مكانه المقدر فى علم الله ، المقرر فى قدرته ، المعظم عند الأنبياء موضعه ، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم .

وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة ، وأن الملائكة قالوا له : قد طغنا قبلك بهذا البيت ، وأن السفينة طافت به أربعين يوماً أو نحو ذلك . ولكن كل هذه الأخبار عن بنى إسرائيل . وقد قررنا أنها لاتصدق ولا تكذب فلا يحتج بها ، فأما إن ردها الحق فهى مردودة . وقد قال الله : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) . أى أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى - البيت الذى ببكة . قيل مكة ، وقيل محل الكعبة . (فيه آيات بينات) أى على أنه بناء الخليل ، والذ الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده ، الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته . ولهذا قال : (مقام إبراهيم) أى الحجر الذى كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته ، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ؛ ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء . كما تقدم فى حديث ابن عباس الطويل .

وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة ، على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأخره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلين عنده الطائفتين بالبيت . واتبع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى هذا ؛ فإنه قد واقفه ربه فى أشياء : منها قوله لرسوله ﷺ : لو آخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) . وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية فى الصخرة إلى أول الإسلام . وقد قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المشهورة .

وثور^(١) ومن أرسى ثبيراً^(٢) مكانه وراقٍ لبري^(٣) في حراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذ اكتنفوه بالضحي والأصائل
وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

يعنى أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لامنتعلة . ولهذا قال تعالى :
(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) أى فى حال قولهما : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع
العليم) فهما فى غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل ، وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما
ماهما فيه من الطاعة العظيمة والسعى المشكور . (ربنا واجملنا مسلمين لك ومن ذريرتنا أمة مسامة لك ،
وأرنا منا سكننا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أشرف البقاع ، فى واد غير ذى زرع . ودعا لأهلها
بالبركة ، وأن يرزقوا من الثمرات ، مع قلة المياه وعدم الأشجار والزرع والثمار ، وأن يجعله حرماً محرماً
وآمناً محتماً . فاستجاب الله - وله الحمد - له مسألته ، ولجى دعوته ، وأتاه طلبته ، فقال تعالى : (أو لم يروا
أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم؟^(٤)) وقال تعالى : (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه
ثمرات كل شىء رزقا من لدنا؟) . وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم - أى من جنسهم ، وعلى لغتهم
الفصيحة البليغة النصيحة ؛ لتتم عليهم نعمتان : الدنيوية والدينية ، سعادة الأولى والأخرى .

وقد استجاب الله له : فبعث فيهم رسولا وأى رسول . ختم به أنبياءه ورسله ، وأكمل له من الدين
ما لم يؤت أحداً قبله ، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ؛ فى سائر
الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة ، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء ، لشرفه
فى نفسه وكال ما أرسل به ، وشرف ببعثه وفصاحة لغته ، وكال شفقتة على أمته ، ولطفه ورحمته ، وكريم
محتده وعظيم مولده ، وطيب مصدره ومورده . ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان أبى
الكمة لأهل الأرض - أن يكون منصبه ومحلّه وموضعه ، فى منازل السموات ورفيع الدرجات ، عند
البيت المعمور : الذى هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور : الذى يدخله كل يوم سبعون ألفاً
من الملائكة يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور . وقد ذكرنا فى التفسير من
سورة البقرة صفة بناية البيت ، وما ورد فى ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية . فن أراد فليأرجه
ثم . والله الحمد .

(١) جبل بمكة فيه الفار المذكور فى القرآن (٢) جبل قرب مكة فى طريق الذهاب إلى عرفة (٣) البر : الحج والطاعة والخير

(٤) من الآية : ٦٧ من سورة العنكبوت .

فمن ذلك ما قال السدي : لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت - لم يدريا أين مكانه ، حتى بعث الله ريحاً يقال له الحجوج^(١) لها جناحان ورأس في صورة حية ، فكنتس لها ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول ، وأتبعها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس . وذلك حين يقول تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) ، فلما بلغنا القواعد وبنيا الركن ، قال إبراهيم لإسماعيل : يا بني اطلب لي الحجر الأسود من الهند ، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل النعام . وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس ، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن . فقال : يا أبتى من جاءك بهذا ؟ قال : جاء به من هو أنشط منك ، فبنيا وهما يدعوان الله : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) . وذكر ابن أبي حاتم أنه بناه من خمسة أجيال ، وأن ذا القرنين - وكان ملك الأرض إذ ذاك - مر بهما وهما يبنيانه فقال : من أمركما بهذا ؟ فقال إبراهيم : الله أمرنا به . فقال : وما يدريني بما تقول ؟ فشهدت خمسة أكباش أنه أمره بذلك فأمن وصدق . وذكر الأزرقى : أنه طاف مع الخليل بالبيت .

وقد كانت الكعبة على بناء الخليل مدة طويلة ، ثم بعد ذلك بنتها قريش ، فقصرتها بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم . وفي الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم : أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر عن ابن عمر عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : « ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ » فقلت يا رسول الله : ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال : « لولا حدثان قومك بالكفر لعلت » . وفي رواية « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال بكفر - لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحجر » .

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه ، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين - كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك ، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه . فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فنقضوا الحائط الدامي وأخرجوا منها الحجر ، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة ، فارتفع بابها الشرق وسدوا الغربي بالسكية ، كما هو مشاهد إلى اليوم . ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين - ندموا على ما فعلوا ، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك . ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور - استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له : إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة - يعني كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد - فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم .

(١) الحجوج : الريح الشديدة المر ، أو المتلوية في هبوبها .

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم

قال الله : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن زريتي ؟ قال لا ينال عهدى الظالمين) . لما وفي ما أمره ربه به من التكاليف العظيمة — جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه . وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه ، وباقية في نسبه ، وخالدة في عقبه — فأجيب إلى ما سأل ورام ، وسامت إليه الإمامة بزمام ، واستثنى من نيلها الظالمون ، واختص بها من ذريته العلماء العاملون . كما قال تعالى : (ووهبنا له إسحق ويعقوب ، وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين ^(١)) . وقال تعالى : (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل وإسحق ويعقوب ولوطا وكلا فضلنا على العالمين * ومن آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ^(٢)) . فالضمير في قوله ومن ذريته عائد على إبراهيم على المشهور . ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل في الذرية تغليبا ، وهذا هو الحامل للقائل الآخر — أن الضمير على نوح كما قدمنا في قصته . والله أعلم . وقال تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب... ^(٣)) . الآية . فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم إخنيل — فمن ذريته وشيعته . وهذه خلعة سنية لانضاهي ، ومرتبة عليية لاتباخي . وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان : إسماعيل من هاجر ، ثم إسحق من سارة . وولد لهذا يعقوب — وهو إسرائيل — الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم ، فكانت فيهم النبوة ، وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة ، حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل .

وأما إسماعيل عليه السلام ، فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ؛ كما سنبيته فيما بعد إن شاء الله تعالى . ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم ، ونجر بنى آدم في الدنيا والآخرة : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي ، المكي ثم المدني . صلوات الله وسلامه عليه . فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف — سوى هذه الجوهرة الباهرة ، والذرة الزاهرة ، وواسطه العقد الفاخرة ، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع ، ويفبطه الأولون والآخرون يوم القيامة . وقد ثبت عنه في صحيح مسلم كما سنورده أنه قال : « سأقوم مقاماً يرغب إلى الخلق كلهم

(١) الآية : ٢٧ من سورة العنكبوت (٢) الآيات : ٨٤ — ٨٧ من سورة الأنعام .

(٣) الآية : ٢٦ من سورة الحديد .

حتى إبراهيم ». فمدح إبراهيم أبا مدحة عظيمة في هذا السياق ، ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق ، في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق .

وقال البخارى : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول : « إن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحق : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »^(١) ورواه أهل السنن من حديث منصور به : وقال تعالى : (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قال أولم تؤمن ؟ قال بلى . ولكن ليطمئن قلبي ، قال نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم)^(٢) . ذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطناها في التفسير . وقررناها بآتم تقرير .

والحاصل أن الله عز وجل أجابه إلى ما سأل : فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور . واختلفوا في تعيينها على أقوال ، وللقصود حاصل على كل تقدير ؛ فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ، ويخلط ذلك بعضه في بعض ، ثم يقسمه قسماً ويجعل على كل جبل منهن جزءاً - ففعل ما أمر به . ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن ، فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه ، وكل ريشة تأتي إلى أختها ، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه ، وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشئ كن فيكون . فأتين إليه سعياً ؛ ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته ، من أن يأتين طيراناً .

ويقال إنه أمر أن يأخذ رؤوسهن في يده ، فجعل كل طائر يأتي فيلقى رأسه فيتركب على جثته كما كان ، فلا إله إلا الله . وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقينياً لا يحتمل النقيض ، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً ، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله . وقال تعالى : (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون) ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون ؟ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ، والله ولي المؤمنين)^(٣) ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين - كون الخليل على ملتهم وطريقتهم ، فبرأه الله منهم ، وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله : (وما أنزلت التوراة والإنجيل

(١) العين اللامة : هي العين التي تصيب بسوء ، أو هي كل ما يخاف من فزع وشر .

(٢) الآية : ٢٦٠ من سورة البقرة . (٣) الآيات : ٦٥ - ٦٨ من سورة آل عمران .

الإيمان بعده) ، أى فكيف يكون على دينكم ؟ وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة ؟ ولهذا قال : (أفلا تعقلون) إلى أن قال : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) . فبين أنه كان على دين الله الحنيف : وهو القصد إلى الإخلاص ، والانحراف عمداً عن الباطل إلى الحق الذى هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية ، كما قال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون * تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون * وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفئكم الله وهو السميع العليم * صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون * قل أتجاجوننا فى الله وهوربنا وربكم ، ولنسا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون * أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ، قل أنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، وما الله بغافل عما تعملون ^(١) . فبزه الله عزوجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً ، وبين أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين . ولهذا قال تعالى : (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه) يعنى الذين كانوا على ملته من أتباعه فى زمانه ، ومن تمسك بدينه من بعدهم . (وهذا النبي) يعنى محمداً ﷺ . فإن الله شرع له الدين الحنيف الذى شرعه للخليل ، وكله الله تعالى له ، وأعطاه مالم يعط نبياً ولا رسولا من قبله ، كما قال تعالى : (قل إننى هدانى ربي إلى صراط مستقيم ، ديناً قيميا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) ^(٢) وقال تعالى : * (إن إبراهيم كان أمة فانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباؤه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) ^(٣) .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام عن معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن

(٢) الآيات : ١٦١ — ١٦٣ من سورة الأنعام :

(١) الآيات : ١٣٠ — ١٤٠ من سورة البقرة

(٣) الآيات : ١٢٠ — ١٢٣ من سورة النحل .

عباس أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فحيت . ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزرال فقال : « قاتلهم الله ، والله إن ^(١) استقسما بالأزرال قط » لم يخرجهم مسلم . وفي بعض ألفاظ البخارى : « قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط » . وقوله : (أمة) أى قدوة إماماً مهتدياً داعياً إلى الخير ، يقتدى به فيه ، (قاتناً لله) أى خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته وسكناته ، (حنيفاً) أى مخلصاً على بصيرة ، (ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه) أى قائماً بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ، (اجتباه) أى اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته ، واتخذة خليلاً ، وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة . قال تعالى : (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ^(٢)) يرغب تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام ؛ لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم ، وقد قام بجميع ما أمره به ربه ، ومدحه تعالى بذلك فقال : (وإبراهيم الذى وفى) ، ولهذا اتخذ الله خليلاً ، والخلة هى غاية المحبة كما قال بعضهم :

قد تحلت مسلك الروح منى وبذا سمي الخليل خليلاً

وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أيها الناس ، إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » . وقال أيضاً في آخر خطبة خطبها : « أيها الناس لو كنتم متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » . أخرجه من حديث أبى سعيد ، وثبت أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود . وروى البخارى في صحيحه : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن عمرو بن ميمون قال : إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ : (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) فقال رجل من القوم : لقد قرت عين أم إبراهيم .

وقال ابن مردويه : حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم ، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد ، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة ، حدثنا عبد الله الحنفي ، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة ابن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول : عجب أن الله اتخذ من خلقه خليلاً ! فإبراهيم خليله ، وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً ، وقال آخر : فعيسى روح الله وكتبه ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله . فخرج عليهم فسلم وقال : « قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى كلمه وهو كذلك ، وعيسى روحه وكتبه وهو كذلك ،

(١) « إن » نافية بمعنى « ما » . أى والله ما استقسما بالأزرال قط (٢) الآية : ١٢٥ من سورة النساء .

وآدم اصطفاه الله وهو كذلك . ألا وإني حبيب الله ولا نخر ، ألا وإني أول شافع ، وأول مشفع ولا نخر ، وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا نخر . « هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وله شواهد من وجوه أخر والله أعلم .

وروى الحاكم في مستدرکه من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : أتفكرون أن تكون الخلة لإبراهيم؟ والكلام لموسى؟ والرؤية لمحمد؟ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمود بن خالد المسلمي ، حدثنا الوليد عن إسحاق بن بشار قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً أتى في قلبه الوجع ، حتى إن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد ، كما يسمع خفقان الطير في الهواء . وقال عبيد بن عمير : كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس ، يخرج يوماً يلبس إنساناً يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه ، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائماً ، فقال : يا عبد الله ما أدخلك داري بغير إذني؟ قال دخلتها بإذن ربها . قال ومن أنت؟ قال أنا ملك الموت ، أرسلني ربي إلى عبد من عباده ، أبشره بأن الله قد اتخذ خليلاً . قال من هو؟ فوالله إن أخبرتني به ثم كان بأقصى البلاد لآتيته ، ثم لا أبرح له جاراً ، حتى يفرق بيننا الموت . قال : ذلك العبد أنت . قال أنا ! قال نعم . قال فيم اتخذني ربي خليلاً؟ قال بأنك تعطى الناس ولا تسألهم . رواه ابن أبي حاتم .

وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيراً في غير ما موضع — بالثناء عليه والمدح له ، فقيل : إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعاً ، منها خمسة عشر في البقرة وحدها . وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى ، وهما قوله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) ، وقوله : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . .) الآية . ثم هو أشرف أولى العزم بعد محمد ﷺ . وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم . وما وقع في حديث شريك ابن أبي نمير عن أنس في حديث الإسراء ؛ من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة — فما انتقد على شريك في هذا الحديث . والصحيح الأول .

وقال أحمد : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم — يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن » . تفرد به أحمد . ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى —

الحديث الذى قال فيه : « وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم ». رواه مسلم من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه . وهذا هو المقام الحمود الذى أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا نخر » . ثم ذكر استشفاع الناس بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فكلهم يحمى عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لها » الحديث . وهكذا رواه البخارى فى مواضع آخر ، ومسلم والنسائى من طريق عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله — وهو ابن عمر — العمرى به .

قال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبيد الله ، حدثنى سعيد عن أبيه عن أبي هريرة قال : قيل يارسول الله من أكرم الناس ؟ قال : « أكرمهم أتقاهم » فقالوا ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ابن خليل الله » . قالوا ليس عن هذا نسألك . قال : « فعن معادن العرب تسألوننى ؟ » قالوا نعم . قال : « نخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا » . ثم قال البخارى : قال أبو أسامة ومعتز عن عبيد الله عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قلت : وقد أسنده فى موضع آخر من حديثهما ، وحديث عبدة بن سليمان والنسائى من حديث محمد بن بشر — أربعتهم عن عبيد الله بن عمر عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . وقال أحمد : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله » تفرد به أحمد . وقال البخارى : حدثنا عبدة ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم » . تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر به .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن سفيان ، حدثنى مغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ : « يحشر الناس حفاة عراة عزلا ، فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام » ثم قرأ : (كما بدأنا أول خلق نعيده) — فأخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج ، كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعى الكوفى ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به . وهذه الفضيلة للمعينة لا تقتضى الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها ؛ مما ثبت لصاحب المقام الحمود ، الذى يغبطه به الأولون والآخرون . وأما الحديث الآخر الذى قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وأبو نعيم ، حدثنا سفيان — هو الثورى — عن مختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال : قال رجل للنبي ﷺ : ياخير البرية فقال : « ذلك إبراهيم » — فقد رواه مسلم من حديث الثورى وعبد الله بن إدريس ، وعلى بن مسهر ومحمد بن فضيل — أربعتهم عن المختار بن فلفل . وقال الترمذى حسن صحيح . وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام كما قال : « لانفضلونى على الأنبياء » . وقال :

« لاتفضلوني على موسى ، فإن الناس بصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور ؟ » . وهذا كله لا ينافي ما ثبت بالتواتر عنه - صلوات الله وسلامه عليه - من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة . وكذلك حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم : « وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم » .

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولى العزم - بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أمر المصلي أن يقول في تشهده ؛ ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره ، قال : قلنا يارسول الله ، هذا السلام عليك قد عرفناه . فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وقال تعالى : (وإبراهيم الذي وفى) ، قالوا : وفى جميع ما أمر به ، وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه . وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار . قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى : (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) - قال : ابتلاه الله بالطهارة : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد . فى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والسواك ، والاستنشاق ، وفرق الرأس . وفى الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، وشفط الأبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء . رواه ابن أبي حاتم . وقال : وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد - نحو ذلك . قلت : وفى الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الفطرة خمس : الختان ، والاستحداد^(١) ، وقص الشارب ، وتقليم الأظفار ، وشفط الأبط » . وفى صحيح مسلم وأهل السنن من حديث وكيع عن زكريا بن أبي زائدة عن مصعب بن شيبة العبدري المسكى الحجبي عن طلق بن حبيب العتري عن عبد الله بن الزبير عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم^(٢) ، وشفط الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء - يعنى الاستنجاء » . وسيأتى فى ذكر مقدار عمره الكلام على الختان . والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله عز وجل وخشوع العبادة العظيمة - عن مراعاة مصلحة بدنه ، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين ، وإزالة ما يشين ؛ من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلع^(٣) أو وسخ . فهذا من جملة قوله تعالى فى حقه من المدح العظيم : (وإبراهيم الذى وفى) .

ذكر قصره فى الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطى ومحمد بن موسى القطان قالا :

(١) حلق شعر العانة (٢) جم برجة ، وهى مفاصل الأصابع من ظهر الكف . (٣) صفرة الأسنان .

حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة قصرا - أحسبه قال من لؤلؤة - ليس فيه فصم ولا وهى ، أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا » . قال البزار : وحدثنا أحمد بن جميل المروزي ، حدثنا النضر بن شميل ، حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، ثم قال : وهذا الحديث لا نعلم من رواه عن حماد بن سلمة فأسنده - إلا يزيد بن هارون والنضر بن شميل . وغيرها يرويه موقوفاً . قلت : لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح . ولم يخرجوه .

ذكر صفة إبراهيم عليه السلام

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس وحجين قالا : حدثنا الليث عن أبي الزبير عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عُرِضَ عَلَى الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم فإذا أقرب من رأيت به شهباً - عمرو بن مسعود ، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شهباً - دحية » . تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ . وقال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل عن عثمان - يعني ابن المغيرة - عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم ؛ فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فأدم جسيم » . قالوا له : وإبراهيم ؟ قال : « انظروا إلى صاحبكم - يعني نفسه » . وقال البخاري : حدثنا بنان بن عمرو ، حدثنا النضر أنبأنا ابن عون عن مجاهد أنه سمع ابن عباس ، وذكروا له الدجال وأنه مكتوب بين عينيه كافر و « ك ف ر » ، فقال لم أسمعه^(١) ، ولكنه قال : قال ﷺ : « أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فجعد آدم على جبل أحمر مخطوم بخلبة^(٢) كأنى أنظر إليه أنحدر في الوادي » . ورواه البخاري أيضاً ومسلم عن محمد بن المثني عن ابن أبي عدى عن عبد الله بن عون به . وهكذا رواه البخاري أيضاً في كتاب الحج وفي اللباس ، ومسلم - جميعاً عن محمد بن المثني عن ابن أبي عدى عن عبد الله بن عون به .

ذكر وفاة إبراهيم الخليل وما قيل في عمره

ذكر ابن جرير في تاريخه : أن مولده كان في زمن النمرود بن كنعان ، وهو - فيما قيل - الضحاك الملك المشهور ، الذي يقال إنه ملك ألف سنة ، وكان في غاية الغشم والظلم . وذكر بعضهم أنه من بنى راسب الذين بعث إليهم نوح عليه السلام ، وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا . وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر ، فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود ، فجمع الكهنة والمنجمين وسألم عن ذلك ، فقالوا : يولد مولود في رعيتك يكون زوال ملكك على يديه ، فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء ، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين ، فكان مولد إبراهيم الخليل في ذلك الحين ، فخاف الله

(١) الذي في البخاري : عن محمد بن المثني عن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال فقال : إنه مكتوب بين عينيه كافر ، وقال ابن عباس لم أسمعه ، قال ذلك ولكنه قال : أما إبراهيم ... الخ (٢) جبل من ليف .

عز وجل وصانه من كيد الفجار ، وشب شباباً باهراً وأنبته الله نباتاً حسناً ، حتى كان من أمره ما تقدم .
وكان مولده بالسوس ، وقيل ببابل ، وقيل بالسواد من ناحية كوثي^(١) . وتقدم عن ابن عباس أنه
ولد ببرزة شرقي دمشق ، فلما أهلك الله نمرود على يديه - هاجر إلى حران ، ثم إلى أرض الشام ، وأقام
ببلاد إيليا كما ذكرنا . وولده إسماعيل وإسحق . وماتت سارة قبله بقرية « حبرون » التي في أرض كنعان ،
ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب ، فحزف عليها إبراهيم عليه السلام ،
ورثاها رحمها الله ، واشترى من رجل من بني حيث يقال له « عفرون بن صخر » - مغارة بأربع مائة مثقال ،
ودفن فيها سارة هنالك .

قالوا ثم خطب إبراهيم على ابنة إسحق فزوجه « رفقا » بنت بتوثيل بن ناحور بن تارح ، وبعث
مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريتها على الإبل ، قالوا : ثم تزوج إبراهيم عليه السلام
« قنطورا » فولدت له : زمران ، ويقشان ، ومادان ، ومدين ، وشياق ، وشوح . وذكروا ما ولد كل
واحد من هؤلاء أولاد قنطورا .

وقد روى ابن عساکر عن غير واحد من السلف ، عن أخبار أهل الكتاب في صفة يحيى ملك
الموت إلى إبراهيم عليه السلام - أخباراً كثيرة الله أعلم بصحتها . وقد قيل إنه مات فجأة ، وكذا داود
وسليمان . والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك . قالوا : ثم مرض إبراهيم عليه السلام ،
ومات عن مائة وخمس وسبعين ، وقيل وتسعين سنة ، ودفن في المغارة المذكورة التي كانت بحبرون الحثي ،
عند امرأته سارة التي في مزرعة عفرون الحثي ، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم
أجمعين . وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتي سنة كما قاله ابن الكلبي . وقال أبو حاتم بن حبان في
صحيحه : أنبأنا المفضل بن محمد الجندی بمكة ، حدثنا علي بن زياد اللخمي ، حدثنا أبو قرة عن ابن جريج
عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « اختتن إبراهيم بالقدوم
وهو ابن عشرين ومائة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة » . وقد رواه الحافظ بن عساکر من طريق
عكرمة بن إبراهيم وجعفر بن عون العمري عن يحيى بن سعيد عن سعيد عن أبي هريرة موقوفاً .

ثم قال ابن حبان : ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر - وهم . أخبرنا محمد بن
عبد الله ابن الجنيد^(٢) حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث عن ابن مجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : « اختتن إبراهيم حين بلغ مائة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة ، واختتن
بقدوم » . وقد رواه الحافظ بن عساکر من طريق يحيى بن سعيد عن ابن مجلان عن أبيه عن

(١) موضع بسواد العراق .

(٢) الذي في ترجمة قتيبة بن سعيد : أن من روى عنه : محمد بن عبد الله بن نمير ، وليس غيره مسمى بهذا الاسم .

أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه سلم وقد أتت عليه ثمانون سنة . ثم روى ابن حبان عن عبد الرزاق أنه قال : القدوم اسم القرية . قلت : الذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة . وفي رواية وهو ابن ثمانين سنة ، وليس فيهما تعرض لما عاش بعد ذلك والله أعلم . وقال محمد بن إسماعيل الحساني الواسطي - زاد في تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات - حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : كان إبراهيم أول من تسرول ، وأول من فرق ، وأول من استحد وأول من اختتن بالقدوم ، وهو ابن عشرين ومائة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة ، وأول من قرى الضيف ، وأول من شاب . هكذا رواه موقوفاً . وهو أشبه بالمرفوع خلافاً لابن حبان . والله أعلم .

وقال مالك عن يحيى بن سعيد بن المسيب قال : كان إبراهيم أول من أضاف الضيف ، وأول الناس اختتن ، وأول الناس قص شاربه ، وأول الناس رأى الشيب . فقال يارب ما هذا ؟ فقال الله : «وقار» . فقال يارب زدني وقاراً . وزاد غيرها : وأول من قص شاربه ، وأول من استحد ، وأول من لبس السراويل . فقبره وقبر ولده إسحق وقبر ولد ولده يعقوب - في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون ، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم . وهذا تلقى بالتواتر أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل من زمن بنى إسرائيل ، وإلى زماننا هذا - أن قبره بالمربعة تحقيقاً . فأما تعيينه منها فليس فيه خير صحيح عن معصوم . فينبغي أن تراعى تلك الحلة وأن تحترم احترام مثلها ، وأن تبجل وأن تجل أن يداس في أرجائها ، خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم السلام - تحتها . وروى ابن عساكر بسنده إلى وهب بن منبه قال : وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة .

ألمى جهولا	أمله	يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه	لم تغف عنه حيله	
وكيف يبقى آخر	من مات عنه أوله	
والمرء لا يصحبه	في القبر إلا عمله	

ذكر أولاد إبراهيم الخليل

أول من ولد له : إسماعيل من هاجر القبطية المصرية ، ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل . ثم تزوج بعدها «قنطورا» بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة : مدين ، وزمران ، وسرج ، ويقشان ، ونشق ، ولم يسم السادس . ثم تزوج بعدها «حجون» بنت أمين ، فولدت له خمسة : كيسان ، وسورج ، وأميم ، ولوطان ونافس . هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه : «التعريف والأعلام»
ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة : قصة قوم لوط عليه السلام ، وما حل بهم من

النقمة العميمة . وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح - وهو آزر كما تقدم - ولوط ابن أخى إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كما قدمنا . ويقال إن هاران هذا هو الذى بنى حران . وهذا ضعيف لخالفته بما بأيدي أهل الكتاب والله أعلم .

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه ، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر ، وكان أم تلك المحلة ولها أرض ومتملات وقرى مضافة إليها . ولها أهل من أخرج الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية ، وأرداهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم ، وهى إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين . فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات ، والفواحش المنكرات ، والأفاعيل المستقبجات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم ، واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، فأحل الله بهم من البأس الذى لا يرد مالم يكن فى خلدكم وحسابانهم ، وجمالهم مثلة فى العالمين ، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين . ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم فى غير ماوضع فى كتابه المبين . فقال تعالى فى سورة الأعراف : (ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أنفسكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجيناها وأهلها إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ^(١)) .

وقال تعالى فى سورة هود : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً ، قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب * قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ؟ إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله ؟ رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد * فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود * ولما جاءت رسلنا لوطاً ساء بهم وضاق بهم ذرعاً ، وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون إليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات ، قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تحزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ؟ * قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما تريد * قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد * قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن

يصلوا إليك ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبتها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟ * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد^(١) .

وقال تعالى فى سورة الحجر : (ونبئهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون * قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشرونى على أن مسنى الكبر فم تبشرون ؟ * قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون * قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * إلا آل لوط إنا لمنجورهم أجمعين * إلا أسرأته قدرنا إنها لمن الغابرين * فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وآتيناك بالحق وإنا لصادقون * فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون * وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين * وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تحزون * قالوا أولم تنهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * * فجعلناهم عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * إن فى ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لبسبيل مقيم * إن فى ذلك لآية للمؤمنين^(٢)) وقال تعالى فى سورة الشعراء : (كذبت قوم لوط المرسلين * * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون * قالوا لئن لم تنته بالوط لتسكونن من المخرجين * قال إنى لعلمكم من القالين * رب نجنى وأهلى مما يعملون * فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم^(٣)) .

وقال تعالى فى سورة النمل : (ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون * أننكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجينا وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين^(٤)) .

وقال تعالى فى سورة العنكبوت : (ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من

(١) الآيات : ٦٩ — ٨٣ (٢) الآيات : ٥٠ — ٧٧ (٣) الآيات : ١٦٠ — ١٧٥ .

(٤) الآيات : ٥٤ — ٨٥ .

أحد من العالمين * أنفكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ، وتأتون في ناديك المنكر ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائننا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرني على القوم المفسدين * ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية ، إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون (١) .

وقال تعالى في سورة الصافات : (وإن لوطاً لمن المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزاً في الغابرين * ثم درسنا الآخرين * وإنكم لترون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون) (٢) .

وقال تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم : (قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين * فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين * وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) (٣) .

وقال في سورة القمر : (كذبت قوم لوط بالنذر * إنا أرسلنا إليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر * نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر * ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر * ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر * فذوقوا عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) (٤) .

وقد تكلمنا على هذه القصص في أما كتبنا من هذه السور في التفسير . وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع آخر من القرآن ؛ تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود . والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم ، وما أحل الله بهم - مجموعاً من الآيات والآثار . وبالله المستعان .

وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش — لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به ، حتى ولا رجل واحد منهم ، ولم يتركوا ما عنه نهوا . بل استمروا على حالهم ، ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم ، وهما بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم . وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم — إذ كانوا لا يعقلون — إلا أن قالوا : (أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون) فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضى الإخراج . وما حملهم على مقاتلتهم هذه إلا العناد واللجاج ، فطهره الله وأهله إلا امرأته ، وأخرجهم منها أحسن إخراج ، وتركهم في محلهم خالدين . لكن بعد ما صيرها عليهم بحرة منقنة ذات أمواج . لكننا عليهم في الحقيقة نار تأجج ،

(١) الآيات : ٢٨ — ٣٥ (٢) الآيات : ١٣٣ — ١٣٨

(٣) الآيات : ٣١ — ٣٧ (٤) الآيات : ٣٣ — ٤٠

وخر يشوهج ، وماؤها ملح أجاج . وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الطامة العظمى ، والفاحشة الكبرى ، التي لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا . ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها .

وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويأتون في ناديهم — وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم — المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه . حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ، ولا يستحيون من مجالسهم ، وربما وقع منهم الغفلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ، ولا يراعون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل . وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً ، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ، ولاندموا على ماسلف من الماضي ، ولا راموا في المستقبل تحويلاً ، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً . وقالوا له فيما قالوا : (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) . فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم ، وحلول البأس العظيم . فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم ، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين — أن ينصره على القوم المفسدين . فغار الله لغيرته ، وغضب لغضبته ، واستجاب لدعوته ، وأجابته إلى طلبته . وبعث رسوله الكرام ، وملائكته العظام ، فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالسلام العليم . وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم . (قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لترسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين) . وقال : (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) . وقال الله تعالى : (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) . وذلك أنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلوا ويقمعوا ويرجعوا ، ولهذا قال تعالى : (إن إبراهيم لحليم أواه منيب * بإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود) — أي أعرض عن هذا وتكلم في غيره ؛ فإنه قد حتم أمرهم ، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم ، (إنه قد جاء أمر ربك) — أي قد أمر به من لا يرد أمره ، ولا يرد بأسه ، ولا معقب لحكمه . (وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود) .

وذكر سعيد بن جبير والسدي وقتادة ومحمد بن إسحق : أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا لا . قال فمئتا مؤمن ؟ قالوا لا . قال فأربعون مؤمناً ؟ قالوا لا . قال فأربعة عشر مؤمناً ؟ قالوا لا . قال ابن إسحاق — إلى أن قال : أفرايتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا لا . (قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها ...) الآية . وعند أهل الكتاب أنه قال : يارب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلاً صالحاً ؟ فقال الله : « لا أتهلكهم وفيهم خمسون » الحسا . ثم تنازل إلى عشرة فقال الله : « لا أتهلكهم وفيهم عشرة صالحون » . قال الله تعالى : (ولما جاءت

رسلنا لوطاً سيئاً بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب) . قال المفسرون : لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم — وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل — أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم ، في صور شبان حسان ، اختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم . فاستضافوا لوطاً — عليه السلام — وذلك عند غروب الشمس ، فحشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره ، وحسبهم بشراً من الناس ، و (سيئاً بهم وضاق بهم ذرعاً ، وقال هذا يوم عصيب) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق : شديد بلاؤه ، وذلك لما يعلم من مدافعتة الليلة عنهم ، كما كان يصنع بهم في غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً ، ولكن رأى من لا يمكن الحيد عنه .

وذكر قتادة : أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها ، فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم ، وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون في غيرها ، فقال لهم فيما قال : يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ، ثم مشى قليلاً ، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال : وكانوا قد أسروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك . وقال السدي : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فأتوها نصف النهار . فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها ، وكانت له ابنتان : اسم الكبرى « ريثا » ، والصغرى « زغرنا » . فقالوا لها يا جارية ، هل من منزل ؟ فقالت لهم : نعم . مكانكم لا تدخلوا حتى آتيتكم ، فرقت عليهم من قومها ، فأتت أباه فقالت : يا ابتاه ! أراك فتيان على باب المدينة ، مارأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحهم . وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً ، فقالوا : خل عنا فلنضيف الرجال ، فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، فقالت : إن في بيت لوط رجلاً مارأيت مثل وجوههم قط ، فجاءه قومه يهرعون إليه . وقوله : (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) — أي هذا مع ماسلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ، (قال يا قوم هؤلاء بغاتي هن أطهر لكم) . يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً ؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، كما ورد في الحديث ، وكما قال تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم^(١)) وفي قول بعض الصحابة والسلف : وهو أب لهم . وهذا كقولهم : (أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون^(٢)) . وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق ، وهو الصواب .

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب ، وقد تصحف عليهم ، كما أخطأوا في قولهم : إن الملائكة كانوا اثنين ، وإنهم تعشوا عنده . وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطاً عظيماً .

وقوله : (فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي ، أليس منكم رجل رشيد ؟) — نهى لهم عن تعاطي مالا يليق من الفاحشة ، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة^(١) ولا فيه خير ، بل الجميع سفهاء ، فجرة أقوياء ، كفره أغبياء . وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسموه منه من قبل أن يسألوه عنه . فقال قومه — عليهم لعنة الله الحميد الحميد — مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد : (لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما تريد) . يقولون — عليهم لعائن الله — لقد علمت يالوط أنه لا أرب لنا في نساتنا ، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا . واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ، ولم يخافوا سطوة العظيم ، ذي العذاب الأليم . ولهذا قال عليه السلام : (لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) . ودأن لو كان له بهم قوة ، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ، ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب .

وقد قال الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، ويرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » . ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة . وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة إن رسول الله ﷺ قال : « رحمة الله على لوط ، إن كان ليأوى إلى ركن شديد — يعني الله عز وجل — فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه » . وقال تعالى : (وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون * قالوا أو لم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعابن) . فأمرهم بقربان نساءهم ، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيئاتهم . هذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعون ، بل كلما نهام ببالعون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون . ولم يعملوا ما حم به القدر مما هم إليه صائرون . وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون . ولهذا قال تعالى مقسماً بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) ، وقال تعالى : (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالتذر * ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر)^(٢) .

ذكر المفسرون وغيرهم : أن نبي الله لوطاً عليه السلام — جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق ، وهم يرومون فتحه وولوجه ، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب ، وكل ما لهم في الجاه والعاج^(٣) ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال : (لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) —

(١) المسكة بلضم — العقل الوافر (٢) الآيات من سورة القمر .

(٣) الجاه والعاج جمعاً جاجة وعاجة . والحاجة : خرزة وضبعة لاقيمة لها . والعاجة : الذبلة ، والمراد المجادلة الرخيصة التي لا فائدة فيها ولا نتيجة لها .

لأحلت بكم النكال . قالت الملائكة : (يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) . وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم ، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم ، حتى قيل إنها غارت بالسكاية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر ، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان ، ويتوعدون رسول الرحمن ، ويقولون إذا كان الغد كان لنا وله شأن . قال الله تعالى : (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر * ولقد صنعهم بكرة عذاب مستقر)^(١) . فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط — عليه السلام — آمريين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل . (ولا يلتفت منكم أحد) ، يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه . وأمره أن يكون سيره في آخرهم كالساقفة لهم . وقوله : (إلا امرأتك) على قراءة النصب : يحتمل أن يكون مستثنى من قوله : (فأسر باهلك) كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسربها ، ويحتمل أن يكون من قوله : (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) أى فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم . ويقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع ، ولكن الأول أظهر فى المعنى والله أعلم .

قال السهيلي : واسم امرأة لوط « والهة » ، واسم امرأة نوح « والفة » . وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاه ، الملعونين النظراء والأشباه ، الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مرئىب : (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) . فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابتناه لم يتبعه منهم رجل واحد ، ويقال إن امرأته خرجت معه فأنه أعلم . فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها — جاءهم من أمر الله ما لا يرد ، ومن البأس الشديد مالا يمكن أن يصد .

وعند أهل الكتاب : أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذى هناك فاستبعده ، وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم ، فقالوا اذهب فإننا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها ، ثم نحل بهم العذاب . فذكروا أنه ذهب إلى قرية « صوعر »^(٢) التى يقول الناس : غور زغر ، فلما أشرفت الشمس نزل بهم العذاب . قال الله تعالى : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد) . قالوا اقتلعن جبريل بطرف جناحه من قرارهن — وكن سبع مدن — بمن فيهن من الأمم . فقالوا إنهم كانوا أربع مائة نسمة ، وقيل أربعة آلاف نسمة ، وما معهم من الحيوانات ، وما يتبع تلك المدن من الأراضى والأماكن والمعتملات . فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء ، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهن ونباح كلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها . قال مجاهد : فكان أول ما سقط منها شرفاتها (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) . والسجيل فارسى معرب وهو الشديد الصلب القوى^(٣) . (منضود) أى يتبع بعضها بعضاً فى نزولها عليهم من السماء . (مسومة) أى معلة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه ، كما قال : (مسومة عند ربك للسرفين) . وكما قال تعالى : (وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين) ،

(١) سورة القمر (٢) معناها : الصغيرة (٣) الذى بالقاموس واللسان : السجيل كأمر : الصلب الشديد . وكسكيت : حجارة كالدر ، وقيل من طين . وقيل سجيل بمعنى سجين : أى أنها حجارة مما كتب الله أن يعذبهم بها .

وقال تعالى : (والمؤتفة أهوى * فغشاها ما غشى) يعنى قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها ، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل ، متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه ؛ من الحاضرين منهم فى بلدهم ، والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها .

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ، ويقال إنها خرجت مع زوجها وبناتها ، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة - التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً ، وقالت : واقوماء ! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها ؛ إذ كانت على دينهم ، وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان . كما قال تعالى : (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين)^(١) أى خانتاهما فى الدين ؛ فلم يتبعهما فيه . وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة ؛ - حاشا وكلا ولما - ؛ فإن الله لا يقدر على نبي قط أن تبغى امرأته ، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف : ما بغت امرأة نبي قط . ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيراً .

قال الله تعالى فى قصة الإفك - لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر ، ووعظ وحذر - قال فيما قال : (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم)^(٢) أى سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة . وقوله هنا : (وماهى من الظالمين ببيعد) - أى وما هذه العقوبة ببيعدة ممن أشبههم فى فعلهم . ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرحم ، سواء كان محصناً أولاً . نص عليه الشافعى وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة . واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبى عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شأق جبل ، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، لقوله تعالى : (وماهى من الظالمين ببيعد) . وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منقنة^(٣) لا ينتفع بمائها ، ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها ؛ لردائها ودنائها فصارت عبرة ومثلة ، وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته ، وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره ، وكذب رسله ، واتبع هواه وعصى مولاه . ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين فى إنجائهم إياهم من المهالكات ، وإخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات ، كما قال تعالى : (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

وقال تعالى : (فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * إن في ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لبسبيل مقيم * إن في ذلك لآية للمؤمنين ^(١)) ، أى من نظر بعين الفراسة والتوسم — فهم — كيف غير الله تلك البلاد وأهلها ؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة — هالكة غامرة ؟ كما روى الترمذى وغيره مرفوعاً : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ : (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) . وقوله : (وإنها لبسبيل مقيم) أى لبطريق مهيع مسلوكة إلى الآن . كما قال : (وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون) . وقال تعالى : (ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون) . وقال تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين * وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ^(٢)) — أى تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة ، وخشى الرحمن بالغيب ، وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فأنزجر عن محارم الله وترك معاصيه ، وخاف أن يشابه قوم لوط . ومن تشبه بقوم فهو منهم ، وإن لم يكن من كل وجه فن بعض الوجوه ؛ كما قال بعضهم : فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد . فالعاقل اللبيب الخائف من ربه ، الفاهم ، يمتثل ما أمره الله به عز وجل ، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال ، والجوارى من السرارى ذوات الجمال ، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد ، فيحق عليه الوعيد ، ويدخل في قوله تعالى : (وما هى من الظالمين ببعيد) .

قصة « مدين » قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط : (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين * ولا تعبدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبعونها عوجاً ، واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين * وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين * قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريقتنا أو لتعودن فى ملتنا ، قال أو لو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شئ علماً ، على الله توكلنا ، ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين * وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعت شعيباً إنكم إذا لخاسرون * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد

أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين (١).

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً ، (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير ، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط *
 * ويقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين *
 بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ * قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا؟ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟ إنك لأنت الحليم الرشيد * قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب * ويقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصببكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد * واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود * قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزير * قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً؟ إن ربي بما تعملون محيط * ويقوم اعملوا على مكاتبتكم إني عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا إني معكم رقيب * ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود (٢).

وقال في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضاً : (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وإناهما لبإمام مبين) (٣) وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أوفوا الكيل ولا تكونوا من الخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين * قالوا إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلمانا وإن نظنك لمن الكاذبين * فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين * قال ربي أعلم بما تعملون ، فكذبوهم فأخذهم عذاب يوم الظالة ، إنه كان عذاب يوم عظيم * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم) (٤).

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم «مدين» التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام ، مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط . وكانوا بعدهم بمدة قريبة . ومدين مدينة عرفت بها القبيلة

(١) الآيات : ٨٥ — ٩٣ (٢) الآيات : ٨٤ — ٩٥ (٣) الآيات : ٧٨ — ٧٩

(٤) الآيات : ١٧٦ — ١٩١ .

وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل . وشعيب نبيهم هو ابن مكيل^(١) بن يشجن ، ذكره ابن إسحاق . قال : ويقال له بالسريانية يثرون ، وفي هذا نظر . ويقال شعيب بن يشخر بن لاوى بن يعقوب ويقال شعيب بن نويب بن عيفا^(٢) بن مدين بن إبراهيم ، ويقال شعيب بن ضيفور^(٣) بن عيفا بن ثابت ابن مدين بن إبراهيم ، وقيل غير ذلك في نسبه .

قال ابن عساکر : ويقال جدته - ويقال أمه - بنت لوط . وكان ممن آمن بابراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق . وعن وهب ابن منبه أنه قال : شعيب وملغم ممن آمن بابراهيم يوم أحرق بالنار ، وهاجرا معه إلى الشام ، فزوجهما بنتي لوط عليه السلام ذكره ابن قتيبة ، وفي هذا كله نظر أيضاً . والله أعلم . وذكر أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة سلمة بن سعد العنزي : أنه قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وانتسب إلى عنزة ، فقال : « نعم الحى عنزة ؛ مبغى عليهم منصورون ، قوم شعيب أحبار موسى » فلوضح هذا لدل على أن شعيباً من موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عنزة ، لأنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ؛ فإن هؤلاء بعده بدهر طويل . والله أعلم .

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسول قال : « أربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر » . وكان بعض السلف يسمي شعيباً خطيب الأنبياء ، يعنى لفصاحته وعلو عبارته ، وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته . وقد روى ابن إسحاق بن بشر عن جوير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً قال : « ذاك خطيب الأنبياء » . وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، ويهددون الأيكة - وهى شجرة من الأيكة حولها غيضة ملتفة بها - وكانوا من أسوأ الناس معاملة ؛ يبغسون المسكين والميزان ، ويطففون فيهما ، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص . فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة ؛ من يخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبائهم وطرفاتهم . فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم ، حتى أحل الله بهم الناس الشديد . وهو الولي الحميد . كما قال تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم) أى دلالة وحجة واضحة ، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلنى : وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التى لم تنقل إلينا تفصيلاً ، وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالاً (فأوفوا السكيل والميزان ولا تبغسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) . أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم ، وتوعدهم على خلاف ذلك فقال : (ذلكم خير لكم إن

(١) فى الطبرى : ميكايل (٢) فى نسخة : عنقا (٣) فى نسخة ، صيفور ، وفى الطبرى : صيفون .

كنتم مؤمنين * ولا تقعدوا بكل صراط) أى طريق (توعدون) أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل .

قال السدى فى تفسيره عن الصحابة : (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) - أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة . وقال إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : كانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق ، يبخسون الناس - يعنى يعشرونهم . وكانوا أول من سن ذلك (وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً) نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدينوية ، والمعنوية الدينية (واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم فى تكثيرهم بعد القلة . وحذرهم نعمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه . كما قال لهم فى القصة الأخرى : (ولا تنقصوا المسكيات والميزان إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محبط) - أى لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه ، فيمحق الله بركة ما فى أيديكم ، ويفقركم ويذهب ما به يفنيكم ، وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة . ومن جمع له هذا وهذا .. فقد باء بالصفقة الخاسرة .

فنهاهم أولاً عن تعاطى مالا يليق من التطفيف ، وحذرهم سلب نعمة الله عليهم فى دنياهم ، وعذابه الأليم فى آخرهم ، وعنفهم أشد تعنيف . ثم قال لهم آمراً بعد ما كان عن ضده زاجراً : (ويا قوم أوفوا المسكيات والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * بقبت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) . قال ابن عباس والحسن البصرى : (بقيت الله خير لكم) - أى رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس . وقال ابن جرير : ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان - خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف : قال : وقد ررى هذا عن ابن عباس ، وهذا الذى قاله وحكاه - حسن ، وهو شبيه بقوله تعالى : (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) - يعنى أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام ؛ فإن الحلال مبارك وإن قل ، والحرام محق وإن كثر . كما قال تعالى : (بمحق الله الربا ويرى الصدقات) وقال رسول الله ﷺ : « إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل » . رواه أحمد - أى إلى قلة . وقال رسول الله ﷺ : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » . والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل ، والحرام لا يجدى وإن كثر . ولهذا قال نبي الله شعيب : (بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) . وقوله : (وما أنا عليكم بحفيظ) أى افعلوا ما أمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه ، لا لأراكم أنا وغيرى .

(قالوا يا شعيب أصاوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك

لأنت الحليم الرشيد). يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتقص والتهمك: أصلاتك هذه التي تصلها — هي الأمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك؟ ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون؟ أو أن لاتعامل إلا على الوجه الذي ترتضيه أنت، ونترك المعاملات التي تأبأها وإن كنا نحن نرضاها؟ (إنك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس وميمون ابن مهران وابن جريح وزيد ابن أسلم وابن جرير: يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء. (قال ياقوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنها كم عنه، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب). هذا تطف معهم في العبارة، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة. يقول لهم: أرايتم أيها المكذبون (إن كنت على بينة من ربى) — أى على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلنى إليكم، (ورزقنى منه رزقا حسنا) — يعنى النبوة والرسالة، يعنى وعمى عايكم معرفتها، فأى حيلة لى فيكم؟ وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء. وقوله: (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنها كم عنه) — أى لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه. وهذه هى الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هى المردودة الذميمة، كما تلبس بهاعمام بنى إسرائيل فى آخر زمانهم، وخطباؤهم الجاهلون. قال الله تعالى: (أتأمرون الناس بالبر وتدنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون؟) وذكر عندها فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل فيلقى فى النار فتندلق أفتاب بطنه — أى تخرج أمعاؤه من بطنه — فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى. كنت آمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية».

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء. فأما السادة من النجباء، والألباء من العلماء، الذين يخشون ربهم بالغب — فخالهم كما قال نبي الله شعيب: (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنها كم عنه، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) — أى ما أريد فى جميع أمرى إلا الإصلاح فى الفعال والمقال بجهدى وطاقتى. (وما توفيقى) أى فى جميع أحوالى (إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) — أى عليه أتوكل فى سائر الأمور، وإليه مرجعى ومصيرى فى كل أمرى. وهذا مقام ترغيب.

نم انتقل إلى نوع من التهيب فقال: (ويا قوم لا يجر منكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وما قوم لوط منكم ببعيد) أى لا تحملنكم مخالفتى وبغضكم ماجئتكم به — على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم؛ فيحل الله بكم من العذاب والنكال، نظير ما أحله بنظر انكم وأشباهكم، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين. وقوله: (وما قوم لوط منكم ببعيد)، قيل معناه: فى الزمان؛ أى ما بالعهد من قدم، بما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم.

وقيل معناه : وما هم منكم ببعيد في المحلة والمسكان . وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات ؛ من قطع الطريق ، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات .

والجمع بين هذه الأقوال ممكن ؛ فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات . ثم مزج التهيب بالترغيب فقال : (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود) — أى أفلعوا عما أنتم فيه ، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود ، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، فإنه رحيم بعباده ، أرحم بهم من الوالدة بولدها ، (ودود) وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده ، ولو من الموبقات العظام . (قالوا يا شعيب ما نفعه كثيراً مما تقول وإنا لترك فينا ضعيفاً) . روى عن ابن عباس وسعيد ابن جبير والثوري أنهم قالوا : كان ضرير البصر . وقد روى — في حديث مرفوع : أنه بكى من حب الله حتى عمى ، فرد الله عليه بصره ، وقال : « يا شعيب أتبكي خوفاً من النار ؟ أو من شوقك إلى الجنة ؟ فقال : بل من محبتك ، فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يصنع بي . فأوحى الله إليه : هنيئاً لك يا شعيب لقائى ، فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليعى » . رواه الواحدى عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي ، عن علي بن الحسن ابن بندار ، عن أبي عبد الله محمد بن إسحق التبرلي^(١) عن هشام بن عمار عن إسماعيل بن عباس عن يحيى ابن سعيد عن شداد بن أمين عن النبي ﷺ بنحوه . وهو غريب جداً ، وقد ضعفه الخطيب البغدادي .

وقولهم : (ولولا رهطك لرجنناك وما أنت علينا بعزير) هذا من كفرهم البليغ ، وعنادهم الشنيع ، حيث قالوا : (ما نفعه كثيراً مما تقول) أى ما نفعه ولا تتمقله ، لأننا لا نحبه ولا نزيده ، وليس لنا همة إليه ، ولا إقبال عليه . وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ : (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون) . وقولهم : (وإنا لترك فينا ضعيفاً) أى مضطهداً مهجوراً . (ولولا رهطك) أى قبيلتك وعشيرتك فينا — (لرجنناك وما أنت علينا بعزير * قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ؟) أى تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعونى بسبهم ، ولا تخافون جنه الله ؟ ولا ترعونى لأنى رسول الله ؟ فصار رهطى أعز عليكم من الله . (واتخذتموه وراءكم ظهرياً) أى جانب الله وراء ظهوركم ، (إن ربي بما تعملون محيط) أى هو عالم بما تعملون وما تصنعونه ، محيط بذلك كله ، وسيجزىكم عليه يوم ترجعون إليه .

(ويا قوم اعملوا على مكاتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب) . هذا أمر تهديد شديد ووعداً كيد ، بأن يستمروا على طريقةتهم ومنهجهم وشاكلتهم ؛ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة لدار ، ومن يحل عليه الهلاك والبوار . (من يأتيه

عذاب يخزيه (أى فى هذه الحياة الدنيا . (ويحل عليه عذاب مقيم) أى فى الآخرة . (ومن هو كاذب)
 أى منى ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر . (وارتقبوا إني معكم رقيب) هذا كقوله : (وإن كان طائفة
 منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين *
 قال الملائ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن
 فى ملتنا ، قال أو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ،
 وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شئ علماً ، على الله توكلنا ربنا افتتح
 بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) . طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم ،
 فانتصب شعيب للمحاربة عن قومه فقال : (أو لو كنا كارهين ؟) أى هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً ،
 وإنما يعودون إليكم إن عادوا — اضطراباً مكرهين ؛ وذلك لأن الإيمان إذا خالطته بشاشه القلوب —
 لا يسخطه أحد ، ولا يرد أحد عنه ، ولا يحيد لأحد منه . ولهذا قال : (قد افترينا على الله كذباً إن
 عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل
 شئ علماً ، على الله توكلنا) أى فهو كافينا ، وهو العاصم لنا وإليه ملجأنا فى جميع أمرنا . ثم استفتح على
 قومه ، واستنصر ربه عليهم فى تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال : (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت
 خير الفاتحين) أى الحاكمين . فدعا عليهم ، والله لا يرد دعاء رسله إذا انتصروه على الذين جحدوه
 وكفروه ، وبرسوله خالفوه . ومع هذا صموا على ما هم عليه مشتملون ، وبه متلبسون .

(وقال الملائ الذين كفروا من قومه لئن اتبعت شعيباً إنكم إذاً لخاسرون) . قال الله تعالى :
 (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) . ذكر فى سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة ، أى
 رجفت بهم أرضهم ، وزلزت زلزالا شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادها ، وصيرت حيوانات أرضهم
 كجأدها ، وأصبحت جثهم جائية ؛ لا أرواح فيها ولا حركات بها ، ولا حواس لها .
 وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات ، وصنوفاً من المثالات ، وأشكالا من البليات ، وذلك لما
 اتصفوا به من قبيح الصفات . سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخذت
 الأصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات . ولكنه تعالى أخبر عنهم
 فى كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها ؛ فى سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه ،
 وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودن فى ملتهم راجعين . فقال تعالى : (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا
 فى دارهم جاثمين) فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة ، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما
 تقدمه من السياق .

وأما فى سورة هود ؛ فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ؛ وذلك لأنهم قالوا

لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : (أصلو تك تأمرك أن نترك ما يعبد أبأؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنك الحليم الرشيد) . فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا السكام القبيح ، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكتتهم . وأما في سورة الشعراء : فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة . وكان ذلك إجابة لما طلبوا ، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا ؛ فإنهم قالوا : (إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين * فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين * قال رب أعلم بما تعملون) قال الله تعالى : وهو السميع العليم : (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) .

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره : أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين — فقلوه ضعيف . وإنما عمدتهم شيثان : أحدهما أنه قال : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب) ولم يقل أخوهم كما قال : (وإلى مدين أخاهم شعيباً) . والثاني أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة . والجواب عن الأول : أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) — لأنه وصفهم بعبادة الأيكة ، فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا . ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم . وهذا الفرق من النفاس اللطيفة العزيزة الشريفة . وأما احتجاجهم بيوم الظلة ؛ فإن كان دليلاً بمجردة على أن هؤلاء أمة أخرى — فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان . وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن .

فأما الحديث الذي أورده الحافظ بن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام ، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام ، عن هشام بن سعد عن شفيق بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد الله ابن عمرو مرفوعاً : « إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام » — فإنه حديث غريب . وفي رجاله من تكلم فيه . والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو ، مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل . والله أعلم .

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة — ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المسكيات والليزان ، فدل على أنهم أمة واحدة ، أهل كوا بأنواع من العذاب . وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب . وقوله : (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) — ذكروا أنهم أصابهم حر شديد ، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعمهم مع ذلك ماء ولا ظل ، ولا دخولهم في الأسراب . فهربوا من محلتهم إلى البرية ، فأظلمت سحابة ، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلمها ، فلما تكاملوا فيه — أرسلها الله ترميمهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة من السماء ، فأزهقت الأرواح ، وخربت الأشباح (فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيباً كأن لم يفنوا فيها

الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين) ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين ، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين : (ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين * كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) . وقال تعالى : (وقال للملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جائعين * الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين) ، وهذا في مقابلة قولهم : (لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون) .

ثم ذكر تعالى عن نبيهم : أنه نعام إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً ، فقال تعالى : (يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) أى أعرض عنهم مولياً عن محلتهم بعد هلكتهم قائلاً : (يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم) . أى قد أدت ما كان واجباً على من البلاغ التام والنصح الكامل ، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه ، فلم ينفعكم ذلك ، لأن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين . فلست أتأسف بعد هذا عليكم ؛ لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ، ولا تخافون يوم الفضيحة . ولهذا قال : (فكيف آسى) أى أحزن (على قوم كافرين) أى لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يلتفتون إليه ، فخل بهم من بأس الله الذى لا يرد — ما لا يدافع ولا يمانع ، ولا يحيد لأحد أريد به عنه ، ولا مناص منه .

وقد ذكر الحافظ بن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس : أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام . وعن وهب بن منبه : أن شعيباً عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين ، وقبورهم غربى الكعبة بين دار الندوة ودار بنى سهم .

ناب ذكر ذرية إبراهيم « عليه الصلاة والتسليم »

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من أمرهم ، وما آل إليه أمره — عليه السلام والتحية والإكرام . وذكرنا ما وقع فى زمانه من قصة قوم لوط ، وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام ؛ لأنها قرينتها فى كتاب الله عز وجل فى مواضع متعددة ؛ فذكر تعالى بعد قصة قوم لوط — قصة مدين ، وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا ، فذكرناها تبعاً لما اقتداء بالقرآن العظيم . ثم نشرع الآن فى الكلام على تفصيل ذرية إبراهيم عليه السلام ؛ لأن الله جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبي أرسل بعده فمن ولده .

ذكر إسماعيل « عليه السلام »

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا ، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان الرسولان ، أسنهما وأجلهما : الذي هو الذبيح على الصحيح - إسماعيل بكر إبراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية - عليها السلام - من العظيم الجليل . ومن قال : إن الذبيح هو إسحق - وإنما تلقاه من نقلة بنى إسرائيل ، الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل ، وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل ، فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر ، وفي رواية : الوحيد . وأيا ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل ؛ ففي نص كتابهم : إن إسماعيل ولد لإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة . وإنما ولد إسحق بعد مضي مائة سنة من عمر الخليل ، فإسماعيل هو البكر لا محالة وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة .

أما في الصورة ؛ فلأنه كان وحده ولده أزيد من ثلاثة عشر سنة ، وأما أنه وحيد في المعنى ؛ فإنه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر ، وكان صغيراً رضيعاً - فيما قيل - فوضعهما في وهاد جبال فاران ، وهي الجبال التي حول مكة نعم المقييل ، وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل ، وذلك ثقة بالله وتوكلاً عليه . فخطبهما الله تعالى بعنائه وكفايته ، فنعّم الحسيب والكافي والوكيل والكفيل . فهذا هو الولد الوحيد في الصورة والمعنى . ولكن أين من يتفطن لهذا السر ؟ وأين من يحل بهذا الحل ؟ والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل . وقد أنشئ الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد ، والمحافظة على الصلاة ، والأمر بها لأهله ليقبهم العذاب ، مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب . قال تعالى : (فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعي قال يا بني إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) (١) فطواع أباه على ما إليه دعاه ، ووعدته بأن سيصبر - فوفى بذلك وصبر على ذلك .

وقال تعالى : (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) (٢) . وقال تعالى : (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وإناهم عندنا لمن المصطفين الأخيار * واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) (٣) . وقال تعالى : (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين * وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) (٤) . وقال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ... الآية) (٥)

(١) الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ من سورة الصافات
 (٢) الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ من سورة مريم
 (٣) الآيات : ٤٥ - ٤٨ من سورة ص
 (٤) الآيتان : ٨٥ ، ٨٦ من سورة الأنبياء
 (٥) الآية : ١٦٣ من سورة النساء

وقال تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط^(١)) الآية . ونظيرتها من السورة الأخرى . وقال تعالى : (أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ، قل أنتم أعلم أم الله^(٢)) الآية . فذكر الله عنه كل صفة جميلة ، وجعله نبيه ورسوله ، وبرأه من كل مانسب إليه الجاهلون ، وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه — عباده المؤمنون . وذكر علماء النسب وأيام الناس : أنه أول من ركب الخليل ، وكانت قبل ذلك وحوشاً فأنسهاور كبتها . وقد قال سعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه : حدثنا شيخ من قريش ، حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « اتخذوا الخليل واعتبئوها^(٣) فإنها ميراث أبيكم إسماعيل » . وكانت هذه العرب وحوشاً فدعا لها بدعوتها التى كان أعطى فأجابته . وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة . وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن ؛ من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل .

قال الأموى : حدثنى على بن المغيرة ، حدثنا أبو عبيدة ، حدثنا مسمع بن مالك عن محمد بن على ابن الحسين عن آبائه عن النبي ﷺ أنه قال : « أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل ، وهو ابن أربع عشرة سنة » ، فقال له يونس صدقت يا أباسيار ، هكذا أبو جرى حدثنى . وقد قدمنا أنه تزوج لما شب ، امرأة من العماليق ، وأن أباه أمره بفراقها ففارقها . قال الأموى : هى عمارة بنت سعد بن أسامة ابن أكيل العماليقى . ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها فاستمر بها ، وهى السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى ، وقيل هذه ثالثة — فولدت له اثنى عشر ولداً ذكراً . وقد سماهم محمد بن إسحق رحمه الله وهم : نابت ، وقيدر^(٤) وإزبل ، وميشى^(٥) ومسمع ، وماش ، ودوصا وأرر^(٦) ويطور ، ونبش ، وطيا^(٧) وقيدما . وهكذا ذكرهم أهل الكتاب فى كتبهم . وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيماً المبشر بهم ، المتقدم ذكرهم . وكذبوا فى تأويلهم ذلك .

وكان إسماعيل عليه السلام رسولا إلى أهل تلك الناحية وما والاهما ؛ من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن ، صلوات الله وسلامه عليه . ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحق ، وزوج ابنته « نسمة » من ابن أخيه « العيص » بن إسحق ، فولدت له الروم ، ويقال لهم بنو الأصفر ؛ لصفرة كانت فى العيص . وولدت له اليونان فى أحد الأقوال . ومن ولد العيص الأشبان قيل منهما أيضاً . وتوقف ابن جرير رحمه الله .

(١) الآية : ١٣٦ من سورة البقرة (٢) الآية : ١٤٠ من سورة البقرة (٣) التعقيب : التذكية ، وهى الذبح .

(٤) فى نسخة : قيذار (٥) فى نسخة : منبسى (٦) فى نسخة : وأدر . وفى أخرى :

(٧) فى نسخة : وطيا .

ودفن إسماعيل نبي الله بالحجر مع أمه هاجر ، وكان عمره يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة .
وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : شكى إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة ،
فأوحى الله إليه : إني سأفتح لك باباً إلى الجنة إلى الموضع الذي تدفن فيه ، تجرى عليك روحها
إلى يوم القيامة .

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه : نابت ، وقيدار . وستتكم على أحياء العرب وبطونها
وعماثرها وقبائلها وعشائرها ، من لدن إسماعيل عليه السلام — إلى زمان رسول الله ﷺ . وذلك إذا
اتمهنا إلى أيامه الشريفة وسيرته المنيفة ، بعد الفراغ من أخبار أنبياء بني إسرائيل إلى زمان عيسى
ابن مريم ، خاتم أنبيائهم ومحقق أنبائهم . ثم نذكر ما كان في زمن بني إسرائيل ، ثم ما وقع في أيام
الجاهلية ، ثم ينتهي الكلام إلى سيرة نبينا رسول الله إلى العرب والعجم ، وسائر صنوف بني آدم
من الأمم ، إن شاء الله تعالى . وبه الثقة وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
العزیز الحكيم .

ذكر إسحاق بن إبراهيم الكريم بن الكريم «عليهما الصلاة والتسليم»

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مائة سنة ، بعد أخيه إسماعيل بأربع عشر سنة . وكان عمر أمه سارة حين
بشرت به — تسعين سنة . قال الله تعالى : (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين * وباركنا عليه
وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) . وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه في غير ما آية
من كتابه العزيز . وقدما في حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن الكريم بن الكريم
ابن الكريم بن الكريم — يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » . وذكر أهل الكتاب أن إسحاق
لما تزوج « رفقا » بنت بتواويل في حياة أبيه — كان عمره أربعين سنة ، وأنها كانت عاقراً ، فدعا الله
لها فحملت ، فولدت غلامين توأمين : أولهما سموه « عيصو » ، وهو الذي تسميه العرب « العيص » ،
وهو والد الروم . والثاني خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه « يعقوب » — وهو إسرائيل الذي
ينتسب إليه بنو إسرائيل .

قالوا : وكان إسحاق يحب عيصواً أكثر من يعقوب ؛ لأنه بكره . وكانت أمهما « رفقا » تحب
يعقوباً أكثر ؛ لأنه الأصغر . قالوا فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتبه على ابنه العيص طعاماً ، وأمره أن
يذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له ؛ ليبارك عليه ويدعوه له . وكان العيص صاحب صيد ، فذهب يبتغي
ذلك ، فأمرت « رفقا » ابنها يعقوب أن يذبح جديدين من خيار غنمه ، ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه
أبوه ، ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعوه له ، فقامت فألبسته ثياب أخيه ، وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد

الجديين ؛ لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك . فلما جاء به وقربه إليه — قال : من أنت ؟ قال : ولدك ، فضمه إليه وجسه وجعل يقول : أما الصوت فصوت يعقوب ، وأما الجس والثياب فالعيص . فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدراً ، وكتبه عليهم وعلى الشعوب بعده ، وأن يكثر رزقه وولده .

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه إليه ، فقال له ما هذا يا بني ؟ قال : هذا الطعام الذى اشتهيته ، فقال : أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك ؟ فقال : لا والله ، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك ، فوجد في نفسه عليه وجداً كثيراً . وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوها ، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى ، وأن يجعل لذريته غليظ الأرض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم . فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب — أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها « لابان » الذى بأرض حران ، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه ، وأن يتزوج من بناته . وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعوه — ففعل ، فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم ، فأدركه المساء في موضع فنام فيه ، وأخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام ، فرأى في نومه ذلك — معراجاً منصوباً من السماء إلى الأرض ، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون ، والرب تبارك وتعالى يخاطبه ، ويقول له : إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك ، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك . فلما هب من نومه فرح بما رأى ، ونذر الله لئن رجع إلى أهله سالماً لينين في هذا الموضع معبد الله عز وجل ، وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره . ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنًا يتعرفه به ، وسمى ذلك الموضع : « بيت إيل » أى بيت الله . وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتى .

قالوا : فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران — إذا له ابنتان : اسم الكبرى : « ليا » واسم الصغرى : « راحيل » وكانت أحسنهما وأجملها^(١) ، فأجابته إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين . فلما مضت المدة على خاله « لابان » — صنع طعاماً وجمع الناس عليه ، وزف إليه ليلا ابنته الكبرى « ليا » ، وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر . فلما أصبح يعقوب إذا هي « ليا » ، فقال لخاله لم غدرت بي ؟ وأنت إنمسا خطبت إليك راحيل . فقال : إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى ، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها . فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها . وكان ذلك سائناً في ملتهم ، ثم نسخ في شريعة التوراة . وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ ؛ لأن فعل يعقوب عليه السلام — دليل على جواز هذا وإباحته ؛ لأنه معصوم . وهب « لابان » لكل واحدة من ابنتيه جارية ؛ فوهب للييا جارية اسمها : « زلفى » ، وهب لراحيل جارية اسمها : « بلهى » .

(١) يظهر من السياق أن هنا جملة ساقطة هي : فطلب يعقوب لى خاله أن يزوجه راحيل .

وجبر الله تعالى ضعف « ليا » بأن رهب لها أولاداً ، فكان أول من ولدت ليعقوب : روييل ، ثم شمعون ، ثم لاوى ، ثم يهوذا . ففارت عند ذلك « راحيل » وكانت لا تحبل ، فوهبت ليعقوب جاريتها « بلهى » فوطئها فحملت ، وولدت له غلاماً سمته « دان » ، وحملت وولدت غلاماً آخر سمته « نيفتالى » . فعمدت عند ذلك « ليا » فوهبت جاريتها « زلفى » من يعقوب عليه السلام فولدت له : جاد^(١) وأشير ، غلامين ذكرين . ثم حملت « ليا » أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها « وسمته إيساخر »^(٢) . ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته « زابلون » . ثم حملت وولدت بنتاً سميتها « دينار » فصار لها سبعة من يعقوب . ثم دعت الله تعالى « راحيل » ، وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب ، فسمع الله نداءها وأجاب دعائها ، فحملت من نبي الله يعقوب ، فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته « يوسف » . كل هذا وهم مقيمون بأرض حران^(٣) ، وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين - ست سنين أخرى ، فصار مدة مقامه عشرين سنة . فطلب يعقوب من خاله « لابان » أن يسرحه لير إلى أهله ، فقال له خاله : إني قد بررت لي بسببك فسأني من مالى ما شئت ، فقال : تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبتع ،^(٤) وكل حمل ملمع أبيض بسواد ، وكل أماع^(٥) ببياض ، وكل أجاح^(٦) أبيض من العز ، فقال : نعم . فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس ؛ لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات . وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم . قالوا : فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز ولب ، فكان يقشرها بلقما ، وينصبها في مساقى الغنم من المياه ؛ لينظر الغنم إليها فتفرغ وتتحرك أولادها في بطونها ، فتصير ألوان حملانها كذلك . وهذا يكون من باب خوارق العادات ، وينتظام في سلك المعجزات . فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد ، وتغير له وجه خاله وبنيه ، وكانهم انحصروا منه .

وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ، ووعدته بأن يكون معه . فعرض ذلك على أهله فأجابوه بمبارين إلى طاعته ، فتحمل بأهله وماله ، وسرقت راحيل أصنام أبيها . فلما جاوزوا وتميزوا عن بلادهم - لحقهم « لابان » وقومه ، فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه في خروجه بتغير عمله ، وهلاأعله فيخترجهم في فرح ومزاهر وطبول ، وحتى يودع بناته وأولادهن . ولم أخذوا أصنامهم معهم ؟ ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه ، فأنكر أن يكون أخذوا له أصناماً . فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلا يجد شيئاً ، وكانت راحيل قد جعلت في بردة الجمل وهي تحتها ، فلم تقم ، واعتذرت بأنها طامث^(٧) فلم يقدر عليهن . فعند ذلك تواتقوا على رابية هناك يقال لها « جلعاد » على أنه لا يهين بناته ، ولا يتزوج

(١) في النسخة الحلبية: حاذ (٢) في نسخة: انساخر (٣) في الطبرى: بأرض بابل (٤) فيه سوادوبياض ، ويسمى الألبق (٥) الكبش الأماع: الذى فيه بياض يخالطه سواد (٦) هو الذى لا قرن له . والجاح بالتحريك: انحصار الشعر عن جانبي الرأس (٧) أى حائض .

عليهن ، ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر ، لا لابان ولا يعقوب ، وعملا طعاما وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر . وتفارقوا راجعين إلى بلادهم .

فلما اقترب يعقوب من أرض « ساعير » تلقتة الملائكة يبشرونه بالقدوم . وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو بترفق له وبتواضع له ، فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك في أربعمائة راجل ، فخشي يعقوب من ذلك ، ودعا الله عز وجل وصلى له ، وتضرع إليه وتمسكن لديه ، وناشده عهده ووعده الذي وعده به . وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص . وأعد لأخيه هدية عظيمة وهي : مائتا شاة ، وعشرون تيساً ، ومائتا نعجة ، وعشرون كبشاً ، وثلاثون لقحة^(١) ، وأربعون بقرة ، وعشرة من الثيران ، وعشرون أتاناً وعشرة من الحجر . وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده . وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة . فإذا لقيهم العيص فقال الأول : لمن أنت ؟ ولمن هذه معك ؟ فليقل : لعبدك يعقوب ، أهداها لسيدى العيص . وليقل الذى بعده كذلك ، وكذا الذى بعده ، ويقول كل منهم : وهو جأى بعدنا . وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين ، وجعل يسير فيهما ليلاً ويسكن نهائراً . فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية - تبدا له ملك من الملائكة في صورة رجل ، فظنه يعقوب رجلاً من الناس ، فأناه يعقوب ليصارعه وبقالبه ، فظهر عليه يعقوب فيما يرى ، إلا أن الملك أصاب وركه فرج يعقوب . فلما أضاء الفجر قال له الملك : ما اسمك ؟ قال يعقوب . قال لا ينبغي أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل . فقال له يعقوب : ومن أنت ؟ وما اسمك ؟ فذهب عنه . فعلم أنه ملك من الملائكة ، وأصبح يعقوب وهو يرج من رحله . فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء .

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيص قد أقبل في أربعمائة راجل ، فتقدم أمام أهله . فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات ، وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان . وكان مشروعا لهم : كما سجدت الملائكة لآدم تحية له ، وكما سجد إخوة يوسف وأبواه له كما سيأتى . فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ، ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقال : من أين لك هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الذين وهب الله لعبدك ، فذنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له . وذنت « ليا » وبنوهما فسجدوا له . وذنت « راحيل » وابنها يوسف فخرا سجدوا له . وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبها . ورجع العيص فتقدم أمامه ، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشى والعبيد قاصدين جبال « ساعير » . فلما مر بساحور ابنتى له بيتاً ، ولدوا به ظللاً ، ثم مر على أورشليم قرية شخيم فنزل قبل القرية ، واشترى مزرعة شخيم ابن جمهور بمائة نعجة ، فضرب هنالك فسطاطه ، وابنتى ثم مذبحة فسماه « إيل »^(٢) إنه إسرائيل

(١) قال في اللسان : اللقحة : الناقة من جن يسمن سنام ولدها حتى يضى لها سبعة أشهر ويفصل عنها . وقيل الناقة

الحلوب الغزيرة اللبن (٢) إيل : اسم الله تعالى .

وأمره الله بينائه ليستعمل له فيه . وهو بيت المقدس اليوم ، الذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام : وهو مكان الصخرة التي أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك ، كما ذكرنا أولاً .

وذكر أهل الكتاب هنا قصة « دينا » بنت يعقوب بنت « ليا »^(١) وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور الذي قهرها على نفسها ، وأدخلها منزله ثم خطبها عن أبيها وإخوتها ، فقال لإخوتها إلا أن تختنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرنا ، فإننا لا نصاهر قوما غلفا ، فأجابوهم إلى ذلك واختنوا كلهم . فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان — مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا شخيا وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم ، مضافاً إلى كفرهم ، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم ، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة .

ثم حملت راحيل فولدت غلاماً هو « بنيامين » ، إلا أنها جهدت في طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه ، فدفنها يعقوب في « أفرات » . وهي بيت لحم ، وصنع يعقوب على قبرها حجراً ، وهي الحجرة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم . وكان أولاد يعقوب المذكور اثني عشر رجلاً . فن ليا : روبيل^(٢) ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، وإيساخر^٣ ، وزابلون . ومن راحيل : يوسف ، وبنيامين . ومن أمة راحيل : دان ، ونفتالى . ومن أمة ليا : جاد وأشير — عليهم السلام . وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التي في أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم . ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة : ودفنه ابناه : العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل — في المغارة التي اشتراها كما قدمنا .

ذكر ما وقع من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل

فمن ذلك : قصة يوسف بن راحيل . وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره — سورة من القرآن العظيم ؛ ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (بسم الله الرحمن الرحيم * الر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) . قد تكلمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة ، فمن أراد تحقيقه فلينظره ثم . وتكلمنا على هذه السورة مستقصى في موضعها من التفسير . ونحن نذكر ههنا نبذاً مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز .

وجملة القول في هذا المقام : أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ، بلسان عربي فصيح ، بين واضح جلي ، يفهمه كل عاقل ذكي زكي . فهو أشرف كتاب نزل من السماء ، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان ، بأفصح لغة وأظهر بيان . فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية — ذكر أحسنها وأبينها ، وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ، ودمغ الباطل وزيفه

(١) اسمها في كتاب قصص الأنبياء : « ليثه » . (٢) اسمه في كتاب قصص الأنبياء : « راووين » .

ورده . وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج ، وأبين حكماً وأعدل حكماً . فهو كما قال تعالى : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً^(١)) . يعني صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي . ولهذا قال تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) أى بالنسبة إلى ما أوحى إليك فيه ، كما قال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور^(٢)) . وقال تعالى : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، وقد آتيناك من لدنا ذكراً * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً * خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً^(٣)) . يعنى من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب — فإنه يناله هذا الوعيد . كما قال فى الحديث المروى فى المسند والترمذى عن أمير المؤمنين على — مرفوعاً وموقوفاً : « من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشام ، أنبأنا خالد بن الشعبي عن جابر : أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ . قال : فغضب وقال : « أتمهوكون^(٤) فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوه عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه . والذي نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى » . إسناد صحيح . ورواه أحمد من وجه آخر عن عمرو فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتكم ، إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين » . وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه فى أول سورة يوسف . وفى بعضها : أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال فى خطبته : « أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصاراً ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تمهوكوا ، ولا يفرنكم المتهوكون » . ثم أمر بتلك الصحيفة فحيت حرفاً حرفاً . (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً . والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين * قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين * وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق ، إن ربك عليم حكيم) .

قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً ، وسميهم . وإليهم تنسب أسباط بنى إسرائيل كلهم . وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم — يوسف عليه السلام . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى

(١) من الآية ١١٥ من سورة الأنعام (٢) آخر سورة الشورى (٣) الآيات : ٩٩ — ١٠١ من سورة طه

(٤) أى أتجربون وتمهرون ؟ والمتهوك : المتحجر والساقط فى هوة الردى . والمتهوك : التهور والوقوع فى الشيء

أنه لم يكن فيهم نبي غيره ، وباقي إخوته لم يوح إليهم . وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة — يدل على هذا القول . ومن استدل على نبوتهم بقوله : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) ، وزعم أن هؤلاء هم الأسباط — فليس استدلاله بقوى ؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل ، وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء . والله أعلم .

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة — أنه مانص على واحد من إخوته سواه ، فدل على ما ذكرناه . ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم بن الكريم ابن المكريم بن المكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » انفرد به البخاري . فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدية عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . وقد ذكرنا طرقه في قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته هنا والله الحمد والمنة .

قال المفسرون وغيرهم : رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يتعلم ، كأن أحد عشر كوكباً وهم إشارة إلى بقية إخوته ، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه — قد سجدوا له ، فهاله ذلك . فلهذا استيقظ قصصها على أبيه ، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة ، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها . فأمره بكتابتها وأن لا يقصها على إخوته ؛ كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ، ويكيدوه بأنواع الخيل والمكر . وهذا يدل على ما ذكرناه . ولهذا جاء في بعض الآثار : « استعينوا على قضاء حوائجكم بكتابتها ؛ فإن كل ذي نعمة محسود » . وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معاً وهو غاط منهم . (وكذلك يجتبيك ربك) أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة ، فإذا كتبتها (يجتبيك ربك) أي يخلصك بأنواع اللطف والرحمة ، (ويعلمك من تأويل الأحاديث) أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المقام مالا يفهمه غيرك ، (ويتم نعمته عليك) أي بالوحي إليك (وعلى آل يعقوب) أي بسببك ، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة . (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق) أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة — كما أعطها أباك يعقوب ، وجدك إسحق ، ووالد جدك إبراهيم الخليل ، (إن ربك عليم حكيم) كما قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

لهذا . قال رسول الله ﷺ لما سئل أي الناس أكرم ؟ قال : « يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » . وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما ، وأبو يعلى والبزار في مسنديهما ، من حديث الحكم بن ظهير — وقد ضعفه الأئمة — عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال :

أنى النبي ﷺ رجل من اليهود يقال له : بستانة اليهودى ، فقال : يا محمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها ؟ قال : فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء ، ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها ، قال : فبعث إليه رسول الله فقال : « هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها ؟ » قال : نعم . فقال : « هى جريان^(١) والطارق ، والديال ، وذو الكتفان ، وقابس ، ووثاب ، وعمردان^(٢) والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرع . والضياء . والنور » فقال البيهردى : إى والله إنها لأسمائها . وعند أبى يعلى : فلما قصها على أبيه قال هذا أمر مشتت يجمعه الله ، والشمس أبوه والقمر أمه .

(لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوماً صالحين * قال قائل منهم لانتقلوا يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) .

ينبه تعالى على ما فى هذه القصة من الآيات والحكم ، والدلالات والمواعظ والبيانات . ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه — يعنون شقيقه لأمه بنيامين — أكثر منهم ، وهم عصبة أى جماعة يقولون : فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين (إن أبانا لفي ضلال مبين) — أى بتقديمه جبهما علينا . ثم اشتوروا فيما بينهم فى قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ، ليخلو لهم وجه أبيهم — أى لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم ، وأضمرُوا التوبة بعد ذلك ، فلما تماثوا على ذلك وتوافقوا عليه — (قال قائل منهم) ، قال مجاهد : هو شمعون ، وقال السدى : هو يهوذا ، وقال قتادة ومحمد بن إسحق : هو أكبرهم روييل : (لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة) أى المنارة من المسافرين (إن كنتم فاعلين) ماتقولون لا محالة ، فليكن هذا الذى أقول لكم ، فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه . فأجمعوا رأيهم على هذا ، فعند ذلك (قالوا يا أبانا مالك لاتأمننا على يوسف وإنا له لناصحون * أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له حافظون * قال إني ليعجزني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون * قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) . طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف ، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم ، وأن يلعب وينبسط ، وقد أضمرُوا له ما الله به عليم . فأجابهم الشيخ — عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم : يا بنى يشق على أن أفرقه ساعة من النهار ، ومع هذا أخشى أن اشتغلوا فى لعبكم وما أتم فيه — فيأتى الذئب فيأكله ، ولا يفدر على دفعه عنه لصغره وغفائكم عنه . (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) أى لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة — إنا إذا لخاسرون ، أى عاجزون هالكون .

وعند أهل الكتاب : أنه أرسله وراءهم يتبعهم ، فضل عن الطريق حتى أُرشدته رجل إليهم . وهذا أيضاً من غلظتهم وخطئهم في التعريب ؛ فإن يعقوب عليه السلام - كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم ، فكيف يبعثه وحده ؟ (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون * وجاءوا أباهم عشاء يبكون * قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين * وجاءوا على قيصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل * والله المستعان على ما تصفون) . لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم ، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه ، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال ، وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب - أي في قعره ، على راعوفته - وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائخ ، وهو الذي ينزل ليملي الدلاء إذا قل الماء ، والذي يرفعها بالحبل يسمى المائخ . فلما أقوه فيه ، أوحى الله إليه : أنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها ، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز ، وهم محتاجون إليك خائفون منك ، (وهم لا يشعرون) .

قال مجاهد وقتادة : وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك . وعن ابن عباس : وهم لا يشعرون - أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها ، رواه ابن جرير عنه . فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه ، أخذوا قيصه فلطأخوه بشيء من دم ، ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون - أي على أخيهم . ولهذا قال بعض السلف : لا يعرفنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك . وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون - أي في ظلمة الليل ؛ ليكون أمشى لغدرهم لالعدُّرهم . (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا) أي ثيابنا (فأكله الذئب) أي في غيبتنا عنه في استباقنا . وقولهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) أي وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له ، ولو كنا غير متهمين عندك . فكيف وأنت تتهمنا في هذا ؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب ، وضمننا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله ، فصرنا غير مصدقين عندك . فمعدور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه . (وجاءوا على قيصه بدم كذب) - أي مكذوب مفتعل ؛ لأنهم عمدوا إلى سخله ذبحوها ، فأخذوا من دمها فوضعوه على قيصه ، ليوهموه أنه أكله الذئب . قالوا : ونسوا أن يخرقوه ، وآفة الكذب النسيان . ولما ظهرت عليهم علام الريبة لم يرُجُ صنيعهم على أبيهم ؛ فإنه كان يفهم عداوتهم له ، وحسدكم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم ، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره ، لما يريد الله أن ينخصه به من نبوته . ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذه أعدموه ، وغيبوه عن عينيه - جاؤا وهم يتباكون ، وعلى مآمالوا عليه يتواطئون . ولهذا (قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل * والله المستعان على ما تصفون) .

وعند أهل الكتاب : أن روبيل أشار بوضعه في الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه ، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة . فلما جاء روبيل آخر النهار ليخرج يوسف — لم يجده ، فصاح وشق ثيابه ، وعمد أولئك إلى جدى فذبحوه ، ولطخوا من دمه جبة يوسف . فلما علم يعقوب شق ثيابه ، ولبس منزراً أسود وحزن على ابنه أياماً كثيرة . وهذه الركافة جاءت من خطئهم في التعبير والتصوير (وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يابشرى هذا غلام ! وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون * وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين * وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض وانعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) .

يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب : أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به ، فجاءت سيارة — أى مسافرون . قال أهل الكتاب : كانت بضاعتهم في القستق والصنوبر والبطم^(١) قاصدين ديار مصر من الشام ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر ، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف ، فلما رآه ذلك الرجل (قال يابشرى) أى يابشارتى (هذا غلام وأسروه بضاعة) — أى أوهوا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ، (والله عليم بما يعملون) — أى هو عالم بما تمألاً عليه إخوته ، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم . ومع هذا لا يغيره تعالى ؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق ، والرحمة بأهل مصر ، بما يجرى الله على يدي هذا الغلام الذى يدخلها في صورة أسير رقيق . ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور ، وينفعهم الله به في دنياهم وأخرامهم ، بما لا يحد ولا يوصف . ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له — لحقوهم ، وقالوا هذا غلامنا أبق منا ، فاشتروه منهم بثمن بخس — أى قليل نزر ، وقيل هو الزيف (دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) . قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالى والسدى وقتادة وعطية العوفى : باعوه بعشرين درهماً ، اقتسموها درهمين درهمين . وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً . وقال عكرمة ومحمد بن إسحق : أربعون درهماً . والله أعلم .

(وقال الذى اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه) أى أحسنى إليه (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) ، وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه ، بما يريد أن يؤهله له ، ويعطيه من خيرى الدنيا والآخرة . قالوا : وكان الذى اشتراه من أهل مصر — عزيزها ، وهو الوزير بها ، الذى الخزان مسامة إليه . قال ابن إسحق : واسمه إطفير^(٢) ابن روحيب ، قال : وكان ملك مصر يومئذ — الريان بن الوليد ، رجل من العماليق . قال واسم امرأة العزيز : « راعيل » بنت رعايل^(٣) . وقال غيره : كان اسمها « زليخا »

(١) فى القاموس: البطم بالضم وبضمين: الحبة المفضرة أو شجرها .

(٢) فى نسخة: قطفير . وفى قصص الأنبياء « فوطيفار » (٣) فى نسخة: رعايل .

والظاهر أنه لقبها . وقيل « فكا » بنت ينوس ، رواه الثعلبي عن ابن هشام الرفاعي . وقال محمد بن إسحق عن محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس : كان اسم الذي باءه بمصر - يعني الذي جابه إليها - مالك بن ذعر بن نويب بن عققا^(١) بن مديان بن إبراهيم . فإله أعلم .

وقال ابن إسحق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته : (أكرمي مثواه) ، والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى : (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

ثم قيل اشتراه العزيز بعشرين ديناراً ، وقيل بوزنه مسكا ووزنه حريراً ووزنه ورقاً . فإله أعلم وقوله : (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) أي وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به - مكنا له في أرض مصر (وانعلمه من تأويل الأحاديث) أي فهمها ، وتعبير الرؤيا من ذلك . (والله غالب على أمره) أي إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً وأموراً لا يهتدى إليها العباد . ولهذا قال تعالى : (ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) . فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد ، وهو حد الأربعين الذي يوحى الله فيه إلى عباده النبيين ، عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين .

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد : فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هو الحلم . وقال سعيد بن جبير : ثمان عشرة سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة . وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السدي : ثلاثون سنة . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . وقال الحسن : أربعون سنة ، ويشهد له قوله تعالى : (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) .

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون * ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين * واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، وألنيا سيدها لدى الباب ، قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم * قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قد من دبر ، قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم * يوسف أعرض عن هذا واستغفر لي ذنبك إنك كنت من الخاطئين) .

يذكر تعالى ما كان من سراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه . وطلبها منه ما لا يليق

بحاله ومقامه ، وهى فى غاية الجمال والنال ، والمنصب والشباب . وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه ، وتهيات له وتصنعت ، وليست أحسن ثيابها وأنغر لباسها ، وهى مع هذا كله امرأة الوزير . قال ابن إسحق : وبنت أخت الملك^(١) الريان بن الوليد صاحب مصر . وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء ، إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء ، نعضمه ربه عن الفحشاء ، وحماه عن مكر النساء ، فهو سيد السادة العجباء ، السبعة الأتقياء ، المذكورين فى الصحيحين عن خاتم الأنبياء — فى قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله » .

والمقصود أنها دعتة إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص ، فقال : (معاذ الله إنه ربي) يعنى زوجها صاحب المنزل — سيدي (أحسن مثواي) أى أحسن إلى وأكرم مقامى عنده (إنه لا يفلح الظالمون) . وقد تكلمنا على قوله : (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) بما فيه كفاية ومقنع فى التفسير . وأكثر أقوال المفسرين ههنا متلقى من كتب أهل الكتاب ، فالإعراض عنه أولى بنسأ . والذي يجب أن يعتقد : أن الله تعالى عصمه و برأه ، ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وحصانه منها . ولهذا قال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا الخالصين * واستبقا الباب) أى هرب منها طابا الباب ليخرج منه فراراً منها ، فاتبعته فى أثره (وألفيا) أى وجدا (سيدها) أى زوجها لدى الباب ، فبدرته بالكلام وحرصته عليه ، (قالت ماجزاء من أراد بأهلك سرورا إلا أن يسجن أوعذاب أليم) . اتهمته وهى المتهمة ، وبرأت عرضها ونزعت ساحتها . فلماذا قال يوسف عليه السلام : (هي راودتني عن نفسي) ، احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة (وشهد شاهد من أهلها) . قيل كان صنياعاً فى المهدي ، قاله ابن عباس ، وروى عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن البصرى وسعيد بن جبيرة والضحاك . واختاره بن جرير ، وروى فيه حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس ، ورفعه غيره عنه . وقيل كان رجلاً قريباً إلى « إلفير » بعلمها ، وقيل قريباً إليها . ومن قال إنه كان رجلاً : ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم . فقال : (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) — أى لأنه يكون قد راودها فذافعته حتى قدت مقدم قميصه . (وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) أى لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك ، وكذلك كان . ولهذا قال تعالى : (فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن

إن كيدكن عظيم) أى هذا الذى جرى من مكركن . أنت راودته عن نفسه ، ثم اتهمته بالباطل . ثم ضرب بعلمها عن هذا صفةً فقال : (يوسف أعرض عن هذا) — أى لا تذكره لأحد ، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن . وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها ، والتوبة إلى ربها ؛ فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه .

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها — هو الله وحده لا شريك له فى ذلك . ولهذا قال لها بعلمها ، وعذرها من بعض الوجوه ؛ لأنها رأت مالا صبر لها على مثله — إلا أنه عفيف نزيه برىء العرض سليم الناحية فقال : (استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين *) وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنا لنها فى ضلال مبين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت أخرج عيبن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن حاش لله ما هذا بشراً ؛ إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكن الذى لم تنتنى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليسكنن من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم) يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة ؛ من نساء الأمراء وبنات الكبراء فى الطعن على امرأة العزيز وغيبتها ، والتشنيع عليها فى سراودتها فتاها ، وحبها الشديد له ، وهو لا يساوى هذا ؛ لأنه مولى من الموالى وليس مثله أهلاً لهذا . ولهذا قلن : (إنا لنها فى ضلال مبين) أى فى وضعها الشيء فى غير محله . (فلما سمعت بمكرهن) أى بتشنيعهن عليها والتقص لها ، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها ، فأظهرن ذما وهى معذورة فى نفس الأمر — فلماذا أحببت أن تبسط عذرها عندهن ، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ، ولا من قبيل ما لديهن . فأرسلت إليهن فجمعتن فى منزلها ، وأعدت لهن ضيافة مثلهن ، وأحضرت فى جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين ، كالأترج ونحوه ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام ، وألبسته أحسن الثياب وهو فى غاية طراوة الشباب . وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة ، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة . (فلما رأته أكبرنه) أى أعظمته وأجللته وهبته ، وما ظنن أن يكون مثل هذا فى بنى آدم . وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن ، وجعلن يحززن فى أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح . (لئن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) . وقد جاء فى حديث الإسراء : « فررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن » . قال السهيلي وغيره من الأئمة : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ؛ لأن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، فكان فى غاية نهايات الحسن

البشرى . ولهذا يدخل أهل الجنة — الجنة على طول آدم وحسنه . ويوسف كان على النصف من حسن آدم . ولم يكن بينهما أحسن منهما ؛ كما أنه لم تكن أتى بعد حواء أشبه بها — من سارة امرأة الخليل عليه السلام .

قال ابن مسعود : وكان وجه يوسف مثل البرق ، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه . وقال غيره : كان في الغالب مبرقماً لثلاث يراه الناس . ولهذا لما قام عذر امرأة العزيز في محبتها — لهذا المعنى المذكور ، وجرى لها وعليهن ماجرى ؛ من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين ، وماركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته — (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) . ثم مدحته بالعصمة التامة فقالت : (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى امتنع ، (ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكونن من الصاغرين) . وكان بقية النساء حرصه على السمع والطاعة لسيدته ، فأبى أشد الإباء ، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين : (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا نصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلین) . يعنى إن وكلتنى إلى نفسى ، فليس لى من نفسى إلا العجز والضعف ، ولا أملك لنفسى نفع ولا ضراً إلا ما شاء الله . فأنا ضعيف إلا ما قويتنى وعصمتنى وحفظتنى ، وحطى بحولك وقوتك . ولهذا قال تعالى : (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم) * ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين * ودخل معه السجن فتيان : قال أحدهما لى أرانى أعصر خمرأ ، وقال الآخر لى أرانى أحمل فوق رأسى خبزأ تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين * قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، لى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبع ملة آبأى : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآبأؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ياصاحبى السجن : أما أحدكما فيسقى ربه خمرأ ، وأما الآخر فيصاب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) .

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته : أنهم بدا لهم — أى ظهر لهم من الرأى بعد ما علموا براءة يوسف — أن يسجنوه إلى وقت ؛ ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية ، وأخذ لأمرها ، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها . فسجنوه ظلمأ وعدوانأ . وكان هذا مما قدر الله له ، ومن جملة ما عصمه به ؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم . ومن ههنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعى : أن من العصمة أن لا تجد . قال الله : (ودخل معه السجن فتيان) قيل : كان أحدهما ساقى الملك

واسمه فيما قيل « نبوا » . والآخربازاه - يعنى الذى يلى طعامه - وهو الذى يقول له الترك : « الجاشنكير » - واسمه فيما قيل « مجلث » . وكان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما . فلما رأى يوسف فى السجن - أعجبهما سمته وهديه ، ودله وطريقته ، وقوله وفعله ، وكثرة عبادته ربه ، وإحسانه إلى خلقه . فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه .

قال أهل التفسير : رأيا فى ليلة واحدة . أما الساقى فرأى كأن ثلاث قصبان من حُبلة^(١) وقد أوردت وأبعت عنقايد العنب ، فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه . ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز ، وضواري الطيور تأكل من السل^(٢) الأعلى . فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالوا : (إنا نراك من المحسنين) . فأخبرها أنه علم بتمبيرها خبير بأمرها ، و (قال لا يأتىكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتىكما) . قيل : معناه مهارأيتما من حلم فىنى أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول . وقيل : معناه أنى أخبركما بما يأتىكما من الطعام قبل مجيئه حلوا أو حامضاً ، كما قال عيسى : (وأنبشكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) . وقال لهما : إن هذا من تعليم الله إياى ؛ لأنى مؤمن به موحد له ، متبع ملة آبائى الكرام : إبراهيم الخليل ، وإسحاق ، ويعقوب . (ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا) أى بأن هداانا لهذا ، (وعلى الناس) أى بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم ونذلهم عليه . وهو فى فطرهم مركوز ، وفى جبلتهم مغروز . (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) .

ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل . وصغر أمر الأوثان وحقرها ، وضعف أمرها فقال : (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) . ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بهامن سلطان ، إن الحكم إلا لله) أى المتصرف فى خلقه الفعال لما يريد ، الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء (أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) أى وحده لا شريك له ، و (ذلك الدين القيم) أى المستقيم والصرط القويم ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره . وكانت دعوته لهافى هذه الحال فى غاية السكال ؛ لأن نفوسهما معظمة له ، منبعثة على تلقى ما يقول بالقبول ، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما بما سألا عنه وطلبا منه .

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال : (يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً) قالوا وهو الساقى . (وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) قالوا وهو الخباز . (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) أى وقع هذا لا محالة ، ووجب كونه على حالة . ولهذا جاء فى الحديث : «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت» . (وقال للذى ظن أنه ناج منها اذ كرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين) .

(١) فى القاموس : الحبل بالضم : الكرم - أو أصل من أصوله (٢) السل والسلة : الجونة وهى معروفة .

يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام قال للذي ظنه ناجياً منهما وهو الساقى : (اذكرنى عند ربك) ،
يعنى اذكر أمرى وما أنا فيه من السجن بغير جرم - عند الملك . وفى هذا دليل على جواز السعى فى
الأسباب ، ولا ينافى ذلك التوكل على رب الأرباب . وقوله : (فأنساه الشيطان ذكر ربه) - أى
فأنسى الناجى منهما - الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام . قاله مجاهد ومحمد بن إسحق
وغير واحد وهو الصواب ، وهو منصوص أهل الكتاب . (فلبث) يوسف (فى السجن بضع سنين) .
والبضع : ما بين الثلاث إلى التسع ، وقيل إلى السبع ، وقيل إلى الخمس ، وقيل مادون العشرة . حكاهما
الثعلبى . ويقال بضع نسوة وبضعة رجال . ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر . قال : وإنما يقال
نيف . وقال الله تعالى : (فلبث فى السجن بضع سنين) ، وقال تعالى : (فى بضع سنين) ، وهذا رد لقوله .
قال الفراء : ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين ، ولا يقال : بضع ومائة ، وبضع
وألف . وخالف الجوهري فيما زاد على بضعة عشر ؛ فمنع أن يقال بضعة وعشرون إلى تسعين . وفى
الصحيح : « الإيمان بضع وستون شعبة » ، وفى رواية وسبعون شعبة ، « أعلاها قول لا إله إلا الله ،
وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » . ومن قال إن الضمير فى قوله : (فأنساه الشيطان ذكر ربه) عائد
على يوسف - فقد ضعف ما قاله ، وإن كان قد روى عن ابن عباس وعكرمة . والحديث الذى رواه
ابن جرير فى هذا الموضع - ضعيف من كل وجه . تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزى المسكى وهو
متروك . ومرسل الحسن وقتادة - لا يقبل ولا ههنا بطريق الأولى والأحرى . والله أعلم .

فأما قول ابن حبان فى صحيحه ، عند ذكر السبب الذى من أجله لبث يوسف فى السجن ما لبث :
أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحى ، حدثنا مسدد بن مسدد ، حدثنا خالد بن عبد الله ، ثنا محمد بن عمرو عن
أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله يوسف لولا الكرامة التى قالها - اذكرنى
عند ربك - ما لبث فى السجن ما لبث ، ورحم الله لوطاً إن كان ليأوى إلى ركن شديد ، إذ قال لقومه :
(لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) ، قال فما بعث الله نبياً بعده إلا فى ثروة من قومه » - فإنه (١)
حديث منكر من هذا الوجه . ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة . وهذه اللفظة
من أنكرها وأشدها . والذى فى الصحيحين يشهد بغلطها ، والله أعلم .

(وقال الملك لى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ،
يا أيها الملائكة أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين *
وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة ، أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديق ، أفتنا فى سبع
بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلى أرجع إلى الناس لعلهم
يعلمون * قال تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون * ثم يأتى من

(١) قوله : فإنه حديث منكر - جواب قوله : فأما قول ابن حبان .

بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلاً مما تحصنون * ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يفتأ الناس وفيه يعصرون). هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام. وذلك أن ملك مصر - وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة^(١) بن فاران بن عمرو ابن عملاق بن لاوذب بن سام بن نوح - رأى هذه الرؤيا.

قال أهل الكتاب: رأى كأنه على حافة نهر، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان، فجعان يرتعن في روضة هناك، فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر، فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن، فاستيقظ مذعوراً. ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة، وإذا سبع آخر دقاق يابسات فأكلنهن، فاستيقظ مذعوراً. فلما قصها على مائه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبیرها، بل (قالوا أضغاث أحلام) - أي أخلاط أحلام من الليل، لعلها لانعبير لها، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك. ولهذا قالوا: (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) فعند ذلك تذكر الناجي منهما - الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه ففسيه إلى حينه هذا؛ وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة في ذلك. فلما سمع رؤيا الملك، ورأى عجز الناس عن تعبیرها - تذكر أمر يوسف، وما كان أوصاه به من التذكار. ولهذا قال تعالى: (وقال الذي نجا منهما وادكر) أي تذكر (بعد أمة) أي بعد مدة من الزمان، وهو بضع سنين. وقرأ بعضهم - كما حكى عن ابن عباس وعكرمة والضحاك: (وادكر بعد أمة) أي بعد نسيان. وقرأها مجاهد: (بعد أمه) باسكان الميم وهو النسيان أيضاً. يقال أمه الرجل يأمه أمهًا وأمها - إذا نسى. قال الشاعر:

أمهت وكنت لا أنسى حديثاً كذاك الدهر يزرى بالعقول

فقال لقومه وللملك: (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلوني) أي فأرسلوني إلى يوسف، فجاهه فقال: (يوسف أيها الصديق، أتفتنا في سبع بقرات سمان، يأكلن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر، وأخر يابسات. لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون). وعند أهل الكتاب: أن الملك لما ذكره له الساقى - استدعاه إلى حضرته، وقص عليه ما رآه ففسره له. وهذا غلط. والصواب ما قصه الله في كتابه القرآن - لا ما عربه هؤلاء الجملة الثيران؛ من فرى وريان.

فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط، ولا طلب الخروج سريعاً؛ بل أجابهم إلى ما سألوا، وعبر لهم ما كان من منام الملك، الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدد. (ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس) يعني يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية، (وفيه يعصرون) يعني ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناق، والزيتون والسمن وغيرها؛ فعبر لهم،

(١) في نسخة: ابن أرائية.

وعلى الخير دلم ، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتى خصبهم وجد بهم ، وما يفعلونه من ادخار حبوب سنى الخصب فى السبع الأول فى سنبله ، إلا ما يرصد بسبب الأكل . ومن تقليل البذر فى سنى الجذب فى السبع الثانية ؛ إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل . وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأى والفهم .

(وقال الملك اثتوني به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك ، فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم * قال ما خطبسكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين * ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين * وما أبرئ نفسى إن النفس لأماراة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم) . لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام ، وتمام عقله ، ورأيه السديد وفهمه - أمر بإحضاره إلى حضرته ؛ ليكون من جملة خاصته . فلما جاءه الرسول بذلك ، أحب أن لا يخرج حتى يقين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً ، وأنه برئ الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً . (قال اجمع إلى ربك) يعنى الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم) . قيل معناه : إن سيدى العزيز يعلم براءتى مما نسب إلى ؛ أى فر الملك فليسألن : كيف كان امتناعى الشديد عند مراودتهن إياى ؟ وحثن لى على الأمر الذى ليس برشيد ولا سديد ؟ فلما سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر ، وما كان منه من الأمر الحميد . (وكان حاش لله ما علمنا عليه من سوء) ، فعند ذلك (قالت امرأة العزيز) وهى زليخا : (الآن حصحص الحق) - أى ظهر وتبين ووضع ، والحق أحق أن يتبع . (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) أى فيما يقوله ؛ من أنه برئ وأنه لم يراودنى ، وأنه حبس ظلماً وعدواناً ، وزوراً وبهتاناً . وقوله : (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) . قيل إنه من كلام يوسف - أى إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب . وقيل إنه من تمام كلام زليخا - أى إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر ، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة . وهذا القول هو الذى نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم . ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم سوى الأول .

(وما أبرئ نفسى إن النفس لأماراة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم) ؛ قيل إنه من كلام يوسف ، وقيل من كلام زليخا ، وهو مفرع على القولين الأولين . وكونه من تمام كلام زليخا - أظهر وأنسب وأقوى . والله أعلم .

(وقال الملك اثتوني به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين * قال اجعائى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم * وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء نصيب

برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) . لما ظهر للملك براءة عرضه ، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ، (قال ائتوني به أستخلصه لنفسي) - أى أجمعه من خاصتى ، ومن أكاثر دولتى ، ومن أعيان حاشيتى . فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله - (قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى ذو مكانه وأمانة . (قال اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) . طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء^(١) ؛ لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضى سبع سنين الخصب ، لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه ؛ من الاحتياط لهم والرفق بهم . وأخبر الملك أنه حفيظ - أى قوى على حفظ ما لديه ، أمين عليه ، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهراء . وفى هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة .

وعند أهل الكتاب : أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جدا ، وسلطه على جميع أرض مصر ، وألبسه خاتمه ، وألبسه الحرير وطوقه الذهب ، وحمله على مركبه الثانى ، ونودى بين يديه : أنت رب ومسلط ، وقال له : لست أعظم منك إلا بالكرسى . قالوا : وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة ، وزوجه امرأة عظيمة الشأن . وحكى الثعلبى أنه عزل قطفير عن وظيفته^(٢) وولاهها يوسف . وقيل إنه لما مات - زوجه امرأته زليخا فوجدها عذراء ؛ لأن زوجها كان لا يأتى النساء ، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما : أفرايم ، ومنسا . قال : واستوثق ليوسف ملك مصر ، وعمل فيهم بالعدل فأحببه الرجال والنساء . وحكى أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة ، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة ، وفى كل ذلك يجاوبه بكل لغة منها ، فأعجبه ذلك مع حداثة سنه . فإله أعلم . قال الله تعالى : (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء) أى بعد السجن والضيق والحصار - صار مطلق الركاب بديار مصر ؛ (يتبوأ منها حيث يشاء) أى أين شاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً . (نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) ، أى هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن ، مع ما يدخر له فى آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل . ولهذا قال : (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) . ويقال إن إطفير زوج زليخا كان قد مات ، فولاه الملك مكانه وزوجه امرأته زليخا ، فكان وزير صدق . وذكر محمد بن إسحق أن صاحب مصر - الوليد بن الريان - أسلم على يدى يوسف عليه السلام . فإله أعلم . وقد قال بعضهم .

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به غاية الحزن

فلا تياسن ؛ فإله ملك يوسف خزانته بعد الخلاص من السجن

(وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون * ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ

(١) الأهراء : جمع هرى بالضم . قال فى القاموس : وهو بيت كبير يجمع فيه طعام الساطان (٢) قيل : كان رئيس الشرطة

لكم من أيكم ، ألا ترون أنى أوفى السكيل وأنا خير المنزلين * فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقرّبون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون * وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعالمهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعالمهم يرجعون) . يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية ، يتارون^(١) طعاما ، وذلك بعد إتيان سنى الجذب وعمومها على سائر البلاد والعباد . وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية دينا ودنيا . فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه ؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ماصار إليه يوسف عليه السلام من المسكنة والنظمة ، فاهذا عرفهم وهم له منكرون . وعند أهل الكتاب : أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم ، وأراد أن لا يعرفوه فأغظ لهم في القول ، وقال : أتم جواسيس ، جئتم لتأخذوا خير بلادي . فقالوا : معاذ الله ؛ إنما جئنا ننتار لقومنا من الجهد والجوع الذى أصابنا ، ونحن بنو أب واحد من كنعان ، ونحن اثنا عشر رجلا ذهب منا واحد ، وصغيرنا عند أبنينا ؛ فقال لا بد أن أستعلم أمركم . وعندهم : أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم ، واحتبس شمعون عنده لياتوه بالأخ الآخر ، وفي بعض هذا نظر .

قال الله تعالى : (فلما جهزهم بجهازهم) — أى أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته ؛ من إعطاء كل إنسان حمل بعير لايزيده عليه (قال اتوني بأخ لكم من أيكم) ، وكان قد سألم عن حالهم ، وكم هم ؟ فقالوا : كنا اثني عشر رجلا ، فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبنينا . فقال إذا قدمتم من العام للقبيل فأتوني به معكم (ألا ترون أنى أوفى السكيل وأنا خير المنزلين ؟) — أى قد أحسنت نزلكم وقراكم ، فرغبهم لياتوه به . ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال : (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقرّبون) أى فلست أعطيكم ميرة ، ولا أقرّبكم بالكلية — عكس ما أسدى إليهم أولا . فاجتهد في إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب . (قالوا سنراود عنه أباه) أى سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن . (وإنا لفاعلون) أى وإنا لقادرون على تحصيله . ثم أمر فتياناه أن يضموا بضاعتهم — وهى ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة — في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها (لعالمهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعالمهم يرجعون) . قيل أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم ، وقيل خشى أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية ، وقيل تدمم^(٢) أن يأخذ منهم عوضا عن الميرة . وقد اختلف المفسرون في بضاعتهم على أقوال سيأتى ذكرها . وعند أهل الكتاب : أنها كانت صرراً من ورق ، وهو أشبه . والله أعلم .

(فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا السكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون * قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فأنه خير حافظا وهو أرحم الراحمين * ولما فتحو

(١) أى يجلبونه . والميار : جالب الميرة وهى الطعام . (٢) أى استنكف .

متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا يا أبانا ما نبغى ؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ونحفظ أخاننا ، ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير * قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما تقول وكيل * وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا الله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم . وقولهم له : (منع منا الكيل) أى بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا ، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا . (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى ؟) أى أى شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا ؟ (ونمير أهلنا) أى نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومحلهم ، (ونحفظ أخاننا ونزداد) بسببه (كيل بعير) . قال الله تعالى : (ذلك كيل يسير) أى فى مقابلة ذهاب ولده الآخر . وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين ؛ لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه ، ويتعوض بسببه منه . فلماذا قال : (لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم) أى إلا أن تغلبوا كلمكم عن الإتيان به . (فلما آتوه موثقهم ، قال الله على ما تقول وكيل) . أكد المواثيق وقرر العهود ، واحتاط لنفسه فى ولده ، ولن يغنى حذر من قدر . ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة — لما بعث الولد العزيز ، ولكن الأقدار لها أحكام ، والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم .

ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد ، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة . قيل : أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين ، وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة وصورا بدیعة ، قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد ابن كعب وقتادة والسدى والضحاك . وقيل : أراد أن يتفرقوا العلمهم يجدون خيراً ليوسف أو يجدون عنه بائراً ، قاله إبراهيم النخعي . والأول أظهر . ولهذا قال : (وما أغنى عنكم من الله من شيء) ، وقال تعالى : (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء ، إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

وعند أهل الكتاب : أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل ، وأخذوا الدراهم الأولى وعرضا آخر ، (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون * فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم أذن مؤذناً أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ * قالوا نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم *

قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين * قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين * فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم علم عليم * قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شرمكانا والله أعلم بما تصفون * قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين * قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون .

يذكر تعالى : ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف ، وإيوانه إليه ، وإخباره له سرأ عنهم بأنه أخوه ، وأمره بكنم ذلك عنهم . وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه . ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم : فأمر فتياناه بوضع سقايته — وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام — عن غرة في متاع بنيامين ، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ، ووعدهم جملة على رده — حمل بعير ، وضمنه المنادى لهم . فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم ، و (قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين) . يقولون : أنتم تعلمون ماذا خلاف مارميتونا به من السرقة ، (قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين) . وهذه كانت شريعتهم : أن السارق يدفع إلى المسروق منه . ولهذا قالوا : (كذلك نجزي الظالمين) .

قال الله تعالى : (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه) ليكون ذلك أبعث للتهمة وأبلغ في الحيلة ، ثم قال الله تعالى : (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) أي لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه — لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر ، (إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء) أي في العلم (وفوق كل ذي علم عليم) . وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم ، وأنهم رأياً وأقوى عزمًا وحرماً ، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك ؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصاحبة عظيمة بعد ذلك : من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه . فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) — يعنون يوسف . قيل كان قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره . وقيل كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير — منطقة كانت لإسحق ، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت ، وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لحبها له . وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء . وقيل غير ذلك . فلماذا : (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه) وهي كفته بعدها ،

وقوله : (أتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون) أجابهم سرّاً لاجهراً ، حلماً وكرماً وصدقاً وشفواً ، فدخلوا معه في الترفق والتلطّف فقالوا : (يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً نخذ أحداً مكانه إنا نراك من المحسنين * قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون) أى إن أطلقنا المتهم وأخذنا البرىء ، وهذا مالا نفعه ولا نسمح به ، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده .

وعند أهل الكتاب : أن يوسف تعرف إليهم حينئذ ، وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جيداً . (فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ، قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبى ، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين * ارجعوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين * واسأل القرية التي كنا فيها ، والعرير التي أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون * قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم * وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم * قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين * قال إنما أشكوا بني وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون * يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تياسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

يقول تعالى — مخبراً عنهم لما استيأسوا من أخذه منه : خلصوا يتناجون فيما بينهم ، قال كبيرهم وهو روبيل : (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) ، لتأتنى به إلا أن يحاط بكم ؟ لقد أخلفتهم عهده ، وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله ، فلم يبق لي وجه أقبله به (فلن أبرح الأرض) أى لا أزال مقياً ههنا (حتى يأذن لي أبى) في القدوم عليه ، (أو يحكم الله لي) بأن يقدرني على رد أخى إلى أبى . (وهو خير الحاكمين * ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) أى أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة (وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين * واسأل القرية التي كنا فيها والعرير التي أقبلنا فيها) ، أى فإن هذا الذى أخبرناك به — من أخذهم أخانا لأنه سرق — أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك . (وإنا لصادقون * قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) أى ليس الأمر كما ذكرتم ، لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا خلقه ، وإنما (سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل) .

قال ابن إسحق وغيره : لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتباً على صنيعهم في يوسف — قال لهم ما قال . وهذا كما قال بعض السلف : إن من جزاء السيئة السيئة بعدها . ثم قال : (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً) يعنى يوسف وبنيامين وروبييل ، (إنه هو العليم) أى بحالى وما أنا فيه من فراق الأجابة

(الحكيم) فيما يقدره ويفعله ، وله الحكمة البالغة والحجة القاطمة (وتولى عنهم) أى أعرض عن بنيه (وقال يأسفى على يوسف) ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم ، وحرك ما كان كامناً . كما قال بعضهم :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر : لقد لامنى عند القبور على البكا رقيقى لتذراف الدموع السوافك

فقال : أتبكي كل قبر رأيتہ ؟ لقبر نوى بين اللوى فالدكادك^(١)

فقلت له : إن الأسى يبعث الأسى فدعنى ، فهذا كله قبر مالك

وقوله : (و ابيضت عيناه من الحزن) أى من كثرة البكاء ، (فهو كظيم) أى مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف . فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق - (قالوا) له على وجه الرحمة والرأفة به والحرص عليه : (تالله تفتنوا تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين) . يقولون : لاتزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك ، فلورفتت بنفسك كان أولى بك . (قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لاتعلمون) . يقول لبنيه : لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه ، إنما أشكو إلى الله عز وجل ، وأعلم أن الله سيجعل لى مما أنا فيه فرجا ومخرجاً ، وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع ، ولابد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى . ولهذا قال : (وأعلم من الله ما لاتعلمون) .

ثم قال لهم محرصاً على تطلب يوسف وأخيه ، وأن يبحثوا عن أمرهما : (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تياسوا من روح الله ، إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون) - أى لا تياسوا من الفرج بعد الشدة ، فإنه لا يياس من روح الله وفرجه ، وما يقدره من الخرج فى المضايق - إلا القوم الكافرون (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزى المتصدقين * قال هل علمتم ما علمتم بيوسف وأخيه إذ أتتم جاهلون * قالوا أأنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى ، قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آترك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لاتشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين * اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً ، وأنونى بأهلكم أجمعين) .

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدمهم عليه ، ورجبتهم فيما لديه من الميرة ، والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم . (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أى من الجذب وضيق

(١) اللوى : ما التوى من الرمل ، أو مسترقه . والدكادك : جمع دكدك ودكدك : ما نكس واستوى من الرمل ، وما تلبد بعضه على بعض بالأرض ولم يرتفع كثيراً .

الحال وكثرة العيال ، (وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنا . قيل كانت دراهم رديئة ، وقيل قليلة ، وقيل حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك . وعن ابن عباس : كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك . (فأوف لنا السكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين) . قيل بقبولها ، قاله السدى . وقيل برد أخينا إلينا ، قاله ابن جريج . وقال سفيان بن عيينة : إنما حرم الصدقة على نبينا محمد ﷺ ونزع بهذه الآية ، رواه ابن جرير . فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال - تعرف إليهم وعطف عليهم ، قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم ، وقد حسر لهم عن جبينه الشريف ، وما يحويه من الخال الذى يعرفون فيه : (هل علمتم ما علمتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ قالوا) وتعجبوا كل العجب ، وقد ترددوا إليه مراراً عديدة وهم لا يعرفون أنه هو : (أنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى) - يعنى أنا يوسف الذى صنعتم معه ما صنعتم ، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم . وقوله : (وهذا أخى) - تأكيد لما قال ، وتنبية على ما كانوا أضمروا لها من الحسد ، وعملوا فى أمرها من الاحتيال . ولهذا قال : (قد من الله علينا) أى بإحسانه إلينا وصدقته علينا ، وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا . وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا ، وصبرنا على ما كان منكم إلينا ، وطاعتنا وربنا لأيننا ، ومحبتة الشديدة لنا وشفقتة علينا . (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ؟ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أى فضلك وأعطاك مالم يعطنا ، (وإن كنا لخاطئين) أى فيما أسدينا إليك ، وهانحن بين يديك . (قال لا تثريب عليكم اليوم) أى لست أعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا . ثم زادهم على ذلك فقال : (يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) . ومن زعم أن الوقف على قوله لا تثريب عليكم ، وابتدأ بقول اليوم يغفر الله لكم - فقوله ضعيف والصحيح الأول .

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه - وهو الذى يلي جسده - فيضعوه على عيني أبيه ، فإنه يرجع إليه بصره - بعد ما كان ذهب - بإذن الله . وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات . ثم أمرهم أن يتحملوا^(١) بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر ، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة ، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور . (فلما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ؟ قالوا تالله إنك لنى ضلالك القديم ؟ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ، قال ألم أقل لكم لنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ؟ قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) .

قال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل قال : سمعت ابن عباس يقول : (فلما فصلت العير) قال : لما خرجت العير هاجت ريح ، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف

فقال : (إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) . قال فوجد ريح من مسيرة ثمانية أيام . وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي سنان به . وقال الحسن البصري وابن جريج المسكي : كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخاً ، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة . وقوله : (لولا أن تفندون) أى تقولون إنما قلت هذا من الفند - وهو الخرف وكبر السن . قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : تفندون - تسفهون . وقال مجاهد أيضاً والحسن : تهرمون . (قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم) قال قتادة والسدى : قالوا له كلمة غليظة . قال الله تعالى : (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً) أى بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب ، فرجع من فوره بصيراً بعد ما كان ضريباً . وقال ابنه عند ذلك : (ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون) أى أعلم أن الله سيجمع شملى بيوسف ، وستقر عيني به ، وسيربني فيه ومنه مايسرنى . فعند ذلك (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) . طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه ، وما كانوا عزموا عليه . ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل - وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم . فأجابهم أبوه إلى ما سألوا ، وما عليه عولوا قائلاً : (سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) .

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر . قال ابن جرير : حدثني أبو السائب ، حدثنا ابن إدريس قال : سمعت عبد الرحمن بن إسحق يذكر عن محارب ابن دنار قال : كان عمى لى يأتى المسجد فسمع إنساناً يقول : (اللهم دعوتنى فأجبت ، وأمرتنى فأطعت ، وهذا السحر فأغفرلى) . قال : فاستمع إلى الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله : (سوف أستغفر لكم ربى) . وقد قال الله تعالى : (والمستغفرين بالأسحار) . وثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : هل من تائب فاتوب عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟) . وقد ورد فى حديث : (أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة) .

قال ابن جرير : حدثنى المثنى ، قال : حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقى ، حدثنا الوليد ، أنبأنا ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ (سوف أستغفر لكم ربى) يقول : « حتى تأتى ليلة الجمعة ، وهو قول أخى يعقوب لبنيه » . وهذا غريب من هذا الوجه ، وفى رفعه نظر . والأشبه أن يكون موقوفا على ابن عباس رضى الله عنه .

(فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين * ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ؛ قد جعلها ربى حقاً ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ، إن

ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم : رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفي مسلماً وألحقني بالصلحين) .

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة ، التي قيل إنها ثمانون سنة ، وقيل ثلاث وثمانون سنة - وهما روايتان عن الحسن . وقيل خمس وثلاثون سنة ، قاله قتادة . وقال محمد بن إسحاق : ذكروا أنه غاب عنه ثمانى عشرة سنة . قال : وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة . وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريباً ؛ فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة - فيما قاله غير واحد - فامتنع . فكان في السجن بضع سنين ؛ وهى سبع عند عكرمة وغيره . ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع . ثم لما أحل الناس في السبع البواقى - جاء إخوته يمتارون في السنة الأولى وخدمهم ، وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين ، وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين ، فجاءوا كلهم ، (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) واجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون إخوته ، (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) . قيل هذا من المقدم والمؤخر ؛ تقديره : ادخلوا مصر وآوى إليه أبويه . وضعفه ابن جرير وهو معذور . قيل تلقاهما وآواهما في منزل الخيام ، ثم لما اقتربوا من باب مصر - (قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) ، قاله السدى . ولو قيل إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضاً ، وإنه ضمن قوله ادخلوا : معنى اسكنوا مصر ، أو أقيموا بها ، (إن شاء الله آمنين) - لكان صحيحاً مليحاً أيضاً .

وعند أهل الكتاب : أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر - وهى أرض بلبس - خرج يوسف لتلقيه ، وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشراً بقدمه . وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر ؛ يكونون فيها ، ويقيمون بها بنعمهم ومواسيهم . وقد ذكر جماعة من المفسرين : أنه لما أذف قدوم نبي الله يعقوب - وهو إسرائيل - أراد يوسف أن يخرج لتلقيه ، فركب معه الملك وجنوده ؛ خدمة ليوسف وتعظيماً لنبي الله « إسرائيل » . وأنه دعا للملك ، وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سنى الجذب ببركة قدومه إليهم . فالله أعلم .

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم - فيما قاله أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود - ثلاثة وستين إنساناً . وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن عبد الله بن شداد : كانوا ثلاثة وثمانين إنساناً . وقال أبو إسحاق عن مسروق : دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون إنساناً . قالوا : وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل . وفي نص أهل الكتاب : أنهم كانوا سبعين نفساً وسموهم .

قال الله تعالى : (ورفع أبويه على العرش) قيل : كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة . وقال بعض المفسرين : أحيهاها الله تعالى . وقال آخرون : بل كانت خالته « ليا » والخاللة بمنزلة الأم . وقال ابن جرير وآخرون : بل ظاهر القرآن يقتضى بقاء حياة أمه إلى يومئذ ، فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه . وهذا قوى والله أعلم . ورفعهما على العرش — أى أجلسهما معه على سريريه ، (وخروله سجدا) — أى سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر ؛ تعظيما وتكريما . وكان هذا مشروعا لهم ، ولم يزل ذلك معمولا به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا . (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) — أى هذا تعبير ما كنت قصصته عليك : من رؤيتي الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر ، حين رأيتهم لى ساجدين ، وأمرتني بكتماها ، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ^(١) . (قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن) أى بعداهم والضيق — جعلنى حاكما نافذا الكلمة في الديار المصرية حيث شئت . (وجاء بكم من البدو) أى البادية . وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل (من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى) أى فيما كان منهم إلى من الأسر الذى تقدم وسبق ذكره . ثم قال : (إن ربى لطيف لماء يشاء) — أى إذا أراد شيئا هيا أسبابه ، ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدى إليها العباد ، بل يقدرها ويسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته . (إنه هو العليم) أى بجميع الأمور (الحكيم) فى خلقه وشرعه وقدره .

وعند أهل الكتاب : أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذى كان تحت يده — بأموالهم كلها ؛ من الذهب والفضة ، والعقار والأثاث ، وما يملكونه كله ، حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء . ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ، ويكون خمس ما يستغلون من زرعهم وثمارهم — للملك ، فصارت سنة أهل مصر بعده . وحكى الثعلبى : أنه كان لا يشبع فى تلك السنين ، حتى لا ينسى الجيعان ، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار . قال : فمن ثم اقتدى به الملوك فى ذلك . قلت : وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — لا يشبع بطنه عام الرمادة ، حتى ذهب الجذب وأتى الخصب . قال الشافعى : قال رجل من الأعراب لعمر بعد ما ذهب عام الرمادة : « لقد انجملت عنك وإنك لابن حرة » .

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت ، وشمله قد اجتمع — عرف أن هذه الدار لا يقربها قرار ، وأن كل شىء فيها ومن عليها فان ، وما بعد التمام إلا النقصان . فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله ، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله ، وسأل منه — وهو خير المسئولين — أن يتوفاه ، أى حين يتوفاه

(١) جاء فى الطبرى من روايات كثيرة : أنه كان بن رؤيا يوسف وتاويلها — أربعون سنة ، وقيل : ثمان

على الإسلام ، وأن يلحقه بعباده الصالحين ، وهكذا كما يقال في الدعاء : « اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين » أي حين تتوفانا .

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام ، كما سأل النبي ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملائكة والرُفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين : كما قال : « اللهم في الرفيق الأعلى ثلاثاً — ثم قضى » . ويحتمل أن يوسف عليه السلام : سأل الوفاة على الإسلام منجزاً في صحة بدنه وسلامته ، وأن ذلك كان سائغاً في ملتهم وشرعتهم ؛ كما روى عن ابن عباس أنه قال : ما منى نبي قط الموت قبل يوسف . فأما في شر يعتنا فقد نهى عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن ؛ كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد : « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين » . وفي الحديث الآخر : « ابن آدم ، الموت خير لك من الفتنة » . وقالت مريم عليها السلام : (ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) . وتبنى الموت على بن أبي طالب ، لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال ، وكثر القليل والقال . وتمنى ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب الصحيح ، لما اشتد عليه الحال ولقى من مخالفه الأهوال .

فأما في حال الرفاهية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إما محسناً فله يزداد ، وإما مسيئاً فله يستعقب . ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » . والمراد بالضر ههنا — ما يخص العبد في بدنه ؛ من مرض ومحوه ، لا في دينه . والظاهر أن نبي الله يوسف عليه السلام سأل ذلك : إما عند احتضاره ، أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك .

وقد ذكر ابن إسحق عن أهل الكتاب : أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ، ثم توفي عليه السلام . وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحق . قال السدي : فصبره وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحق وجده الخليل عليهم السلام .

وعند أهل الكتاب : أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة . وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة ، ومع هذا قالوا : فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة . هذا نص كتابهم وهو غلط : إما في النسخة أو منهم ، أو قد أسقطوا الكسر وليس بعبادتهم فيما هو أكثر من هذا ، فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا ؟ وقد قال تعالى في كتابه العزيز : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون) ، يوصى بنيه بالإخلاص وهو دين الإسلام الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام .

وقد ذكر أهل الكتاب : أنه أوصى بنيه واحداً واحداً ، وأخبرهم بما يكون من أمرهم ، وبشر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله تطيعه الشعوب - وهو عيسى بن مريم . والله أعلم .

وذكروا : أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوماً ، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوماً . ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله - فأذن له ، وخرج معه أكبر مصر وشيوخها . فلما وصلوا حبرون دفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثي ، وعملوا له عزاء سبعة أيام . قالوا ثم رجعوا إلى بلادهم ، وعزى إخوة يوسف - يوسف في أبيهم ، وترفقوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم ، فأقاموا ببلاد مصر . ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة ، فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه . فخطوه ووضعوه في تابوت ، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام ، فدفنه عند آبائه كما سيأتي . قالوا : فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين . هذا نصهم فيما رأيتهم وفيما حكاه ابن جرير أيضاً . وقال مبارك ابن فضالة عن الحسن : ألقى يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة . وقال غيره : أوصى إلى أخيه يهوذا ، صلوات الله عليه وسلامه .

قصة أيوب « عليه السلام »

قال ابن إسحق : كان رجلاً من الروم . وهو أيوب بن موص بن زراح بن العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل ، وقال غيره : هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحق بن يعقوب ، وقيل غير ذلك في نسبه . وحكى ابن عساکر أن أمه بنت لوط عليه السلام ، وقيل كان أبوه من آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقى في النار فلم تحرقه . والمشهور الأول ؛ لأنه من ذرية إبراهيم ، كما قررنا عند قوله تعالى : (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون . . .) الآيات - من أن الصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام .

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب . . .) الآية . فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحق . وامرأته قيل : اسمها « ليا » بنت يعقوب ، وقيل رحمة بنت افرايم ، وقيل ليا بنت منسا بن يوسف بن يعقوب . وهذا أشهر فلهمذا ذكرناه هاهنا . ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

قال الله تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا

مأبه من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين^(١) وقال في سورة ص : (واذكروا عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغسسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب * وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تمنث ، إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) . وروى ابن عساكر من طريق السكاكي أنه قال : أول نبي بعث لإدريس ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل ، ثم إسحق ، ثم يعقوب ، ثم يوسف ، ثم لوط ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم شعيب ، ثم موسى وهرون ، ثم إلياس ، ثم اليسع ، ثم عرفى^(٢) بن سوبانخ بن افرائيم ابن يوسف بن يعقوب ، ثم يونس بن متى من بنى يعقوب ، ثم أيوب بن زراح^(٣) بن آموص بن ليفرز ابن العيص بن إسحق بن إبراهيم . وفي بعض هذا الترتيب نظر ؛ فإن هوداً وصالحاً — المشهور أنهما بعد نوح وقبل إبراهيم . والله أعلم .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم : كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه ؛ من الأنعام والعييد والمواشى ، والأراضى المنتسعة بأرض الثانية من أرض حوران . وحكى ابن عساكر : أنها كلها كانت له . وكان له أولاد وأهلون كثير فسلم منه ذلك جميعه ، وابتلى في جسده بأنواع البلاء ، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر الله عز وجل بهما . وهو في ذلك كله صابر محتسب ، ذاكر الله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومساءه . وطال مرضه حتى عافه الجليس ، وأوحش منه الأئيس ، وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها ، وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ؛ كانت ترعى له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها . فكانت تتردد إليه فتصاح من شأنه ، وتعينه على قضاء حاجته ، وتقوم بمصلحته . وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر ؛ لتطعمه وتقوم بأوده ، رضى الله عنها وأرضاها ، وهى صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد ، وما يختص بهما من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد وخدمة الناس ، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمه . فإننا لله وإنا إليه راجعون .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمتل فالأمتل » ، وقال : « بيتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابه زيد في بلائه » . ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام — إلا صبراً واحتساباً وهدماً وشكراً ؛ حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ، ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا . وقد روى عن وهب ابن منبه وغيره من علماء بنى إسرائيل في قصة أيوب — خبر طويل ؛ في كيفية ذهاب ماله وولده ، وبلائه في جسده . والله أعلم بصحته . وعن مجاهد أنه قال : كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدري . وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال : فزعم وهب

أنه ابتلى ثلاث سنين لاتزيد ولا تنقص ، وقال أنس : ابتلى سبع سنين وأشهرأ ، وألقى على مزبلة لبني إسرائيل مختلف الدواب في جسده ، حتى فرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه . وقال حميد : مكث في بلواه ثمانية عشرة سنة ، وقال السدي : تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب ، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته ، فلما طال عليها قالت : يا أيوب ؛ لو دعوت ربك لفرج عنك ، فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحاً ، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ؟ فجزعت من هذا الكلام ، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام .

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها ، لعلمهم أنها امرأة أيوب ؛ خوفاً أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته ، فلما لم تجد أحداً يستخدمها — عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيريتهما بطعام طيب كثير ، فأنت به أيوب ، فقال من أين لك هذا ؟ وأنكره ، فقالت خدمت به أناساً . فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأنته به ، فأنكره أيضاً ، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام ؟ فكشفت عن رأسها خاوها ، فلما رأى رأسها محلوفاً قال في دعائه : رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلامة ، حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان ، فجاء يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه . فقاما من بعيد ، فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم من أيوب خيراً — ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولها جزعاً لم يجزع مثله من شيء قط ، فقال : اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شماناً وأنا أعلم مكان جائع فصدقتي ، فصدق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قيصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقتي ، فصدق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم بعزتك وخر ساجداً ، فقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتى كشف عنه ^(١) .

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له ؛ كانا يقدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه : وما ذلك ؟ قال منذ ثمانى عشر سنة لم يرحمه ربه فيكشف مابه ، فلما راحا إليه لم يبصر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول ؟ غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر

(١) لا يقال إن ما ذكر من بلاء أيوب بتناق ومنصب النبوة ، وقد قرر علماء التوحيد أن الأنبياء منزّهون عن الأمراض المنفرة — فإن هذا الابتلاء ؛ إما أن يكون قبل النبوة ، أو أنه مبالغ فيه ، فقد نقل عن أهل الكتاب وهو يحتمل التأويل لأن صح .

على الرجلين يفتنازعان ، فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما ، كراهية أن يذكر الله إلا في حق . قال : وكان يخرج في حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه ، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه : أن (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) ، فاستبظأته فنلقته تنظر ، وأقبل عليها قد أذهب الله مابه من البلاء ، وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ! هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ؟ فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً . قال : فإني أنا هو . قال : وكان له أندران^(١) : أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سبحانه فيهما ، فلما كانت إحداها على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض . هذا لفظ ابن جرير ، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حرملة عن ابن وهب به . وهذا غريب رفمه جداً ، والأشبه أن يكون موقوفاً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، أنبأنا علي بن زيد عن يوسف ابن مهران عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلة من الجنة فتزحى أيوب وجلس في ناحية ، فجاءت امرأته فلم تعرفه ، فقالت يا عبد الله : أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئب ، وجعلت تكلمه ساعة ، فقال : ويحك أنا أيوب ، قالت أنسخر مني يا عبد الله ؟ فقال ويحك أنا أيوب قد رد الله على جسدي . قال ابن عباس : ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ، ومثلهم معهم .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إليه : « قدر ددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك ، وقرب عن صحابتك قربانا ، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك » . رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لما عافى الله أيوب عليه السلام - أمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده ويجعل في ثوبه ، قال : فقيل له يا أيوب أما تشبع ؟ قال : يارب ومن يشبع من رحمتك ؟ » . وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي داود الطيالسي ، وعبد الصمد عن همام عن قتادة به . ورواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد الأردني عن إسحاق بن راهويه عن عبد الصمد به . ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب ، وهو على شرط الصحيح . فأنه أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة : « أرسل على أيوب رجل^(٢) من جراد من ذهب ، فجعل يقبضها في ثوبه ، فقيل يا أيوب : ألم يكفك ما أعطيناك ؟ قال أي رب : ومن يستغنى عن فضلك » . هذا موقوف . وقد روى عن أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة ،

(١) الأندر : البيدر ، وجمعه أنادر . (٢) الرجل بالكسر : الطائفة من الشيء والجماعة ، العظيمة من الجراد .

قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل أيوب يبحى^(١) في ثوبه . فناداه ربه عز وجل : يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك » ، رواه البخارى من حديث عبد الرزاق به .

وقوله : (اركض برجلك) أى اضرب الأرض برجلك . فامتثل ما أمر به ، فأنيب الله له عيناً باردة الماء ، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى ، والسقم والمرض ، الذى كان فى جسده ظاهراً وباطناً . وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة ، وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً ؛ حتى صب له من المال صبا — مطراً عظيماً جراداً من ذهب . وأخلف الله له أهله ، كما قال تعالى : (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) فقيل أحياهم الله بأعيانهم ، وقيل آجره فيمن سلف ، وعوضه عنهم فى الدنيا بدلهم ، وجمع له شمله بكلهم فى الدار الآخرة . وقوله : (رحمة من عندنا) أى رفعنا عنه شدته ، وكشفنا مابه من ضر رحمة منا به ورأفة وإحساناً . (وذكرى للعابدين) أى تذكرة لمن ابتلى فى جسده أو ماله أو ولده ، فله أسوة بنبي الله أيوب ؛ حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه . ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال : هى «رحمة» من هذه الآية — فقد أبعده النجمة وأغرق النزع . وقال الضحاك عن ابن عباس : رد الله إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرين ولداً ذكراً .

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الخنيفية ، ثم غيروا بعده دين إبراهيم . وقوله : (وخذ بيدك ضعفاً فاضرب به ولا تحث ، إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام ، فيما كان من حلفه — ليضربن امرأته مائة سوط . فقيل حلفه ذلك لبيعها ضعفاً لها ، وقيل لأنه عارضها الشيطان فى صورة طبيب يصف لها دواء لأيو ب ، فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان ، فحلف ليضربنها مائة سوط . فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضعفاً — وهو كالعشكال^(٢) الذى يجمع الشماريخ — فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ، ويسكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط ، ويبر ولا يحث . وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ، ولا سيما فى حق امرأته الصابرة الختسية ، المكابدة الصديقة البارة الراشدة — رضى الله عنها . ولهذا عقب الله الرخصة وعللها بقوله : (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) . وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة فى باب الأيمان والندور ، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل فى الخلاص من الأيمان ، وصدروه بهذه الآية الكريمة ، وأتوا فيه بأشياء من العجائب والفرائب . وسنذكر طرفاً من ذلك فى كتاب الأحكام ، عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى .

(١) يأخذ بيديه : (٢) العشكال : العنق والفنو من النخلة ، وكل غصن له شعب .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ: أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة، وقيل إنه عاش أكثر من ذلك. وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه: أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء، رواه ابن عساكر بمعناه. وأنه أوصى إلى ولده « حومل »، وقام بالأمر بعده ولده « بشر » ابن أيوب، وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه « ذو الكفل » فأنه أعلم. ومات ابنه هذا وكان نبياً فيما يزعمون. وكان عمره من السنين خمساً وسبعين. ولنذكر ههنا قصة ذي الكفل؛ إذ قال بعضهم: إنه ابن أيوب عليهما السلام. وهذه هي.

قصة ذي الكفل الذي زعم قوم أنه ابن أيوب

قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء: (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من للصابرين * وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين)^(١) وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضاً في سورة ص: (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وإناهم عندنا لمن للمصطفين الأخيار * واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار)^(٢) فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء - أنه نبي، عليه من ربه الصلاة والسلام. وهذا هو المشهور. وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً، وإنما كان رجلاً صالحاً وحكماً مقسطاً عادلاً. وتوقف ابن جرير في ذلك، فأنه أعلم.

وروى ابن جرير وأبو نجیح عن مجاهد: أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً. وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم، ويقضى بينهم بالعدل، فسمى ذا الكفل^(٣). وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند عن مجاهد أنه قال: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي، حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس فقال: من يتقبل مني بثلاث أستخلفه؛ يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يفضب. قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال أنا. فقال: أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تفضب؟ قال نعم. قال: فرد ذلك اليوم، وقال مثلها في اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال أنا، فاستخلفه. قال: فجعل إبليس يقول للشياطين عليكم بفلان، فأعيام ذلك. فقال دعوني وإياه، فأناه في صورة شيخ كبير فقير، وأناه حين أخذ مضجعه للقائلة - وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النوم - فدق الباب فقال من هذا؟ قال شيخ كبير مظلوم. قال: فقام ففتح الباب

(٢) الآيات: ٤٥ - ٤٨ .

(١) الآيتان: ٨٥ ، ٨٦ .

(٣) الكفل: الحظ والنصيب، والضعف من الأجر والإثم. قال الألويسي: وإطلاق ذلك عليه - إن لم يكن اسمه - لما لأنه تكفل بأمر فوق به، ولما لأنه كان ذا حظ من الله، وقيل لأنه كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف توابعهم.

فجعل يقص عليه ، فقال إن بيني وبين قومي خصومة ، وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا ، وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة . فقال إذا رحمت فأنتي آخذ لك بحقك . فانطلق وراح فسكان في مجلسه ، فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره ، فقام يتبعه . فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس و ينتظره فلا يراه ، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه . - أتاه فدق الباب ، فقال من هذا ؟ فقال الشيخ الكبير المظلوم ، ففتح له . فقال ألم أقل لك إذا قعدت فأنتي ؟ قال إنهم أخبث قوم ، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك ، وإذا قت جحدوني . قال فانطلق فإذا رحمت فأنتي ، قال ففاتته القائلة ، فراح فجعل ينتظره فلا يراه ، وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله : لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام ، فإن قد شق على النوم . فلما كان تلك الساعة جاء ، فقال له الرجل ورائك ورائك . فقال إني قد أتيت أمس و ذكرت له أمرى ، فقال : لا والله ، لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه . فلما أعياه نظر فرأى كوة^(١) في البيت فتسور منها ، فإذا هو في البيت ، وإذا هو يدق الباب من داخل . قال فاستيقظ الرجل ، فقال يا فلان ألم آمرك ؟ قال أما من قبلي والله فلم تؤت ، فانظر من أين أتيت ؟ قال : فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه . فقال أعدوا لله ؟ قال نعم . أعيتني في كل شيء ، ففعلت ما ترى لأغضبك . فسماه الله ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمر فوفى به .

وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس قريباً من هذا السياق ، وهكذا روى عن عبد الله ابن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجرية الأكبر وغيرهم من السانف نحو هذا . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الجاهر ، أنبأ ناسع بن بشير ، حدثنا قتادة عن كنانة بن الأخنس قال : سمعت الأشعري - يعني أبا موسى رضي الله عنه - وهو على هذا المنبر يقول : ما كان ذو الكفل نبياً ، ولكن كان رجلاً^(٢) صالح يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة ، فسمى ذا الكفل . ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق عن معمر بن قتادة . قال : قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا الأعمش عن عبد الله ابن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال : سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لولم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرات - لم أحدث به ، ولكني قد سمعته أكثر من ذلك قال : « كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يبطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من أمره - أرعدت وبكت ، فقال لها ما يبكيك ؟ أأ كرهتكم ؟ قالت لا . ولكن هذا عمل لم أعمله قط ، وإنما حملتني عليه الحاجة ، قال : فتفعلين هذا ولم تفعلينه قط ! ثم نزل فقال اذهبي بالدنانير لك . ثم قال : والله لا يعصى الله الكفل أبداً ، فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه : قد غفر

(١) الكوة ويضم ، والكوة : الخرق في الحائط . أو التأنيت للصغير والتذكير للكبير .

(٢) يعني في بني إسرائيل .

الله للكفل ، ورواه الترمذى من حديث الأعمش به وقال حسن ، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر — فهو حديث غريب جداً . وفي إسناده نظر ؛ فإن سعدا هذا — قال أبو حاتم — لا أعرفه إلا بحديث واحد . ووثقه ابن حبان ، ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازى هذا . فالله أعلم . وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكفل ، وإنما لفظ الحديث — الكفل من غير إضافة^(١) فهو رجل آخر غير المذكور في القرآن . فالله أعلم .

باب ذكر أمم أهلكوا بعامه

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى . . . الآية^(٢)) . كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار من حديث عوف الأعرابي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدرى قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء أو من الأرض — بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض — غير القرية التى مسخوها قرده . ألم تر أن الله تعالى يقول : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) ، ورفع البزار فى رواية له . والأشبه والله أعلم وقفه . فدل على أن كل أمة أهلكت بعامه — قبل موسى عليه السلام .

فمنهم أصحاب الرس ، قال الله تعالى فى سورة الفرقان : (وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيراً * وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تمييزاً^(٣)) . وقال تعالى فى سورة ق : (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل لحق وعيد) . وهذا السياق الذى قبله ، يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا — وهو الهلاك . وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا فى سورة البروج ؛ لأن أولئك عند ابن إسحق وجماعة — كانوا بعد المسيح عليه السلام . وفيه نظر أيضاً .

وروى ابن جرير قال قال ابن عباس : أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود . وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر فى أول تاريخه ، عند ذكر بناء دمشق — عن تاريخ أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن جرداد^(٤) وغيره — أن أصحاب الرس كانوا بحضور^(٥) ، فبعث الله إليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان ، فكذبوه وقتلوه . فسار عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرس ، فنزل الأحقاف . وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا فى اليمن كلها ، وفشوا مع ذلك فى الأرض كلها . حتى نزل جيرون ابن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح — دمشق وبنى مدينتها ، وسماها جيرون — وهى إرم ذات العماد . وليس أعمدة الحجارة فى موضع أكثر منها — بدمشق ، فبعث الله هود بن عبد الله بن

(١) ذكر القرطبي هذا الحديث وفيه : ذو الكفل . (٢) الآية ٤٢ : من سورة القصص .

(٣) الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ . (٤) قوله عبد الله بن جرداد — كذا فى النسخ ، والمعروف ابن جرداد .

(٥) فى القاموس : حضور كصبور : جبل ، وبلد باليمن .

رباح بن خالد بن الحلود بن عاد ، إلى عاد — يعني أولاد عاد بالأحقاف — فكذبوه ، وأهلكم الله عز وجل . فهذا يقتضى أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة فالله أعلم . وروى ابن أبي حاتم عن ابن بكر بن أبي عاسم ، عن أبيه عن شبيب بن بشر ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : الرس بئر بأذربيجان . وقال الثوري عن أبي بكر عن عكرمة قال : الرس بئر رسوا فيها نبيهم — أى دفنوه فيها وقال ابن جريج قال عكرمة : أصحاب الرس بفالج وهم أصحاب يس . وقال قتادة : فليج من قرى اليمامة . قلت فإن كانوا أصحاب يس كما زعمه عكرمة — فقد أهلكوا بعمامة ؛ قال الله تعالى في قصتهم : (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) وستأتى قصتهم بعد هؤلاء ، وإن كانوا غيرهم — وهو الظاهر — فقد أهلكوا أيضاً وتبروا . وعلى كل تقدير فينابى ما ذكره ابن جرير .

وقد ذكر أبو بكر محمد ابن الحسن النقاش : أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويههم وتكفى أرضهم جميعها ، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة ، فلما مات وجدوا عليه وجدا عظيما ، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته وقال : إني لم أمت ، ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم . ففرحوا أشد الفرح ، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه ، وأخبرهم أنه لا يموت أبداً ، فصدق به أكثرهم ، وافتتنوا به وعبدوه . فبعث الله فيهم نبياً ، فأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ، ونهاهم عن عبادته ، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له .

قال السهيلي : وكان يوحى إليه في النوم ، وكان اسمه حفظة بن صفوان ، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر ، فغار ماؤها وعطشوا بعد ريههم ، وبيست أشجارهم ، وانقطعت ثمارهم ، وخرت ديارهم . وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة ، وبعد الاجتماع بالفرقة ، وهلكوا عن آخرهم ، وسكن في مساكنهم الجن والوحوش ، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسد وصوت الضباع . فأما مارواه — أعنى ابن جرير — عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحق عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود » ، وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئراً فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم ، قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه و يشتري به طعاماً وشراباً ، ثم يأتي به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ويدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردّها كما كانت ، قال : فكان كذلك ما شاء الله أن يكون . ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتلمها وجد سنة ، فاضطجع فنام ، فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً . ثم إنه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر ، فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب واحتلم حزمته ولا يحسب أنه نام .

إلا ساعة من نهار ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم إنه ذهب إلى الحفيرة — إلى موضعها الذي كانت فيه ، فالتمس فلم يجده . وقد كان بدا لقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه . قال فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ، فيقولون له ما ندرى ؟ حتى قبض الله النبي عليه السلام وهب الأسود من نومته بعد ذلك فقال رسول الله ﷺ : « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » . — فإنه ^(١) حديث مرسل ومثله فيه نظر . ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظي ، والله أعلم .

ثم قدره ابن جرير نفسه ، وقال لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون في القرآن ، قال : لأن الله أخبر عن أصحاب الرس : أنه أهلكتهم ، وهؤلاء قد بدلهم فأمنوا بنبيهم . اللهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم . والله أعلم . ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف ؛ لما تقدم — ولما ذكر في قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا ، ولم يذكر هلاكهم ، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس . والله أعلم .

قصة قوم «يس» ومنهم أصحاب القرية أصحاب يس

قال الله تعالى : (واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم ، لأن لم تنتهوا لرجنكم ولميسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أن ذكركم بل أنتم قوم مسرفون * وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون * وما لي لأعبد الذي فطرني وإليه ترجعون * أتأخذ من دونه آلهة ؟ إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إني إذا لفي ضلال مبين * إني آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال : يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعاني من المكرمين * وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) ^(٢) .

اشتهر عن كثير من السلف والخلف — أن هذه القرية «أنطاكية» . رواه ابن إسحق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه . وكذا روى عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهري وغيرهم . قال ابن إسحق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب — أنهم قالوا : وكان لها ملك اسمه أنطيوخس ابن أنطيوخس وكان يعبد الأصنام . فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم : صادق ومصدوق ^(٣) ، وشلوم ، فكذبهم ، وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل . وزعم قتادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح . وكذا قال

(١) قوله : فإن حديث مرسل — جواب قوله : فأما ما رواه ابن جرير .

(٢) الآيات : ١٣ — ٢٩ من سورة يس (٣) في نسخة : وصدق .

ابن جرير عن وهب عن ابن سليمان عن شعيب الجبائي : كان اسم المرسلين الأولين : شمعون ، ويوحنا ، واسم الثالث - بولس ، والقرية أنطاكية . وهذا القول ضعيف جداً ؛ لأن أهل أنطاكية لمابعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين - كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت . ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكون فيها بتاركة^(١) النصرى . وهن : أنطاكية ، والقدس ، واسكندرية ، ورومية . ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا . وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن - أهلكوا ، كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين : (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) . لكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن ، بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً فكذبوهم وأهلكهم الله ، ثم عمرت بعد ذلك ، فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم - فلا يمنع هذا . والله أعلم .

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح - فضعيف لما تقدم ؛ ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضى أن هؤلاء الرسل من عند الله . قال الله تعالى : (واضرب لهم مثلاً) - يعنى لقومك يا محمد (أصحاب القرية) يعنى المدينة (إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث) أى أيدناها بثالث في الرسالة ، (فقالوا إنا إليكم مرسلون) ، فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم ؛ كما قالت الأمم الكافرة لرسولهم ، يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً . فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام . (وما علينا إلا البلاغ المبين) - أى إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، والله هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء . (قالوا إنا تطيرنا بكم) أى تشاء منا بما جئتمونا به ، (لئن لم تنتهوا لنرجنكم) بالمقال ، وقيل بالفعال . ويؤيد الأول قوله : (ولئسنكم منا عذات أليم) فوعدهم بالقتل والإهانة . (قالوا طائركم معكم) - أى مردود عليكم (إن ذكرتم ؟) أى بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعونناكم إليه - توعدتمونا بالقتل والإهانة ؟ (بل أنتم قوم مسرفون) أى لا تقبلون الحق ولا تريدونه .

وقوله تعالى : (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) يعنى لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم . قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) أى يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجر ولا جمالة^(٢) ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن عبادة ماسواه ، مما لا ينفع شيئاً لافى الدنيا ولا فى الآخرة . (إني إذا لني ضلال مبين) أى إن تركت عبادة الله وعبدت معه ما سواه . ثم قال مخاطباً للرسل : (إني آمنت بربكم فاسمعون) قيل : فاستمعوا مقالتي واشهدوا لى بها عند ربكم ، وقيل معناه : فاسمعوا يا قومى إيمانى برسلى الله جبهة . فعند ذلك قتلوه : قيل رجماً ، وقيل عصاً ، وقيل وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه . وحكى ابن إسحق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال : وطئوه

(١) قال فى القاموس : البطر كقبطر وجعفر - البطرىق أو سيد المجوس ، والبطرىق : القائد من قواد الروم .

(٢) الجمالة : الرشوة .

بأرجلهم حتى أخرجوا قصبته . وقد روى الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز . كان اسم هذا الرجل « حبيب بن مري » ثم قيل : كان نجاراً ، وقيل حباكاً ، وقيل إسكافاً ، وقيل قصاراً ، وقيل كان يتعبد في غار هناك . فالله أعلم . وعن ابن عباس : كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة فقتله قومه ، ولهذا قال تعالى : (ادخل الجنة) يعني لما قتله قومه أدخله الله الجنة ، فلما رأى فيها من النضرة والسرور (قال ياليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) — يعني ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي .

قال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : (يا قوم اتبعوا المرسلين) ، وبعد مماته في قوله : (ياليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) . رواه ابن أبي حاتم . وكذلك قال قتادة : لا يلقى المؤمن إلا ناصحاً ، لا يلقى غاشياً ؛ لما عين ماعين من كرامة الله . (قال ياليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) تمنى والله أن يعلم قومه بما عين من كرامة الله وما هو عليه . قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) . وقوله تعالى : (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) أي ما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم . هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود . قال مجاهد وقتادة : وما أنزل عليهم جندا — أي رسالة أخرى . قال ابن جرير والأول أولى^(١) ، قلت : وأقوى ، ولهذا قال : (وما كنا منزلين) أي وما كنا نحتاج في الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ، (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) .

قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل عليه السلام ، فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون — أي قد أخذت أصواتهم ، وسكنت حركانهم ، ولم يبق منهم عين تطرف .

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية ؛ لأن هؤلاء أهل كوا بتسكذبهم رسل الله إليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحوار بين إليهم . فلهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح . فأما الحديث الذي رواه الطبراني ، من حديث حسين الأشقر عن سفيان ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « السبق ثلاثة : فالسابق إلى موسى — يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى — صاحب يس ، والسابق إلى محمد — علي ابن أبي طالب » — فإنه^(٢) حديث لا يثبت ؛ لأن حسيناً هذا متروك وشيعة من الغلاة ، وتفرد بهذا مما يدل على ضعفه بالكافية . والله أعلم .

(١) لأن الرسالة لا تسمى جندا .

(٢) قوله : فإنه حديث لا يثبت — جواب قوله : فأما الحديث الذي رواه الطبراني .

قصة يونس عليه السلام

قال الله تعالى في سورة يونس : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس ، لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين^(١)) وقال تعالى في سورة الأنبياء : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نتجى المؤمن^(٢)) وقال تعالى في سورة الصافات : (وإن يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفلك المشحون * فسأهم فكان من المدحضين * فالتقمه الحوت وهو مليم * فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون * فبذناه بالعراء وهو سقيم * وأنبثنا عليه شجرة من يقطين * وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين^(٣)) . وقال تعالى في سورة ن : (فاصبر لحكم ربك ولا تسكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * فاجتبهه ربه فجعله من الصالحين^(٤)) . قال أهل التفسير : بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل « نينوى » من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم . فلما طال ذلك عليه من أمرهم — خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف : فلما خرج من بين ظهرانيهم ، وتحققوا نزول العذاب بهم — قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم ، فلبسوا المسوح^(٥) وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثم عجوا^(٦) إلى الله عز وجل ، وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكوا لديه ، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات ، وجارت الأنعام والدواب والمواشي : فرغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثقت الغنم وحملاتها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة ، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته — عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسببه ، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم . ولهذا قال تعالى : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها) أي هلا وجدت فيما ساف من القرون قرية آمنت بكهاها ، فدل على أنه لم يقع ذلك ، بل كما قال تعالى : (وما أرسلنا في قرية من نبي إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) . وقوله : (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) . أي آمنوا بكهاهم .

(٢) الآيتان : ٨٧ ، ٨٨ .

(١) الآية : ٩٨ .

(٤) الآيات : ٤٨ — ٥٠ .

(٣) الآيات : ١٣٩ — ١٤٨ .

(٥) جمع مسح بوزن ملح . وهو ثوب من الشعر غليظ ، وذلك لباس الزهاد (٦) أي صاحوا ورفضوا أصواتهم .

وقد اختلف المفسرون : هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار ، الآخرة ؟ فينتقمهم من العذاب الأخرى كما أنقذهم من العذاب الدنيوى ؟ على قولين : الأظهر من السياق — نعم ، والله أعلم ، كما قال تعالى : (لما آمنوا) . وقال تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمعتناهم إلى حين) ، وهذا المتاع إلى حين لا ينفى أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخرى ، والله أعلم .

وقد كانوا مائة ألف لا محالة . واختلفوا في الزيادة : فمن مكحول عشرة آلاف . وروى الترمذى وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زهير عن سمع أبا العالية : حدثنى أبى بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) قال : « يزيدون عشرين ألفاً » فلولاً هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب . وعن ابن عباس : كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً ، وعنه وبضعة وثلاثين ألفاً ، وعنه وبضعة وأربعين ألفاً . وقال سعيد بن جبير : كانوا مائة ألف وسبعين ألفاً .

واختلفوا : هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده ؟ أو هما أمتان ؟ على ثلاثة أقوال : هى مبسوطه في التفسير . والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه ، ركب سفينة في البحر فلجأت بهم ، واضطرت وماجت بهم وثقلت بما فيها ، وكادوا يفرقون على ما ذكره المفسرون . قالوا فاشتوروا فيما بينهم على أن يقتنعوا ، فن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه . فلما اقتنعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به ، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً ، فشمس ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه — فأبوا عليه ذلك . ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً ؛ لما يريد الله به من الأمر العظيم . قال الله تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفلك المشحون * فسأهم فكان من المدحضين * فالتقمه الحوت وهو مليم) . وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة أتقى في البحر ، وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه ، وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً فليس لك برزق ، فأخذه فطاف به البحار كلها . وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه . قالوا : ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قدم مات ، فحرك جوارحه فتحركت ، فإذا هو حى ، فخر لله ساجداً وقال : يارب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد في مثله .

وقد اختلفوا في مقدار لبته في بطنه . فقال مجالد عن الشعبي : التقمه ضحى ولفظه عشية ، وقال قتادة : مكث فيه ثلاثاً ، وقال جعفر الصادق سبعة أيام . ويشهد له شعر أمية بن أبى الصلت .

وأنت بفضل منك نجيت يونساً وقد بات في أضعاف حوت ليالياً

وقال سعيد بن أبى الحسن وأبو مالك : مكث في جوفه أربعين يوماً . والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه .

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللججية ، ويقتمم به لجج الموج الأجاجي ،
سمع تسبيح الحيتان للرحمن ، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ، ورب السموات السبع
والأرضين السبع وما بينهما وما تحته الثرى . فعند ذلك وهناك ، قال ما قال بلسان الحال والمقال ، كما أخبر
عنه ذو العزة والجلال ، الذى يعلم السر والنجوى ، ويكشف الضر والبلوى . سامع الأصوات وإن
ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال في كتابه المبين ، المنزل
على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين : (وذا النون إذ ذهب) أى إلى أهله
(معاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين *
فاستجبنا له ونجيناها من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) . (فظن أن لن نقدر عليه) أى تضيق عليه . وقيل
معناه : نقدر — من التقدير وهى لغة مشهورة ، قدر وقدّر كما قال الشاعر .

فلا عائد ذلك الزمان الذى مضى تباركت ؛ ماتقدر يكن ، فلك الأمر

(فنادى فى الظلمات) قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن
كعب والحسن وقتادة والضحاك : ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل . وقال سالم بن أبي الجعد : ابتلع
الحوت حوت آخر فصارت ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر . وقوله تعالى : (فلولا أنه كان من المسبحين *
للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) قيل معناه : لولا أنه سبح الله هنالك ، وقال ما قال من التهليل والتسبيح ،
والاعتراف لله بالخضوع ، والتوبة إليه والرجوع إليه — لبث هنا لك إلى يوم القيامة ، ولبعث من جوف
ذلك الحوت . هذا معنى ما روى عن سعيد بن جبير فى إحدى الروايتين عنه .

وقيل معناه : (فلولا أنه كان) من قبل أخذ الحوت له (من المسبحين) أى اللطيعين المصلين
الذاكرين الله كثيراً ، قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير
والضحاك والسدى وعطاء بن السائب والحسن البصرى وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير . ويشهد
لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : « يا غلام إني
معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .
وروى ابن جرير فى تفسيره ، والبزار فى مسنده من حديث محمد بن إسحاق عن حدثه عن عبد الله بن رافع
مولى أم سلمة قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لما أراد الله حبس يونس فى بطن
الحوت — أوحى الله إلى الحوت : أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً ، فلما انتهى به إلى أسفل
البحر — سمع يونس حساً ، فقال فى نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت : إن هذا تسبيح
دواب البحر . قال : فسبح وهو فى بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع
صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، قال ذلك عبدى يونس ، عصانى فخبسته فى بطن الحوت فى البحر . قالوا : العبد

الصالح ؛ الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم . قال فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله : (وهو سقيم) « هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتمناً . ثم قال البزار لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد ، كذا قال .

وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي ابن وهب ، حدثنا عمي ، حدثني أبو صخر : أن يزيد الرقاشي قال : سمعت أنس بن مالك - ولأعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ يقول : « إن يونس النبي عليه السلام حين بد الله أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة ، فقال : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا لا يا رب ومن هو ؟ قال عبيد يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ؟ قالوا يا ربنا ! أولاً ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال بلى . فأمر الحوت فطرحه في العراء » . ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به . زاد ابن أبي حاتم : قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث ، أنه سمع أبا هريرة يقول : طرح بالعراء ، وأنت الله عليه اليقطينة . قلنا يا أبا هريرة وما اليقطينة ؟ قال شجرة الدباء . قال أبو هريرة : وهياً الله له أروية^(١) وحشية تأكل من خشاش^(٢) الأرض - أو قال هشاش الأرض . قال : فتفشخ^(٣) عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت . وقال أمية ابن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره .

فأنت يقطينا عليه برحمة من الله لولا الله أصبح ضاوباً

وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه . ويزيد الرقاشي ضعيف ، ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم ؛ كما يتقوى ذلك بهذا ، والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : (فنبذناه) أى ألقيناه (بالعراء) وهو المكان القفر الذى ليس فيه شيء من الأشجار - بل هو عار منها ، (وهو سقيم) أى ضعيف البدن . قال ابن مسعود : كهية الفرخ ليس عليه ريش ، وقال ابن عباس والسدى وابن زيد : كهية الصبي حين يولد ، وهو المنفوس ليس عليه شيء . (وأبنتنا عليه شجرة من يقطين) قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب ابن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاوس والسدى وقتاده والضحاك وعطاء الخراساني وغير واحد : هو القرع .

قال بعض العلماء : في إنبات القرع عليه حكم جمّة ؛ منها أن ورقه في غاية النعومة ، وكثير وظليل ، ولا يقربه ذباب ، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره - نياً ومطبوخاً ، وبشره وبزره أيضاً . وفيه نفع كثير وتغذية للدماغ وغير ذلك . وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الأروية التي كانت

(١) الأروية بالضم والكسر - الأنتى من الوعول . (٢) الحشاش : حشرات الأرض ، والعصافير ونحوها .

(٣) التفشخ : لإرخاء المفاصل .

ترضه لبنها وترعى في البرية ، وتأتيه بكرة وعشية . وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه . ولهذا قال تعالى : (فاستجبنا له فنجيناها من الغم) أى الكرب والضيق الذى كان فيه ، (وكذلك ننجي المؤمنين) أى وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا .

قال ابن جرير : حدثني عمران بن بكار الكلابي ، حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن ، حدثني بشر بن منصور عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : سمعت سعد بن مالك - وهو ابن أبي وقاص - يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى - دعوة يونس بن متى » قال فقلت : يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسالمين ؟ قال : « هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله تعالى : (فنادى في الظلمات أن لا إله إلا الله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فاستجبنا له ونجيناها من الغم وكذلك نجى المؤمنين) ؛ فهو شرط من الله لمن دعاه به . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب . قال أبو خالد : أحسبه عن مصعب - يعنى ابن سعد - عن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « من دعاه يونس استجب له » . قال أبو سعيد الأشج يريد به : (وكذلك نجى المؤمنين) . وهذان طريقان عن سعد .

وثالث أحسن منهما : قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عمير ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثني والدى محمد عن أبيه سعد - وهو ابن أبي وقاص - قال : مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسأمت عليه ، فمأ عينيه منى ثم لم يرد على السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت يأمر المؤمنين : هل حدث في الإسلام شيء ؟ قال : لا . وماذا ؟ قلت لا - إلا أنى مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسأمت عليه فمأ عينيه منى ثم لم يرد على السلام . قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال ما فعلت . قال سعد : قلت بلى ، حتى حلف وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر فقال بلى ، وأستغفر الله وأتوب إليه . إنك صررت بي آنفاً ، وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ ، لا والله ما ذكرت قط إلا تعشى بصرى وقابى غشاوة . قال سعد فأنأ أنبئك بها ، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال : « من هذا أبو إسحاق ؟ » قال : قلت نعم يا رسول الله . قال : « فه » ، قلت لا والله - إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك . قال : « نعم دعوة ذى النون إذ هو في بطن الحوت ، (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) ، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له » ، ورواه الترمذى والنسائى من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به .

ذكر فضل يونس عليه السلام

قال الله تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين) ، وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ، ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به . وقال البخاري أيضاً : حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة عن قتادة عن أبي العالبة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه » . ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به . قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه : لم يسمع قتادة من أبي العالبة سوى أربعة أحاديث ، هذا أحدها . وقد رواه الإمام أحمد عن عفان عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف ابن مهران عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ، تفرد به أحمد . ورواه الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان ، حدثنا عبد الله ابن رجاء ، أنبأنا إسرائيل عن أبي يحيى العتاب عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينبغي لأحد أن يقول أنا عند الله خير من يونس بن متى » . إسناده جيد ولم يخرجوه .

وقال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم : سمعت حميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ، وكذا رواه مسلم من حديث شعبة به . وفي البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل عن عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج عن أبي هريرة في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال : لا والذي اصطفى موسى على العالمين - قال البخاري في آخره : « ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى ^(١) » أي ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس . والقول الآخر : لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى ، كما قد ورد في بعض الأحاديث : « لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى » وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين .

ذكر قصة موسى الكليم عليه الصلاة والسلام

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، قال تعالى : (واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً * وهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً ^(٢)) وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة

(١) الحديث بتمامه في البخاري ، في كتاب أحاديث الأنبياء وأوله : بينما يهودي يعرض سلعته أعطى بهاشيتاً كرهه فقال :

لا والذي اصطفى موسى على البشر . الخ (٢) الآيات : ٥١ - ٥٣ من سورة مريم .

متفرقة من القرآن . وذكر قصته في مواضع متعددة مبسطة مطولة وغير مطولة . وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير . وسنورد سيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها ؛ من الكتاب والسنة وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله . وبه الثقة وعليه التكلان . قال الله تعالى .

(بسم الله الرحمن الرحيم طسم . تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين * وزيد أن ننم على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ويمكن لهم في الأرض ونُزِي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) ^(١) .

يذكر تعالى ماخص القصة ؛ ثم يبسطها بعد هذا ، فذكر أنه يتلو على نبيه خببر موسى وفرعون بالحق ، أى بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معين له . (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً) ، أى تجبر وعتا وطفى وبغى ، وآثر الحياة الدنيا ، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى . وجعل أهلها شيعاً — أى قسم رعيته إلى أقسام ، وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم — وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله ، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض . وقد ساط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر ، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ، ومع هذا (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين) . وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح — أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأترونه عن إبراهيم عليه السلام ؛ من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه . وذلك — والله أعلم — حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر ؛ من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها . وكانت هذه البشارة مشهورة في بنى إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أسرائه وأساورته ^(٢) وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل ؛ حذراً من وجود هذا الغلام ، ولن يغنى حذر من قدر .

وذكر السدى عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة : أن فرعون رأى في منامه ؛ كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس ، فأحترقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بنى إسرائيل . فلما استيقظ هاله ذلك ، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة . وسألهم عن ذلك ، فقالوا : هذا غلام يولد من هؤلاء ، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فلهذا أمر بقتل

(١) الآيات من أول سورة القصص (٢) جمع أسوار بالضم والكسر وهو : قائد الفرس . (٣٣ — بداية أول)

الغلمان وترك النسوان ، ولهذا قال الله تعالى : (وزيد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض) وهم بنو إسرائيل ، (ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين) أى الذين يثول ملك مصر وبلادها إليهم . (ونمكن لهم في الأرض ونُرِي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) أى سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قادراً والذليل عزيزاً . وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل ، كما قال تعالى : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا . . . الآية) ، وقال تعالى : (فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) ^(١) وسيأتى تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله .

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى ، حتى جعل رجالا وقوابل يديرون على الجبال ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته . وعند أهل الكتاب : أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان ، لتضف شوكة بنى إسرائيل ، فلا يقاومونهم إذا غلبهم أو قتلهم . وهذا فيه نظر ، بل هو باطل . وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى ، كما قال تعالى : (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) . ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى : (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) . فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً — حذراً من وجود موسى . هذا ، والقدر يقول : يا أيها الملك الجبار ، المفرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه ، قد حكم العظيم الذى لا يغالب ولا يمانع ، ولا تخالف أقداره : أن هذا المولود الذى تحتز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس مالا يعد ولا يحصى — لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك ، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك . وأنت الذى تتبناه وتربيه وتتفاده ، ولا تطلع على سر معناه . ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخرارك على يديه ؛ لخالفتك ما جاءك به من الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحى إليه ؛ لتعلم أنت وسائر الخلق — أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القوى الشديد ، ذو البأس العظيم ، والحول والقوة ، والمشئبة التى لا مرد لها .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل ، بسبب قتل ولدانهم الذكور ، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار ، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون — فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً . فذكروا أن هرون عليه السلام ولد فى عام المساحة عن قتل الأبناء ، وأن موسى عليه السلام ولد فى عام قتلهم ، فضاقت أمه به ذرعاً واحتزت من أول ما حبلت ، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل . فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له

تابوتاً ، فربطته في حبل وكانت دارها متاخمة للنيل ، فكانت ترضعه ، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت ، فأرسلته في البحر ، وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به . قال الله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون) . هذا الوحي وحى إلهام وإرشاد كما قال تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً . . . الآية)^(١) وليس هو بوحى نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين . بل الصحيح الأول ، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة .

قال السهيلي : واسم أم موسى « أيارخا » ، وقيل « أياذخت »^(٢) . والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذى ذكرناه ، وألقى في خلاها وروعها أن لاتخافى ولا تحزنى ؛ فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك ، وإن الله سيحمله نبياً مرسلاً ، يعلى كلمته في الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أمرت به . فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل ، فمر على دار فرعون (فالتقطه آل فرعون) قال الله تعالى : (ليكون لهم عدواً وحزناً) . قال بعضهم : هذه لام العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله فالتقطه . وأما إن جمل متعلقاً بمضمون الكلام — وهو أن آل فرعون قيسوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً — صارت اللام معللة كغيرها ، والله أعلم . ويقوى هذا التقدير الثانى قوله : (إن فرعون وهامان) وهو الوزير السوء (وجنودهما) التابعين لها (كانوا خاطئين) — أى كانوا على خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة .

وذكر المفسرون : أن الجوارى التقطنه من البحر في تابوت مفلق عليه ، فلم يتجاسرن على فتحه ، حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون « آسية » بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد ، الذى كان فرعون مصر في زمن يوسف . وقيل إنها كانت من بنى إسرائيل من سبط موسى . وقيل بل كانت عمته ، حكاه السهيلي ، فأنه أعلم . وسيأتى مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران ، وأنها ما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ في الجنة .

فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب — رأت وجهه بتلاً بتلاً بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية ، فلما رآته ووقع نظرها عليه — أحبته حباً شديداً جداً . فلما جاء فرعون قال : ما هذا ؟ وأمر بذبحه ،

(١) الآيتان : ٦٨ ، ٥٨ من سورة النحل .

(٢) الذى في تفسير القرطبي عن الثعلبي : لوخا بنت هاند بن لاوا بن يعقوب . وفي بعض التفاسير اسمها : « يوحنا »

فأستوهبته منه ودفعت عنه وقالت : (قرة عين لي ولك) . فقال لها فرعون : أما لك فنعيم ، وأما لي فلا .
 أي لا حاجة لي به ، « والبلاء موكل بالمنطق » . وقولها : (عسى أن ينفعنا) قد أنالها الله مارجت
 من النفع : أما في الدنيا فهداها الله به ، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه . (أو نتخذها ولدا)
 وذلك أنهما تبنياه ؛ لأنه لم يكن يولد لهما ولد . قال الله تعالى : (وهم لا يشعرون) أي لا يدرون ماذا
 يريد الله بهم — أن قبضهم لالتقاطه — من النعمة العظيمة بفرعون وجنوده ؟ .

(وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به ، لولا أن ربنا على قلبها لتكون من المؤمنين *
 وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون * وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل
 أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ؟ وهم له ناصحون ؟ * فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم
 أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير
 وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً) أي من كل شيء
 من أمور الدنيا إلا من موسى (إن كادت لتبدي به) أي لتظهر أمره وتسال عنه جهرة (لولا أن ربنا
 على قلبها) أي صبرناها وثبتناها (لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته) وهي ابنتها الكبيرة :
 (قصيه) أي اتبع أثره ، واطبى خبره (فبصرت به عن جنب) . قال مجاهد : عن بعد ، وقال قتادة :
 جعلت تنظر إليه وكأنها لاتريده . ولهذا قال : (وهم لا يشعرون) ، وذلك لأن موسى عليه السلام لما
 استقر بدار فرعون — أرادوا أن يفضوه برضاعة فلم يقبل ندياً ولا أخذ طعاماً ، فخاروا في أمره ، واجتهدوا
 على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل ؛ كما قال تعالى : (وحرمنا عليه المراضع من قبل) فأرسلوه مع القوايل
 والنساء إلى السوق ، لعلمهم يحدون من يوافق رضاعته . فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه —
 إذ بصرت به أخته ، فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت : (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له
 ناصحون ؟) . قال ابن عباس : لما قالت ذلك ، قالوا لها ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبة
 في سرور الملك ورجاء منفته^(١) ، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمه . فلما أرضعته التقم ثديها
 وأخذ يمتصه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى « آسية » يعلمها بذلك ، فاستدعتها
 إلى منزلها وعرضت عليها أن تسكون عندها ، وأن تحسن إليها ، فأبت عليها وقالت : إن لي بعلا
 وأولاداً ، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسله معي . فأرسلته معها ، ورتبت لها رواتب ، وأجرت عليها
 النفقات والكساوى والهبات ، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها .

قال الله تعالى : (فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق) أي كما
 وعدناها برده ورسالته ، فهذا رده ، وهو دليل على صدق البشارة برسالته . (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ،
 (١) ألهمها الله أن تقول ذلك ؛ لأنهم شكوا في أمرها حين قالت : (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم
 وهم له ناصحون ؟)

وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كفه ، فقال له فيما قال : (ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينا إلى أمك مايوحى * أن اذفيه في التابوت فاذفيه في اليم ، فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لي وعدوله ، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني) قال قتادة وغير واحد من السلف : أى تطعم وترفه ، وتغذى بأطيب المآكل ، وتلبس أحسن الملابس — بمرأى مني ، وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك لك ، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري . (إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ؟ فرددناك إلى أمك كي تفر عينها ولا تحزن ، وقتلت نفساً فنجيناك من النعم وفتناك فتوناً) .
وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناها حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين * ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان : هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين * قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، فغفر له إنه الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت على فإن أكون ظهيراً للمجرمين) . لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتثانه عليها — شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، وهو احتكام الخلق والخلق ، وهو سن الأربعين في قول الأكرين — آتاه الله حكماً وعلماً ، وهو النبوة والرسالة التي بشر بها أمه حين قال : (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) .

ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر ، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك ، حتى كمل الأجل وأنقضى الأمد ، وكان ما كان من كلام الله له ، وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتى . قال تعالى : (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدى : وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس : بين العشاءين (فوجد فيها رجلين يقتتلان) أى يتضاربان ويتهاوشان (هذا من شيعته) أى إسرائيلى ، (وهذا من عدوه) أى قبضى . قاله ابن عباس وقتادة والسدى ومحمد ابن إسحاق (فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه) ، وذلك أن موسى عليه السلام ، كانت له بديار مصر صولة ؛ بسبب نسبه إلى تبني فرعون له وتريبته في بيته . وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة ، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه ، وهم أخواله — أى من الرضاعة ، فلما استغاث ذلك الإسرائيلى موسى عاياه السلام على ذلك القبضى — أقبل إليه موسى (فوكزه) . قال مجاهد : أى طعنه بجمع كفه ، وقال قتادة : بعصا كانت معه ، (فقضى عليه) أى فمات منها . وقد كان ذلك القبضى كافراً مشركاً بالله العظيم . ولم يرد موسى قتله بالكلية ، وإنما أراد زجره وردعه . ومع هذا — (قال) موسى : (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إنى ظلمت نفسى

فاغفر لي فففر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت علي (أي من العز والجاه) فلن أكون ظهيراً للمجرمين * فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : إنك لغوى مبين * فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لها ، قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ ، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين * وجاء رجل من أقصى المدينة يسمى ، قال يا موسى إن الملائم يأترون بك ليقتلوك ، فأخرج إني لك من الناصحين * فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجني من القوم الظالمين) .

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً — أي من فرعون وملائه — أن يعلموا أن هذا القتل الذي رفع إليه أمره ، إنما قتله موسى في نصرته رجل من بني إسرائيل ، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ، ويترتب على ذلك أمر عظيم . فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم — (خائفاً يترقب) أي يتلفت ، فيبين هو كذلك ، إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه — أي بصرخته ويستغيثه على آخر قد قاتله — فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته ، قال له : (إنك لغوى مبين) . ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي ، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي ، فيردعه عنه ويخلصه منه . فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ، (قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس . إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من الصالحين) . قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام — الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس ، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه ؛ لما عنفه قبل ذلك بقوله : إنك لغوى مبين ، فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس فذهب القبطي فاستدعى فرعون على موسى . وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه . ويحتمل أن قاتل هذا هو القبطي ، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه ، ورأى من سجيته انتصاراً جديداً للإسرائيلي ، فقال ما قال من باب الظن والفراسة : إن هذا لعله قاتل ذلك القتل بالأمس ، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا . والله أعلم . والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس ، فأرسل في طلبه . وسبقهم رجل^(١) ناصح من طريق أقرب . (وجاء من أقصى المدينة) ساعياً إليه مشفقاً عليه فقال : (يا موسى إن الملائم يأترون بك ليقتلوك فأخرج) أي من هذه البلدة (إني لك من الناصحين) أي فيما أقوله لك . قال الله تعالى : (فخرج منها خائفاً يترقب) — أي فخرج من مدينة مصر من فورهِ على وجهه ، لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه ، قائلًا : (رب نجني من القوم الظالمين * ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربني أن يهديني سواء السبيل * ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون * ووجد من دونهم جباراً) قال ابن جرير : هذا الرجل يقال له شيمان . وقد وصف بالرجولة ؛ لبلوكة طريقاً أقرب لباحق موسى قبل إرسال فرعون .

امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ؟ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير * فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ، فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير . يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقب — أى يتلفت — خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون ، وهو لا يدري أين يتوجه ، ولا إلى أين يذهب ؛ وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها . (ولما توجه تلقاء مدين) أى اتجه له طريق يذهب فيه ، (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) أى عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود . وكذا وقع ، فقد أوصلته إلى مقصود وأى مقصود (ولما ورد ماء مدين) وكانت بئراً يستقون منها . ومدين هى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة — وهم قوم شعيب عليه السلام — وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام فى أحد قولى العلماء . ولما ورد الماء المذكور (وجد عليه أمة من الناس يسقون * ووجد من دونهم امرأتين تذودان) أى تكفكفان غنمهما أن تختلط بغم الناس . وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات ، وهذا أيضاً من الغلط ، ولعلمن كن سبعا ، ولكن إنما كان نسقى اثنان منهن . وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً ، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين (قال ما خطبكما ؟ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) أى لا تقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء — لضعفنا — وسبب مباشرتنا هذه الرعية — ضعف أيينا وكبره . قال الله تعالى : (فسقى لهما) .

قال المفسرون : وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وريدهم — وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجىء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما^(١) فى فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم ، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ، ثم رد الحجر كما كان . قال أمير المؤمنين عمر : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما ، ثم تولى إلى الظل ، قالوا : وكان ظل شجرة من السمر^(٢) . روى ابن جرير عن ابن مسعود ، أنه رآها خضراء ترف (فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) . قال ابن عباس : سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء ، وجلس فى الظل — وهو صفوة الله من خلقه — وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه ل محتاج إلى شق تمرة . قال عطاء ابن السائب لما قال : (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) — أسمع المرأة (فجاءته إحداها تمشى على استحياء ، قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص ، قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين * قالت إحداها يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين * قال إني

(١) التسميم : لإبراد الدواب شريعة — أى مورداً لا يحتاج معه إلى سقى بالرشاء أو نحوه . يقال : شرع — تناول

الماء بفيه ، وشرعت الدواب فى الماء — أى دخلت . (٢) جمع سمرة : من شجر الطلح .

أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ، على أن تأجرني ثمانى حجج ، فإن آتمت عشرا فن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدني إن شاء الله من الصالحين * قال ذلك بيني وبينك ، أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على ، والله على ما نقول وكيل .

لما جلس موسى عليه السلام في الظل وقال : (رب إني لما أنزلت من خير فقير) — سمعته المرأتان فيما قيل ، فذهبتا إلى أبيهما ، فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما ، فأخبرته بما كان من أمر موسى عليه السلام . فأمر إحداها ، أن تذهب إليه فتدعوه ، (فجاءته إحداها تمشي على استحياء) أي تمشي الخرائر ، (قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) . صرحت له بهذا لثلاثي يوم كلامها ريبة ، وهذا من تمام حياتها وصياتها . (فلما جاءه وقص عليه القصص) وأخبره خبره ، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها ، (قال) له ذلك الشيخ : (لا تحف نجوت من القوم الظالمين) أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم .

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو ؟ فقيل هو شعيب عليه السلام ، وهذا هو المشهور عند كثيرين ومن نص عليه — الحسن البصرى ومالك بن أنس ، وجاء مصرحاً به في حديث ، ولكن في إسناده نظر . وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه ، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته . وروى ابن أبي حاتم وغيره من الحسن البصرى : أن صاحب موسى عليه السلام هذا — اسمه شعيب ، وكان سيد الماء ، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين . وقيل : إنه ابن أخي شعيب ، وقيل : ابن عمه ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب ، وقيل : رجل اسمه « يثرون » ، هكذا هو في كتب أهل الكتاب : يثرون كاهن مدين أى كبيرها وعالمها . قال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله : اسمه يثرون . زاد أبو عبيدة : وهو ابن أخى شعيب . وزاد ابن عباس : صاحب مدين .

والمقصود : أنه لما أضافه وأكرم مشواه ، وقص عليه ما كان من أمره — بشره بأنه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدى البنيتين لأبيها : يأبأبت استأجره — أى لرعى غنمك ، ثم مدحته بأنه قوى أمين ، قال عمرو ابن عباس وشريح القاضى وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحق وغير واحد : لما قالت ذلك ، قال لها أبوها : وما علمك بهذا ؟ فقالت إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال : كوني من ورأى ، فإذا اختلف الطريق فأخذ في لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق . قال ابن مسعود : أفرس^(١) الناس ثلاثة : صاحب يوسف حين قال لامرأته أكرمى مشواه ، وصاحبة

موسى حين قالت : (يأبأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) ، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب . (قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تخبرني ثمانى حجج ، فإن آتمت عشراً فن عندك وما أريد أن أشق عليك ، ستجدني إن شاء الله من الصالحين) . استبدل بهذه

(١) هو من الفراسة بكسر الفاء . اسم من الفرس ، وهو الثبث ودقة النظر .

جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله — على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدین أو الثوبین ونحو ذلك — أنه يصح ؛ لقوله : إحدی ابنتی هاتین . وفي هذا نظر ؛ لأن هذه مراوضة لامعاودة . والله أعلم .
 واستدل أصحاب أحمد على صحة الاستئجار بالطعمة والكسوة ، كما جرت به العادة . واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجة في سننه مترجماً في كتابه : [باب استئجار الأجير على طعام بطنه] حدثنا محمد بن المصنفی الحمصی ، حدثنا بقیة بن الولید ، عن مسامة بن علی عن سعید بن أبي أيوب ، عن الحارث بن يزيد عن علی بن رباح قال : سمعت عتبة ابن النذر يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طسم ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال : « إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثمانی سنین أو عشر سنین على عفة فرجه وطعام بطنه » ، وهذا الحديث من هذا الوجه لا يصح ؛ لأن مسامة بن علی أنشئ الدمشقي البلاطي — ضعيف عند الأئمة لا يحتج بتفرده . ولكن قد روى من وجه آخر ، فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر ، حدثني ابن لهيعة «ح» وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علی بن رباح اللخمي قال : سمعت عتبة ابن النذر السامي صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله قال : « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه » . ثم قال تعالى : (ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل) ، يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت ، فأيهما قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول سامع وشاهد ، ووكيل على وعليك ، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة .

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبیر قال : سألتني يهودی من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لأدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل . تفرد به البخاري من هذا الوجه . وقد رواه النسائي في حديث الفتون ؛ كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبیر . وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسي وابن أبي حاتم عن أبيه — كلاهما عن الحميدي ، عن سفيان بن عيينة ، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما » . وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي عن سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره .

وقد رواه سنيد عن حجاج عن ابن جرير عن مجاهد مرسلًا : أن رسول الله سأل عن ذلك جبريل

فَسأل جبريل إسرافيل ، فسأل إسرافيل الرب عز وجل فقال : « أبرها وأوفاهما » ، وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرح مرسلًا . ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب أن رسول الله ﷺ سئل : أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أوفاهما وأتمهما » . وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران الجوني وهو ضعيف ، عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أوفاهما وأبرهما قال : وإن سئلت أى المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما » وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح عن عقبه بن النذر أن رسول الله قال : « إن موسى آجر نفسه بعبادة فرجه وطعام بطنه » فلما وفى الأجل قيل : يا رسول الله أى الأجلين ؟ قال : « أبرها وأوفاهما » .

فلما أراد فراق شعيب — سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاه ما ولدت غنمه ، من قالب لون^(١) من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حسانًا ، فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها ، ثم وضعها في أذني الحوض ، ثم أوردتها فسقاها ، ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض ، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة ، قال : « فأتأمت^(٢) وألبنت^(٣) » ووضعت كلها قوالب ألوان ، لإشاة أو شاتين ليس فيها فشوش ، ولا ضبوب ، ولا عزوز ، ولا ثعول ، ولا كموش تفوت الكف . قال النبي ﷺ : « لو اقتحمت الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية » ، قال ابن لهيعة : « الفشوش — واسعة الشخب ، والضبوب — طويلة الضرع تجره . والعزوز — ضيقة الشخب ، والثعول — الصغيرة الضرع كالحلقتين ، والكموش — التي لا يحكم الكف على ضرعها لصغره . وفي صحة رفع هذا الحديث نظر . وقد يكون موقوفًا كما قال ابن جرير : حدثنا محمد بن المنثري ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك قال : « لما دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فلنك ولدها ، فعمد موسى فوضع خيالًا على الماء فلما رأت الخيال فزعت ، فجالت جولة فولدت كلهن بلفًا^(٤) إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام » . وهذا إسناد رجاله ثقات ، والله أعلم .

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله « لابان » — أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلفًا ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام . فأنه أعلم .

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله أنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكنوا إني آنست نارًا على آتاكم منها بنجر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون * فلما أتاه نودي من شاطئ الوادي الأيمن في

(١) القالب : البصرة إذا تغير لونها واحمرت ، وشاة قالب لون — إذا كانت على غير لون أمها

(٢) التوأمت من جميع الحيوان : المولود مع غيره في بطن ، من الاثنين فصاعدًا ذكرًا أو أنثى . ويقال أتأمت الأم فهي مئتم

(٣) أي كثر لبنها . (٤) البلق بالتحريك : سواد وبياض .

البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين * وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ، ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين * اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب ، فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين) تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما ، وقد يؤخذ هذا من قوله : (فلما قضى موسى الأجل) . وعن مجاهد أنه أكل عشرًا وعشرًا بعدها . وقوله : (وسار بأهله) أى من عند صهره ، زاعما — فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم — أنه اشتاق إلى أهله ، فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مخنف ، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه ، قالوا : وافق ذلك في ليلة مظلمة باردة — تاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف . وجعل يورى زناده فلا يورى شيئاً ، واشتد الظلام والبرد . فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج في جانب الطور — وهو الجبل الغربى منه عن يمينه — (فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً) وكأنه والله أعلم رآها دونهم ؛ لأن هذه النار هي نور في الحقيقة ، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد ، (لعل آتيكم منها بخبر) أى لعلى أستعلم من عندها عن الطريق (أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة ؛ لقوله في الآية الأخرى : (وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً ، لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى^(١)) فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق . وجمع السك في سورة النمل في قوله : (إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) . وقد آتاهم منها بخبر وأى خبر ، ووجد عندها هدى وأى هدى ، واقتبس منها نوراً وأى نور .

قال الله تعالى : (فلما آتاهها نودى من شاطئ الوادى الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين) وقال في النمل : (فلما جاءها نودى أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين) أى سبحان الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، (ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) ، وقال في سورة طه : (فلما آتاهها نودى ياموسى * إني أنا ربك فأخلع نعليك ، إنك بالوادى المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) . قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف : لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فأنتهى إليها — وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج^(٢) ، وكل ما تلك النار في اضطرار ، وكل ما نخضرة تلك الشجرة في ازدياد . فوقف متعجباً ، وكانت تلك الشجرة في لحف^(٣) جبل غربى منه عن يمينه ، كما قال تعالى : (وما كنت بجانب الجبل إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين) . وكان

موسى في واد اسمه «صوى» ، فكان موسى مستقبل القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب . فناده ربه بالوالد المقدس طوى ، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ، ولا سيما في تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب : أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور ؛ مهابة له وخوفاً على بصره . ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له : (إني أنا الله رب العالمين) (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) أى أنا رب العالمين الذى لا إله إلا هو ، الذى لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له . ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار ، وإنما الدار الباقية يوم القيامة ، التى لا بد من كونها ووجودها (لتجزى كل نفس بما تسعى) أى من خير وشر . وحضه وحثه على العمل لها ، ومجانبة من لا يؤمن بها ؛ بمن عصى مولاه واتبع هواه . ثم قال له مخاطباً ومؤانسا ومبيناً له أنه القادر على كل شيء ، الذى يقول للشئ كن فيكون : (وما تلك بيمينك يا موسى ؟) أى أما هذه عصاك التى نعرفها منذ صحبتها ؟ (قال هى عصاى أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) . أى بل هذه عصاى التى أعرفها وأتحققها ، (قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى) . وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه يقول للشئ كن فيكون ، وأنه الفعال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب : أنه سأل برهانا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر ، فقال له الرب عز وجل : ما هذه التى فى يدك ؟ قال عصاى ، قال ألقها إلى الأرض (فألقاها فإذا هى حية تسعى) ، فهرب موسى من قدامها ، فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبيها ، فلما استمكن منها ارتدت عصا فى يده . وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى : (وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب) أى قد صارت حية عظيمة لهاضخامة هائلة وأنياب تصك ، وهى مع ذلك فى سرعة حركة الجان^(١) ، وهو ضرب من الحيات - يقال الجان والجانان - وهولطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدا ، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة . فلما عاينها موسى عليه السلام - (ولى مدبراً) أى هارباً منها ، لأن طبيعته البشرية تقتضى ذلك (ولم يعقب) أى ولم يلتفت ، فناده ربه قائلاً له : (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) ، فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها . (قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) ، فيقال إنه هابها شديداً ، فوضع يده فى كم مدرعته ، ثم وضع يده فى وسط فمها . وعند أهل الكتاب : أمسك بذنبيها ، فلما استمكن منها إذا هى قد عادت كما كانت عصا ذا شعبتين . فسبحان القدير العظيم ، رب المشرقين والمغربين .

ثم أمره تعالى بإدخال يده فى جيبه ، ثم أمره بنزعها فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء - أى من غير برص ولا بهق^(٢) - ولهذا قال : (اسلك يدك فى جيبك تخرج بياضاً من غير سو ، واضمم

(١) فى القاموس الجان : اسم جمع للجن ، وحية أكحل العين لا تؤذى ، كبيرة فى الدور (٢) بياض رقيق يعترى الجلد

إليك جناحك من الرهب) قيل معناه : إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك . وهذا وإن كان خاصاً به ، إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمال ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء . وقال في سورة النمل : (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، في تسع آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين) أى هاتان الآيتان وهما : العصا واليد — هما البرهانان المشار إليهما في قوله : (فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملائته إنهم كانوا قوماً فاسقين) ، ومع ذلك سبع آيات أخر . فذلك تسع آيات بينات ، وهى المذكورة فى آخر سورة سبحان ، حيث يقول تعالى : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ، وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً)^(١) وهى المبسوطة فى سورة الأعراف فى قوله : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن نصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكرههم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين)^(٢) كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . وهذه التسع الآيات غير العشر الكلمات ؛ فإن التسع من كلمات الله القدرية ، والعشر من كلماته الشرعية ، وإنما نهبنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة ، فظن أن هذه هى هذه . كما قررنا ذلك فى تفسير آخر سورة بنى إسرائيل .

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون (قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون * وأخى هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردأ يصدقنى ، إني أخاف أن يكذبون * قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطاناً ، فلا يصلون إليك بآياتنا أنتا ومن اتبعك)^(٣) . يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام ، فى جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوه ، الذى خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه ، حين كان من أمره ما كان فى قتل ذلك القبطى : (قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون * وأخى هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردأ يصدقنى إني أخاف أن يكذبون) . أى اجعله معى معيناً وردأ وزيراً يساعدى ، وبعينى على أداء رسالتك إليهم ؛ فإنه أفصح منى لساناً وأبلغ بياناً . قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله : (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطاناً) أى برهاناً (فلا يصلون إليك) أى فلا ينالون منك ما مكروها بسبب قيامك بآياتنا ، وقيل ببركة آياتنا ، (أنتا ومن اتبعك الغالبون) . وقال فى سورة طه : (اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لى صدرى * ويسر لى

(١) الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ (٢) الآيات : ١٣٠ ، ١٣٣ .

(٣) الآيات : ٣٣ — ٣٥ من سورة القصص .

أمرى * واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) . قيل إنه أصابه في لسانه لثغة ، بسبب تلك الجرة التي وضعها على لسانه ، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله ، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله ، فخافه عليه آسية وقالت : إنه طفل ، فاختره بوضع تمرة وجمرة بين يديه ، فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجرة ، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها . فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ، ولم يسأل زوالها بالكلية . قال الحسن البصرى : والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت في لسانه بقية ، ولهذا قال فرعون — قبجه الله — فيما زعم أنه يعيب به الكليم : (ولا يكاد يبين) ، أى يفصح عن مراده ، ويعبر عما في ضميره وفؤاده .

ثم قال موسى عليه السلام : (واجعل لى وزيراً من أهلى * هرون أخى * أشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً * إنك كنت بنا بصيراً * قال قد أوتيت سؤالك يا موسى)^(١) أى قد أجبتك إلى جميع ما سألت ، وأعطيتك الذى طلبت . وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل ، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه . وهذا جاه عظيم ، قال الله تعالى : (وكان عند الله وجيهاً) . وقال تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً)^(٢) . وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرهم فى طريق الحج : أى أخ آمن على أخيه ؟ . فسكت القوم ، فقالت عائشة لمن حول هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع فى أخيه هرون فأوحى إليه . قال الله تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) ، وقال تعالى فى سورة الشعراء : (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون * قال رب إنى أخاف أن يكذبون * ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هرون * ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون * قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون * فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل * قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين)^(٣) .

تقدير الكلام : فأتياهم فقالوا له ذلك ، وبلغاه ما أرسلنا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن يفك أسارى بنى إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته ، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤوا ، ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه . فتكبر فرعون فى نفسه وعتا وطنى ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلاً له : (ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ؟) أى أما أنت الذى ربنا فى منزلنا ؟ وأحسننا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر ؟ وهذا يدل على أن فرعون الذى بعث إليه — هو الذى فر منه ، خلافاً لما عند أهل الكتاب : من أن فرعون الذى فر منه

مات في مدة مقامه بمدين ، وأن الذي بعث إليه فرعون آخر . وقوله : (وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) أى وقتلت الرجل القبطى ، وفررت منا وحدثت نعمتنا . (قال فعلتها إذا وأنا من الضالين) أى قبل أن يوحى إلى وينزل على ، (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربي حكما وجعلنى من المرسلين) .

ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه : (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) أى وهذه النعمة التي ذكرت ؛ من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل — تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكاله ، واستبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك . (قال فرعون وما رب العالمين ؟ * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) .

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المفاولة^(١) والمحااجة والمناظرة ، وما أقامه الكايم على فرعون اللثيم ؛ من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية . وذلك أن فرعون — قبحه الله — أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإله (فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى) . (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) وهو فى هذه المقالة معاند ، يعلم أنه عبد مرهوب ، وأن الله هو الخالق البارئ المصور ، الإله الحق كما قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين) . ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته ، ولإظهار أنه ما تمم رب أرسله : (وما رب العالمين ؟) لأنهما قالاه : (إنا رسول رب العالمين) . فكأنه يقول لهما : ومن رب العالمين ؟ الذى تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما ؟ فأجابه موسى قائلاً : (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) . يعنى رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما بينهما من المخلوقات المتجددة ؛ من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق . وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين . (قال) أى فرعون (لمن حوله) من أمرائه ومراتبته^(٢) ووزرائه ، على سبيل التهمك والتنقص لما قرره موسى عليه السلام : (ألا تسمعون) يعنى كلامه هذا ، (قال) موسى مخاطباً له ولهم : (ربكم ورب آبائكم الأولين) أى هو الذى خلقكم والذين من قبلكم ؛ من الآباء والأجداد ، والقرون السالفة فى الآباد ؛ فإن كل أحد يعلم أنه لم يخاق نفسه ، ولا أبوه ولا أمه ، ولا يحدث

(١) أى المفاوضة : يقال : قاوله فى الأمر ، وقاولوا — أى تفاوضا فيه . (٢) جم مرزبان : وهو الفارس السجاع المقدم على القوم دون الملك ، ويقال لرؤساء العجم — مرابطة .

من غير محدث . وإنما أوجده وخلقه رب العالمين . وهذان المقامان هما للمذكوران في قوله تعالى :
(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)^(١) .

ومع هذا كله لم يستحق فرعون من رقدته ، ولا نزع عن ضلالتة ، بل استمر على طغيانه وعناده
وكفرانه . (قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم
تعقلون) أى هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة ، المسيرة للأفلاك الدائرة . خالق الظلام والضياء ، ورب
الأرض والسماء ، رب الأولين والآخرين . خالق الشمس والقمر ، والكواكب السائرة ، والثوابت
الحائرة . خالق الليل بظلامه ، والنهار بضياؤه ، والكل تحت قهره وتسخييره وتسييره سائرون . وفي فلك
يسبحون ، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون . فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء .

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ، ولم يبق له قول سوى العناد — عدل إلى استعمال
سلطانه وجاهه وسطوته ، (قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين * قال أولو جنتك
بشيء مبين * قال فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا
هي بيضاء للنظرين) . وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما ، وهما العصا واليد . وذلك مقام أظهر
فيه الخارق العظيم ، الذى بهر به العقول والأبصار ، حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين — أى عظيم
الشكل ، بديع فى الضخامة والهول ، والمنظر العظيم الفظيع الباهر — حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك
وعاينه ، أخذه رهب شديد وخوف عظيم ، بحيث إنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة فى
يوم . وكان قبل ذلك لا يتبرز فى كل أربعين يوماً إلا مرة واحدة ، فانعكس عليه الحال .

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده فى جيبه واستخرجها — أخرجها وهي كفلقة للقمر
تتألاً نوراً يبهر الأبصار ، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى ، ومع هذا كله لم ينتفع
فرعون — لعنه الله — بشيء من ذلك ، بل استمر على ما هو عليه ، وأظهر أن هذا كله سحر . وأراد
معارضته بالسحرة ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم فى رعيته وتحت قهره ودولته ، كما سيأتى
بسطه وبيانه فى موضعه ؛ من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملائته ، وأهل
دولته وملته . والله الحمد والمنة .

وقال تعالى فى سورة طه : (فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى * واصطنعتك
لنفسى * اذهب أنت وأخوك بآياتى ولاتنيا فى ذكرى * اذهبنا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً ليلاً
لعله يتذكر أو يخشى * قالاً ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إننى معكما
أسمع وأرى^(٢)) . يقول تعالى مخاطباً لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه ، وأنعم بالنبوة عليه ، وكلمه منه

إليه : قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون ، وأنت تحت كنفى وحفظى ولطفى . ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيتى وقدرتى وتديبرى ، فلبثت فيها سنين ، (ثم جئت على قدر) أى منى لذلك ، فوافق ذلك تقديرى وتسييرى . (واصطنعتك لنفسى) أى اصطفيتك لنفسى برسالتى وبكلامى (اذهب أنت وأخوك بأياتى ولا تنيا فى ذكرى) ، يعنى ولا تفترأ فى ذكرى إذ قدما عليه ووفدما إليه ؛ فإن ذلك عون اسكما على مخاطبته ومجاوبته ، وإهداء النصيحة إليه وإقامة الحججة عليه . وقد جاء فى بعض الأحاديث : يقول الله تعالى : « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه » وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً . . . الآية ^(١)) .

ثم قال تعالى : (اذهبوا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وهذا من حمله تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه ، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره . وهو إذ ذاك أردى خلقه ، وقد بعث إليه صفوته من خلقه فى ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لها وبأمرها أن يدعوا إليه بالتي هى أحسن برفق ولين ، وبعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى ، كما قال لرسوله : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن ^(٢)) ، وقال تعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم . . . الآية ^(٣)) . قال الحسن البصرى : (فقولا له قولاً ليناً) اعتذرا إليه ، قولاً له : إن لك رباً ولنا معاداً ، وإن بين يديك جنة وناراً . وقال وهب بن منبه : قولاً له : إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة ، قال يزيد الرقاشى عند هذه الآية : يا من يتحجب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟ .

(قالوا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) ، وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً صريداً ، له سلطان فى بلاد مصر طويل عريض ، وجاه وجنود ، وعساكر وسطوة ؛ فهاباه من حيث البشرية ، وخافا أن يسطوا عليهما فى بادئ الأمر ، فنبتهما تعالى وهو العلى الأعلى فقال : (لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) ، كما قال فى الآية الأخرى : (إنا معكم مستمعون) (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى * إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) . يذكر تعالى أنه أمرها أن يذهبا إلى فرعون فيدعوا إلى الله تعالى - أن يعبده وحده لا شريك له ، وأن يرسل معهم بنى إسرائيل وبطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم . (قد جئناك بآية من ربك) وهو البرهان العظيم فى العصى واليد ، (والسلام على من اتبع الهدى) - تقيده مفيد بليغ عظيم . ثم تهداه وتوعده على التكذيب فقالا : (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى كذب بالحق بقلبه ، وتولى عن العمل بقلبه .

(١) الآية : ٤٥ من سورة الأنفال (٢) آخر سورة النحل (٣) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .
(٣٥ - بداية أول)

وقد ذكر السدى وغيره : أنه لما قدم من بلاد مدين ، دخل على أمه وأخيه هرون ، وهما يتعشيان من طعام فيه «الطفشيل» ، وهو اللفت ، فأكل متهما . ثم قال ياهرون : إن الله أمرني وأمرك أن ندعوا فرعون إلى عبادته ، فقم معي . فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق . فقال موسى للبوابين والحجبة : أعلموه أن رسول الله بالباب ، فجمعوا يسخرون منه ويستهنون به .

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لها عليه إلا بعد حين طويل . وقال محمد بن إسحق : أذن لها بعد سنتين ؛ لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لها . فإله أعلم . ويقال إن موسى تقدم إلى الباب فطرقة بعصاه ، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما ، فوقفا بين يديه فدعوا إلى الله عز وجل كما أمرهما .

وعند أهل الكتاب : أن الله قال لموسى عليه السلام : إن هرون اللاوى - يعنى من نسل لاوى ابن يعقوب - سيخرج ويتلقاك ، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بنى إسرائيل إلى عند فرعون ، وأمره أن يظهر ما أتاه من الآيات . وقال له : سأقسى قلبه فلا يرسل الشعب ، وأكثر آياتي وأعاجيبى بأرض مصر . وأوحى الله إلى هرون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب ، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه . فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بنى إسرائيل وذهبوا إلى فرعون ، فلما بلغاه رسالة الله قال : من هو الله ؟ لا أعرفه ولا أرسل بنى إسرائيل .

وقال الله مخبراً عن فرعون : (قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربه ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهدياً ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) (١) .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون : إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلا : (فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ، أى هو الذى خلق الخلق وقدر لهم أعمالا وأرزاقاً وآجالا . وكتب ذلك عنده فى كتابه اللوح المحفوظ ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له ، فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره وعلمه ؛ لكمال علمه وقدرته وقدره . وهذه الآية كقوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى) أى قدر قادراً وهدى الخلائق إليه . (قال فما بال القرون الأولى) ، يقول فرعون لموسى : فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره ، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه - فلم عبد الأولون غيره ؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت ؟ فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى ؟ (قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ولا ينسى) أى هم وإن عبدوا غيرد - فليس ذلك بحجة لك ، ولا يدل على خلاف ما أقول ؛ لأنهم جهلة

مثلك ، وكل شيء فعلوه مستطير عليهم في الزبر ، من صغير وكبير ، وسيجزئهم على ذلك ربى عز وجل ، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة ؛ لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يبطل عنه شيء ولا ينسى ربى شيئاً . ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء ، وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً ، وتسخير السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم ، كما قال : (كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى لذوى العقول الصحيحة المستقيمة ، والفطر القويمة غير السقيمة ؛ فهو تعالى الخالق الرازق . وكما قال تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)^(١) . ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر ، واهتزازها بإخراج نباتها فيه - نبه به على للماد فقال : (منها) أى من الأرض (خالقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) ، كما قال تعالى : (كما بدأكم تعودون) . وقال تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)^(٢) .

ثم قال تعالى : (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى * قال أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى * فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم الناس ضحى)^(٣) .

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله ؛ فى تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعه ، وقوله لموسى إن هذا الذى جئت به سحر ، ونحن نعارضك بمثله . ثم طلب من موسى أن يوعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم ، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام : أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس . ولهذا قال : (موعدكم يوم الزينة) ، وكان يوم عيد من أعيادهم يجتمع لهم ، (وأن يحشركم الناس ضحى) أى من أول النهار فى وقت اشتداد ضياء الشمس ، فيكون الحق أظهر وأجلى . ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً فى ظلام ؛ كما يروج عليهم محالاً وباطلاً . بل طلب أن يكون نهراً جهرة ؛ لأنه على بصيرة من ربه ، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه ، وإن رغمت أنوف القبط . قال الله تعالى : (فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى * قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحقكم بمذاب وقد خاب من افتري * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجناكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطر يقتكم المثلئ * فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفواً وقد أفلح اليوم من استعلى) .

يخبر تعالى عن فرعون : أنه ذهب فجمع من كان ببلاد من السحرة ، وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء ، فى فئهم غاية . فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان ، فاجتمع منهم خلق

(١) الآيات : ٢١ ، ٢٢ من سورة البقرة (٢) الآية : ٢٧ من سورة الروم (٣) الآيات : ٥٦ - ٥٩ من سورة طه

كثير وجم غفير . فقيل : كانوا ثمانين ألفاً - قاله محمد بن كعب ، وقيل : سبعين ألفاً - قاله القاسم بن أبي بردة ، وقال السدي : بضعة وثلاثين ألفاً ، وعن أبي أمامة تسعة عشر ألفاً ، وقال محمد بن إسحاق : خمسة عشر ألفاً ، وقال كعب الأحبار : كانوا اثني عشر ألفاً ، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : كانوا سبعين رجلاً ، وروى عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل ؛ أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر . ولهذا قالوا : (وما أكرهتنا عليه من السحر) . وفي هذا نظر .

وحضر فرعون وأمرؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم . وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون : (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) . وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم ، وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل ، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال : (ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افتري) فتنازعوا أمرهم بينهم) . قيل : معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم ؛ فقائل يقول : هذا كلام نبي وليس بساحر ، وقائل منهم يقول : بل هو ساحر ، فالله أعلم . وأسروا التناجى بهذا وغيره ، (قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما) . يقولون إن هذا وأخاه هرون - ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة ، ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ، ويستأصلاكم عن آخركم ، ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة . (فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفاءً وقد أفاح اليوم من استعلى) . وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ، ويأتوا بجميع ما عندهم من المسكيدة والمسكر والخديعة والسحر والبهتان . وهيهات ! كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ؛ أنى يعارض البهتان ، والسحر والهديان - خوارق العادات التي أجزاها الديان ؟ على يدي عبده السكليم ، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذي يبهز الأبصار ، وتبحر فيه العقول والأذهان ؟ وقولهم : (فأجمعوا كيدكم) أى جميع ما عندهم (ثم اتوا صفاءً) أى جملة واحدة ، ثم حضوا بعضهم بعضاً على التقدم في هذا المقام ؛ لأن فرعون كان قد وعدهم ومنامهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا .

(قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى) قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسمى * فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألقى ما في يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى) . لما اصطف السحرة ووقف موسى وهرون عليهما السلام تجاههم - قالوا له : إما أن تلقى قبلنا ، وإما أن نلقى قبلك (قال بل ألقوا) أتم ، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى ، فأودعوها الزئبق وغيره ؛ من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى - اضطراباً يخيل للرائي أنها تسمى باختيارها ، وإنما تتحرك بسبب ذلك . فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وألقوا حبالهم وعصيهم ، وهم يقولون : (بعزة فرعون إنا لنحن

الغالبون) . قال الله تعالى : (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم)^(١) . وقال تعالى : (فإذا جابههم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى) أى خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ومحالمهم^(٢) ، قبل أن يلتقى مافى يده ، فإنه لا يضع شيئاً قبل أن يؤمر . فأوحى الله إليه فى الساعة الراهنة : (لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق مافى يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى) فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال : (ماجئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون)^(٣) . وقال تعالى : (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون)^(٤) وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها ، صارت حية عظيمة ذات قوائم — فيما ذكره غير واحد من علماء السلف — وعنق عظيم وشكل هائل مزعج ؛ بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سرعاً ، وتأخروا عن مكانها . وأقبلت هى على ما ألقوه من الجبال والعصى ، فجعلت تلقفه واحداً واحداً فى أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها . وأما السحرة فإنهم رأوا ماهاهم وحيرهم فى أمرهم ، واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدكم ولا بالهم ، ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم . فمئذ ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم : أن هذا ليس يسحر ولا شعوذة^(٥) ، ولا محال ولا خيال ، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال . بل حق لا يقدر عليه إلا الحق ؛ الذى ابتعث هذا المؤيد به بالحق . وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربهم وخرؤا له ساجدين ، وقالوا جبهة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى : (آمنا برب موسى وهرون) . كما قال تعالى : (فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلا تقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبناكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى * قالوا لم نؤثر على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى * جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى)^(٦) .

(١) الآية : ١١٦ من سورة الأعراف (٢) أى مكرهم وكيدهم (٣) الآيتان : ٨١ ، ٨٢ من سورة يونس .
(٤) الآيات : ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف (٥) الشعوذة : خفة فى اليد ترى الشيء بغير ما عليه أصله فى رأى العين .
(٦) الآيات : ٧٠ - ٧٦ من سورة طه .

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بردة والأوزاعي وغيرهم : لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهباً لهم ، وتزخرف لقدمهم ، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده . وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهرون في الناس على هذه الصفة الجميلة - أفزعته ذلك ، ورأى أمراً بهرته ، وأعمى بصيرته وبصره ، وكان فيه كيد ومكر وخداع ، وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله . فقال مخاطباً للسحرة بحضرة الناس : (أأمنتم له قبل أن أذن لكم) أى هلا شاورتموني فيما صنعت من الأمر الفظيع بحضرة ريعتي ؟ ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد ، وكذب فأبعد قائلًا : (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) ، وقال فى الآية الأخرى : (إن هذا لمسكر مكروتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) . وهذا الذى قاله من البهتان ، يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان . بل لا يروج مثله على الصبيان ؛ فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم - يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر ، فكيف يكرن كبيرهم الذى علمهم السحر ؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم ، حتى كان فرعون هو الذى استدعاهم ، واجتباهم من كل فج عميق ، وواد سحيق . ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف .

قال الله تعالى فى سورة الأعراف : (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه ، فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين * وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسل معى بنى إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين * قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فإذا تأمرون * قالوا أوجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم * وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ * قال نعم ، وإنكم لمن المقربين * قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا ، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم * وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنا لك واقبلوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون * قال فرعون آمنتم به قبل أن أذن لكم ، إن هذا لمسكر مكروتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين * قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ^(١))

وقال تعالى فى سورة يونس : (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملأه بآياتنا فاستكبروا

وكانوا قوماً مجرمين * فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا سحر مبين * قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجيئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين * وقال فرعون انتوني بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقونون * فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون (١) .

وقال تعالى في سورة الشعراء : (قال لمن اتخذت إلهًا غيري لأجعلنك من المسجونين * قال أولو جنتك بشيء مبين ؟ * قال فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين * قال للملأ حوله إن هذا الساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم * فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نقتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين ؟ * قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين * قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقونون * فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون * فألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون * قال آمنتكم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين (٢) .

والمقصود أن فرعون كذب وافتري وكفر غاية الكفر في قوله : (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) وآتى بهتان يعلمه العالمون بل العالمون في قوله : (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) ، وقوله : (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) يعني يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ، (ولأصلبنكم أجمعين) أي ليجعلنهم مثلة ونكالا لئلا يقتدى بهم أحد من رعيتيه وأهل ملته . ولهذا قال : (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوع النخل ؛ لأنها أعلى وأشهر (ولتعلمن أينا أشد عذابًا وأبقى) يعني في الدنيا . (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات) أي لن نطيعك وتترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ، (والذي فطرننا) . قيل معطوف ، وقيل قسم ، (فاقض ما أنت قاض) أي فافعل ما قدرت عليه ؛ (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أي إنما حكمت علينا في هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة - صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له ، واتبعنا رسله (إننا آمنا

بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى) أى وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب ، (وأبقى) أى وأدوم من هذه الدار الفانية . وفى الآية الأخرى : (قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) أى ما اجترمناه من المآثم والمحارم ؛ (أن كنا أول المؤمنين) - أى من القبط - بموسى وهرون عليهما السلام .

وقالوا له أيضاً : (وما تنقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا) أى ليس لفا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا ، وانباعنا آيات ربنا لما جاءتنا . (ربنا أفرغ علينا صبراً) أى ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد ، والسلطان الشديد ، بل الشيطان المريد . (وتوفنا مسلمين) . وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم : (إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) يقولون له : فإياك أن تكون منهم فكان منهم . (ومن بأنه مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) أى المنازل العالية ؛ (جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) فاحرص أن تكون منهم . فخالت بينه وبين ذلك الأقدار التى لا تغالب ولا تمنع ، وحكم العلى العظيم بأن فرعون - لعنه الله - من أهل الجحيم ، ليباشر العذاب الأليم ، يصب من فوق رأسه الحميم . ويقال له على وجه التقرير والتوبيخ ، وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم : (ذق إنك أنت العزيز الكريم)^(١) . والظاهر من هذه السياقات أن فرعون - لعنه الله - صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم . قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا من آخره شهداء برة . ويؤيد هذا قولهم : (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) .

فصل

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغلب الذى غلبته القبط فى ذلك الموقف الهائل ، وأسلم السحرة الذين استنصروا ربهم - لم يزدهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبعداً عن الحق . قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم فى سورة الأعراف : (وقال للملأ من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآهلتك ؟ قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم ، وإنا فوقهم قاهرون * قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوك ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون)^(٢) . يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون - وهم الأمراء والكبراء - أنهم حرصوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام ، ومقابلته - بدل التصديق بما جاء به - بالكفر والرد والأذى . قالوا : (أنذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآهلتك) يعنون - قبحهم الله - أن دعوته إلى

عبادة الله وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة ماسواه — فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط ، لعنهم الله .
 وقرأ بعضهم : (ويذكر وإلهتكم) أى وعبادتكم . ويحتمل شيئين : أحدهما ويذر دينك ، وتقويه
 القراءة الأخرى . والثانى ويذر أن يعبدك ؛ فإنه كان يزعم أنه إله لعنه الله ، (قال سنقتل أبناءهم ونستحيي
 نساءهم) أى لثلاثا يكثر مقاتلتهم (وإنا فوقهم قاهرون) أى غالبون . (قال موسى لقومه استعينوا بالله
 واصبروا) أى إذا همواهم بأذيتكم والفتك بكم — فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم ؛ (إن الأرض
 لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أى فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة ، كما قال
 فى الآية الأخرى : (وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله
 توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ^(١)) وقولهم : (قالوا أؤذينا
 من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئنا) أى قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا ، (قال
 عسى ربكم أن يهلك عدوك ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) .

وقال الله تعالى فى سورة حم المؤمن : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان
 وقارون فقالوا ساحر كذاب ^(٢)) وكان فرعون الملك ، وهامان الوزير ، وكان قارون إسرائيلياً من قوم
 موسى ، إلا أنه كان على دين فرعون وملائه ، وكان ذا مال جزيل جداً ، كما ستأتى قصته فيما بعد إن
 شاء الله تعالى . (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد
 الكافرين إلا فى ضلال) ، وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى — إنما كان على وجه الإهانة والإذلال ،
 والتقابل لملاً بنى إسرائيل ؛ لثلاثا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ، ويصولون على القبط بسببها . وكانت
 القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يرد عنهم قدر الذى يقول للشىء كن فيكون . (وقال
 فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) .
 ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم : « صار فرعون مذكراً ^(٣) » . وهذا منه ؛ فإن فرعون فى زعمه
 يخاف على الناس أن يضلمهم موسى عليه السلام . (وقال موسى إنى عدت بربى وربكم من كل متكبر
 لا يؤمن بيوم الحساب) أى عدت بالله ولجأت إليه بجنابه — من أن يسطو فرعون وغيره على بسوء .
 وقوله : (من كل متكبر) أى جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهى ، ولا يخاف عذاب الله وعقابه ، لأنه
 لا يعتقد معاداً ولا جزاء . ولهذا قال : (من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب * وقال رجل مؤمن
 من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك
 كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب *)

(١) الآيات : ٨٤ - ٨٦ من سورة يونس (٢) الآيتان : ٢٣ - ٢٤ من سورة غافر ، وكذلك الآيات بعد .

(٣) جرى هذا القول مجرى التل .

ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد^(١) .

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون ، وكان بكنتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه . وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيلياً ، وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى ، والله أعلم .

قال ابن جريج قال ابن عباس : لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا ، والذي جاء من أقصى المدينة ، وامرأة فرعون ، رواه ابن أبي حاتم . وقال الدارقطني لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة - إلا مؤمن آل فرعون ، حكاه السهيلي . وفي تاريخ الطبراني : أن اسمه « خير » ، فالله أعلم .

والمقصود أن هذا الرجل كان بكنتم إيمانه ، فلما هم فرعون - لعنه الله - بقتل موسى عليه السلام ، وعزم على ذلك وشاور ملاءه فيه - خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأى . وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » . وهذا من أعلى مراتب هذا المقام ؛ فإن فرعون لأشد جوراً منه ، وهذا الكلام لا عدل منه ؛ لأن فيه عصمة نبي . ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه ، وصرح لهم بما كان يكتمه والأول أظهر ، والله أعلم . قال : (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) أى من أجل أنه قال ربي الله ؟ فمثل هذا لا يقابل بهذا ، بل بالإكرام والاحترام ، والمواذعة وترك الانتقام . يعنى لأنه (قد جاءكم بالبينات من ربكم) أى بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة ؛ لأنه (إن يك كاذباً فعليه كذبه) ولا يضركم ذلك ، (وإن يك صادقاً) وقد تعرضتم له - (يصبكم بعض الذي يعدكم) ، أى وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به ، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم ؟ وهذا الكلام في هذا المقام ، من أعلى مقامات التلطف والاحترام والعقل التام .

وقوله : (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض) . يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز ؛ فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم ، وذلوا بعد عزمهم . وكذا وقع لآل فرعون ؛ ما زالوا في شك وريب ، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به - حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملك ، والدور والقصور ، والنعمة والحبور . ثم حولوا إلى البحر مهانين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين . ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق ، البار الرشيد ، التابع للحق ، الناصح لقومه ، الكامل العقل : (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض) أى عالين على الناس حاكمين عليهم ، (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟) ، أى لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد

والعدة ، والقوة والشدة — لما نفعنا ذلك ، ولا رد عنا بأس مالك المالك . (قال فرعون) أى فى جواب هذا كله : (ما أرىكم إلا ما أرى) أى ما أقول لكم إلا ما عندى ، (وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد) ، وكذب فى كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين ؛ فإنه قد كان يتحقق فى باطنه وفى نفسه أن هذا الذى جاء به موسى — من عند الله لا محالة ، وإنما كان يظهر خلافه بغيًا وعدوانًا ، وعتوًا وكفرانًا . قال الله تعالى إخباراً عن موسى : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ، وإنى لأظنك يا فرعون مشبوراً * فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقتاه ومن معه جميعاً * وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيقاً^(١)) وقال تعالى : (فلما جاءهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين^(٢)) . وأما قوله : (وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد) — فقد كذب أيضاً ؛ فإنه لم يكن على رشاد من الأسم ، بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال : فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجهلة الضلال — إلى أن اتبعوه وطاعوه ، وصدقوه فيما زعم من الكفر المحال ؛ فى دعواه أنه رب ، تعالى الله ذو الجلال .

قال الله تعالى : (ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتى أفلا تبصرون ؟ * أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قومًا فاسقين * فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقتاهم أجمعين * فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين^(٣)) وقال تعالى : (فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسمي * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن فى ذلك لعلبرة لمن يخشى^(٤)) . وقال تعالى : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد * يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود^(٥)) .

والمقصود ببيان كذبه فى قوله : (ما أرىكم إلا ما أرى) ، وفى قوله : (وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد * وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عايكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد * ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد * يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضل الله فما له من هاد * ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولاً ، كذلك يضل الله من هو مسرف

(١) الآيات : ١٠٢ - ١٠٤ من سورة الإسراء (٢) الآيات : ١٣ ، ١٤ من سورة النمل .

(٣) الآيات : ٥١ - ٥٦ من سورة الزخرف (٤) سورة النازعات (٥) الآيات : ٩٦ - ٩٩ من سورة هود .

مرتاب * الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتام، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار^(١) .

يخدرهم ولى الله : إن كذبوا برسول الله موسى — أن يحل بهم ما حل بالأمم من قباهم ، من النقمات والمثلثات ؛ مما تواتر عندهم وعند غيرهم — مما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك ، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة ، في صدق ما جاءت به الأنبياء ، لما أنزل من النعمة بمكذبهم من الأعداء ، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة — وهو يوم التناد — أى حين ينادى الناس بعضهم بعضاً ، حين يولون إن قدروا على ذلك ، ولا إلى ذلك سيلاً . (يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر^(٢)) . وقال تعالى : (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لاتنفذون إلا بسلطان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران * فبأى آلاء ربكما تكذبان^(٣)) وقرأ بعضهم : (يوم التناد) بتشديد الدال^(٤) — أى يوم الفرار . ويحتمل أن يكون يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس ، فيودون الفرار ولات حين مناص (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لاتركضوا وارجعوا إلى ما أنزقم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون^(٥)) .

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر ، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم . وهذا من سلالته وذريته ؛ يدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته ، وأن لا يشركوا به أحداً من بريته . وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان ، وأن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل . ولهذا قال : (فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا) أى وكذبتم في هذا . ولهذا قال : (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتام) أى يريدون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده — بلا حجة ولا دليل عندهم من الله ؛ فإن هذا أمر يمتقته الله غاية المقت ، أى يبغض من تابس به من الناس ، ومن اتصف به من الخلق ، (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) . قرىء بالإضافة وبالنعت ، وكلاهما متلازم : أى هكذا إذا خالفت القلوب الحق — ولا تخالفه إلا بلا برهان — فإن الله يطبع عليها ، أى يحتم عليها .

(وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب)

(١) الآيات من سورة غافر (٢) الآيات من سورة القيامة (٣) الآيات من سورة الرحمن .

(٤) في التاموس : التناد — الفرق والتنافر ، ومنه يوم التناد وقرأ ابن عباس وجماعة .

(٥) الآيتان : ١٢ ، ١٣ من سورة الأنبياء .

كذب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله ، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم : (معاemt لكم من إله غيرى ، فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً) . وقال ههنا : (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات) أى طرقها ومسالكتها (فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً) . ويحتمل هذا معنيين : أحدهما وإنى لأظنه كاذباً في قوله إن للعالم رباً غيرى ، والثانى فى دعواه أن الله أرسله . والأول أشبه بظاهر حال فرعون ؛ فإنه كان يذكر ظاهراً إثبات الصانع ، والثانى أقرب إلى اللفظ حيث قال : (فأطلع إلى إله موسى) أى فأسأله هل أرسله أم لا ؟ (وإنى لأظنه كاذباً) أى فى دعواه ذلك . وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام ، وأن يحثهم على تكذيبه . قال الله تعالى : (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) ، وقرى : (وصدَّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) . قال ابن عباس ومجاهد : يقول إلا فى خسار — أى باطل ، لا يحصل له شىء من مقصوده الذى رامه ؛ فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً — أعنى السماء الدنيا — فكيف بما بعدها من السموات العلى ؟ وما فوق ذلك من الارتفاع الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل ؟ . وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح — وهو القصر الذى بناه وزيره هامان له — لم يربنا أعلى منه ، وأنه كان مبنياً من الآجر المشوى بالغار . ولهذا قال : (فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً) .

وعند أهل الكتاب : أن بنى إسرائيل كانوا يسخرون فى ضرب اللبن ، وكان مما حملوا من التكليف الفرعونية — أنهم لا يساعدون على شىء مما يحتاجون إليه فيه ، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه ، ويطلب منهم كل يوم قسط معين ، إن لم يفعلوه ضربوا وأهينوا غاية الإهانة ، وأوذوا غاية الأذى . ولهذا قالوا لموسى : (أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) . فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط ، وكذلك وقع ، وهذا من دلائل النبوة .

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه ، قال الله تعالى : (وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب^(١) . يدعوهم رضى الله عنه إلى طريق الرشاد والحق ، وهى متابعة نبي الله موسى ، وتصديقه فيما جاء به من عنده . ثم زهدهم فى الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ، ورجبهم فى طلب الثواب عند الله الذى لا يضيع عمل عامل لديه ، القدير الذى ملكوت كل شىء بيديه ، الذى يعطى على

القليل كثيراً ، ومن عدله لا يجازى على السيئة إلا مثاتها وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار ، التي من وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات - فلهم الجنات العاليات ، والغرف الآمات ، والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التي لا تبديد ، والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد .

ثم شرع في إبطال ما هم عليه ، وتخويفهم مما يصيرون إليه ، فقال : (ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) . كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهم يدعوونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون ، ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار : (ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) . ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان ، وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار ، فقال : (لا جرم أننا تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار) ، أي لا تملك تصرفاً ولا حكماً في هذه الدار ، فكيف تملكه يوم القرار ؟ وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار ، وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبيئهم ، فيدخل طائعتهم الجنة ، وعاصيهم إلى النار .

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله : (فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد) ، قال الله : (فوقاه الله سيئات ما مكروا) أي بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ، ومكرهم في صدهم عن سبيل الله ؛ مما أظهروا للامة من الخيالات والمخالات ، التي ألبسوا بها على عوامهم وطغمامهم . ولهذا قال : (وحاق) أي أحاط (بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) أي تعرض أرواحهم في برزخهم صباحاً ومساءً على النار . (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) . وقد تسكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في التفسير ، والله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم ، وإرسال الرسول إليهم ، وإزاحة الشبه عنهم ، وأخذ الحجة عليهم منهم ؛ بالترهيب تارة والترغيب أخرى ، كما قال تعالى : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن نصبهم سيئة بطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا

به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين^(١) .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون — وهم قومه من القبط — بالسنين وهي أعوام الجذب التي لا يستغل فيها زرع ولا يفتتح بضرع . وقوله : (ونقص من الثمرات) وهي قلة الثمار من الأشجار (لما هم يذكرون) أي فلم يفتنعوا ولم يرتدعوا ، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم . (فإذا جاءتهم الحسنة) وانلصب ونحوه (قالوا لنا هذه) أي هذا الذي نستحقه ، وهذا الذي يليق بنا ، (وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) أي يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ، ولا يقولون في الأول إنه : ببركتهم وحسن مجاورتهم ، ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة ، نافرة عن الحق ؛ إذ جاء الشر أسندوه إليه ، وإن رأوا خيراً ادعوه لأنفسهم . قال الله تعالى : (ألا إنما طأرهم عند الله) أي الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء . (ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أي مهما جئتنا به من الآيات — وهي الخوارق للعادات — فلسنا نؤمن بك ، ولا نتبعك ولا نطيعك ، ولو جئتنا بكل آية . وهكذا أخبر الله عنهم في قوله : (إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم^(٢)) . قال الله تعالى : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين) . أما الطوفان فعن ابن عباس : هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار ، وبه قال سعيد بن جبيرة وقتادة والسدي والضحاك ، وعن ابن عباس وعطاء : هو كثرة الموت . وقال مجاهد : الطوفان — الماء والطاعون على كل حال ، وعن ابن عباس : أمر طاف بهم . وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان عن المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن مينا عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « الطوفان الموت » ، وهو غريب .

وأما الجراد فعروف ، وقد روى أبو داود عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي قال : سئل رسول الله عن الجراد ، فقال : « أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه » . وترك النبي ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذر له ؛ كما ترك أكل الضب ، وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث ؛ لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد . وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير .

والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً^(٣) . وأما القمل فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة ، وعنه أنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له ، وبه قال

(١) الآيات ١٣٠ — ١٣٣ من سورة الأعراف . (٢) الآيات ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٣) السبد بالتحريك : القليل من الشعر ، واللبد : المتلبد من الصوف ، والمراد لم يترك لهم قليلاً ولا كثيراً .

نجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد بن جبير والحسن : هو دواب سود صفار . وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : القمل - البراغيث . وحكى ابن جرير عن أهل العربية : أنها الخنثان^(١) وهو صفار القردان فوق القمامة^(٢) فدخل معهم البيوت والفرش ، فلم يقر لهم قرار ، ولم يتمكنهم معه الغمض ولا العيش . وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المروف . وقرأها الحسن البصرى كذلك بالتخفيف .

وأما الضفادع فمعروفة ؛ لبستهم حتى كانت تسقط في أطعماتهم وأوانيهم ، حتى إن أحدهم إذا فتح فيه لطعام أو شراب - سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع . وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دمماً عبيطاً ، ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دمماً في الساعة الراهنة - هذا كله لم ينل بنى إسرائيل من ذلك شيء بالسكينة . وهذا من تمام المعجزة الباهرة ، والحجة القاطعة ، أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام . فيما لهم عن آخرهم ، ولا يحصل هذا لأحد من بنى إسرائيل ، وفي هذا أدل دليل .

قال محمد بن إسحق : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً ، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتماذي في الشر ، فتابع الله عليه بالآيات ، فأخذه بالسنين : فأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم - آيات مفصلات ؛ فأرسل الطوفان - وهو الماء - ففاض على وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدر على أن يجرثوا ولا أن يعملوا شيئاً ، حتى جهدوا جوعاً ، فلما بلغهم ذلك (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ونرسلن معك بنى إسرائيل) ، فدعا موسى ربه فكشفه عنهم . فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا - أرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر فيما باغى ، حتى إن كان لياً كل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا . فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لى أن موسى - عليه السلام - أمر أن يمشی إلى كئيب حتى يضربه بعصاه فمشی إلى كئيب أهيل عظيم ، فضربه بها ، فانتال عليهم قمل ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ، ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم . فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا - أرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً ، إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا بشيء مما قالوا . فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دماً ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء ، إلا عاد وما عبيطاً . وقال زيد بن أسلم : المراد بالدم الرعاف ، رواه ابن أبي حاتم .

(١) واحدها حنثانة بالهاء (٢) قال في اللسان : القمامة : صفار القردان ، وضرب من القمل شديد التشبث بأصول الشعر ، واحدها قمامة ، وقيل هي الفراء أول ما يكون صغيراً لا يكاد يرى من صفره .

قال الله تعالى : (ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون * فانتقمنا منهم فأغرقتناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل ، والاستكبار عن اتباع آيات الله ، وتصديق رسوله ، مع ما أيده به من الآيات العظيمة الباهرة ، والحجج البليغة القاهرة ، التي أراهم الله إياها عياناً ، وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً . وكلما شاهدوا آية وعابنوها ، وجهدهم وأضنكهم - حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به ، وليرسلن معه من هو من حزبه ، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه ، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه ، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى ، فيقولون فيكذبون ، ويعدون ولا يفون : (لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) فيكشف عنهم ذلك العذاب الويل ، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل . هذا : والعظيم الخليم القدير ، ينظرهم ولا يعجل عليهم ، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم . ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم ، والإنذار إليهم - أخذ عزيز مقتدر ؛ فجعلهم عبرة ونكالا وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين ، ومثلاً لمن اتهم من عباده المؤمنين . كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين ، في سورة حم والكتاب المبين : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائته فقال إلى رسول رب العالمين * فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون * وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون * وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون * فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون * ونادى فرعون في قومه ، قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين * فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقتناهم أجمعين * فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين^(١)) .

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم - إلى فرعون الخسيس اللثيم . وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات ، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق ، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ، ويرجعوا إلى الحق والصرط المستقيم ؛ فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون ، وعن سبيل الله يصدون وعن الحق ينصرفون . فأرسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضاً ، وكل آية أكبر من التي تتلوها ؛ لأن التوكيد أبلغ مما قبله (وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون * وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون) لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً ؛ لأن علماءهم في ذلك الوقت هم

(١) الآيات : ٤٦ - ٥٦ من سورة الزخرف .

السحرة ، ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه ، وضراعتهم لديه ، قال الله تعالى : (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) . ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه ، وعظمة بلده وحسنها ، وتحرق الأنهار فيها — وهي الخلجانات^(١) التي يكسرونها أمام زيادة النيل . ثم تبجح بنفسه وحليته ، وأخذ ينتقص رسول الله موسى عليه السلام ، ويزدر به بكونه (لا يكاد يبين) — يعني كلامه — بسبب ما كان في لسانه من يقية تلك اللثغة ، التي هي شرف له وكال وجمال ، ولم تسكن مانعة له أن كلمة الله تعالى وأوحى إليه ، وأنزل بمد ذلك التوراة عليه .

وتنقصه فرعون — لعنه الله — بكونه لا أساور في يديه ، ولا زينة عليه ، وإنما ذلك من حلية النساء ، لا يليق بشهامة الرجال ، فكيف بالرسول الذين هم أكمل عقلاً ، وأتم معرفة ، وأعلى همة وأزهد في الدنيا ، وأعلم بما أعد الله لأوليائه في الأخرى ؟ وقوله : (أوجاء معه الملائكة مقترنين) لا يحتاج الأمر إلى ذلك ؛ فإن كان المراد أن تعظمه الملائكة — فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير ؛ كما جاء في الحديث : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع » فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكريم عليه الصلاة والتسليم والتكريم . وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة — فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوى الأبواب ، ولمن قصد إلى الحق والصواب ، ويعنى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات — من نظر إلى القشور ، وترك لب اللباب ، وطبع على قلبه رب الأرباب ، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب ، كما هو حال فرعون القبطى العمى الكذاب .

قال الله تعالى : (فاستخف قومه فأطاعوه) أى استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال — إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم (إنهم كانوا قوماً فاسقين * فلما آسفونا) أى أغضبونا (انتقمنا منهم) أى بالفرق والإهانة وسلب العز ، والتبديل بالذل وبالعذاب بعد النعمة ، والهوان بعد الرفاهية ، والنار بعد طيب العيش ، عياداً بالله العظيم ، وسلطانه القديم من ذلك (فجعلناهم سلفاً) أى لمن اتبعهم في الصفات (ومثلاً) أى لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ، بمن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم ، كما قال الله تعالى : (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين * وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون * وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لسكم من إله غيرى فأوقد لى ياها مان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلبنا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم

من المقبوحين^(١)) يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق ، وادعى ملكهم الباطل وواقفوه عليه وأطاعوه فيه - اشتد غضب الرب القدير العزيز ، الذي لا يغالب ولا يمانع عليهم . فانتقم منهم أشد الانتقام ، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة ، فلم يفلت منهم أحد ، ولم يبق منهم ديار . بل كل قد غرق فدخل النار ، وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين ، ويوم القيامة بأس الرفد المرفود ، ويوم القيامة هم من المقبوحين .

ذكر هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم ؛ متابعة لملكهم فرعون ، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام - أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات مابهر الأبصار وحير العقول ، وهم مع ذلك لا يرعون ولا يبتهون ، ولا ينزعون ولا يرجعون ، ولم يؤمن منهم إلا القليل . قيل ثلاثة : وهم امرأة فرعون - ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ، ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم ، والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصى المدينة ، فقال : (ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين) . قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ، ومراده غير السحرة ؛ فإنهم كانوا من القبط . وقيل بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون ، والسحرة كلهم ، وجميع شعب بنى إسرائيل . ويدل على هذا قوله تعالى : (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين^(٢)) فالضمير في قوله : (إلا ذرية من قومه) عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه ، وقيل على موسى لقربه ، والأول أظهر كما هو مقرر في التفسير ، وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته ، وجبروته وسلطته ، ومن ملأهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيداً : (وإن فرعون لعال في الأرض) أى جبار عنيد مستعل بغير الحق ، (وإنه لمن المسرفين) أى فى جميع أموره وشئونه وأحواله . ولكنه جرثومة قد حان انجافها^(٣) ، وثمره خبيثة قد آن قطافها ، ومهجة ملعونة قد حتم إنلافها . وعند ذلك قال موسى : (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) . يأسروهم بالتوكل على الله ، والاستعانة به ، والالتجاء إليه ، فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً .

(وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة

(١) الآيات : ٣٦ - ٤١ من سورة القصص (٢) الآية : ٨٣ من سورة يونس ، وكذلك ما بعدها .

(٣) اقتلاعها واستئصالها . يقال : جففه - صرعه ، وجفف الشجرة - اقتلعها فأنجفت .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) . أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام : أن يتخذوا لقومها بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ؛ ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوتهم بعض . وقوله : (واجعلوا بيوتكم قبلة) . قيل مساجد ، وقيل معناه كثرة الصلاة فيها ، قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم ، ومعناه على هذا : الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضييق - بكثرة الصلاة ، كما قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة) ، وكان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى . وقيل معناه : أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم ، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ؛ عوضاً عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان ، الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملائته . والمعنى الأول أقوى لقوله : (وبشر المؤمنين) . وإن كان لا ينافي الثاني أيضاً والله أعلم . وقال سعيد ابن جبير : (واجعلوا بيوتكم قبلة) - أى متقابلة^(١) .

(وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأمواالا في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) * قال قد أحييت دعوتكم كما فاستقيماً ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون^(٢) هذه دعوة عظيمة دعا بها كلم الله موسى على عدو الله فرعون ، غضباً لله عليه ؛ لتكبره عن اتباع الحق ، وصدده عن سبيل الله ومعاهدته ، وعتوه وتمرده ، واستمراره على الباطل ، ومكابرتة الحق الواضح الجلي - الحسى والمعنوى - والبرهان القطعى ، فقال : (ربنا إنك آتيت فرعون وملائه) يعنى قومه من القبط ، ومن كان على ملته ودان بدينه - (زينة وأمواالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) أى وهذا يفتر به من يعظم أمر الدنيا ، فيحسب الجاهل أنهم على شىء . لكن هذه الأموال وهذه الزينة ، من اللباس والمراكب الحسنة الهنية ، والدور الأنيقة والقصور المبنية ، والمآكل الشهية والمناظر البهية ، والملك العزيز والتمكين ، والجاه العريض - فى الدنيا لا الدين . (ربنا اطمس على أموالهم) ، قال ابن عباس ومجاهد : أى أهلكتها ، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك : اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت ، وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم صارت حجارة ، وقال محمد بن كعب : جعل سكرهم حجارة ، وقال أيضاً : صارت أموالهم كلها حجارة . ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز ، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له : قم انثنى بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة ، رواه ابن أبي حاتم . وقوله (واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) قال ابن عباس : أى اطبع عليها . وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهيمه ، فاستجاب الله تعالى لها ، وحققها وتقبلها ، كما استجاب لنوح فى قومه حيث قال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) .

ولهذا قال تعالى مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملائه ، وأمن أخوه هارون على دعائه ، فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً : (قال قد أجيبت دعوتكما قاستقيا ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) .

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم ، فأذن لهم وهو كاره ، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له ، وإنما كان في نفس الأرض مكيدة بفرعون وجنوده ، ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم . وأمرهم الله تعالى — فيما ذكره أهل الكتاب — أن يستعبروا حلياً منهم ، فأعاروهم شيئاً كثيراً ، فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم ، طالبين بلاد الشام . فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق ، واشتد غضبه عليهم ، وشرع في استحاث جيشه وجمع جنوه ، ليلحقهم ويمحقهم . قال الله تعالى : (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعنادى إنكم متبعون * فأرسل فرعون في المداثر حاشرين * إن هؤلاء لشردمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجمع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فاتبعوهم مشرقين * فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم)^(١) .

قال علماء التفسير : لما ركب فرعون في جنوده طالباً بنى إسرائيل يقفوا أثرهم — كان في جيش كثيف عمرهم ، حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم ، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستائة ألف ، فأنه أعلم . وقيل إن بنى إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية ، وكان بين خروجه من مصر حبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها محبة أبيهم إسرائيل أربعة سنة وستا وعشرين سنة شمسية . والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود ، فأدركهم عند شروق الشمس ، وتراء الجمعان ، ولم يبق ثم ريب ولا بس ، وعان كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والحاماة . فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون : (إنا لمدركون) وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر^(٢) فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكة وخوضه ، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه ، والجبال عن يسرتهم وعن أيمنهم وهي شاهقة منيفة ، وفرعون قد غالقهم وواجههم ، وعانوه في جنوده وجيوشه وعدده وعدده ، وهم منه في غاية الخوف والذعر ؛ لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر . فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعانوه . فقال لهم الرسول الصادق المصدوق : (كلا إن معي ربي سيهدين) وكان في الساقية ، فتقدم إلى المقدمة . ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأواجه ، ويتزايد زبد أجاجه ، وهو يقول :

(١) الآيات : ٥٢ — ٦٨ من سورة الشعراء (٢) حقق بعض المؤرخين أن هبورهم من خليج السويس ، شمالي السكان المعروف الآن بعبون موسى في البر الأسيوي وهي لا تبعد كثيراً عن السويس .

ههنا أمرت . ومعه أخوه هرون ، ويوشع بن نون - وهو يومئذ من سادات بنى إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار - وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهرون عليهما السلام ، كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ، ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون ، وهم وقوف ، وبنو إسرائيل بكالم عليهم عكوف . ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يفتحم بفرسه مراراً في البحر ، هل يمكن سلوكه ؟ فلا يمكن . ويقول لموسى عليه السلام : يا نبي الله أهنا أمرت ؟ فيقول : نعم .

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر ، واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدتهم ، وغضبهم وحنقهم ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر - عند ذلك أوحى الخليم العظيم القدير ، رب العرش الكريم ، إلى موسى الكليم : (أن اضرب بعصاك البحر) . فلما ضرب به ، يقال إنه قال له : انفلق ياذن الله ، ويقال : إنه كناه بأبي خالد ، فأنه أعلم . قال الله تعالى : (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) . ويقال إنه انفلق اثني عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يسيرون فيه . حتى قيل إنه صار فيه أيضاً شبابيك ليرى بعضهم بعضاً وفي هذا نظر ؛ لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه . وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال ، مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون . وأمر الله ريح الدبور فلقت حال^(١) البحر فأذهبتة ، حتى صار يابساً لا يعلق في سنايك الخيول والدواب . قال الله تعالى : (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً * لا تخاف دركاً ولا تخشى * فأتبعهم فرعون يجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم * وأضل فرعون قومه وما هدى^(٢)) .

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال ، بإذن الرب العظيم الشديد الحال - أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل ، فأبحروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين ، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ، ويهدى قلوب المؤمنين . فلما جاوزوه وجاوزوه وخرج آخرهم منه ، وانفصلوا عنه - كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ، ووفودهم عليه . فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه ؛ لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ، ولا سبيل عليه ، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال ، كما قال وهو الصادق في المقال : (ولقد فتننا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين * وأن لا تعولوا على الله إني آتيتكم بسطان مبين * وإني عدت بربي وربكم أن ترجون * وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون * فدعاه ربهم أن هؤلاء قوم مجرمون * فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون * وأترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون * كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها

(١) أي طينه الأسود قال في التاموس : الحال - العطين الأسود (٢) الآيات : ٧٧ - ٧٩ من سورة طه .

قوماً آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين * ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين * ولقد اخترناهم على علم على العالمين * وأتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين^(١). فقوله تعالى : (واترك البحر رهواً) أى ساكناً على هيئته ، لا تغيره عن هذه الصفة . قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

فلما تركه على هيئته وحالته ، وانتهى فرعون ، فرأى مارأى وعين ماعين - هاله هذا المنظر العظيم ، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك - من أن هذا من فعل رب العرش الكريم . فأحجم ولم يتقدم ، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم . لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النفس الكافرة والسجبية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه ، وعلى باطله تابعوه : انظروا كيف انحسر البحر لى ؟ لأدرك عبيدى الآبقين من يدي ، الخارجين على طاعتي وبلدى ؟ وجعل يورى في نفسه أن يذهب خلفهم ، ويرجو أن ينجو وهيهات ، ويقدم تارة ويحجم تارات . فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى في صورة فارس راكب على رَمَكَة حائل^(٢) فر بين يدي فخل فرعون لعنه الله ، فحجم إليها وأقبل عليها ، وأسرع جبريل بين يديه فاقطم البحر ، واستبق الجنود وقد أجاد ، فبادر مسرعاً هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعاً ، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين ، فخلصوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين . حتى هم أولهم بالخروج منه ، فعند ذلك أمر الله تعالى كلمه فيما أوحاه إليه - أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان ، فلم ينج منهم إنسان . قال الله تعالى : (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم) أى في إنجائه أوليائه فلم يفرق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد ، آية عظيمة ، وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة ، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة ، والمناهج المستقيمة .

وقال تعالى : (وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون)^(٣) . يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفره القبط ، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه

(١) الآيات : ١٧ - ٢٣ من سورة الدخان .

(٢) الرمكة بالتحريك : الفرس البرذونة تتخذ للنسل ، والحائل : التى حمل عليها فلم تلتفح .

(٣) الآيات : ٩٠ - ٩٢ من سورة يونس .

تارة وترفعه أخرى ، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ، ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ؛ ليكون أقر لأعين بني إسرائيل ، وأشفى لنفوسهم . فلما عين فرعون الهللكة وأحيط به ، وبأشر سكرات الموت - أناب حينئذ وتاب ، وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها ؛ كما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) . وقال تعالى : (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون)^(١) . وهكذا دعا موسى على فرعون وملائته ، أن يطمس على أموالهم ، ويشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم - أي حين لا ينفعهم ذلك ، ويكون حسرة عليهم . وقد قال تعالى لها - أي لموسى وهرون - حين دعوا بهذا : (قد أجيبت دعوتكما) ، فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليهما وأخيه هرون عليهما السلام . ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قال فرعون : (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) - قال لي جبريل : لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدمسته في فيه ، مخافة أن تناله الرحمة » . ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة ، وقال الترمذي حديث حسن . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل : لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تناله الرحمة » . ورواه الترمذي وابن جرير من حديث شعبة ، وقال الترمذي حسن غريب صحيح وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أغرق الله فرعون وأشار بإصبعه ورفع صوته : (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) قال : تخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه ، فجعل يأخذ الحبال بمخاقيه ، فيضرب به وجهه فيرمسه^(٢) . ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به . وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروف ، وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل : يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحبال في فيه ، مخافة أن يدركه رحمة الله فيغفر له » . يعنى فرعون . وقد أرسله غير واحد من السلف كابراهيم التيمي وقتادة وميمون ابن مهران ، ويقال إن الضحاك بن قيس خطب به الناس . وفي بعض الروايات إن جبريل قال : ما بغضت أحدا بغضى لفرعون حين قال : (أنا ربكم الأعلى) ، ولقد جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال .

وقوله تعالى : (آ لآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) - استفهام إنكار ، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك ؛ لأنه - والله أعلم - لورد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه ، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونسكون من المؤمنين) . قال الله : (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) . وقوله : (فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية) . قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بنى إسرائيل في موت فرعون ، حتى قال بعضهم إنه لا يموت . فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع ؛ قيل على وجه الماء ، وقيل على نجوة من الأرض ، وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ، ليتحققوا بذلك هلاكه ، ويعلموا قدرة الله عليه . ولهذا قال : (فاليوم ننجيك بيدك) أى مصاحباً درعك المعروفة بك ؛ (لتكون) أى أنت - آية (لمن خلفك) أى من بنى إسرائيل ، ودليلاً على قدرة الله الذى أهلكك ، ولهذا قرأ بعض السلف : لتكون لمن خَلَقَكَ آية^(١) . ويحتمل أن يكون المراد : ننجيك بجسدك مصاحباً درعك ؛ لتكون علامة لمن وراءك من بنى إسرائيل على معرفتك وأنت هلكت ، والله أعلم . وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء ، كما قال الإمام البخارى في صحيحه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : « ما هذا اليوم الذى تصومونه ؟ » فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أتم أحق بموسى منهم فصوموا » . وأصل هذا الحديث فى الصحيحين وغيرها . والله أعلم .

فصل فيما كان من أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى : (فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون * وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبنعكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين * وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم^(٢)) . يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده فى غرقهم ، وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم ، وأورث بنى إسرائيل جميع أموالهم وأملأهم ، كما قال : (كذلك

(١) أى بالتفاف ، ومعناه : لتكون لخالك آية على قدرته كسائر آياته (٢) الآيات : ١٣٦ - ١٤١ من الأعراف .

وأورثناها بني إسرائيل^(١)) وقال : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين^(٢)) ، وقال ههنا : (وأرثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أى أهلك ذلك جميعه ، وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا ، وهلك الملك وحاشيته وأمرأؤه وجنوده ، ولم يبق ببلد مصرى سوى العامة والرعايا . ذكر ابن عبد الحكم في تاريخ مصر : أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصرى على رجالها ؛ بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة ، فكانت هن السطوة عليهم . واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومنا هذا . وعند أهل الكتاب : أن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملاً من الغنم ، فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار وجاره فيه . فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ؛ ليكون علامة لهم على بيوتهم . ولا يأكلونه مطبوخاً ، ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه ، ولا يبقوا منه شيئاً ، ولا يكسروا له عظماً ، ولا يخرجوا منه شيئاً إلى خارج بيوتهم . وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام : ابتداءها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم ، وكان ذلك في فصل الربيع ، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة ، وخفافهم في أرجلهم ، وعصيهم في أيديهم ، وليأكلوا بسرعة قياماً . ومهما فضل عن عشاءهم فما بقى إلى الغد فليحرقه بالنار . وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم مادامت التوراة معمولاً بها ، فإذا نسخت بطل شرعها وقد وقع . قالوا : وقتل الله عز وجل في تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم ؛ ليشتغلوا عنهم . وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار ، وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم ، ليس من بيت إلا وفيه عويل . وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين ، فحملوا العجين قبل اختارهم ، وحملوا الأزواد^(٣) في الأردية وألقوها على عواتقهم . وكانوا قد استماروا من أهل مصر حلياً كثيراً ، فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذراري بما معهم من الأنعام ، وكانت مدة مقامهم بمصر أربعائة سنة وثلاثين سنة ، هذا نص كتابهم .

وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ ، وهذا العيد عيد الفسخ . ولهم عيد الفطير ، وعيد الحمل وهو أول السنة . وهذه الأعياد الثلاثة أكد أعيادهم ، منصوب عليها في كتابهم . ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام . وخرجوا على طريق بحر سوف ، وكانوا في النهار يسبرون والسحاب بين أيديهم - يسير أمامهم فيه عمود نور ، وبالليل أمامهم عمود نار ، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك ، وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين ، وهم هناك حلول على

(١) الآية : ٥٩ من سورة الشعراء (٢) الآية : ٥٠ من سورة القصص (٣) جمع زاد وهو طعام يتخذ للسفر .

شاطيء اليم ، فقلق كثير من بني إسرائيل ، حتى قال قائلهم : كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية . فقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة : لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدكم بعد هذا . قالوا : وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ، وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس . وصار الماء من هاهنا وهاهنا كالجبلين ، وصار وسطه يبساً ؛ لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم . فجاز بنو إسرائيل البحر وأتبعهم فرعون وجنوده ، فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه ، فرجع الماء كما كان عليهم . لكن عند أهل الكتاب : أن هذا كان في الليل ، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح . وهذا من غلظهم وعدم فهمهم في تعريبهم ، والله أعلم . قالوا ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ - سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب ، وقالوا : « سبح الرب البهي ، الذي قهر الجنود ، ونبذ فرسانها في البحر المنيع الحمود » ، وهو تسبيح طويل . قالوا وأخذت مريم النبية - أخت هارون - دفاً بيدها ، وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول . وجعلت مريم ترتل لمن وتقول : سبحان الرب القهار ، الذي قهر الخيول وركبانها إلقاء في البحر . هكذا رأته في كتابهم . ولعل هذا هو من الذي حمل محمد بن كعب القرظي على زعمه : أن مريم بنت عمران أم عيسى - هي أخت هرون وموسى ، مع قوله : (يا أخت هرون) .

وقد بينا غلظه في ذلك ، وأن هذا لا يمكن أن يقال ، ولم يتابعه أحد عليه ، بل كل واحد خالفه فيه . ولو قدر أن هذا محفوظ ، فهذه مريم بنت عمران - أخت موسى وهرون عليها السلام . وأم عيسى عليها السلام وافقتها في الاسم واسم الأب واسم الأخ ؛ لأنهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة ، لما سأله أهل نجران عن قوله : يا أخت هرون فلم يدر ما يقول لهم ، حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم؟ » ، رواه مسلم . وقولهم النبية ؛ كما يقال للمرأة من بيت الملك - ملكة ، ومن بيت الإمرة أميرة ، وإن لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك . فكذا هذه استعارة لها - لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها . وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم - دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف في العيد . وهذا مشروع لنا أيضاً في حق النساء ؛ لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدف في أيام منى ، ورسول الله ﷺ مضطجع مولى ظهره إليهم ، ووجهه إلى الخائط . فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال : أبزمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : « دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا » . وهكذا يشرع عندنا في الأعراس ولقدوم الغياب ، كما هو مقرر في موضعه ، والله أعلم . وذكروا أنهم لما جازوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام - مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء ، فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك ، فوجدوا ماء زعافاً أجاباً لم يستطيعوا شربه ، فأمر الله موسى

فأخذ خشبة فوضعها فيه ، فحلا وساغ شربه . وعلمه الرب هنالك فرائض وسنناً ، ووصاه وصايا كثيرة . وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز ، اللهمم على ماعدها من السكتب : (وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا إلهها كما لهم آلهة ، قال إنكم قومًا تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون ^(١)) . قالوا هذا الجهل والضلال ، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ، مادهم على صدق ماجاءهم به رسول ذى الجلال والإكرام . وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناماً : قيل كانت على صور البقر ، فكأنهم سألوهم لم يعبدونها ؟ فرعوا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ، ويستترزون بها عند الضرورات . فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك ، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم ، أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة ، فقال لهم - مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون : (إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

ثم ذكروهم نعمة الله عليهم ، في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع ، والرسول الذى بين أظهرهم ، وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد ، وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملأؤه يجمعونه من الأموال والسعادة ، وما كانوا يعرشون . وبين لهم أنه لا تصالح العبادة إلا لله وحده لا شريك له ؛ لأنه الخالق الرازق القهار ، وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال ، بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله : (وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) - أى قال بعضهم ، كما في قوله : (وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً * وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ^(٢)) فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلى عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فررنا بسدرة ^(٣) فقلنا يارسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ^(٤) وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، إنكم تكونون سنن الذين من قبلكم » . ورواه النسائي عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به . ورواه الترمذى عن سعيد ابن عبد الرحمن الخزرجى عن سفيان بن عيينة عن الزهري به ، ثم قال حسن صحيح . وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحق ومعمر وعقيل عن الزهري عن سنان بن أبي سنان

(١) الآيتان : ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة الكهف

(٣) السدرة : شجرة النبق .

(٤) النوط : كل معلق من شيء ، والأنواط - المعاليق . وذات أنواط : اسم شجرة كانت تعبد في الجاهلية ، كان

المشركون ينوطون سلاحهم بها - أى يعلقونه بها ويعكفون حولها .

عن أبي واقد الليثي : أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، قال : وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ، ويلقون بها أسلحتهم ، يقال لها « ذات أنواط » . قال فررنا بسدرة خضراء عظيمة ، قال : فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . قال : « قاتم والذي نفسى بيده ، كما قال قوم موسى : (اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبرماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

والمقصود أن موسى عليه السلام ، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس - وجد فيها قومًا من الجبارين ، من الحيثانيين والفرزاريين والكنعانيين وغيرهم ، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم ، وإجلالهم إياهم عن بيت المقدس ؛ فإن الله كتبه لهم ، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل ، وموسى الكليم الجليل ، فأبوا ونكلوا عن الجهاد . فسلط الله عليهم الخوف ، وألقاهم في التيه ، يسرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويحيثون ، في مدة من السنين طويلة - هي من العدد أربعون كما قال الله تعالى : (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين * يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تتردوا على أديباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجالان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون * وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون * قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ^(١)) .

يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية ، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال : (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا تتردوا على أديباركم) - أي تنكصوا على أعقابكم ، وتنكصوا ^(٢) عن قتال أعدائكم (فتنقلبوا خاسرين) أي فتخسروا بعد الربح ، وتنقصوا بعد الكمال . (قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين) أي عتاة كفرية متمردين ، (وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون ، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً ، وأكثر جمعاً وأعظم جنداً . وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة ، ومذمومون على هذه الحالة ؛ من الذلة عن مصالوة الأعداء ، ومقاومة المردة الأشقياء .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثراً فيها مجازات كثيرة باطلة ، يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاماً جداً ، حتى إنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم -

(٢) أي تجنبوا .

(١) الآيات : ٢٠ - ٢٦ من سورة المائدة

تلقاهم رجل من رسل الجبارين ، فجعل يأخذهم واحداً واحداً ، ويلفهم في أكمامه وحجارة سراويله - وهم اثنا عشر رجلاً - فجاء بهم ففترهم بين يدي ملك الجبارين ، فقال ما هؤلاء ؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه . وكل هذه هيانات وخرافات لاحتمية لها . وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفي الرجل ، وشيثاً من ثمارهم ليماموا ضخامة أشكالهم ، وهذا ليس بصحيح .

وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم ، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع . هكذا ذكره البغوي وغيره ، وليس بصحيح ، كما قدمنا بيانه عند قوله عليه السلام : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » . قالوا فعمد عوج إلى قمة جبل فافتلعها ، ثم أخذها بيديه لياقيها على جيش موسى ، فجاء طائر ففقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقاً في عنق عوج بن عنق . ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع ، ويده عصاه وطولها عشرة أذرع ، فوصل إلى كعب قدمه فقتله . يروى هذا عن عوف البكالي ، ونقله ابن جرير عن ابن عباس ، وفي إسناده إليه نظر . ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات ، وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل ؛ فإن الأخبار الكذبة قد كثرت عندهم ، ولا تميز لهم بين صحتها وباطلها . ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النسكول عن قتالهم ، وقد ذمهم الله على نسكولهم ، وعاقبهم بالنبيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم . وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ، ونهياهم عن الإحجام . ويقال : إنهما يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس ، وغير واحد .

(قال رجلان من الذين يخافون) أى يخافون الله ، وقرأ بعضهم يخافون - أى يهابون (أنعم الله عليهما) أى بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (أى إذا توكلتم على الله ، واستعتم به ولجأتم إليه - نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم .) قالوا يا موسى إننا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فصم ملوهم على النسكول عن الجهاد ، ووقع أمر عظيم ووهن كبير ، فيقال إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام - شقا ثياهما ، وإن موسى وهرون سجدا - إعظاماً لهذا الكلام وغضباً لله عز وجل ، وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة ، (قال رب إني لأملك إلا نفسي وأخي ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) قال ابن عباس : اقض بيني وبينهم . (قال فإنها محرمة عليهم أر بعين سنة يقيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) عوقبوا على نسكولهم بالتيهان في الأرض ؛ يسرون إلى غير مقصد ، ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً . ويقال إنه لم يخرج أحد من التيه من دخله ، بل ماتوا كلهم في مدة أر بعين سنة ، ولم يبق إلا ذرارهم - سوى يوشع وكالب عليهما السلام .

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى ؛ بل لما استشارهم في الذهاب إلى النضير^(١) — تكلم الصديق فأحسن ، وتكلم غيره من المهاجرين . ثم جعل يقول : « أشيروا علي » ، حتى قال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يارسول الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق^(٢) في اللقاء ، لعل الله أن يرريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن مخارق بن عبد الله الأحسى عن طارق — هو ابن شهاب — أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : يارسول الله إنا لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . وهذا إسناد جيد من هذا الوجه ، وله طرق أخرى .

قال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال : قال عبد الله بن مسعود : لقد شهدت من المقداد مشهداً ، لأن أكون أنا صاحبه — أحب إلي مما عدل به . أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين ، فقال : والله يارسول الله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ، ولكننا نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ، ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك . رواه البخاري في التفسير ، والمغازي من طرق عن مخارق به . وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا علي بن الحسين بن علي ، حدثنا أبو حاتم الرازي ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، حدثنا حميد عن أنس : أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر ، استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار : يامعشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ ، قالوا : إذا لانقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى : (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ، والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك^(٣) الغماد لاتبعناك ، رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد عن حميد الطويل عن أنس به . ورواه النسائي عن محمد بن المثني عن خالد بن الحارث عن حميد عن أنس به نحوه . وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى عن عبد الأعلى بن حماد عن معمر عن حميد عن أنس به نحوه .

(١) هم الذين جاءوا لمنع العير التي كانت مع أبي سفيان ، وكانوا في جمع بين التسعمائة والألف وهم على أم الاستعداد كما ذكره المؤرخون .

(٢) صبر وصدق — بضمين فهما : جمعا صبور وصدق .

(٣) قال في الغاموس : برك الغماد بالفتح والكسر — موضع باليمن ، أو وراء مكة بخمس ليال ، أو أقصى معمور الأرض ، ولعل هذا هو المراد هنا .

فصل في دخول بني إسرائيل التيه

وما جرى لهم فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبارين ، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه ، وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة . ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين ، ولكن فيها : أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار ، وأن موسى وهرون وخور - جلسوا على رأس أكمة ، ورفع موسى عصاه ، فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم ، وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه - غلبهم أولئك ، وجعل هرون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس ، فانتصر حزب يوشع عليه السلام . وعندهم أن « يثرون » كاهن مدين وختن موسى عليه السلام - بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون ، فقدم على موسى مسلماً ، ومعه ابنته « صفورا » زوجة موسى ، وابناها منه : جرشون ، وعازر ، فتلقاه موسى وأكرمه ، واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظموه وأجلوه .

وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم ، فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفاء ؛ يفيضون الرشاء والخيانة ، فيجعلهم على الناس رهوس أوف ، ورهوس مئين ، ورهوس خمسين ، ورهوس عشرة - فيقضوا بين الناس ، فإذا أشكل عليهم أمر جاءوك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم ، ففعل ذلك موسى عليه السلام .

قالوا : ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء - في الشهر الثالث من خروجهم من مصر . وكان خروجهم في أول السنة التي شرعت لهم - وهي أول فصل الربيع ، فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف ، والله أعلم . قالوا : ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء ، وصعد موسى الجبل فكلمه ربه ، وأمره أن يذكر بني إسرائيل ما أنعم به عليهم ؛ من إنجائه إياهم من فرعون وقومه ، وكيف حملهم على مثل جناح نسر من يده وقبضته ، وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهروا و يغتسلوا و يفسلوا ثيابهم وليستمدوا إلى اليوم الثالث ، فإذا كان في اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ، ولا يقترن أحد منهم إليه ؛ فمن دنا منه قتل ، حتى ولا شيء من البهائم - ماداموا يسمعون صوت القرن^(١) فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه ، فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا .

فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة ، وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جداً . ففرع بنو إسرائيل من ذلك فرعاً شديداً ، وخرجوا فقاموا في سفح الجبل ، وغشى الجبل دخان

عظيم في وسطه عمود نور زلزل الجبل كله زلزلة شديدة ، واستمر صوت الصور — وهو البوق — واشتد . وموسى عليه السلام فوق الجبل ، والله يكلمه ويناجيه . وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل ؛ فأمر بنى إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليستمعوا وصية الله ، وأمر الأحبار — وهم علماءهم — أن يدنوا فيصعدوا الجبل ، ليتقدموا بالقرب . وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة . فقال موسى : يارب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوه ، وقد نهيتهم عن ذلك ، فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتي معه بأخيه هرون ، وليسكن الكهنة وهم العلماء ، والشعب وهم بقية بنى إسرائيل — غير بعيد ، ففعل موسى وكله ربه عز وجل ، فأمره حينئذ بالعشر الكلمات .

وعندهم أن بنى إسرائيل سمعوا كلام الله ، ولكن لم يفهموا حتى فهمهم موسى . وجعلوا يقولون لموسى : بلغنا أنت عن الرب عز وجل ، فإننا نخاف أن نموت . فبلغهم عنه فقال : هذه العشر الكلمات وهي : الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والنهي عن الحلف بالله كاذباً . والأمر بالمحافظة على السبت — ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة ، وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السبت — أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض . الذي يعطيك الله ربه . لا تقتل . لا تزني . لا تسرق . لا تشهد على صاحبك شهادة زور لا تمد عينك إلى بيت صاحبك ، ولا تشته امرأة صاحبك ، ولا عبده ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئاً من الذي لصاحبك — ومعناه النهي عن الحسد .

وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم : مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن ، وهما قوله تعالى في سورة الأنعام : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقرّبوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه . . . الآية^(١)) . وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكاماً متفرقة عزيزة ، كانت فزالت ، وعلمت بها حيناً من الدهر . ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها ، ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرفوها . ثم بعد ذلك كله سلبوها ، فصارت منسوخة مبدلة ، بعدما كانت مشروعة مكملة . فلهذا الأمر من قبل ومن بعد ، وهو الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وقد قال الله تعالى : (يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ، ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى * وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ^(١)) يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بني إسرائيل ؛ بما أنجاهم من أعدائهم ، وخلصهم من الضيق والحرج ، وأنه وعدهم صحبة نبينهم إلى جانب الطور الأيمن — أي منهم ؛ لينزل عليه أحكاماً عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم . وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع — مناً من السماء ، يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم ، فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثلن الغد ، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد ، ومن أخذ منه قليلاً كفاه ، أو كثيراً لم يفضل عنه . فيصنعون منه مثل الخبز ، وهو في غاية البياض والحلاوة ، فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى ، فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشاهم .

وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام — وهو السحاب ، الذي يستتر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر ؛ كما قال تعالى في سورة البقرة : (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرين ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ^(٢)) — إلى أن قال : (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون * وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون * وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون * وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * وإذ قلت يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون * وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ^(٣)) — إلى أن قال : (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تمثوا في الأرض مفسدين * وإذ قلت يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقنأها وفومها وعدسها

وبصلها ، قال أنستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصرأ فإن لكم مأسأتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأءوا بفضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بأيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون^(١) .

فذكر تعالى إنعامه عليهم ، وإحسانه إليهم ، بما يسر لهم من المن والسوى - طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعى لهم فيه ، بل ينزل الله المن باكرأ ، ويرسل عليهم طير السوى عشياً ، وأنبع الماء لهم ؛ يضرب موسى عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا ، فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً - لكل سبط عين منه تنبجس^(٢) . ثم تفجر ماء زلالا فيستقون ويسقون دوابهم ، ويدخرون كفايتهم ، وظلل عليهم الغمام من الحر . وهذه نعم من الله عظيمة ، وعطيات جسيمة ، فأرعوها حق رعايتها ، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها . ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها ، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدها ؛ تنبت الأرض من بقائها وقثائها وفومها^(٣) وعدسها وبصلها . فقرعهم السكليم ووبخهم ، وأنبهم على هذه المقالة وعنهم قائلاً : (أنستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرأ فإن لكم مأسأتم) أى هذا الذى تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التى أتم فيها - حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها ، وإذا هبطتم إليها - أى ونزلتم عن هذه المرتبة التى لاتصلحون لمنصبها - تجدون بها مآشتهون وماترومون بما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ، ولكنى است أجيبكم إلى سؤال ذلك ههنا ، ولا أبلغكم ماتعنتم به من المنى . وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم - تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه ؛ كما قال تعالى : (ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى فقد هلك . وحق له والله الهلاك والدمار ، وقد حل عليه غضب الملك الجبار .

ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد ، بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المرید ، فقال : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) .

سؤال الروية

قال تعالى : (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأآمنهاها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومي وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين ، ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين * قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين * وكتبنا

(١) الآياتان : ٦٠ ، ٦١ (٢) أى تنشق . (٣) الغوم : الثوم والخنطة والحصى وسائر الحبوب التى تخبز .

له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ، فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ، سأريكم دار الفاسقين * سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون^(١) .

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد : الثلاثون ليلة هي : شهر ذى القعدة بكامله ، وأتمت أربعين ليلة بعشر من ذى الحجة . فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر ، وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ﷺ دينه ، وأقام حجته وبراهينه . والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات ، وكان فيه صائماً - يقال إنه لم يستطع الطعام ، فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرة فوضعه ليطيب ريح فيه ، فأمره الله أن يمسك عشراً أخرى ، فصارت أربعين ليلة . ولهذا ثبت في الحديث : أن خلود فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بنى إسرائيل أخاه هرون ، المحبوب المبجل الجليل ، وهو ابن أمه وأبيه ، ووزيره في الدعوة إلى مصطفىه . فوصاه ، وأمره وليس في هذا لعل منزلته في نبوته منافاة . قال الله تعالى : (ولما جاء موسى لميقاتنا) أى في الوقت الذى أمر بالحيء فيه (وكلمه ربه) أى كلمه الله من وراء حجاب ، إلا أنه أسمع الخطاب ، فناداه ونجاه ، وقربه وأدناه . وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ، ومنصب شريف ومنزل منيف ، فصلوات الله عليه تترى ، وسلامه عليه في الدنيا والأخرى . ولما أعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية ، وسمع الخطاب - سأل رفع الحجاب ، فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار القوى البرهان : (ربى أرنى إليك قال لن ترانى) . ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى ؛ لأن الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان - لا يثبت عند التجلى من الرحان ، ولهذا قال : (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) .

وفي الكتب المتقدمة : أن الله تعالى قال له : « يا موسى إنه لا يرانى حتى إلامات ، ولا يابس إلا ثدهه^(٢) » . وفي الصحيحين عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حجاب النور - وفي رواية النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه^(٣) ما انتهى إليه بصره من خلقه » . وقال ابن عباس في قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) - ذلك نوره الذى هو نوره ؛ إذا تجلى لشيء لا يقوم له شيء ، ولهذا قال تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) .

(١) الآيات : ١٤٢ - ١٤٧ من سورة الأعراف .

(٢) أى تدرج واقلب بعضه على بعض (٣) السبحات : مواضع السجود ، وسبحات وجه الله : أنواره .

قال مجاهد : (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) فإنه أكبر منك وأشد خلقاً ، (فلما تجلى ربه للجبل) فنظر إلى الجبل لا يتالك ، وأقبل الجبل فذك على أوله ، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقاً . وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذي ، وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت . زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال هكذا بإصبعه ، ووضع النبي ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل ، لفظ ابن جرير . وقال السدي عن عكرمة عن ابن عباس : ما تجلى - يعني من العظمة - منه إلا قدر الخنصر فجعل الجبل دكا - قال : تراباً ، (وخر موسى صعقاً) أي مغشياً عليه . وقال قتادة : ميتاً . والصحيح الأول لقوله : (فلما أفاق) ؛ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي ، قال : (سبحانه) - تنزيهه وتعظيمه وإجلال أن يراه بعظمته أحد ، (تبت إليك) أي فلست أسأل بعد هذا - الرؤية ، (وأنا أول المؤمنين) أنه لا يراك حتى إلامات ، ولا يابس إلا تدهده .

وقد ثبت في الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تخيروني من بين الأنبياء ؛ فإن الناس بصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور ؟ » لفظ البخاري . وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاري حين قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر . فقال رسول الله : « لا تخيروني من بين الأنبياء » . وفي الصحيحين من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . وفيه : « لا تخيروني على موسى » وذكر تمامه . وهذا من باب الهضم والتواضع ، أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية ، أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات ، وليس ينال هذا بمجرد الرأي بل بالتوقيف .

ومن قال إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ، ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم - ففي قوله نظر ؛ لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة ، وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخراً ، فبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا ، والله أعلم . ولا شك أنه - صلوات الله وسلامه عليه - أفضل البشر بل الخليفة ، قال الله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وما كلوا إلا بشرف نبيهم .

وثبت بالتواتر عنه - صلوات الله وسلامه عليه - أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا نخر » . ثم ذكر اختصاصه بالمقام الحمود الذي يقبضه به الأولون والآخرون ، الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون ، حتى أولوا العزم الأكلون : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم . وقوله ﷺ : « فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش - أي أخذاً بها - فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور » -

دليل على أن هذا الصعق الذى يحصل للخلائق فى عرصات القيامة ، حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده ، فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال ، فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ، ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء ، فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش . قال الصادق المصدوق : « فلا أدري أصعق فأفاق قبلى ؟ » أى كانت صعقته خفيفة ، لأنه قد ناله بهذا السبب فى الدنيا صعق ، « أو جوزى بصعقة الطور ؟ » يعنى فلم يصعق بالكلمة . وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحثيثة ، ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كل وجه . ولهذا نبه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة ؛ لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودى حين قال : لا والذى اصطفى موسى على البشر - قد يحصل فى نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام ، فبين النبي ﷺ فضيلته وشرفه .

وقوله تعالى : (قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) أى فى ذلك الزمان ، لا ما قبله ؛ لأن إبراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك فى قصة إبراهيم ، ولا ما بعده ؛ لأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء ، وكما ثبت أنه قال : « سأقوم مقاماً يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم » . وقوله تعالى : (نخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) - أى نخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ، ولانسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين على ذلك .

قال الله تعالى : (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء) وكانت الألواح من جوهر نفيس . فى الصحيح : أن الله كتب له التوراة بيده ، وفيها مواعظ عن الآنام ، وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام . (نخذها بقوة) أى بعزم ونية صادقة قوية (وأسر قومك يأخذوا بأحسنها) أى يضعوها على أحسن وجوها وأجمل محاملها . (سأريكم دار الفاسقين) أى سترون عاقبة الخارجين عن طاعتي ، المخالفين لأمرى ، المكذبين لرسلى . (سأصرف عن آياتى) أى عن فهمها وتدبرها ، وتعقل معناها الذى أريد منها ، ودل عليه مقتضاها - (الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات - لا ينقادوا لاتباعها ، (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً) أى لا يسلكوه ولا يتبعوه (وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) أى صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا ، وتغافلهم عنها ، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكير فى معناها ، وترك العمل بمقتضاها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) .

قصة عبادتهم العجل فى غيبة كلم الله عنهم

قال الله تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم مجلاً جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين * ولما سقط فى أيديهم وروأ أنهم قد ضلوا ، قالوا لئن لم يرحمنا

ربنا ويففر لنا لسكونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، قال بئسما خلفتموني من بعدى أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلا تسمت بي الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، وكذلك نجزي المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون^(١) .

وقال تعالى : (وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أترى ومجئت إليك رب لترضى * قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامرى * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفضال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى * قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقدفناها ، فكذلك ألقى السامرى * فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى * أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا * ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً * ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * أن لا تتبعن أفعصيت أمرى ؟ * قال يابن أم لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى ، إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى * قال فما خطبك يا سامرى ؟ * قال بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى * قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ، وإن لك موعداً لن تحلفه ، وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً ، لنحرقنه ، ثم لننسفنه فى اليم نسفاً * إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً^(٢)) .

يذكر تعالى ما كان من أمر بنى إسرائيل ، حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه ، فكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة ، وهو تعالى يجيبه عنها . فعمد رجل منهم يقال له هرون السامرى ، فأخذ ما كان استعاروه من الحلى ، فصاغ منه عجلاً وألقى فيه قبضة من التراب ، كان أخذها من أثر فرس جبريل ، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه . فلما ألقاها فيه خار^(٣) كما يخور العجل الحقيقى . ويقال إنه استحال عجلاً جسداً - أى لحمًا ودماً حياً يخور ، قاله قتادة وغيره . وقيل بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة ، فيرقصون حوله ويفرحون . (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى فنسى موسى ربه عندنا ، وذهب بتطلبه وهو ههنا . تعالى

(١) الآيات : ١٤٨ - ١٥٤ من سورة الأعراف (٢) الآيات : ٨٣ - ٩٨ من سورة طه .

(٣) الحوار : صوت البقر والغنم والظباء .

الله عما يقولون علواً كبيراً ، وتقدست أسماؤه وصفاته ، وتضاعفت آلاؤه وهباته . قال الله تعالى مبيهاً بطلان ما ذهبوا إليه ، وما عولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيواناً بهيماً ، وشيطاناً رجياً : (أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ؟) وقال : (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين) . فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جواباً ، ولا يملك ضرراً ولا نفعاً ، ولا يهدي إلى رشد . اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم ، علمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال . (ولما سقط في أيديهم) أى ندموا على ما صنعوا (وروا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحننا ربنا ويفر لنا لنكونن من الخاسرين) .

ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ، ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ، ومعه الألواح المتضمنة التوراة - ألقاها ، فيقال إنه كسرها . وهكذا هو عند أهل الكتاب ، وإن الله أبدله غيرها ، وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك ، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين . وعند أهل الكتاب : أنهما كانا لوحين ، وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة . ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل ، فأمره بمعاينة ذلك . ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الخبر كالمعاينة » . ثم أقبل عليهم فغنمهم ووبخهم ، وهنهم في صنيعهم هذا القبيح ، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح ؛ (قالوا إنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك أتى السامري) تخرجوا من تملك حلى آل فرعون وهم أهل حرب ، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ، ولم يتخرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خوار ، مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار . ثم أقبل على أخيه هرون عليهما السلام قائلاً له : (ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن) أى هلا - لما رأيت ما صنعوا - اتبعنتي فأعلمتني بما فعلوا . فقال : (إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل) أى تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم . (قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) . وقد كان هرون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الغضيب أشد النهي ، وزجرهم عنه أتم الزجر .

قال الله تعالى : (ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به) أى إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختباراً لكم ، (وإن ربكم الرحمن) أى لا هذا (فاتبعوني) أى فيما أقول لكم (وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) . يشهد الله لهرون عليه السلام (وكفى بالله شهيداً) - أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه . ثم أقبل موسى على السامري (قال فما خطبك يا سامري ؟) أى ما حملك على ما صنعت ؟ (قال بصرت بما لم يبصروا به) أى رأيت جبرائيل وهو راكب فرساً (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أى من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم أنه

رآه ، وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب ، فأخذ من أثر حافرها ، فلما ألقاه في هذا العجل
 المصنوع من الذهب - كان من أمره ما كان . ولهذا قال : (فنبذتها وكذلك سوت لي نفسي * قال
 فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لامساس) وهذا دعاء عليه بأن لا يمسه أحد ، معاقبة له على مسه
 ما لم يكن له مسه . هذا معاقبة له في الدنيا ، ثم توعده في الآخرة فقال : (وإن لك موعداً لن تخلفه)
 وقرىه لن تخلفه (وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لتجرقه ثم لنفسه في اليم نسفاً) . قال :
 فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل ، فخرقه بالنار ، كما قاله قتادة وغيره . وقيل بالبارد ، كما قاله على
 وابن عباس وغيرهما ، وهو نص أهل السكتاب ، ثم ذراه في البحر ، وأمر بني إسرائيل فشرّبوا ، فمن
 كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه ، وقيل بل اصفرت ألوانهم .
 ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم : (إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء
 علماً) . وقال تعالى : (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك
 نجزي المفترين) وهكذا وقع . وقد قال بعض السلف : (وكذلك نجزي المفترين) مسجلة لكل صاحب
 بدعة إلى يوم القيامة .

ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه ، وإحسانه على عبده في قبوله توبة من تاب إليه - بتوبته
 عليه ، فقال : (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم)
 لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل ؛ كما قال تعالى : (وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم
 ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب
 عليكم إنه هو التواب الرحيم ^(١)) فيقال إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف ،
 وألقى الله عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه . ثم مالوا على عابديه فقتلواهم
 وحصدوهم ، فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة - سبعين ألفاً .

ثم قال تعالى : (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم
 لربهم يرهبون) . استدلل بعضهم بقوله : وفي نسختها - على أنها تكسرت ، وفي هذا الاستدلال
 نظر ، وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت ، والله أعلم .

وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون كما سيأتي : أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم
 من البحر ، وما هو ببعيد ؛ لأنهم حين خرجوا (قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) . وهكذا
 عند أهل السكتاب ؛ فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس . وذلك أنهم لما أمروا
 بقتل من عبد العجل - قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف ، ثم ذهب موسى يستغفر لهم ، فغفر لهم بشرط

أن يدخلوا الأرض المقدسة . (واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك ، قال عذابي أصيب به من أشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ^(١) .

ذكر السدي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين : كانوا علماء بني إسرائيل ، ومعهم مرسى وهرون ويوشع وناداب وأيهو ؛ ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل . وكانوا قد أسروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويفتسلوا ، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع — صعد موسى الجبل ، فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله . وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين ، وحملوا عليه قوله تعالى : (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ^(٢)) . وليس هذا بلازم ؛ لقوله تعالى : (فأجره حتى يسمع كلام الله ^(٣)) أي مبلغاً ، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسى عليه السلام . وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله ، وهذا غلط منهم ؛ لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة ، كما قال تعالى : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) . وقال ههنا (فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ... الآية) .

قال محمد بن إسحق : اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً : الخير فالخير ، وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتكم ، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء ، لميقات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم . فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله ، فقال أفعال . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى نفشى الجبل كله ، ودنا موسى فدخل في الغمام ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه الله ، وقع على جبته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه بالحجاب ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى : يأمره وينهاه — افعال ولا تفعل . فلما فرغ الله من أمره ، وانكشف عن موسى الغمام — أقبل إليهم فقالوا : (يا موسى لن نؤمن لك حتى

(١) الآيات : ١٥٥ - ١٥٧ من سورة الأعراف (٢) الآية : ٧٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٦ من سورة التوبة .

نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة - وهي الصاعقة ، فالتقت أرواحهم فأتوا جميعاً . فقام موسى ينادي ربه ويدعوه ، ويرغب إليه ويقول : (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟) أى لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإننا براء مما عملوا .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل . وقوله : (إن هي إلا فتنتك) أى اختبارك وابتلاؤك وامتحانك . قاله ابن عباس وسعيد ابن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس ، وغير واحد من علماء السلف والخلف . يعنى أنت الذى قدرت هذا ، وخالقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما : (قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به) أى اختبرتم . ولهذا قال : (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) أى من شئت أضللتها باختبارك إياه ، ومن شئت هديته . لك الحكم والمشئمة ، ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت . (أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك) أى تبنا إليك ورجعنا وأنبنا . قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمي والضحاك والسدى وقتادة وغير واحد . وهو كذلك فى اللغة .

(قال عذابي أصيب به من أشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء) أى أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التى أخلقها وأقدرها . (ورحمتي وسعت كل شيء) كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي » . (فسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى فسأوجبها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات : (الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى ... الآية) وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمه من الله موسى عليه السلام ، فى جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه . وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها فى التفسير بما فيه كفاية ومقنع ، والله الحمد والمنة .

وقال قتادة : قال موسى يارب إني أجد فى الألواح أمة هى خير أمة أخرجت للناس يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر ، رب اجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد فى الألواح أمة هم الآخرون فى الخلق ، السابقون فى دخول الجنة ، رب اجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرءونها ، وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظراً ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم ، قال : رب اجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، ويقاوتون فضول الضلالة حتى يقاوتوا الأعور الكذاب^(١) ، فاجعلهم أمتى ،

(١) المراد بالأعور الكذاب - الدجال كما ورد فى صفته من طرق صحيحة .

قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ، ويؤجرون عليها . وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه — بعث الله عليها ناراً فأكلتها ، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطيور ، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم ، قال : رب فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب فإني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال : رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم ، فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال قتادة : فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح ، وقال : اللهم اجعلني من أمة أحمد . وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام ، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها . ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه ، وحسن هدايته ومعونته وتأييده .

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان في صحيحه : [ذكر سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة] . أخبرنا عمر بن سعيد الطائي بمسج ، حدثنا حامد بن يحيى البلخي ، حدثنا سفيان ، حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن أبيجر شيخان صالحان ، قال سمعنا الشعبي يقول : سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبي ﷺ : « إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل — أي أهل الجنة أدنى منزلة ؟ فقال : رجل يحيا بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له ادخل الجنة . فيقول : كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا إخاذاتهم ^(١) ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : نعم أي رب ، فيقال : لك هذا ومثله ومثله . فيقول : أي رب رضيت ، فيقال له : لك مع هذا ما اشتيت نفسك ولذت عينك . وسأل ربه : أي أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال سأحدثك عنهم ؛ غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

وهكذا رواه مسلم والترمذي كلاهما عن ابن أبي عمر ، عن سفيان — وهو ابن عيينة — به . ولفظ مسلم : « فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت رب . فيقال له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فيقول في الخامسة : رضيت رب . فيقال هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتيت نفسك ولذت عينك ، فيقول رضيت رب . قال رب فأعلاهم منزلة ؟ قال أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخضر على قلب بشر » .

(١) الإخاذة : أرض يعطيها الإمام ليست ملكاً لآخر . والمراد : أخذوا منازلهم التي أعدها الله لهم .

قال : ومصادقه من كتاب الله : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)
 وقال الترمذى حسن صحيح . قال ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة فلم يرفعه ، والمرفوع أصح .
 وقال ابن حبان : [ذكر سؤال الكلبي ربه عن خصال سبع] . حدثنا عبد الله بن محمد بن مسلم
 بيت المقدس ، حدثنا حرملة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث أن أبا السمح حدثه
 عن ابن حجبيرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصال
 كان يظن أنها له خالصة ، والسابعة لم يكن موسى يجيها . قال : يارب أى عبادك أتقى ؟ قال الذى يذكر
 ولا ينسى . قال : فأى عبادك أهدى ؟ قال الذى يتبع الهدى . قال : فأى عبادك أحكم ؟ قال الذى يحكم
 للناس كما يحكم لنفسه . قال : فأى عبادك أعلم ؟ قال عالم لا يشبع من العلم ، يجمع علم الناس إلى علمه . قال :
 فأى عبادك أعز ؟ قال الذى إذا قدر غفر . قال : فأى عبادك أغنى ؟ قال الذى يرضى بما يؤتى . قال :
 فأى عبادك أفقر ؟ قال صاحب منقوص » . وقال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن ظهر ^(١) إنما الغنى
 غنى النفس ، وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه فى نفسه وتقاه فى قلبه ، وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره
 بين عينيه » . قال ابن حبان : قوله : صاحب منقوص - يريد به منقوص حالته ، يستقل مأوتى ويطلب
 الفضل . وقد رواه ابن جرير فى تاريخه عن ابن حميد عن يعقوب التميمي عن هرون بن هبيرة عن أبيه
 عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه عز وجل فذكر نحوه . وفيه « قال : أى رب فأى عبادك أعلم ؟
 قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه ، عسى أن يجد كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى . قال : أى
 رب فهل فى الأرض أحد أعلم منى ؟ قال : نعم ، الخضر . فسأل السبيل إلى لقيه « فكان ما سنذكره
 بعد إن شاء الله ، وبه الثقة .

ذكر حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحق ، حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد
 الخدرى عن النبي ﷺ أنه قال : « إن موسى قال : أى رب عبدك المؤمن مقتر عليه فى الدنيا ، قال
 ففتح له باب من الجنة فنظر إليها ، قال : يا موسى هذا ما أعددت له . فقال موسى : يارب وعزتك وجلالك
 لو كان مقطوع اليدين والرجلين يسحب على وجهه ، منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة ، وكان هذا مصيره -
 لم ير بؤساً قط . قال : ثم قال : أى رب عبدك الكافر موسع عليه فى الدنيا ، قال ففتح له باب إلى
 النار ، فيقول : يا موسى هذا ما أعددت له . فقال موسى : أى رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا
 منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة ، وكان هذا مصيره - لم ير خيراً قط » ، تفرد به أحمد من هذا الوجه ،
 وفى صحته نظر . والله أعلم .

وقال ابن حبان : [ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئاً يذكره به] . حدثنا ابن سلمة حدثنا حرمة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجاً حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « قال موسى : يارب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به . قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله . قال : يارب كل عبادك يقول هذا . قال : قل لا إله إلا الله . قال : إنما أريد شيئاً تخصني به . قال : يا موسى لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله » . ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة . وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروى في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الدعاء دعاء عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي - لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » .

وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية الكرسي : حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدسوقي ، حدثني أبي عن أبيه ، حدثنا أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس : أن بني إسرائيل قالوا لموسى : هل ينام ربك ؟ قال اتقوا الله . فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوكم هل ينام ربك ؛ فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ، ففعل موسى . فلما ذهب من الليل ثلثه نعت فوقه لركبتيه ، ثم انتعش فضبطهما . حتى إذا كان آخر الليل نعت فسقطت الزجاجتان فانكسرتا ، فقال : يا موسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك . قال : وأنزل الله على رسوله آية الكرسي .

وقال ابن جرير : حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال : « وقع في نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل ؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً ، ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة ، وأمره أن يحتفظ بهما . قال : فجعل ينام وكادت يدها تلتقيان ، فيستيقظ فيجسب إحداها على الأخرى ، حتى نام نومة فاصطفت يدها فانكسرت القارورتان ، قال : ضرب الله له مثلاً - أن لو كان ينام لم يستمسك السماء والأرض » ، وهذا حديث غريب رفعه . والأشبه أن يكون موقوفاً ، وأن يكون أصله إسرائيلياً . وقال الله تعالى : (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتهم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ^(١)) وقال تعالى : (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ^(٢)) قال ابن عباس وغير واحد من السلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة - أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم .

(١) الآيتان : ٦٣ ، ٦٤ من سورة البقرة (٢) الآية : ١٧١ من سورة الأعراف .

فقالوا: انشرها علينا، فإن كانت أوامرنا ونواهيها سهلة قبلناها، فقال: بل اقبلوها بما فيها، فراجعوه سراراً، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة - أى غمامة - على رؤوسهم. وقيل لهم إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم - فقبلوا ذلك، وأمروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم، فصارت سنة لليهود إلى اليوم. يقولون لاسجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب. وقال سنيد بن داود عن حجاج بن محمد عن أبي بكر بن عبد الله قال: فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس على وجه الأرض يهودى صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه. قال الله تعالى: (ثم توليتهم من بعد ذلك) أى ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم - نكثتم عهودكم وموائيقكم (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) بأن تدارككم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم - (لكنتم من الخاسرين).

قصة بقرة بنى إسرائيل

قال الله تعالى: (و إذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تدبحوا بقرة، قالوا أنتخذنا هزواً؟ قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر، عوان بين ذلك، فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟ إن البقر تشابه علينا، وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث، مسامة لاشية فيها، قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون * وإذ قتلتهم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون^(١)).

قال ابن عباس وعبيدة الساماني وأبو العالية ومجاهد والسدى، وغير واحد من السلف: كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال، وكان شيخاً كبيراً، وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله فى الليل وطرحه فى مجمع الطرق - ويقال على باب رجل منهم - فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم، فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله؟ فجاء ابن أخيه فشكى أمره إلى رسول الله موسى ﷺ. فقال موسى عليه السلام: «أنشد الله رجلاً^(٢) عنده علم من أمر هذا القتل إلا أعلمنا به»، فلم يكن عند أحد منهم علم منه. وسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربه عز وجل، فسأل ربه عز وجل فى ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة. فقال: (إن الله يأمركم أن تدبحوا بقرة، قالوا أنتخذنا هزواً؟) يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتل، وأنت تقول هذا؟ (قال أعود بالله أن

أكون من الجاهلين) أى أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلى ، وهذا هو الذى أجابني حين سألته عما سألتوني عنه أن أسأله فيه . قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدى وأبو العالية وغير واحد : فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبجوها - لحصل المقصود منها ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم . وقد ورد فيه حديث مرفوع ، وفى إسناده ضعف . فسألوا عن صفتها ، ثم عن لونها ، ثم عن سننها - فأجيبوا بما عز وجوده عليهم . وقد ذكرنا تفسير ذلك كله فى التفسير .

والمقصود أنهم أمروا بذبج بقرة عوان - وهى الوسط بين النصف الفارض وهى الكبيرة ، والبكر وهى الصغيرة . قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة . ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها ، فأمروا بصفراء فأقع لونها - أى مشرب بحمرة - تسر الناظرين ، وهذا اللون عزيز . ثم شددوا أيضاً (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون) ، ففى الحديث المرفوع الذى رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه : « لولا أن بنى إسرائيل استنموا لما أعطوا » ، وفى صحته نظر . والله أعلم (قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تشير الأرض ولا تسقى الحرت مسامة لاشية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق فذبجوها وما كادوا يفعلون) وهذه الصفات أضيق مما تقدم ؛ حيث أمروا بذبج بقرة ليست بالذلول - وهى للذلة بالحرانة وسقى الأرض بالساقية ، مسامة - وهى الصحيحة التى لا عيب فيها ، قاله أبو العالية وقتادة . وقوله : (لاشية فيها) أى ليس فيها لون يخالف لونها ، بل هى مسامة من العيوب ، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها . فلما حددها بهذه الصفات ، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف (قالوا الآن جئت بالحق) .

ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه ، فطلبوها منه فأبى عليهم ، فأرغبوه فى ثمنها حتى أعطوه - فيما ذكره السدى - بوزنها ذهباً فأبى عليهم ، حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها منهم . فأمرهم نبي الله موسى بذبجها (فذبجوها وما كادوا يفعلون) أى وهم يترددون فى أمرها . ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتل ببعضها ؛ قيل بلحم نخذها ، وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف ، وقيل بالبضعة التى بين الكتفين . فلما ضربه ببعضها أحياء الله تعالى ، فقام وهو يشخب^(١) أوداجه ، فسأله نبي الله من قتلك ؟ قال قتلنى ابن أخى ، ثم عاد ميتاً كما كان . قال الله تعالى : (كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون) أى كما شاهدتم إحياء هذا القتل عن أمر الله له - كذلك أمره فى سائر الموتى ؛ إذا شاء إحياءهم أحياءهم فى ساعة ، واحدة كما قال : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . . الآية)^(٢) .

(١) الشخب: الدم ، وصوت اللبن عند الحلب . وشخب أوداجه دما : قطعها ناسك . والأوداج جمع ووج وهو عرق العنق .

(٢) الآية : ٢٨ من سورة لقمان .

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى : (وإذ قال موسى لفتهاه لأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا * فلما بلغنا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا * فلما جاوزا قال لفتهاة آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا * قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا * قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا * فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً ؟ * قال إنك لن تستطيع معي صبراً * وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً * قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً * قال فإن اتبعتني فلا نسألك عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً * فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ، قال أخرقتها لتفرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً * قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً * فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ، قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً * قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعنا أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجرأ * قال هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً * أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا * وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً * فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً * وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً^(١) .

قال بعض أهل الكتاب : إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر — هو موسى بن منسا بن يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم ؛ منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي . ويقال إنه دمشقى ، وكانت أمه زوجة كعب الأحبار . والصحيح الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه — أنه موسى بن عمران صاحب بنى إسرائيل . قال البخارى : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ابن دينار قال : أخبرني سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نَوْفًا البِـسْكَالِي يزعم أن موسى صاحب

(٢) الآيات : ٦٠ - ٨٢ من سورة الكهف .

الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله ؛ حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيباً في بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إن لى عبداً بجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب فكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مكمل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتاً فجعله فى مكمل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكمل ، فخرج منه فسقط فى البحر ، وأخذ سبيله فى البحر سرىبا . وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق . فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا ببقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المسكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه : (أرايت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، وأخذ سبيله فى البحر عجباً) قال : فكان للحوت سرىبا ، ولموسى وفتاه عجباً . فقال له موسى : (ذلك ما كنا نبغى فارتدا على آثارها قصصاً) قال : فرجما يقصان آثارها حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ؟ قال أنا موسى ، قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم ؛ أنتك لتعلمنى مما علمت رشداً (قال إنك لن تستطيع معى صبراً) . يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمك الله لأعلمه . فقال موسى : (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً) .

فقال له الخضر : (فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً * فانطلقا) يمشيان على ساحل البحر ، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فخلوهم بغير نول^(١) . فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها (لتفرق أهلها ، لقد جئت شيئاً إمراً^(٢)) * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً * قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً) قال : وقال رسول الله ﷺ : فكانت الأولى من موسى نسياناً . قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى : (أفتلت نفسك بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ؟) قال : وهذه أشد من الأولى : (قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيئوهما

(١) نول : أجر ، والنول أيضاً كالنول والمنوال : الحشب الذى يابف عليه الخائفك الثوب (٢) أى منكراً .

فوجد فيها جداراً يريد أن ينقض) قال : مائل . فقام الخضر (فأقامه) بيده ، فقال موسى : قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا (لو شئت لاتخذت عليه أجراً) قال هذا فراق بيني وبينك . . . إلى قوله : ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » . قال سعيد بن جبير : فكان ابن عباس يقرأ : (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً) ، وكان يقرأ : (وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين) . ثم رواه البخارى أيضاً عن قتيبة عن سفيان بن عيينة بإسناده نحوه . وفيه : « نخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فترلا عندها ، قال : فوضع موسى رأسه فنام » . قال سفيان : وفي حديث غير عمرو قال : وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة ، لا يصيب من ماءها شيء إلا حي ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين ، قال : فتحرك وانسل من المكمل فدخل البحر ، فلما استيقظ (قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا . . . الآية) وساق الحديث . قال : ووقع عصفور على حرف السفينة فعمس منقاره في البحر ، فقال الخضر لموسى : ما علمى وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره ، وذكر تمام الحديث .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام بن يوسف : أن ابن جريج أخبرهم ، قال : أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار ، عن سعيد بن جبير - يزيد أحدهما على صاحبه - وغيرها قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال : إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال سلونى ، فقلت : أى أبا عباس - جعلنى الله فداك - بالكوفة رجل قاص يقال له نوف ، يزعم أنه ليس بموسى نبي إسرائيل . أما عمرو فقال لى ، قال : قد كذب عدو الله . وأما يعلى فقال لى ، قال ابن عباس : حدثنى أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله موسى رسول الله ، قال : ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ، وورقت القلوب ولّى ، فأدركه رجل فقال : أى رسول الله ! هل فى الأرض أحد أعلم منك ؟ قال لا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله ، قيل بلى . قال أى رب فأين ؟ قال بجمع البحرين ، قال أى رب ! اجعل لى علماً أعلم ذلك به . قال لى عمرو : قال حيث يفارقك الحوت ، وقال لى يعلى : قال خذ نوناً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح ، فأخذ حوتاً فجعله فى مكمل ، فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ، قال ما كلفت كثيراً ، فذلك قوله جل ذكره : (وإذ قال موسى لفتاه) يوشع بن نون ، ليست عن سعيد بن جبير ^(١) ، قال بينما هو فى ظل صخرة فى مكان ثريان ^(٢) إذ تضرب ^(٣) الحوت وموسى نائم ، فقال فتاه لا أوقفه ، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره ، وتضرب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره فى حجر . قال لى عمرو : هكذا ، كأن أثره فى حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما (لقد لقينا من

(١) الفائل ليست عن سعيد بن جبير - هو ابن جريج ، والمراد أن تسمية الفتى ليست عنده فى رواية سعيد .

(٢) أى مبلول (٣) تحرك .

سفرنا هذا نصيباً). قال قد قطع الله عنك النصب ، ليست هذه عن سعيد أخبره^(١) فرجعا فوجدنا خضراً
— قال لي عثمان بن أبي سليمان — على طنفسة^(٢) خضراء على كبد البحر ، قال سعيد بن جبير : مسجى بثوبه ،
قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ، فلم عليه موسى فكشف عن وجهه ، وقال : هل
بأرضي من سلام ؟ من أنت ؟ قال أنا موسى . قال موسى بن إسرائيل ؟ قال نعم . قال فما شأنك ؟ قال
جئتك لتعلمني مما علمت رشداً ، قال أما يكفيك أن التوراة بيديك ، وأن الوحي يأتيك ؟ يا موسى ! إن لي
علماً لا ينبغي لك أن تعلمه ، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه . فأخذ طائر بمنقاره من البحر ، فقال :
والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر .

(حتى إذا ركبا في السفينة) وجدا معابر^(٣) صغاراً تحمل أهل هذا الساحل ، إلى أهل هذا الساحل
الآخر ، عرفوه فقالوا عبد الله الصالح . قال فقلنا لسعيد : خضر ؟ قال نعم . لا نحمله بأجر ، فخرقها ووتد
فيها وتدأ (قال) موسى : (أخرقتها لتفرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إصراً) قال مجاهد : منكراً . (قال ألم
أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً) كانت الأولى نسياناً ، والوسطى شرطاً ، والثالثة عمداً ، (قال لا
تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً * فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله) ، قال يعلى قال
سعيد : وجد غلاماً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ، ثم ذبحه بالسكين (قال أقتلت نفساً زكية
بغير نفس) لم تعمل بالخبث . وكان ابن عباس قرأها : زكية زاكية مسلمة ؛ كقولك غلاماً زكياً ،
فانطلقا (فوجدا جدراً يريد أن ينفق فأقامه) قال سعيد بيده هكذا ، ورفع يده فاستقام . قال يعلى :
حسبت أن سعيداً قال فمسحه بيده فاستقام (قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً) قال سعيد : أجراً
نأكله ، (وكان وراءهم) وكان أمامهم ، قرأها ابن عباس : أمامهم ملك ، يزعمون عن غير سعيد : أنه
« هُدِدَ بنُ بُدَدٍ »^(٤) والغلام المقتول اسمه يزعمون « جيسور » (ملك يأخذ كل سفينة غصباً) فأردت
إذا هي مرت به أن يدعها لعيبيها ، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها . ومنهم من يقول : سدوها
بقارورة ، ومنهم من يقول بالقار (وكان أبواه مؤمنين) وكان كافراً (نخشينا أن يرهقهما طغياناً
وكفراً) أي يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه ، (فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه زكاة) لقوله :
(أقتلت نفساً زكية . (وأقرب رحماً) هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر .

وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أبدلا جارية ، وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد : أنها جارية .

(١) أي أخبر النبي موسى بالقصة (٢) قال في القاموس : الطنفسة مثلثة الطاء والفاء ، وبكسر الطاء وفتح الفاء ،
وبالعكس — واحدة الطنافس للبط والثياب والحصير عرضه ذراع . والمراد هنا : فرش صغير .

(٣) معابر — جمع معبر بكسر الميم : ما يعبر به كالسفينة والقارب وغيرها .

(٤) يقصد القائل وهو ابن جريج — أن اسم الملك الذي كان يأخذ السفن لم تقع في رواية سعيد . وزعم ابن دريد

أن هدد اسم ملك من ملوك حمير زوجه سيدنا سليمان بلقيس .

وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خطب موسى بنى إسرائيل ، فقال ما أحد أعلم بالله وبأسره منى ، فأمر أن يلقى هذا الرجل ، فذكر نحو ما تقدم . وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ كنعحو ما تقدم أيضاً ، ورواه العوفي عنه موقوفاً . وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس : أنه تمارى هو والحربن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى ؛ فقال ابن عباس هو خضر ، فمر بهما أبى بن كعب فدعاه ابن عباس ، فقال : إني تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لقيه ، فهل سمعت من رسول الله فيه شيئاً ؟ قال نعم ، وذكر الحديث . وقد تفصينا طرق هذا الحديث وألفاظه فى تفسير سورة الكهف والله الحمد . وقوله : (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) قال السهلبلى : وهما أصرم وصريم ابنا كاشح (وكان تحته كنز لهما) قيل كان ذهباً ، قاله عكرمة . وقيل علماً ، قاله ابن عباس . والأشبه أنه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه علم . قال البزار : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدثنا بشر بن المنذر ، حدثنا الحرث بن عبد الله اليمصبي عن عياش بن عباس الغساني عن ابن حجريرة عن أبى ذر رفعه قال : « إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من الذهب مصمت مكتوب فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب ؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك ؟ وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل ؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وهكذا روى عن الحسن البصرى وعمر مولى عفرة وجعفر الصادق نحو هذا ، وقوله : (وكان أبوهما صالحاً) ، قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر . وعلى كل تقدير : فيه دلالة على أن الرجل الصالح ، يحفظ فى ذريته ، فالله المستعان . وقوله : (رحمة من ربك) - دليل على أنه كان نبياً ، وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبي ، وقيل رسول ، وقيل ولي . وأغرب من هذا من قال إنه كان ملكاً ، قلت وقد أغرب جداً من قال هو ابن فرعون ، وقيل إنه ابن ضحاك الذى ملك الدنيا ألف سنة .

قال ابن جرير : والذى عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان فى زمن « أفر يدون » ، ويقال إنه كان على مقدمة ذى القرنين - الذى قيل إنه كان أفر يدون ، وذو الفرس هو الذى كان فى زمن الخليل . وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن . وقيل إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم ، وهاجر معه من أرض بابل . وقيل اسمه ملكان ، وقيل أرميا بن خلقيا ، وقيل كان نبياً فى زمن سباسب بن لهراسب . قال ابن جرير : وقد كان بين أفر يدون وبين سباسب - دهور طويلا لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب . قال ابن جرير : والصحيح أنه كان فى زمن أفر يدون ، واستمر حياً إلى أن أدركه موسى عليه السلام . وكانت نبوة موسى فى زمن « منوشهر » الذى هو من ولد أبرج بن أفر يدون أحد ملوك الفرس ، وكان إليه الملك بعد جده أفر يدون لعهدده ، وكان عادلاً . وهو أول من خندق الخنادق ، وأول

من جعل في كل قرية دهقاناً^(١) ، وكانت مدة ملكه قريناً من مائة وخمسين سنة . ويقال إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم . وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والسكلم البليغ النافع الفصيح - ما يبرر العقل ، ويحير السامع ، وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل . والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أقررتم . . الآية)^(٢) .

فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بن يحيى بعده من الأنبياء وينصره ، فلو كان الخضر حياً في زمانه - لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ، وان كان من جملة من تحت لوائه يوم بدر ؛ كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة . وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبياً وهو الحق ، أو رسولا كما قيل ، أو ملكا فيما ذكر . وأياما كان نخبير بل رئيس الملائكة ، وموسى أشرف من الخضر ، ولو كان حياً لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته ، فكيف إن كان الخضر ولياً كما يقوله طوائف كثيرون ؟ فأولى أن يدخل في عموم البعثة وأخرى . ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد - أنه جاء يوماً واحداً إلى رسول الله ﷺ ، ولا اجتمع به . وما ذكر من حديث التعزية فيه ، وإن كان الحاكم قد رواه - فإسناده ضعيف ، والله أعلم وسنفرد لخضر ترجمة على حدة بعد هذا .

ذكر الحديث الملقب بحديث الفتون

المتضمن قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب التفسير من سننه ، عند قوله تعالى في سورة طه : (وقتلت نفساً فنجينك من الغم وفتنك فتوناً) - ﴿ حديث الفتون ﴾ . حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا أصبغ بن زيد ، حدثنا القاسم بن أبي أيوب ، أخبرني سعيد بن جبيرة قال : سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى لموسى : (وفتنك فتوناً) فسألته عن الفتون ماهي ؟ فقال استأنف النهار يا ابن جبيرة ؛ فإن لها حديثاً طويلاً . فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون ، فقال : تذكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكا ، فقال بضمهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد إبراهيم ، فقال فرعون : فكيف ترون ؟

(١) قال في القاموس : الدهقان بالكسر والضم - القوي على التصرف مع حدة ، والناجر ، وزعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم . والجمع دهاقنة ودهاقين ، والاسم الدهقنة .

(٢) الآية : ٨١ من سورة آل عمران .

فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجلاً معهم الشفار^(١) ، يطوفون في بني إسرائيل ، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ، ففعلوا ذلك . فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجلهم ، والصفار يذبحون - قالوا : توšكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم ؛ فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر وأتركوا بناتهم ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصفار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثرُوا بمن تستحيون منهم ، فتخافوا مكابرتهم إياكم ، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم . فأجمعوا أمرهم على ذلك ، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا تقتل فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة .

فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام ، فوقع في قلبها الهم والحزن ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ، ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد به . فأوحى الله إليها : أن (لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) . فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليم ، فلما ولدت فعلت ذلك ، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان ، فقالت في نفسها : ما فعلت بابني ؟ لو ذبح عندى فواريته وكفنته - كان أحب إلى من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه ؟ فأنتهى الماء به حتى أوفى عند فرضة^(٢) تستقى منها جواري امرأة فرعون ، فلما رأيته أخذته ، فهمم أن يفتحن التابوت ، فقال بعضهن : إن في هذا مالا ، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملته كهيئته لم يخرج منه شيئاً حتى دفعنه إليها . فلما فتحته رأت فيه غلاماً ، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط . (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً) من ذكر كل شيء - إلا من ذكر موسى . فلما سمع الذباحون بأمره ، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليدبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل ، حتى آتى فرعون فاستوهبه منه ؛ فإن وهبه منى كنتم قد أحسنتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم أملك . فأتت فرعون فقالت : (قره عين لي ولك) ، فقال فرعون : يكون لك ، فأما لي فلا حاجة لي فيه . فقال رسول الله ﷺ : « والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قره عين له ، كما أقرت امرأته - لهداه الله كما هداها ، ولكن حرمه ذلك » .

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن تختار له ظئراً^(٣) ، فجعل كلما أخذته امرأة منهم لترضعه . لم يقبل على نديها ، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك . فأمرت به

(١) الشفار - جمع شفرة وهي : السكين العظيم ، وما عرض من الحديد وحده .

(٢) الفضة : ثلثة من النهر يستقى منها ، ومن البحر - محط السفن ، ومن الدواة - محل النقص « المداد » .

(٣) قال في القاموس : الظئر : العاطفة على ولد غيرها المرصعة له ؛ في الناس وغيرهم ، للذكر والأنثى .

فأخرج إلى السوق وجمع الناس ترجوا أن تجد له ظئراً تأخذه منها ، فلم يقبل . وأصبحت أم موسى والهاتماً^(١) ، فقالت لأخته : قصي أثره واطلبيه ، هل تسمعين له ذكراً ؟ أحيى ابني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعداً فيه (فبصرت به) أخته (عن جنب وهم لا يشعرون) ، والجنب : أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به . فقالت من الفرح — حين أعيامهم الظؤرات : أنا (أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) . فأخذوها فقالوا : ما يدريك ما نصحهم له ؟ هل تعرفينه ؟ حتى شكوا في ذلك ، وذلك من الفتون يا ابن جبير . فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه — رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك . فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر ، فجاءت أمه ، فلما وضعتها في حجرها نزا^(٢) إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا ، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً ، فأرسلت إليها فأتت بها وبه .

فلما رأت ما يصنع بها — قالت امكثي ترضعي ابني هذا ؛ فإنني لم أحب شيئاً حبه قط ، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه ، فأذهب به إلى بيتي ، فيكون معي لا آلوه خيراً — فعلت ؛ فإنني غير تاركة بيتي وولدي . وذكرت أم موسى ما كان الله وعداً ، فتعامرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله منجز موعوده ، فرجعت إلى بيتها من يومها ، وأنبتته الله نباتاً حسناً ، وحفظه لما قد قضى فيه . فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية — ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم .

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أريني ابني ، فوعدها يوماً تريها إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانتها وظهورها وقهارمتها : لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة ، لأرى ذلك فيه . وأنا باعثة أميناً يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه — إلى أن دخل على امرأة فرعون . فلما دخل عليها نخلته وأكرمتها وفرحت به ، ونخلت أمه لحسن أثرها عليه . ثم قالت : لآتين به فرعون فلينخلن له وليكرمنه ، فلما دخلت به عليه جعله في حجره ، فتناول موسى حلية فرعون فهداها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه ؟ إنه زعم أن يرثك ويعلموك ويصرعك ، فأرسل إلى الذابحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به ، وأريد به فتوناً .

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون ، فقالت ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال ألا تريه يزعم أنه يصرعني ويعلموني ؟ فقالت اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق ؛ أتت بجمرتين

(١) الوله : ذهاب العقل والتعير من شدة الوجد ، والتوليه : أن يفرق بين المرأة وولدها ؛ يقال : رجل واله وامرأة واله ووالهة . (٢) أي ونب وهم .

واللؤلؤتين فقرهن إليه ، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجرتين — عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجرتين ولم يرد اللؤلؤتين — علمت أن أحداً لا يؤثر الجرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل . فقرب إليه الجرتين واللؤلؤتين فتناول الجرتين ، فانزعجها منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت للمرأة ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به ، وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشده وكان من الرجال — لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرية ، حتى امتنعوا كل الامتناع . فبينما موسى عليه السلام يمشى في ناحية المدينة ، إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعونى والآخر إسرائيلي ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعونى ، فغضب موسى غضباً شديداً ؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بنى إسرائيل ، وحفظه لهم ما لم يطلع عليه غيره . فوكلز موسى الفرعونى فقتله ، وليس يراها أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي ، فقال موسى حين قتل الرجل : (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) ثم قال : (رب إني ظلمت نفسي فأغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم) قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين * فأصبح في المدينة خائفاً يترقب (الأخبار ، فأتى فرعون فقيل له : إن بنى إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون ، نخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم ، فقال ابغونى قاتله ومن يشهد عليه ؛ فإن الملك وإن كان صفوه من قومه — لا ينبغى له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت ، فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لسكم بحقكم . فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة — إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعونى ، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه ، وكره الذى رأى . فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعونى ، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم : (إنك لغوى مبين) ، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى ، تخاف أن يكون بعد ما قال له : إنك لغوى مبين — أن يكون إياه أراد ، ولم يكن إياه أراد ؛ إنما أراد الفرعونى . تخاف الإسرائيلي وقال : (يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ؟) وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقته ، فتتاركا وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول : (أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس) . فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هينتهم ، يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم . فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة ، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره ، وذلك من الفتون يا ابن جبير . فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل فإنه قال : (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) * ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امراةين تزدودان) يعنى بذلك حابستين غنمهما ، فقل لهما : (ماخطبكما)

الناس قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم . فسقى لهما فجعل يعترف من الدولماء كثيراً حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما ، وانصرف موسى فاستظل بشجرة ، وقال : (رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير) . واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً^(١) بطاناً^(٢) فقال إن لكما اليوم لشأنا ، فأخبرته بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه ، فأنت موسى فدعته . فلما كلفه (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) ليس لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان ولسنا في مملكته^(٣) ، فقالت إحداهما : (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) فاحتملته الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أما قوته فأرايت منه في اللوح حين سقى لنا لم أر رجلا قط أقوى في ذلك السقى منه . وأما الأمانة فإنه نظر إلى حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أنى امرأة - صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك . ثم قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين . فسرى عن أبيها وصدقها ، وظن به الذي قالت . فقال له : هل لك (أن أنسحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج ، فإن آمنت عشرأ فم عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين) ففعل ، فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت السنان عدة منه ، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرأ . قال سعيد - وهو ابن جبير - لقيتني رجل من أهل النصرانية من علماءهم ، فقال هل تدري أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت لا ، وأنا يومئذ لا أدري . فليقت ابن عباس فذكرت ذلك له ، فقال : أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة ، لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً ؟ وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده ؛ فإنه قضى عشر سنين . فليقت النصراني فأخبرته ذلك ، فقال الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولى .

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصى ويده - ما قص الله عليك في القرآن . فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتل وعقدة لسانه ؛ فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هرون ؛ يكون له رداءً ، يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه . فأناه الله عز وجل سؤاله ، وحل عقدة من لسانه ، وأوحى الله إلى هرون فأمره أن يلقاه . فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هرون ، فانطلقا جميعاً إلى فرعون ، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما . ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا : (إنا رسولا ربك) قال : (فمن ربكما ؟) فأخبراه بالذى قص الله عليك في القرآن . قال فما تريدان ؟ - وذكره القليل فاعتذر بما قد سمعت - قال أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بنى إسرائيل ، فأبى عليه وقال : (أنت بآية إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه

(١) حفلاً - جمع حافل . يقال ضرع حافل - كثير لبنه (٢) عظيمة البطن من الشبع .

(٣) ذلك لأن مدين بلاد واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية ، شمال الحجاز وجنوب فلسطين ، فلم تكن

تابعة للملك مصر . وتنتب إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام .

فإذا هي) حية عظيمة فاغرة فلما مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتمم^(١) عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء - بمعنى من غير برص - ثم ردها فعادت إلى لونها الأول ، فاستشار الملأ من حوله فيما رأى فقالوا له : (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) بمعنى ملسكهم الذى هم فيه والعيش ، وأبو على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب ، وقالوا له : اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير ، حتى تعلب بسحرك سحرهما . فأرسل إلى المدائن فحضر له كل ساحر متعلم ، فلما أتوا فرعون قالوا بم يعمل هذا الساحر ؟ قالوا يعمل بالحيات . قالوا فلا والله ما أحد في الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصى - الذى نعمل . فما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أتم أفاربي وخاصتى ، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم . فتواعدوا (يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) .

قال سعيد : حشرئى ابن عباس أن يوم الزينة - اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة - هو يوم عاشوراء . فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر (لعنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) يعنون موسى وهرون استهزاء بهما ، فقالوا يا موسى بعد تربيتهم بسحرهم : (إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين) قال بل ألقوا ، (فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة ، فأوحى الله إليه : (أن ألق عصاك) فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فلما ، فجعلت العصى تلتبس بالحبال ، حتى صارت جرزاً^(٢) إلى الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقث عصماً ولا حبالاً إلا ابتلعته ، فلما عرف السحرة ذلك ، قالوا لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا ، ولكنه أمر من الله تعالى . آمنا بالله وبما جاء به موسى ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه . فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق (وبطل ما كانوا يعملون) فغلبوا هنا لك وانقلبوا صاغرين) . وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتدلت للشفقة على فرعون وأشياعه ؛ وإنما كان حزنها وهما لموسى . فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة ؛ كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا مضت أخلف مواعده وقال هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ - أرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ؛ ليوافقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا كف ذلك عنه أخلف بواعده ونسكت عهده ، حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه ، فخرج بهم ليلاً .

فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا - أرسل في المدائن حاشرين ، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة

(١) اتمم : رى بنفسه بلا روية (٢) الجرزة بالضم : الخزمة من القوت ونحوه . والجرز بالضم أيضاً - عمود من حديد .

وأوحى الله إلى البحر : إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة ، حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التقى على من بقى بعد من فرعون وأشياعه . فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصى وانتهى إلى البحر وله قصيف^(١) مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله عز وجل . فلما ترآء الجمعان وتقاربا (قال أصحاب موسى : إنا لمدركون) افعل ما أمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال وعدني ربى إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنأ وأائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفلق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى . فلما جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه - التقى عليهم البحر كما أمره ، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه : إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا تؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له ببذنه حتى استيقنوا بهلاكه .

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم (قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) قد رأيتم من العبر وسمعت ما يكفيكم ، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال : أطيعوا هرون فإن الله قد استخلفه عليكم ؛ فإني ذاهب إلى ربى ، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها . فلما أتى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً ، وقد صامهن ليلهن ونهارهن - كره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم ، فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربه حين آناه : لم أفطرت ؟ - وهو أعلم بالذى كان - قال يارب إني كرهت أن أكلمك إلا وفي طيب الريح . قال : أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، ارجع فصم عشرين ثم اثنتي ، ففعل موسى ما أمره به ربه . فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل - ساءهم ذلك ، وكان هرون قد خطبهم فقال : إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع ، ولكم فيها مثل ذلك ، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم ، ولا أحل لكم ودعة استودعتموها ولا عارية ، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكية لأنفسنا . فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية - أن يقدفوه في ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقه ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم .

وكان السامرى من قوم يعبدون البقر - جيران لبني إسرائيل ، ولم يكن من بني إسرائيل - فاحتمل^(٢) مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا ، ففضى له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فربهاون فقال له هرون : يا سامرى ألا تاتى ما فى يدك ؟ وهو قابض عايمه لا يراه أحد طوال ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ، ولا ألقىها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقىتها أن يكون

(١) القصيف : هشيم البحر - أى تكسر أمواجه حتى يسمع لها صوت كالرعد (٢) أى ارتحل .

مأريد ، فألقاها ودعاه هرون . فقال أريد أن تكون مجلا ، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع
أوحلية أو نحاس أو حديد — فصار مجلا أجوف ، ليس فيه روح وله خوار . قال ابن عباس : لا والله
ما كان فيه صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه ، فكان ذلك الصوت
من ذلك . ففترق بنو إسرائيل فرقا ؛ فقالت فرقة : ياسامرى ما هذا وأنت أعلم به ؟ قال هذا ربكم ،
ولكن موسى أضل الطريق . وقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ؛ فإن كان ربنا لم نكن
ضيعناه وعكفنا عليه حين رأيناه ، وإن لم يكن ربنا فإننا نتبع قول موسى . وقالت فرقة : هذا من عمل
الشیطان وليس بربنا ولا تؤمن به ولا تصدق وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامرى
في العجل وأعلنوا عدم التكذيب به ، فقال لهم هرون عليه السلام : (يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم
الرحمن) ليس هذا . قالوا فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً تم أخلفنا ؟ هذه أربعون يوماً قد مضت ،
وقال سفهاؤهم أخطأ ربهم فهو يطالبه ويبتغيه . فلما كلم الله موسى وقال له ما قال — أخبره بما لقي قومه
من بعده ، (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) فقال لهم ما سمعتم مما في القرآن (وأخذ برأس أخيه يجره
إليه) وألقى الألواح من الغضب . ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له ، وانصرف إلى السامرى فقال
له : ما حلك على ما صنعت ؟ قال قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم (فنبذتها وكذلك
سولت لى نفسى * قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا ماساس ، وإن لك موعداً لن تخلفه ، وانظر
إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لنسفنه فى اليم نسفاً) ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك
منه ، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هرون ، فقالوا لجماعتهم :
ياموسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فنكفر عنا ما عملنا . فاختر موسى من قومه سبعين
رجلاً لذلك ، لا يألوا الخير من خيار بنى إسرائيل ومن لم يشرك فى الحق ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة
فرجفت بهم الأرض ، فاستحيا نبي الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل . فقال :
(رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟) وفيهم من كان الله اطلع منه
على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به ، فذلك رجفت بهم الأرض فقال : (ورحمتى وسعت
كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يدعون الرسول
النبي الأسمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) ، فقال يارب سألتك التوبة لقومى ،
فقلت : إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى ، فليتك آخرتى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحوم .
فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد ، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل
فى ذلك الموطن . وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهرون ، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا
بها ، وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقائل والمقتول . ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض

المقدسة . وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذى أمر به من الوظائف ، فنقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها ، فنتق^(١) الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل ، والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم . ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة ، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون ؛ خلقهم خالق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها ، فقالوا : (ياموسى إن فيها قوماً جبارين) لاطاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ماداموا فيها ، (فإن يخرجوا منها فإننا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون) . قيل ليزيد هكذا قرأه ؟ قال نعم ؛ من الجبارين آمننا بموسى وخرجا إليه ، فقالوا نحن أعلم بقومنا : إن كنتم إنما تخافون مارأيتم من أجسامهم وعددهم - فإنهم لاقلوب لهم ولا منعة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . ويقول أناس إنهم من قوم موسى ، فقال الذين يخافون من بنى إسرائيل . (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فأغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسماهم فاسقين . ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم ، حتى كان يومئذ فاستجاب الله له ، وسماهم - كما سماهم موسى - فاسقين ، وحرماهم عليهم أربعين سنة يديهون فى الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار . ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثياباً لاتبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً . وأمر موسى فضربه بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فى كل ناحية ثلاثة أعين ، وأعلم كل سبط عينهم التى يشربون منها ، فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذى كان فيه بالأمس^(٢) .

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى ﷺ ، وصدق ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فأنكر عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك ؟ فغضب ابن عباس ، فأخذ بيده معاوية وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى ، فقال له : ياأبا إسحق ، هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون ؟ الإسرائيلى الذى أفشى عليه - أم الفرعونى ؟ قال إنما أفشى عليه الفرعونى بما سمع من الإسرائيلى الذى شهد ذلك وحضره . هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائى ، وأخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيرهما من حديث يزيد بن هرون . والأشبه والله أعلم أنه موقوف ، وكونه مرفوعاً فيه نظر . وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفيه شىء يسير مصرح برفعه فى أثناء الكلام . وفى بعض ما فيه نظر ونكارة ، والأغلب أنه كلام كعب الأحبار . وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك ، والله أعلم .

ذكر بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب : وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاز وجلود الأنعام وشعر الأغنام ، وأمر بزینتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة ؛ على کیفیات مفصلة عند أهل الكتاب ، ولها عشر سرادقات ؛ طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً ، وعرضه أربعة أذرع . ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ، ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة ، وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره . ويعمل تابوت من خشب الشمشاز يكون طوله ذراعين ونصفاً ، وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعاً ونصفاً ، ويكون مضطرباً بذهب خالص من داخله وخارجه ، وله أربع حلق في أربع زواياه ، ويكون على حافته كروبيان من ذهب - يعنون صفة ملكين بأجنحة - وهما متقابلان ، صنعه رجل اسمه : « بصليال » .

وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز طولها ذراع وعرضها ذراع ونصف ، لها ضباب ذهب وإكليل ذهب - بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب ، وأربع حلق من نواحيها من ذهب ، مفرزة في مثل الرمان من خشب ملبس ذهباً . وأن يعمل صحافاً ومصافى وقصاعاً على المائدة ، ويصنع منارة من الذهب دلى فيها ست قصبات من ذهب ، من كل جانب ثلاثة ، على كل قصبه ثلاث سرج . وليكن في المنارة أربع قناديل ، ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب . صنع ذلك « بصليال » أيضاً ، وهو الذى عمل المذبح أيضاً . ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم ، وهو أول يوم من الربيع . ونصب تابوت الشهادة ، وهو - والله أعلم - المذكور في قوله تعالى : (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لمن آمن) . وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جداً ، وفيه شرائع لهم وأحكام ، وصفة قربانهم ، وکیفیته . وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذى هو متقدم على محىء بيت المقدس ، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ، ويتقربون عندها . وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها ، وينزل عمود الغمام على بابها ، فيخرون عند ذلك سجداً لله عز وجل . ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذى هو نور ، ويخاطبه ويناجيه ، ويأمره وينهاه ، وهو واقف عند التابوت صامداً إلى ما بين الكروبيين فإذا فصل الخطاب يخبر بنى إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه ، من الأوامر والنواهي . وإذا تحاكموا إليه فى شىء ليس عنده من الله فيه شىء - يحىء إلى قبة الزمان ، ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبيين ، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة . وقد كان هذا مشروعاً لهم فى زمانهم - أعنى استعمال الذهب والحرير المصبغ والآلىء فى معبدهم وعند

مصلاهم - فأما في شريعتنا فلا . بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها ؛ لئلا تشغل المصلين ، كما قال عمر بن الخطاب رضی الله عنه ، لما وسع في مسجد رسول الله ﷺ - للذي وكاه على عمارته : ابن للناس ما يمكنهم ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس . وقال ابن عباس : لانزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنفائسهم ، وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه ، فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلاهم من الأمم ؛ إذ جمع الله همهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه ، وصان أبصارهم وخواطرم عن الاشتغال والتفكر في غير ما هم بصده ؛ من العبادة العظيمة . فله الحمد والمنة .

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بنى إسرائيل في التيه ، يصلون إليها وهي قبلةهم وعبتهم ، وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام ، ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام . فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام - استمرت بنو هارون في الذي كان يليه أبوم ؛ من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن . وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدير الأمر بعده - فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس كما سيأتي بيانه . والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس ، فكانوا يصلون إليها . فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي الصخرة ؛ فلماذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ . وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، وكان يجعل الكعبة بين يديه ، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليها ستة عشر - وقيل سبعة عشر - شهراً . ثم حولت القبلة إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم في شعبان سنة ثنتين في وقت صلاة العصر وقيل الظهر ، كما بسطنا ذلك في التفسير عند قوله تعالى : (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها . . . إلى قوله : قد نرى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام . . . الآيات) .

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى : (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكفوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندي ، أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون * نخرج على قومه في زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ؛ إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلسكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقاها إلا الصابرون * نخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له

نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون^(١) وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله :
(إنما أوتيته على علم عندي) .

وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء ، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال - فليس بصحيح ؛ لأن الكيمياء تخييل وصنعة - لا تحيل الحقائق ، ولا تشابه صنعة الخلاق . والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به ، وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر . ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير ، ولا يبقى بين الكلامين تلازم ، وقد وضحنا هذا في كتابنا التفسير ، والله الحمد .

قال الله تعالى : (نخرج على قومه في زينته) ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم ؛ من ملابس ومراكب وخدم وحشم . فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا - تمنوا أن لو كانوا مثله ، وغبطوه بما عليه وله ، فلما سمع مقالاتهم العلماء ، ذو الفهم الصحيح الزهاد الأبناء ، قالوا لهم : (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) أي ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى . قال الله تعالى : (ولا يلقاها إلا الصابرون) أي وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة ، وهذه المهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية ، عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية - إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده ، وأيد لبه وحقق مراده . وما أحسن ما قال بعض السلف : إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، والعقل الكامل عند حلول الشهوات .

قال الله تعالى : (نحسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) . لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها ، ونخره على قومه بها قال : نحسفنا به وبداره الأرض ، كما روى البخاري من حديث الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « بينا رجل يجر يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجأجل في الأرض إلى يوم القيامة » . ثم رواه البخاري من حديث جرير ابن زيد عن سالم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه . وقد ذكر ابن عباس والسدي : أن قارون أعطى امرأة بغيّاً مالا على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملامن الناس : إنك فعلت بي كذا وكذا ، فيقال إنها قالت له ذلك ، فأرعد من الفرق وصلى ركعتين ، ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك ، وما حملك عليه ، فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك ، واستغفرت الله وتابت إليه . فعند ذلك خر موسى لله ساجداً ، ودعا الله على قارون . فأوحى الله إليه : أني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلمه وداره ، فكان ذلك ، فالتألم . وقد قيل إن قارون لما خرج على قومه في زينته

مر بحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام ، وهو يذكر قومه بأيام الله . فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير منهم ينظرون إليه ، فدعاه موسى عليه السلام فقال له : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا موسى ! أما لئن كنت فضلت على بالنبوة - فلقد فضلت عليك بالمال ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون على ولأدعون عليك . فخرج موسى وخرج قارون في قومه ، فقال له موسى : تدعو أو أدعو أنا ؟ قال : أدعو أنا ، فدعى قارون فلم يجب له في موسى ، فقال موسى : أدعو ؟ قال نعم . فقال موسى : اللهم صر الأرض فلتطعنى اليوم ، فأوحى الله إليه إني قد فعلت . فقال موسى : يا أرض خذهم ، فأخذتهم إلى أقدامهم ، ثم قال خذهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم . ثم قال : أقبلي بكنوزهم وأمواهم ، فأقبلت بها حتى نظروا إليها ، ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بني لاوى فاستوت بهم الأرض . وقد روى عن قتادة أنه قال : يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة ، وعن ابن عباس أنه قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة . وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا إسرائيليات كثيرة ، أضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً .

وقوله تعالى : (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال : (فماله من قوة ولا ناصر^(١)) . ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار ، وإهلاك النفس والأهل والعقار - ندم من كان تمنى مثل ما أوتى ، وشكروا الله تعالى الذى يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير الخزون ، ولهذا قالوا : (لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) وقد تكلمنا على لفظ ويكأن في التفسير^(٢) ، وقد قال قتادة : ويكأن - بمعنى ألم تر أن ، وهذا قول حسن من حيث المعنى ، والله أعلم .

ثم أخبر تعالى : أن (الدار الآخرة) - وهى دار القرار ، وهى الدار التى يغبط من أعطيها ويعزى من حرما - إنما هى معدة (للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً) . فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر ، والفساد هو عمل المعاصى اللازمة والمتعدية ؛ من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم ، والإساءة إليهم وعدم النصح لهم . ثم قال تعالى : (والعاقبة للمتقين) . وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر ، لقوله : (نجسفنا به وبداره الأرض) فإن الدار ظاهرة فى البنيان ، وقد تكون بعد ذلك فى التيه ، وتكون الدار عبارة عن الحلة التى تضرب فيها الخيام ؛ كما قال عنتره :

يادار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

والله أعلم . وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون فى غير ما آية من القرآن ، قال الله : (ولقد أرسلنا

(١) سورة الطارق (٢) مما قيل : إن « وى » حرف للتعجب أو للتنبه ، و « كأن » - بمعنى أظن وأحسب أو كأن للتشبيه . وقيل : « ويكأن » مركبة من : ويك - بمعنى وبلك ، وأن ، وتقديره : أعلم أن الله .

موسى بآياتنا وساططان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب^(١) وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود : (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين * فكلا أخذنا بذنبه ؛ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون^(٢)) . فالذى خسف به الأرض قارون كما تقدم ، والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما أنهم كانوا خاطئين . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد ، حدثنا كعب بن علقمة ، عن عيسى بن هلال الصديقي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف » . انفراد به أحمد رحمه الله .

باب ذكر فضائل موسى عليه السلام ، وشمائله ، وصفاته ، ووفائه

قال الله تعالى : (واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً^(٣)) . وقال تعالى : (قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي^(٤)) . وتقدم في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تفضلوني على موسى ؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي ؟ أم جوزى بصعقة الطور ؟ » . وقدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهو - صلوات الله وسلامه عليه - خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض . وقال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) إلى أن قال : (ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً^(٥)) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتسكنوا كالدن آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيهاً^(٦)) . قال الإمام أبو عبد الله البخاري : حدثنا إسحق بن إبراهيم بن روح بن عباد ، عن عوف عن الحسن ومحمد وخلاس ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً^(٧) لا يرى جلده شيء استحياء منه . فأذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده ؛ إما برص ، وإما أدرة^(٨) وإما آفة ، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه

(١) الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ من سورة غافر .
 (٢) الآيات : ٥١ - ٥٣ من سورة مريم .
 (٣) الآية : ١٦٤ من سورة النساء .
 (٤) أي من طبعه حب التستر .
 (٥) الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .
 (٦) الآية : ١٤٤ من سورة الأعراف .
 (٧) الآية : ٦٩ من سورة الأحزاب .
 (٨) انتفاخ الحصى .

مما قالوا لموسى ، فغلا يوماً وحده ، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدل^(١) بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر ، حتى انتهى إلى ملاء من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً^(٢) من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً . فذلك قوله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا لا تسكنوا كالدن آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) . وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شقيق وهام بن منبه عن أبي هريرة به . وهو في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن هام عنه به . ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي عنه .

قال بعض السلف : كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله ، وطلب منه أن يكون معه وزيراً ، فأجابته الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً ، كما قال : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) . ثم قال البخارى : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة عن الأعمش ، قال سمعت أبا وائل ، قال سمعت عبد الله ، قال : قسم رسول الله ﷺ قسماً ، فقال رجل إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأثبت النبي ﷺ فأخبرته فغضب ، حتى رأيت الغضب في وجهه ، ثم قال : « يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر » . وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به . وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبي هاشم مولى لهمدان ، عن زيد بن أبي زائد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لا يبلغنى أحد عن أحد شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » . قال : وأتى رسول الله ﷺ مال فقسمه ، قال : فررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أريد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، فثبت حتى سمعت ما قالوا ، ثم أثبت رسول الله ، فقلت يا رسول الله ! إنك قلت لنا لا يبلغنى أحد عن أحد من أصحابي شيئاً ، وإني مهرت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه ، ثم قال : « دعنا منك فقد أودى موسى أكثر من ذلك فصبر » . وهكذا رواه أبو داود والترمذى من حديث إسرائيل بن الوليد بن أبي هاشم به . وفي رواية للترمذى ولأبي داود من طريق ابن عبد عن إسرائيل بن الوليد بن أبي هاشم به . وقال الترمذى غريب عن هذا الوجه .

وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء : أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلى في قبره ، ورواه مسلم عن أنس . وفي الصحيحين من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أسرى به بموسى في السماء السادسة ، فقال له جبريل هذا موسى ، فسلم

(٢) أي أثر ، والندب : اثر الجرح .

(١) مضى به مسرعاً .

عليه قال : « فسلمت عليه فقال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح ، فلما تجاوزت بكى . قيل له ما يبكيك؟ قال أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي » . وذكر إبراهيم في السماء السابعة ، وهذا هو المحفوظ . وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة ، بتفضيل كلام الله - فقد ذكر غير واحد من الحفاظ : أن الذي عليه الجادة - أن موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة ، وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم . واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمه خمسين صلاة في اليوم والليلة - صر بموسى ، فقال ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فأبى قد عاجلت بنى إسرائيل قبلك أشد المعالجة ، وإن أمتك أضعف أسماً وأبصاراً وأئدة . فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ، ويخفف عنه في كل مرة ، حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة . وقال الله تعالى : هي خمس وهي خمسون أى بالمضاعفة ، فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً ، وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً .

وقال البخارى : حدثنا مسدد ، حدثنا حصين بن نمير عن حصين بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « عرضت على الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق ، فقيل هذا موسى في قومه » ، هكذا روى البخارى هذا الحديث ههنا مختصراً .

وقد رواه الإمام أحمد مطولاً فقال : حدثنا شريح ، حدثنا هشام ، حدثنا حصين بن عبد الرحمن ، قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة ؟ قلت أنا ، ثم قلت : إنى لم أكن فى صلاة ولكن لدغت . قال وكيف فعلت ؟ قلت استرقيت . قال وما حملك على ذلك ؟ قال قلت : حديث حدثناه الشعبي عن بريدة الأسلمى أنه قال : « لارقية إلا من عين أو حمة » ، فقال سعيد - يعنى ابن جبير - قد أحسن من أنهى إلى ماسم .

ثم قال : حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي معه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لى سواد عظيم فقلت هذه أمتى ، فقيل هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق ، فإذا سواد عظيم ، ثم قيل انظر إلى هذا الجانب ، فإذا سواد عظيم ، فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .

ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل ، فحاض القوم فى ذلك ، فقالوا : من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟ فقال بعضهم : لعلمهم الذين صحبوا النبي ﷺ ، وقال بعضهم : لعلمهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قط ، وذكروا أشياء . فخرج إليهم

رسول الله ﷺ فقال : ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه ؟ فأخبروه بمقاتلتهم فقال : « هم الذين لا يكتبون ^(١) ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة بن محيصن الأسدي فقال : أنا منهم يارسول الله ؟ قال أنت منهم . ثم قام آخر فقال : أنا منهم يارسول الله ؟ فقال سبقك بها عكاشة . » وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً وهو في الصحاح والحسان وغيرها . وسنوردها إن شاء الله تعالى في باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها .

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيراً ، وأثنى عليه وأورد قصته في كتابه العزيز مراراً ، وكررها كثيراً - مطولة ومبسوطة ومختصرة ، وأثنى عليه بليغاً . وكثيراً ما يقترن الله ويذكره ، ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه ، كما قال في سورة البقرة : (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ^(٢)) . وقال تعالى : (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ^(٣)) ، وقال تعالى في سورة الأنعام : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، يجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيراً ، وعلمتم ما لم تعلموا أتم ولا آبائكم قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ^(٤)) . فأثنى الله تعالى على التوراة ، ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً . وقال تعالى في آخرها : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء ، وهدى ورحمة لعلمهم بلقاء ربهم يؤمنون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ^(٥)) . وقال تعالى في سورة المائدة : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ^(٦)) إلى أن قال : (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون * وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه . . . الآية) ، فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره ، وجعله مصدقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل ؛ فإن أهل

(٢) الآية : ١٠١ من سورة البقرة .
(٤) الآيات : ٩١ ، ٩٢ من سورة الأنعام .
(٦) الآية : ٤٤

(١) أي لا يتمدون بما ليس فيهم
(٣) أول سورة آل عمران .
(٥) الآيات : ١٥٤ ، ١٥٥

الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب ، فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها ، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم ؛ لسوء فهمهم وقصورهم في علومهم ، ورداءة قسودهم وخياتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله - ما لا يحد ولا يوصف ، وما لا يوجد مثله ولا يعرف .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكري للمتقين * الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون * وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ^(١)) وقال الله تعالى في سورة القصص : (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا آتينا مثل ما آتينا موسى ، أو لم يكفروا بما آتينا موسى من قبل ؟ قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ^(٢)) . فأثنى الله على السكتانيين وعلى الرسولين عليها السلام . وقالت الجن لقومهم : (إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ^(٣)) . وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أول الوحي وتلا عليه : (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم) ^(٤) قال : سبوح سبوح ، هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران . وبالجملة فشربعة موسى عليه السلام كانت عظيمة ، وأمه كانت أمة كثيرة ، ووجد فيها أنبياء وعلماء ، وعباد وزهاد وأبباء ، وملوك وأمراء ، وسادات وكبراء ، لكنهم كانوا فبادوا ، وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ، ومسخوا قردة وخنازير ، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم ، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها . ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

ذكر حجته عليه السلام إلى البيت العتيق

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام ، حدثنا داود بن أبي هند عن أبي العالية عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال : « أي واد هذا ؟ » قالوا : وادي الأزرق ، قال : « كأنني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية ، وله جوار إلى الله عز وجل بالتلبية » ، حتى أتى على ثنية هرشاء فقال : « أي ثنية هذه ؟ » قالوا هذه ثنية هرشاء ، قال : « كأنني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء ، عليه جبة من صوف ، خطام ناقته خلبة » - قال هشيم : يعني ليفاً - وهو يلجى . أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به . وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً : « إن موسى حجج على نور أحمر » ، وهذا غريب جداً . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن مجاهد قال : كنا عند ابن

(٢) الآيات : ٤٨ ، ٤٩

(١) الآيات : ٤٨ - ٥٠

(٤) سورة العلق .

(٣) الآية : ٣٠ من سورة الأحقاف

عباس فذكروا الدجال ، فقال : إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر) قال : ما يقولون ؟ قال يقولون مكتوب بين عينيه (ك ف ر) فقال ابن عباس : لم أسمعه . قال ذلك ولكن قال : « أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم جمده الشعر على جمل أحمر مخطوم بحلقة ، كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي » ، قال هشيم : الخلبة - الليف . ثم رواه الإمام أحمد عن أسود عن إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم : فأما عيسى فأحمر جمده عريض الصدر ، وأما موسى فأدم^(١) جسم سبط ، قالوا لإبراهيم ؟ قال : انظروا إلى صاحبكم » . وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا شيبان قال : حدث قتادة عن أبي العالية ، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال : قال نبي الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم مربع الخلق إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس . وأخرجاه من حديث قتادة به . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر قال الزهري وأخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ حين أسرى به : « لقيت موسى ، قال فنعته ، فإذا رجل - حسبته قال - مضطرب^(٢) ، رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة ، ولقيت عيسى - فنعته رسول الله ﷺ فقال : ربه^(٣) أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام^(٤) ، قال ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به ... الحديث » . وقد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل .

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخاري في صحيحه : [وفاة موسى عليه السلام] حدثنا يحيى بن موسى حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل ، فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، قال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال أي رب ؟ ثم ماذا ؟ قال ثم الموت ، قال فالآن ، قال فسأل الله عز وجل أن يدينه من الأرض المقدسة رمية بحجر^(٥) . قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ : « فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكئيب^(٦) الأحمر » . قال وأنبأنا معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه . وقد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به . ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة مرفوعاً وسيأتي . وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس - يعني سليم بن جبير - عن

(١) أي أسمر (٢) المضطرب : الطويل غير الشديد ، وقيل الخفيف اللحم (٣) أي وسط : ليس بطويل جداً ولا قصير جداً (٤) قال شارح البخاري : المراد وصفه بصفاء اللون ونضارة الجسم وكثرة ماء الوجه حتى كأنه كان في موضع كمن نخرج منه وهو عرفان (٥) أي مقدار رمية بحجر (٦) الكئيب : الرمل المجتم .

أبي هريرة ، قال الإمام أحمد لم يعرفه - قال : « جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فقال أجب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها ، فرجع الملك إلى الله فقال : إنك بعثتني إلى عبدك لا يريد الموت ، قال وقد فقأ عيني . قال فرد الله عينه ، وقال : ارجع إلى عبدى فقل له : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما وارت يدك من شوره فإنك تعيش بها سنة . قال ثم مه ، قال ثم الموت . قال فالآن يارب من قريب » . تفرد به أحمد ، وهو موقوف بهذا اللفظ .

وقد رواه ابن حبان في صحيحه من طريق معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة ، قال معمر : وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله فذكره . ثم استشكله ابن حبان وأجاب عنه بما حاصله : أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه ؛ لحيثه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام ، كما جاء جبريل في صورة أعرابي ، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولاً . وكذلك موسى لعله لم يعرفه ؛ لذلك لطمه فقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذنه ، وهذا موافق لشر بعثنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن . ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه ، قال له أجب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت فقأ عينه » . وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخاري . ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه - قال له أجب ربك ، وهذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ ؛ من تعقيب قوله أجب ربك - بلطمه . ولو استمر على الجواب الأول لتمشى له ، وكأنه لم يعرفه في تلك الصورة . ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق ؛ إذ لم يتحقق في الساعة الراهنة أنه ملك كريم ، لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يجب وقوعها في حياته ؛ من خروجه من التيه ، ودخولهم الأرض المقدسة . وكان قد سبق في قدرة الله أنه عليه السلام يموت في التيه بعد هرون أخيه ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وقد زعم بعضهم : أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة ، وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين . ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت : رب أدنني إلى الأرض المقدسة رمية حجر ، ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك . ولكن لما كان مع قومه بالتية وحانت وفاته عليه السلام - أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها ، وحث قومه عليها . ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر . ولهذا قال سيد البشر ، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدن : « فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكئيب الأحمر » . وقال الإمام : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، حدثنا ثابت وسليمان التيمي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما أسرى بي مسهرت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكئيب الأحمر » . ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به ، وقال السدي

عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة قالوا : ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إني متوف هرون فأتت به جبل كذا وكذا ، فانطلق موسى وهرون نحو ذلك الجبل ، فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها ، وإذا هم بيت مبني ، وإذا هم بسرير عليه فرش ، وإذا فيه ريح طيبة . فلما نظر هرون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه - أعجبه ، قال يا موسى : إني أحب أن أنام على هذا السرير ، قال له موسى : فتم عليه ، قال إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ ، قال له : لا ترهب أنا أ كفيك رب هذا البيت فتم . قال : يا موسى نم معي فإن جاء رب هذا البيت غضب عليّ وعليك جميعاً ، فلما ناما أخذ هرون الموت ، فلما وجد حسه قال يا موسى خدعتني ، فلما قبض رفع ذلك البيت ، وذهبت تلك الشجرة ، ورفع السرير به إلى السماء . فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هرون - قالوا إن موسى قتل هرون ، وحسده على حب بني إسرائيل له ، وكان هرون أكف عنهم وألين لهم من موسى ، وكان في موسى بعض الغلظة عليهم . فلما بلغه ذلك قال لهم : ويحك ! كان أخي أفتروني أقتله ؟ . فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ، ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض .

ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشى ويوشع فتاه - إذ أقبلت ريح سوداء ، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة ، فالتزم موسى وقال : تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي الله ؟ فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص في يدي يوشع . فلما جاء يوشع بالقميص آخذته بنو إسرائيل وقالوا قتلت نبي الله . فقال لا - والله ما قتلته ، ولكنه استل مني ، فلم يصدقوه وأرادوا قتله . قال : فإذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام ، فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يجرسه في المنام - فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى ، وإنما قدر فمناه إلينا ، فتركوه . ولم يبق أحد ممن أتى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى - إلا مات ولم يشهد الفتح . وفي بعض هذا السياق نكارة وغبابة ، والله أعلم . وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى - سوى يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا - وهو زوج مريم أخت موسى وهرون ، وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم ، اللذان أشارا على ملائكة بني إسرائيل بالدخول عليهم .

وذكر وهب بن منبه : أن موسى عليه السلام مر بملاً من الملائكة يحفرون قبراً ، فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج ، فقال يا ملائكة الله : لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا لعبد من عباد الله كريم ، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر ، وتمدد فيه وتوجه إلى ربك ، وتنفس أسهل تنفس ، ففعل ذلك ، فمات صلوات الله وسلامه عليه ، فصلت عليه الملائكة ودفنوه . وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد ويونس قالوا ، حدثنا حماد ابن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال يونس : رفع هذا الحديث إلى النبي

ﷺ قال : « كان ملك الموت يأتي الناس عياناً ، قال فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقا عينه ، فأتى ربه فقال يارب ! عبدك موسى فقاً عيني ، ولولا كرامته عليك لعتبت عليه - وقال يونس لشققت عليه - قال له اذهب إلى عبدى ، وقل له فليضع يده على جلد - أو مسك - ثور ، فله بكل شعرة وارت يده سنة ، فأتاه فقال له ، فقال ما بعد هذا ؟ قال الموت ، قال فالآن . قال فشمه شمة فقبض روحه » . قال يونس فرد الله عليه عينه وكان يأتي الناس خفية . وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن مصعب ابن المقدم عن حماد بن سلمة به ، فرفعه أيضاً .

ذكر نبوة يوشع وقيامه بأعباء بنى إسرائيل

بعد موسى وهرون عليهما السلام

هو يوشع بن نون بن أفرايم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام ، وأهل الكتاب يقولون : يوشع ابن عم هود . وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر كما تقدم من قوله : (وإذ قال موسى لفتهاه - فلما جاوزا قال لفتهاه) ، وقدمنا ماثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب رضى الله عنه عن النبي ﷺ : من أنه يوشع بن نون . وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب ؛ فإن طائفة منهم وهم السامرة - لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون ، لأنه مصرح به في التوراة ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق من ربهم ، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحق : من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى ، فكان موسى يلتقي يوشع فيسأله ما أحدث الله من الأوامر والنواهي ، حتى قال له : يا كلميم الله إني كنت لأسألك عما يوحى الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك ، فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت - ففي هذا نظر ؛ لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحى والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله ، حتى توفاه الله عز وجل . ولم يزل معزراً مكرماً مدلولاً وجيهاً عند الله ، كما قدمنا في الصحيح من قصة فقته عين ملك الموت ، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها ، قال ثم ماذا ؟ قال الموت ، قال فالآن يارب . وسأل الله أن يدينه إلى بيت المقدس رمية بحجر ، وقد أوجب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه . فهذا الذى ذكره محمد بن إسحق إن كان - إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ؛ ففي كتابهم الذى يسمونه التوراة : أن الوحى لم يزل ينزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى ، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان .

ولقد ذكروا في السفر الثالث : أن الله أمر موسى وهرون أن يعدا بني إسرائيل على أسباطهم^(١) ، وأن يجعلوا على كل سبط من الاثنى عشر أميراً وهو النقيب ، وما ذلك إلا ليتأهبوا للقتال قتال الجبارين عند الخروج من التيه ، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة . ولهذا قال بعضهم : إنما فقا موسى عليه السلام عين ملك الموت ؛ لأنه لم يعرفه في صورته تلك ، ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجى وقوعه في زمانه ، ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه ، بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام . كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام ، فوصل إلى تبوك ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع ثم حج في سنة عشر ، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه ، ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالاً لقوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون^(٢)) ولما جهز رسول الله جيش أسامة ، توفي عليه الصلاة والسلام وأسامه نجح بالجرف ، فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم لما لم شعث جزيرة العرب ، وما كان دهي من أمر أهلها ، وعاد الحق إلى نصابه - جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس ، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم ، ففتح الله لهم ومكن لهم وبهم ، وملسكهم نواصي أعدائهم ، كما سنورده عليك في موضعه إذا انتهينا إليه - مفصلاً إن شاء الله ، بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده .

وهكذا موسى عليه السلام : كان الله قد أمره أن يجند بني إسرائيل ، وأن يجعل عليهم نقيباً كما قال تعالى : (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل^(٣)) . يقول لهم : لئن قمت بما أوجبت عليكم ، ولم تنكفوا عن القتال كما نكلمت أول مرة - لأجعلن ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك ، كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية : (قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً^(٤)) . وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل : (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) . ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواعيقهم ، كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم . وقد ذكرنا ذلك في التفسير مستقصى والله الحمد .

(١) أى قبائلهم ، فى القاموس : السبط — القبيلة من اليهود وجمعه أسباط (٢) الآية : ٢٩ من سورة التوبة .

(٤) الآية : ١٦ من سورة الفتح .

(٣) الآية : ١٢ من سورة المائدة .

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل - ممن يحمل السلاح ويقاتل - ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً ، وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم . السبط الأول : سبط روبيل ؛ لأنه بكر يعقوب - وكان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسة ، ونقيبهم منهم وهو اليبصور بن شديشورا . السبط الثاني : سبط شمعون - وكانوا تسعة وخمسين ألفاً وثلاثمائة ، ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداى . السبط الثالث : سبط يهوذا - وكانوا أربعة وسبعين ألفاً وستائة ، ونقيبهم نحشون بن عميناذاب . السبط الرابع : سبط إيساخر - وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ، ونقيبهم نشائيل بن صوغر . السبط الخامس : سبط يوسف عليه السلام - وكانوا أربعين ألفاً وخمسة ، ونقيبهم يوشع بن نون . السبط السادس : سبط ميسا - وكانوا أحداً وثلاثين ألفاً ومائتين ، ونقيبهم جهامئيل بن فدهصور . السبط السابع : سبط بنيامين - وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمائة ، ونقيبهم أبيدن بن جدعون . السبط الثامن : سبط حاد - وكانوا خمسة وأربعين ألفاً وستائة وخمسين رجلاً ، ونقيبهم الياساف ابن رعوثيل . السبط التاسع : سبط أشير - وكانوا أحداً وأربعين ألفاً وخمسة ، ونقيبهم فجميئيل بن عكرن . السبط العاشر : سبط دان - وكانوا اثنين وستين ألفاً وسبعمائة ، ونقيبهم أخيعزر بن عمشداى . السبط الحادى عشر : سبط نفتالى - وكانوا ثلاثة وخمسين ألفاً وأربعمائة ، ونقيبهم الباب بن حيلون . هذا نص كتابهم لذي بأيديهم ، والله أعلم^(١) .

وليس منهم « بنو لاوى » فقد أمر الله موسى أن لا يعدهم معهم ؛ لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا - وهم سبط موسى وهرون عليهما السلام - وكانوا اثنين وعشرين ألفاً ، من ابن شهر فما فوق ذلك ، وهم فى أنفسهم قبائل ، عهد إلى كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يجرسونها ويحفظونها ، ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها ، وهم كلهم حولها ؛ ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها . وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بنى لاوى - خمسمائة ألف واحد وسبعون ألفاً وستائة وستة وخمسون . لكن قالوا : فكان عدد بنى إسرائيل من عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ؛ ممن حمل السلاح - ستائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلاً ، سوى بنى لاوى ، وفى هذا نظر ؛ فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا فى كتابهم - لا تطابق الجملة التى ذكروها ، والله أعلم . فكان بنو لاوى الموكلون بحفظ قبة الزمان يسرون فى وسط بنى إسرائيل - وهم القلب ، ورأس الميمنة بنو روبيل ، ورأس الميسرة بنو دان ، وبنو نفتالى يكونون ساقه . وقرر موسى عليه السلام - بأمر الله تعالى له - السكينة فى بنى هرون ؛ كما كانت لأبيهم من قبلهم ، وهم : ناداب وهو بكره ، وأبيهو والعازر ، ويشمر . والمقصود أن بنى إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين

(١) ذكر ابن إسحاق وغيره : أسماء النقباء مخالفة لما ذكر ، والله أعلم .

الذين قالوا : (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) قاله الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس ، وقاله قتادة وعكرمة ، ورواه السدي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ، حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف : ومات موسى وهرون قبله كلاهما في التيه جميعاً .

وقد زعم ابن إسحق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى ، وإنما كان يوشع على مقدمته . وذكر في سروره إليها قصة بلعام بن باعوراء الذي قال تعالى فيه : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكننا أخذنا من الأرض واتبع هواه ، فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون^(١)) . وقد ذكرنا قصته في التفسير ، وأنه كان - فيما قاله ابن عباس وغيره - يعلم الاسم الأعظم ، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه - فامتنع عليهم ، ولما ألحوا عليه ركب حمارة له ، ثم سار نحو معسكر بني إسرائيل ، فلما أشرف عليهم - ربضت به حمارته فضر بها حتى قامت ، فسارت غير بعيد وربضت ، فضر بها ضرباً أشد من الأول فقامت ثم ربضت ، فضر بها فقالت له يا بلعام : أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا ؟ أنذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها ، فضر بها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل « حسان » ، ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم ، فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ، ويدعو على قوم نفسه ، فلأموه على ذلك فاعتذر إليهم بأنه لا يجرى على لسانه إلا هذا ، واندفع لسانه حتى وقع على صدره ، فقال لقومه : قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المسكر والحيلة .

ثم أمر قومه أن يزبنوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم لعلهم يقعون في الزنا ، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم ، ففعلوا وزبنوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر ، ففرت امرأة منهم اسمها « كسبتى »^(٢) ، برجل من عظماء بني إسرائيل ، وهو « زمري » بن شلوم - يقال إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب - فدخل بها قبته ، فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل ، فجعل يحوس فيهم ، فلما بلغ الخبر إلى « فنحاص »^(٣) بن العيزار بن هرون - أخذ حربته وكانت من حديد ، فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعاً فيها ، ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده ، وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته ، ورفعهما نحو السماء وجعل يقول : اللهم هكذا فعل بمن يعصيك ، ورفع الطاعون . فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفاً ، والمقلل يقول عشرين ألفاً ،

(١) الآيات : ١٧٥ - ١٧٧ من سورة الأعراف (٢) قيل كانت ابنة « صور » الملك ، وكانت غاية في الجمال .

(٣) كان صاحب أمر موسى ، وكان غائباً حين صنع زمري ما صنع .

وكان فنحاص بكر أبيه العبزار بن هرون ؛ فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة - الليلة ولذراع واللحى ، ولحم البكر من كل أموالهم وأنفسها .

وهذا الذى ذكره ابن إسحق من قصة بلعام صحيح ، وقد ذكره غير واحد من علماء السلف ، لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية ، ولعله مراد ابن إسحاق ، ولكنه غير مافهمه بعض الناقين عنه ، وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا ، والله أعلم .

ولعل هذه قصة أخرى كانت فى خلال سيرهم فى التيه ؛ فإن فى هذا السياق ذكر « حسابان » وهى بعيدة عن أرض بيت المقدس ، أو لعله كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون ، حين خرج بهم من التيه قاصداً بيت المقدس ، كما صرح به السدى ، والله أعلم .

وعلى كل تقدير فالذى عليه الجمهور : أن هرون توفى بالتية قبل موسى أخيه بنحو من سنتين ، وبعده موسى فى التيه أيضاً ، كما قدمنا . وأنه سأل ربه أن يقرب إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك ، فكان الذى خرج بهم من التيه ، وقصد بهم بيت المقدس - هو يوشع بن نون عليه السلام . فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ - أنه قطع بينى إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا ، وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً ، وأكثرها أهلاً ، فحاصرها ستة أشهر . ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون - يعنى الأبواق - وكبروا تكبيرة رجل واحد ، ففتسخ سورها وسقط وجبة^(١) واحدة ، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم ، وقتلوا اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء ، وحاربوا ملوكاً كثيرة . ويقال إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام . وذكروا أنه انتهى محاصرته إلى يوم جمعة بعد العصر ، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ، ويدخل عليهم السبت الذى جعل عليهم لها وشرع لهم ذلك الزمان - قال لها : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها على ، فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد ، وأمر القمر فوقف عند الطلوع ، وهذا يقتضى أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر الأول وهو قصة الشمس المذكورة فى الحديث الذى سأذكره . وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب ، ولا ينافى الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق ولا تكذب . ولكن ذكرهم أن هذا فى فتح أريحا - فيه نظر ، والأشبه - والله أعلم - أن هذا كان فى فتح بيت المقدس الذى هو المقصود الأعظم ، وفتح أريحا كان وسيلة إليه ، والله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر عن هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليلالى سار إلى بيت المقدس » . انفراد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخارى . وفيه دلالة على أن الذى فتح بيت المقدس هو يوشع ابن نون عليه السلام - لا موسى ، وأن حبس الشمس كان فى فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا . وفيه

(١) المراد : سقط دفعة واحدة ، يقال : وجب يجب وجبة - كوثب يثب وثبة - سقط وقع .

أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام ، فيدل على ضعف الحديث الذي روينا : أن الشمس رجعت حتى صلى على بن أبي طالب صلاة العصر ، بعد ما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته ، فسأل رسول الله أن يردها عليه حتى يصلى العصر فرجعت . وقد صححه على بن أبي صالح المصري ولكنه ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان ، وهو مما تتوافر الدواعي على نقله . وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرزاق ، حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « غزا نبي من الأنبياء ^(١) فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة ، وهو يريد أن يبنى بها ولما يبن ، ولا آخرُ قد بنى بنياناً ولم يرفع سقفها ، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات ^(٢) وهو ينتظر أولادها . قال : فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريباً من ذلك ، فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور . اللهم احبسها على شيئاً فبست عليه حتى فتح الله عليه ، قال : فجمعوا ماغنموا ، فأنت النار لتأكله فأبت أن تطعمه ، فقال فيكم غلول ^(٣) ، فليبايعني من كل قبيلة رجل ، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده ، فقال فيكم الغلول فبايعني قبيلتك ، فبايعته قبيلته ، قال فلصت بيد رجلين أو ثلاثة فقال فيكم الغلول أتم غلاتم . قال : فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب ، قال : فوضعوه بالمال وهو بالصعيد ، فأقبلت النار فأكلته ، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ؛ ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيها لنا . انفرد به مسلم من هذا الوجه . وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه . قال : ورواه محمد بن مجلان عن سعيد المقبري ، قال : ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجداً ؛ أي ركعاً متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما من به عليهم من الفتح العظيم ، الذي كان الله وعدم إياه ، وأن يقولوا حال دخولهم : (حِطَّة) أي حط عنا خطايانا التي سلفت ؛ من نكولنا الذي تقدم منا . ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها - دخلها وهو راكب ناقته ، وهو متواضع حامد شاكر ، حتى إن عُثنونه - طرف لحيته - ليس مؤزك ^(٤) رحله ؛ مما يطأ رأسه خضعاناً لله عز وجل ، ومعه الجنود والجيوش من لا يرى منه إلا الحدق ، ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله ﷺ . ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثمانى ركعات وهي صلاة الشكر على النصر ، على المشهور من قول العلماء . وقيل إنها صلاة

(١) قبل هذا النبي هو يوشع بن نون . (٢) الخلفات : الحوامل من النوق - الواحدة خلفه بوزن نكرة .

(٣) أي خيانة : يقال غل من الغنم غلواً - أي خان . قال أبو عبيدة . الغلول من المغنم خاصة .

(٤) مؤزك الرجل : الموضع الذي يجعل عليه الراكب رحله .

الضحى ، وما حمل هذا القائل على قوله هذا - إلا لأنها وقعت وقت الضحى . وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً ؛ فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم^(١) يقولون : حبة في شعرة ، وفي رواية : حنطة في شعرة .

وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزءوا به ؛ كما قال تعالى حاكياً عنهم في سورة الأعراف وهي مكة : (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم ، وقولوا حطة ، وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين ؛ فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم ، فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون^(٢)) . وقال في سورة البقرة وهي مدنية مخاطباً لهم : (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ؛ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجلاً من السماء بما كانوا يفسقون^(٣)) . وقال الثورى عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : (وادخلوا الباب سجداً) قال : ركعاً من باب صغير . رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم ، وكذا روى العوفى عن ابن عباس ، وكذا روى الثورى عن ابن إسحاق عن البراء . قال مجاهد والسدى والضحاك : والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس . قال ابن مسعود : فدخلوا مقنعي رءوسهم ضد ما أمروا به ، وهذا لا ينافى قول ابن عباس أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم . وهكذا في الحديث الذى سنورده بعد ، فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رءوسهم . وقوله : (وقولوا حطة) الواو هنا حالية لاعاطفة ؛ أى ادخلوا سجداً في حال قولكم حطة . قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع : أمروا أن يستغفروا .

قال البخارى : حدثنا محمد ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قيل لبنى إسرائيل : (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، نغفر لكم خطاياكم) - فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة^(٤) » . وكذا رواه النسائى من حديث ابن المبارك ببعضه ، ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن ابن مهدي به موقوفاً . وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « قال الله لبنى إسرائيل : (ادخلوا الباب سجداً - وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم) فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا حبة في شعرة » . ورواه البخارى ومسلم والترمذى من حديث عبد الرزاق ، وقال الترمذى حسن صحيح . وقال محمد بن إسحاق كان تبديلهم كما حدثنى صالح بن كيسان عن صالح مولى

(١) جمع لست ، وهو العجز - أو حلقة الدبر .

(٢) الآيات : ٥٨ ، ٥٩

(٣) الآيات : ١٦١ ، ١٦٢

(٤) وفي رواية : في شعيرة .

التوأمة عن أبي هريرة وعمن لا أتهم ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « دخلوا الباب - الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً - يزحفون على أستاههم ، وهم يقولون حنطة في شعيرة » . وقال أسباط عن السدي عن مرة عن ابن مسعود قال في قوله : (فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم) قال قالوا : (هطى سقانا أزمة مزياً) ، فهي في العربية : « حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء » ، وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة ؛ بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم - وهو الطاعون ، كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن عامر بن سعد ، ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم أبي النضر عن عامر بن سعد عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ : أنه قال : « إن هذا الوجع أو السقم - رجز عذب به بعض الأمم قبلكم » . وروى النسائي وابن أبي حاتم وهذا لفظه من حديث الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ، وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم » . وقال الضحاك عن ابن عباس : الرجز العذاب ، وكذا قال مجاهد وأبو مالك والسدي والحسن وقتادة . وقال أبو العالية : هو الغضب ، وقال الشعبي : الرجز إما الطاعون وإما البرد ، وقال سعيد بن جبير هو الطاعون . ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه ، وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه ، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة ، فكانت مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة .

ذكر قصتي الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخضر : فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللدني ، وقص الله من خبرها في كتابه العزيز في سورة الكهف ، وذكرنا في تفسير ذلك هنالك ، وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر عليه السلام ، وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام ؛ الذي أنزلت عليه التوراة . وقد اختلف في الخضر ؛ في اسمه ، ونسبه ، ونبوته ، وحياته إلى الآن - على أقوال . سأذكرها لك ههنا إن شاء الله وبجوله وقوته .

قال الحافظ ابن عساکر : يقال إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه ، ثم روى من طريق الدارقطني : حدثنا محمد بن الفتح القلانسي ، حدثنا العباس بن عبد الله الرومي ، حدثنا رواد بن الجراح ، حدثنا مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس ، قال : الخضر ابن آدم لصلبه ، ونسب له في أجله حتى يكذب الدجال ، وهذا منقطع وغريب . وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا : إن أطول بني آدم عمراً الخضر ، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم . قال

وذكر ابن إسحاق: أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة - أخبر بنبيه أن الطوفان سيقع بالناس ، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسدته معهم في السفينة ، وأن يدفنوه في مكان عينه لهم . فلما كان الطوفان حملوه معهم ، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنبيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى . فقالوا إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة ، فخرضهم وحشهم على ذلك . وقال إن آدم دعا لمن يلي دفنه بطول العمر ، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت ، فلم يزل جسدته عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه ، وأنجز الله ما وعده ، فهو يحيا إلى ما شاء الله له أن يحيا .

وذكر ابن قتيبة في المعارف عن وهب بن منبه: أن اسم الخضر « بليا » ، ويقال بليا بن ملكان ابن فالغ بن عابر بن شالح بن أرغشذ بن سام بن نوح عليه السلام . وقال إسماعيل بن أبي أويس: اسم الخضر - فيما بلغنا والله أعلم - المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن لاذر . وقال غيره: هو خضرون ابن عميائل بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو أرميا بن خلقيا ، فأنه أعلم . وقيل إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر ، وهذا غريب جداً . قال ابن الجوزي: رواه محمد ابن أيوب عن ابن لهيعة وهما ضعيفان . وقيل: إنه ابن مالك وهو أخو إلياس ، قاله السدي كما سيأتي . وقيل إنه كان على مقدمة ذى القرنين . وقيل كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه . وقيل كان نبياً في زمن بشتاسب بن لهراسب . قال ابن جرير: والصحيح أنه كان متقدماً في زمن أفريدون ابن اثنيان حتى أدركه موسى عليهما السلام . وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال: الخضر أمه رومية وأبوه فارسي .

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضاً ، قال أبو زرعة في دلائل النبوة: حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي ، حدثنا الوليد ، حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ: أنه ليلة أسرى به وجد راحة طيبة ، فقال يا جبريل ماهذه الراحة الطيبة؟ قال هذه ریح قبر الماشطة وابنيها وزوجها . وقال: وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشرف بني إسرائيل ، وكان ممره براهب في صومعته ، فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام . فلما بلغ الخضر زوجه أبوه امرأة فعلها الإسلام ، وأخذ عليها أن لانعلم أحداً ، وكان لا يقرب النساء ثم طلقها . ثم زوجه أبوه بأخرى فعلها الإسلام ، وأخذ عليها أن لانعلم أحداً ثم طلقها ، فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى ، فانطلق هارباً حتى أتى جزيرة في البحر ، فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتمت إحداهما وأفشى عليه الآخر . قال قد رأيت العز ، قيل ومن رآه معك؟ قال فلان ، فسئل فكتمت . وكان من دينهم أنه من كذب قتل قتل ، وكان قد تزوج الكاتمة المرأة الكاتمة . قال فينما هي تسط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقالت تعس فرعون ، فأخبرت أبها ، وكان للمرأة ابنان وزوج ،

فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما - فأبيا ، فقال : إني قاتلسكما ، فقالا إحسان منك إلينا - إن أنت قتلتنا - أن تجعلنا في قبر واحد ، فجعلها في قبر واحد ، فقال وما وجدت ريحاً أطيب منهما ، وقد دخلت الجنة . وقد تقدمت قصة مائلة بنت فرعون ، وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجاً من كلام أبي بن كعب أو عبد الله بن عباس والله أعلم . وقال بعضهم : كنيته أبو العباس ، والأشبه والله أعلم . أن الخضر لقب غلب عليه .

قال البخارى رحمه الله : حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ، حدثنا ابن المبارك عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء^(١) » . تفرد به البخارى ، وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر به . ثم قال عبدالرزاق : الفروة - الحشيش الأبيض وما أشبهه - يعنى الهشيم اليابس . وقال الخطابي وقال أبو عمر : الفروة الأرض البيضاء التي لانبات فيها . وقال غيره : هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة ، ومنه قيل فروة الرأس - وهي جلده بما عليها من الشعر ؛ كما قال الراعي^(٢) .

وقد ترى الحبشى حول بيوتنا جذلا إذا مانال يوماً ماكلا^(٣)
جعداً أصك كأن فروة رأسه بذرت فأنبت جانباها فلغلا

قال الخطابي : إنما سمي الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه ، قلت : وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح ؛ فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما - فما ثبت في الصحيح أولى وأقوى ، بل لا يلتفت إلى ما عده . وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضاً من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الأيلي : حدثنا عثمان وأبو جزى وهمام بن يحيى عن قتادة عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إنما سمي الخضر خضراً لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء » . وهذا غريب من هذا الوجه . وقال قبيصة عن الثوري عن منصور عن مجاهد قال : إنما سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر ، وجدها على طنفسة خضراء على كبد البحر ، وهو مسجى بثوب قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه ، فلم عليه السلام فكشف عن وجهه فرد ، وقال : أنى بأرضك السلام ؟ من أنت ؟ قال أنا موسى . قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم . فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه عنهما . وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه :

(١) قال العيني : الفروة هي جلدة وجه الأرض جلس عليها الخضر ، فأنبت وصارت خضراء . وقيل : أراد الهشيم من نبات الأرض - اخضر بعد يبسه (٢) شاعر من فحول الشعراء في عصر بني أمية كان يقضي للفرزدق على جرير وبنضله (٣) المسك : اجتماع الماء في البئر . يقال مكات البئر - إذا اجتمع الماء في وسطها وكثر ، ولعله يريد يوماً مطبراً .

أحدها : قوله تعالى : (فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلماها من لدنا علماً) .

الثاني : قول موسى له : (هل أتبعك على أن تعالني مما علمت رشداً * قال إنك إن تستطيع معي صبراً * وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً * قال مستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً * قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً) ، فلو كان ولياً وليس بنبي - لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة ، ولم يرد على موسى هذا الرد ، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه . فلو كان غير نبي - لم يكن معصوماً ، ولم تكن لموسى - وهونبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة - كبير رغبة ولا عظيم طلبية في علم ولي غير واجب العصمة ، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عنه ، ولو أنه يمضي حقبة من الزمان ، قيل ثمانين سنة . ثم لما اجتمع به - تواضع له وعظمه ، واتبعه في صورة مستفيد منه . فدل على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه ، وقد خص من العلوم الدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الحكيم ، نبي بني إسرائيل الكريم . وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرماني^(١) على نبوة الخضر عليه السلام .

الثالث : أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام ، وما ذاك إلا للوحى إليه من الملك العلام . وهذا دليل مستقل على نبوته ، وبرهان ظاهر على عصمته ؛ لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلدته ؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة ، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق . ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم ، علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ، ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته ، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته - دل ذلك على نبوته ، وأنه مؤيد من الله بعصمته . وقد رأيت الشيخ أبا الفرج ابن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه . وحكى الاحتجاج عليه الرماني أيضاً .

الرابع : أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى ، ووضح له عن حقيقة أمره وجلى - قال بعد ذلك كله : (رحمة من ربك وما فعلته عن أمري) يعني ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل أمرت به وأوحى إلى فيه ؛ فذلت هذه الوجوه على نبوته . ولا ينافي ذلك حصول ولايته ، بل ولا رسالته - كما قاله آخرون . وأما كونه ملكاً من الملائكة فغريب جداً ، وإذا ثبتت نبوته - كما ذكرناه ، لم يبق لمن قال بولايته - وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر - مستند يستندون إليه ، ولا معتمد يعتمدون عليه .

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا ؛ فالجمهور على أنه باق إلى اليوم ؛ قيل لأنه دفن آدم بعد

خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة ، وقيل لأنه شرب من عين الحياة فخي .
 وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن . وسنوردها إن شاء الله تعالى وبه الثقة .
 وهذه وصيته لموسى حين (قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) . روى
 في ذلك آثار منقطعة كثيرة ؛ قال البيهقي : أنبأنا أبو سعيد بن أبي عمرو ، حدثنا أبو عبد الله الصفار ،
 حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا جرير ، حدثني أبو عبد الله الملقطى قال :
 لما أراد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى أوصني ، قال : كن نفاعاً ولا تكن ضراراً ، كن بشاشاً ولا
 تكن غضبان ، ارجع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة . وفي رواية من طريق أخرى زيادة : ولا
 تضحك إلا من عجب . وقال وهب بن منبه قال الخضر : يا موسى إن الناس معذبون في الدنيا على قدر
 همومهم بها ، وقال بشر بن الحارث الخافي : قال موسى للخضر أوصني ، فقال : يسر الله عليك طاعته .
 وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساکر من طريق زكرياء بن يحيى الوقاد - إلا أنه من
 الكذابين الكبار - قال قرىء على عبد الله بن وهب وأنا أسمع ، قال الثوري ، قال مجالد ، قال أبو الوداك
 قال أبو سعيد الخدرى ، قال عمر بن الخطاب ، قال رسول الله ﷺ : « قال أخى موسى يارب وذكرك
 كلمته ، فأناه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب مشمرها ، فقال السلام عليك ورحمة الله
 يا موسى بن عمران ، إن ربك يقرأ عليك السلام . قال موسى هو السلام وإليه السلام ، والحمد لله رب
 العالمين ، الذى لا أحصى نعمه ، ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته . ثم قال موسى : أريد أن توصيني
 بوصية ينفعنى الله بها بعدك ، فقال الخضر : ياطالب العلم إن القائل أقل ملالة من المستمع ، فلا تمل جلساءك
 إذا حدثتهم ، واعلم أن قلبك وعاء فانظر ماذا تحشوبه وعاءك ، واغرف من الدنيا وانبذها وراءك ؛ فإنها
 ليست لك بدار ولالك فيها محل قرار ، وإنما جعلت بلغة للعباد والتزود منها ليوم المعاد ، ورض نفسك
 على الصبر تخلص من الإثم . يا موسى تفرغ للعلم إن كنت تريد ؛ فإنما العلم لمن تفرغ له ، ولا تكن
 مكثراً للعلم مهذاراً ؛ فإن كثرة المنطق تشين العلماء وتبدي مساوى السخفاء . ولكن عليك بالاعتقاد ،
 فإن ذلك من التوفيق والسداد . وأعرض عن الجاهل وماطلهم ، واحلم عن السفهاء ؛ فإن ذلك فعل
 الحكماء وزين العلماء . وإذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلماً ، وجانبه حزمياً ؛ فإن ما بقى من جهله
 عليك وسبه إياك أكثر وأعظم . يا ابن عمران ولا ترى أنك أوتيت من العلم إلا قليلاً ؛ فإن الاندلاث^(١)
 والتعسف من الاقتحام والتكلف . يا ابن عمران لا تفتحن باباً لا تدري ما غلقه ، ولا تغلقن باباً لا تدري
 ما فتحة . يا ابن عمران من لا تنتهى من الدنيا نهمته^(٢) ، ولا تنقضى منها رغبته ، ومن يحقر حاله ، ويتهم
 الله فيما قضى له - كيف يكون زاهداً ؟ هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه ؟ أو ينفعه طلب

(٢) أى التقدم بلا فكرة ولا روية (٢) النهمة : الحاجة وبلوغ الهمة والشهوة فى الشيء .

العلم والجهد قد حواه ؟ لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه . ياموسى تعلم ما تعلمت لتعمل به ، ولا تعلمه لتحدث به ، فيكون عليك بواره ، ولغيرك نوره . ياموسى بن عمران ، اجعل الزهد والتقوى لباسك ، والعلم والذكرا كلامك ، واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات ، وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يرضى ربك ، واعمل خيراً فإنك لا بد عامل سوءاً ، قد وعظتُ إن حفظت . قال فتولى الخضر وبقى موسى محزوناً مكروباً يبكي . لا يصح هذا الحديث ، وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقاد المصرى ، وقد كذبه غير واحد من الأئمة . والعجب أن الحافظ ابن عساكر سكت عنه .

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني : حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ، حدثنا عمرو بن إسحاق ابن إبراهيم بن العلاء الحمصي ، حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندي ، حدثنا ببيعة بن الوليد عن محمد ابن زياد عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « ألا أحدثكم عن الخضر ! قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : بينا هو ذات يوم يمشى في سوق بني إسرائيل ، أبصره رجل مكاتب ، فقال تصدق على - بارك الله فيك . فقال الخضر : آمنت بالله ، ما شاء الله من أمر يكون ، ما عندي من شيء أعطيته . فقال المسكين : أسألك بوجه الله لما تصدقت على - ؛ فإني نظرت إلى السماء في وجهك ، ورجوت البركة عندك . فقال الخضر : آمنت بالله ما عندي شيء أعطيته ، إلا أن تأخذني فتبيعي ، فقال المسكين : وهل يستقيم هذا ؟ قال نعم . الحق أقول لك ، لقد سألتني بأمر عظيم ، أما إني لا أخيبك بوجه ربي ، بعني . قال فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم ، فسكت عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء ، فقال له : إنك ابتعتني التماس خير عندي فأوصني بعمل ، قال أكره أن أشق عليك ، إنك شيخ كبير ضعيف . قال ليس تشق عليّ ، قال فانقل هذه الحجارة - وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم - فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة ، فقال أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه . ثم عرض للرجل سفر ، فقال إني أحسبك أميناً فاخفني في أهلي خلافة حسنة ، قال فأوصني بعمل ، قال : إني أكره أن أشق عليك ، قال ليس تشق عليّ ، قال : فاضرب من اللبن لبيتي حتى أقدم عليك . فضى الرجل لسفره ، فرجع وقد شيد بناؤه ، فقال أسألك بوجه الله ما سئلك وما أسرك ؟ فقال سألتني بوجه الله ، والسؤال بوجه الله أوقنى في العبودية ، سأخبرك من أنا ؟ . أنا الخضر الذي سمعت به ؛ سألتني مسكين صدقة فلم يكن عندي من شيء أعطيته ، فسألني بوجه الله فأمكنته من رقبتى ، فباعني . وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر - وقف يوم القيامة جلده لالحم له ولا عظم يتعمق (١) فقال الرجل : آمنت بالله ، شققت عليك يا نبي الله ولم أعلم ، فقال لا بأس أحسنت وأبقيت . فقال الرجل بأبي وأمي يا نبي الله ، احكم في أهلي ومالي بما أراك الله ، أو أخبرك فأخلى سبيلك ، فقال أحب أن تخلى

سبيلي ، فأعبد ربي ، فخلى سبيله . فقال الخضر : الحمد لله الذى أوقعتنى فى العبودية ثم نجأتى منها . وهذا حديث رفعه خطأ ، والأشبه أن يكون موقوفاً ، وفى رجاله من لا يعرف ، فالله أعلم .

وقد رواه ابن الجوزى فى كتابه : [عجالة المنتظر فى شرح حال الخضر] من طريق عبد الوهاب ابن الضحاك وهو متروك عن بقرية . وقد روى الحافظ ابن عساكر بإسناد إلى السدى : أن الخضر وإلياس كانا أخوين ، وكان أبوهما ملكاً ، فقال إلياس لأبيه : إن أخى الخضر لا رغبة له فى الملك ، فلو أنك زوجته لعله يحيىء منه ولد يكون الملك له ، فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر ، فقال لها الخضر : إنه لا حاجة لى فى النساء ؛ فإن شئت أطلقت سراحك ، وإن شئت أقت معى تعبدن الله عز وجل وتكتمين على سرى . فقالت نعم ، وأقامت معه سنة . فلما مضت السنة دعاها الملك ، فقال إنك شابة وابنى شاب فأين الولد ؟ فقالت إنما الولد من عند الله ؛ إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن . فأسره أبوه فطلقها وزوجه بأخرى ثيباً قد ولد لها ، فلما زفت إليه قال لها كما قال لى قبليها ، فأجابت إلى الإقامة عنده . فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد ، فقالت : إن ابنك لا حاجة له بالنساء ، فتطلبه أبوه فهرب ، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه . فيقال إنه قتل المرأة الثانية لكونها أنشت سره ، فهرب من أجل ذلك ، وأطلق سراح الأخرى ، فأقامت تعبد الله فى بعض نواحي تلك المدينة ، فربها رجل يوماً فسمعتة يقول : بسم الله ، فقالت له أى لك هذا الاسم ؟ فقال إنى من أصحاب الخضر ، فزوجه فولدت له أولاداً . ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون ، فبينما هى يوماً تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت : بسم الله . فقالت ابنة فرعون : أبى ، فقالت - لا . ربى وربك ورب أيك - الله . فأعلمت أباهاً فأمر بنقرة من نحاس فأحميت ، ثم أمر بها فألقيت فيها . فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها ، فقال لها ابن مميها صغير : يا أمه اصبرى فإنك على الحق . فألقت نفسها فى النار فماتت رحماً الله .

وقد روى ابن عساكر عن أبى داود الأعمى نفع - وهو كذاب وضاع - عن أنس بن مالك ، ومن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف - وهو كذاب أيضاً - عن أبيه عن جده : أن الخضر جاء ليلة فسمع النبى ﷺ وهو يدعو ويقول : « اللهم أعنى على ما ينجيني مما خوفتنى ، وارزقنى شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه » . فبعث إلى رسول الله أنس بن مالك فسلم عليه فرد عليه السلام وقال قل له : إن الله فضلك على الأنبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور ، وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على غيره . . . الحديث ، وهو مكذوب لا يصح سنداً ولا متنناً ؛ فكيف لا يتمثل بين يدى رسول الله ﷺ ويحيىء بنفسه مسلماً ومتعاماً ؟ وهم يذكرون فى حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم : أن الخضر يأتى إليهم ويسلم عليهم ، ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالمهم ، وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليم الله ، الذى اصطفاه الله فى ذلك الزمان على من سواه ، حتى يتعرف إليه بأنه موسى بن إسرائيل .

وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادى - بعد إيراده حديث أنس هذا - وأهل الحديث متفقون على أنه حديث منكر الإسناد سقيم المتن ، يتبين فيه أثر الصنعة .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي قائلًا : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر ابن بالويه ، حدثنا محمد بن بشر بن مطر ، حدثنا كامل بن طلحة ، حدثنا عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك قال : لما قبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه ، فبكوا حوله واجتمعوا . فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى . ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال : إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وعوضاً من كل فائت ، وخلفاً من كل هالك ، فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا ، وقد نظر إليكم في البلاء فانظروا ؛ فإن المصاب من لم يجبر ، وانصرف . فقال بعضهم لبعض : أتعرفون الرجل ؟ فقال أبو بكر وعلى : نعم ؛ هو أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام . وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كامل بن طلحة به . وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي . ثم قال البيهقي : عباد بن عبد الصمد ضعيف - فهذا منكر بكرة^(١) . قلت عباد بن عبد الصمد هذا هو ابن معمر البصرى ، روى عن أنس نسخة ، قال ابن حبان والعقيلي أكثرها موضوع ، وقال البخاري منكر الحديث ، وقال أبو حاتم ضعيف الحديث جداً منكره ، وقال ابن عدى : عامة ما يرويه في فضائل علي - وهو ضعيف غال في التشيع .

وقال الشافعي في مسنده : أخبرنا القاسم بن عبد الله بن عمر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين قال : لما توفي رسول الله ﷺ وجاءت التعزية - سمعوا قائلًا يقول : إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كل فائت . فبالله فنقوا ، وإياه فارجوا ؛ فإن المصاب من حرم الثواب . قال علي بن الحسين أندرون من هذا ؟ هذا الخضر . شيخ الشافعي القاسم العمري متروك . قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يكذب ، زاد أحمد : ويضع الحديث . ثم هو مرسل ومثله لا يعتمد عليه ههنا والله أعلم . وقد روى من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن أبيه عن علي ولا يصح . وقد روى عبد الله بن وهب عن حدثه ، عن محمد بن مجلان عن محمد بن المنكدر : أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفاً وهو يقول : لا تسبقنا يرحمك الله ، فانتظره حتى لحق بالصف ، فذكر دعاءه للميت : إن تعذبه فكثيراً عصاك ، وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك . ولما دفن قال : طوبى لك يا صاحب القبر ، إن لم تكن عربياً أو جايياً أو خازناً أو كاتباً أو شرطياً . فقال عمر : خذوا الرجل نسأله عن صلواته وكلامه عن من هو ؟ قال فتوارى عنهم ، فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع . فقال عمر : هذا والله الخضر الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ . وهذا الأثر فيه مبهم ، وفيه انقطاع ولا يصح مثله .

(١) قوله : فهذا منكر بكرة - جواب قوله : فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي .

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثوري عن عبد الله بن محرز عن يزيد بن الأصم عن علي بن أبي طالب قال : دخلت الطواف في بعض الليل ، فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يمنعه سمع عن سمع ، ويا من لا تغلظه المسائل ، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحين ولا مسألة السائلين - ارزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك . قال : فقلت أعد علي ما قلت ، فقال لي أو سمعته ؟ قلت نعم . فقال لي : والذي نفس الخضر بيده - قال : وكان هو الخضر - لايقولها عبد خاف صلاة مكتوبة إلا غفر الله له ذنوبه ، ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم - لغفرها الله له . وهذا ضعيف من جهة عبد الله بن محرز ؛ فإنه متروك الحديث ، ويزيد بن الأصم لم يدرك علياً ، ومثل هذا لا يصح والله أعلم . وقدرناه أبو إسماعيل الترمذي : حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا صالح بن أبي الأسود عن محفوظ بن عبد الله الحضرمي عن محمد بن يحيى قال : بينا علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة ، إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا يغلظه السائلون ، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين ارزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك قال : فقال له علي : يا عبد الله أعد دعاءك هذا ، قال أو قد سمعته ؟ قال نعم . قال فادع به في دبر كل صلاة ، فوالذي نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها ، وحصباء الأرض وترابها - لغفر لك أسرع من طرفة عين . وهذا أيضاً منقطع ، وفي إسناده من لا يعرف ، والله أعلم .

وقد أورد ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا : حدثنا يعقوب بن يوسف ، حدثنا مالك بن إسماعيل فذكر نحوه . ثم قال : وهذا إسناد مجهول منقطع ، وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر . وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : أنبأنا أبو القاسم ابن الحصين ، أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد ، أنبأنا أبو إسحاق المزكي ، حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة ، حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملاه علينا بعبادان ، أنبأنا عمرو بن عاصم ، حدثنا الحسن بن زريق عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال - ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ - قال : « يلتقي الخضر وإلياس كل عام في الموسم فيخلق كل منهما رأس صاحبه ، ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات : بسم الله ماشاء الله ، لا يسوق الخير إلا الله ، ماشاء الله لا يصرف الشر إلا الله ، ماشاء الله ما كان من نعمة فمن الله ، ماشاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله » . قال وقال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسى ثلاث مرات - آمنه الله من الفرق والحرق والسرق . قال وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب .

قال الدارقطني في الأفراد : هذا حديث غريب من حديث ابن جريج ، لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه - يعني الحسن بن زريق هذا . وقد روى عنه محمد بن كثير العبدي أيضاً ، ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي : ليس بالمعروف ، وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي : مجهول وحديثه غير محفوظ .

وقال أبو الحسن بن المنادى : هو حديث واه بالحسن بن زريق . وقد روى ابن عساكر نحوه من طريق علي بن الحسن الجهمي - وهو كذاب - عن ضمرة بن حبيب المقدسي عن أبيه عن العلاء بن زياد القشيري عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب مرفوعاً قال : يجتمع كل يوم عرفة بعرفات - جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر . وذكر حديثاً طويلاً موضوعاً تركناه لإيراده قصداً ولله الحمد . وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد عن الحسن بن يحيى الخشني عن ابن أبي رواد قال : إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ، ويحجان في كل سنة ، ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تسكفيهما إلى مثلها من قابل .

وروى ابن عساكر : أن الوليد بن عبد الملك بن مروان - باني جامع دمشق - أحب أن يتعبد ليلة في المسجد ، فأمر القومة^(١) أن يخلوه له ففعلوا ، فلما كان من الليل جاء في باب الساعات فدخل الجامع ، فإذا رجل قائم يصلي فيما بينه وبين باب الخضر ، فقال للقومة : ألم أمركم أن تخلوه ؟ فقالوا يأمر المؤمنين هذا الخضر يحيى كل ليلة يصلي هاهنا . وقال ابن عساكر أيضاً : أنبأنا أبو القاسم بن إسماعيل بن أحمد أنبأنا أبو بكر بن الطبري ، أنبأنا أبو الحسين ابن الفضل ، أنبأنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب - هو ابن سفيان الفسوي - حدثني محمد بن عبد العزيز ، حدثنا حمزة عن السري بن يحيى عن رباح بن عبيدة قال : رأيت رجلاً يمشي عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه ، فقلت في نفسي : إن هذا الرجل حافي ، قال فلما انصرف من الصلاة - قلت من الرجل الذي كان معتمداً على يدك آنفاً ؟ قال وهل رأيت يارباح ؟ قلت نعم . قال ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً ، ذاك أخي الخضر بشرني أني سألت وأعدت . قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي الرملي : مجروح عند العلماء . وقد قدح أبو الحسين بن المنادى في ضمرة والسري ورباح . ثم أورد من طرق آخر عن عمر بن عبد العزيز - أنه اجتمع بالخضر ، وضعفها كلها . وروى ابن عساكر أيضاً - أنه اجتمع بإبراهيم التيمي وبسفيان بن عيينة وجماعة يطول ذكرهم . وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم . وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لا يقوم بمنزلها حجة في الدين ، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف الإسناد . وقصارها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره ؛ لأنه يجوز عليه الخطأ ، والله أعلم .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن الزهري ، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، أن أبا سعيد قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجال وقال فيما يحدثنا : « يأتي الدجال - وهو محرم عليه أن يدخل نقاب^(٢) المدينة - فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خیرهم ، فيقول أشهد أنك أنت الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه ، فيقول الدجال : رأيتم إن قتلت هذا ثم أحبيته

(١) القومة : الجماعة - كالقوم . (٢) أي مداخلة وأنواء طرقها ، جمع نقب وهو الطريق إلى الجبل .

أنشكون في الأمر؟ فيقولون لا ، فيقتله ثم يحييه ، فيقول حين يحيا : والله ما كنت أشد بصيرةً فيك مني الآن . قال فيريد قتله الثانية فلا يسلط عليه « قال معمر : بلغني أنه يجعل على حلقه صحيفة من نحاس ، وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري به . وقال أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوى عن مسلم : الصحيح أن يقال إن هذا الرجل الخضر ، وقول معمر وغيره : بلغني - ليس فيه حجة . وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث : فيأتى بشاب ممثلي شباباً فيقتله . وقوله : الذي حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم - لا يقتضى المشافهة ، بل يكفي التواتر .

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله في كتابه : [عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر] للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات ؛ فبين أنها موضوعة ، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد . وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات - ومنهم البخارى وإبراهيم الحربى وأبو الحسين بن المنادى والشيخ أبو الفرج بن الجوزى ، وقد انتصر لذلك وألف فيه كتاباً أسماه [عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر] - فيحتج لهم بأشياء كثيرة : منها قوله : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) ؛ فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة ، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح انتهى . والأصل عدمه حتى يثبت . ولم يذكر فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله . ومنها أن الله تعالى قال : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أقررتم وأخذتم على ذلك إصري؟ قالوا أقرنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين^(١) . قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه . وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق ؛ لئن بعث محمد - وهم أحياء - ليؤمنن به وينصرنه ، ذكره البخارى عنه . فالخضر إن كان نبياً أو ولياً - فقد دخل في هذا الميثاق ، فلو كان حياً في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه ؛ يؤمن بما أنزل الله عليه ، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه ؛ لأنه إن كان ولياً فالصديق أفضل منه ، وإن كان نبياً فهو أولى أفضل منه .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده : حدثنا شريح بن النعمان ، حدثنا هشيم ، أنبأنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله - أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعته إلا أن يتبعنى » . وهذا الذى يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة ، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة : أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله ﷺ - لكانوا كلهم أتباعاً له ، وتحت

وأمره وفي عموم شرعه . كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الإسراء - رفع فوقهم كلهم . ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة - أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم ، فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم . فدل على أنه الإمام الأعظم ، والرسول الخاتم المبجل المقدم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

فإذا علم هذا - وهو معلوم عند كل مؤمن - علم أنه لو كان الخضر حياً لكان من جملة أمة محمد ﷺ ، ومن يقتدى بشرعه ، لا يسمعه إلا ذلك . هذا عيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة ، لا يخرج منها ولا يبيد عنها ، وهو أحد أولى العزم الخمسة المرسلين - وخاتم أنبياء بني إسرائيل . والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه - أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد ، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد . وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه عز وجل ، واستنصره واستفتحه على من كفره : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لانعبد بعدها في الأرض » ، وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ ، وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام ؛ كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال إنه أنخر بيت قائلته العرب :

وثبير بدر إذ يرد وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد

فلو كان الخضر حياً - لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته . قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي : سئل بعض أصحابنا عن الخضر هل مات ؟ فقال نعم : قال وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري قال : وكان يحتاج بأنه لو كان حياً لجاء إلى رسول الله ﷺ . نقله ابن الجوزي في العجالة .

فإن قيل : فهل يقال إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلها ولسكن لم يكن أحد يراه ؟ فالجواب : أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهّمات . ثم ما الحاصل له على هذا الاختفاء ؟ وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته وأظهر لمعجزته ؟ ثم لو كان باقياً بعده ، لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية ، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة ، والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية ، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم ، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم من سواهم ، وتسديده العلماء والحكام ، وتقريره الأدلة والأحكام - أفضل ما يقال عنه من كنهونه في الأمصار ، وجوبه الفياقي والأقطار ، واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم ، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم . وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين وغيرهما - عن عبدالله بن عمر : أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء

ثم قال : « رأيتم ليلتكم هذه ؟ فإنه إلى مائة سنة لا يبقى من هو على وجه الأرض اليوم أحد » .
 وفي رواية « عين تطرف » . قال ابن عمر قَوْلِهِ النَّاسُ ^(١) في مقالة رسول الله ﷺ هذه ، وإنما أراد
 احترام قرنه ^(٢) قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن الزهري قال : أخبرني سالم بن عبد الله
 وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة ، أن عبد الله بن عمر قال : صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء
 في آخر حياته ، فلما سلم قام فقال : « رأيتم ليلتكم هذه ؟ فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر
 الأرض أحد » ، وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الزهري . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي
 عن سليمان التيمي عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو
 بشهر : « ما من نفس منفوسة - أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة ^(٣) - يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ
 حية » . وقال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ
 أنه قال قبل أن يموت بشهر : « يسألونني عن الساعة وإنما علمها عند الله ، أقسم بالله ما على الأرض
 نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة » . وهكذا رواه مسلم من طريق أبي نضرة وأبي الزبير : كل
 منهما عن جابر بن عبد الله به نحوه . وقال الترمذي حدثنا عباد ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي
 سفیان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة » .
 وهذا أيضاً على شرط مسلم .

قال ابن الجوزي : فهذه الأحايث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر . قالوا : فالخضر إن لم يكن
 قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع - فلا إشكال ، وإن كان
 قد أدرك زمانه - فهذا الحديث يقتضى أنه لم يعش بعد مائة سنة ، فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً ؛ لأنه
 داخل في هذا العموم ، والأصل عدم التخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله ، والله أعلم .

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتابه : [التعريف والإعلام] عن البخاري وشيخه أبي بكر
 ابن العربي : أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث . وفي كون البخاري رحمه الله
 يقول بهذا وأنه بقي إلى زمان النبي صلى الله عليه وسلم - نظر . ورجح السهيلي بقاءه ، وحكاه عن
 الأكثرين . قال : وأما اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيتة لأهل البيت بعده - فمروي من طرق صحاح ،
 ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه ولم يورد أسانيدنا ، والله أعلم .

إلياس عليه السلام

قال الله تعالى بعد قصة موسى وهرون من سورة الصافات : (وإن إلياس لمن المرسلين * إذ قال
 لقومه ألا تتقون * أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين * فكذبوه
 فإنهم لمحضرون * إلا عباد الله المخلصين * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إلياسين * إنا كذلك

(١) أي فزعوا (٢) أي استنصاه ذهاب أهله (٣) أي مولودة .

نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين^(١) قال علماء النسب هو : إلياس النشبي ، ويقال : ابن ياسين ابن فنحاص ابن العيزار بن هرون ، وقيل : إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران . قالوا وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق ، فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه « بعلا^(٢) » . وقيل كانت امرأة اسمها « بعل » ، والأول أصح . ولهذا قال لهم : (ألا تتقون * أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين) فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله . فيقال : إنه هرب منهم واختفى عنهم . قال أبو يعقوب الأذرى عن يزيد بن عبد الصمد ، عن هشام بن عمار قال : وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار الذى تحت الدم عشر سنين ، حتى أهلك الله الملك وولى غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم ، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبو محمد القاسم بن هاشم ، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي ، حدثنا سعيد ابن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه في كهف جبل عشرين ليلة - أو قال أربعين ليلة - تأتبه الغربان برزقه . وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي : أنبأنا هشام ابن محمد بن السائب الكلابي عن أبيه قال : أول نبي بعث إدريس ، ثم نوح ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل وإسحق ، ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ، ثم موسى وهارون ابنا عمران ، ثم إلياس النشبي بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، هكذا قال . وفي هذا الترتيب نظر . وقال مكحول عن كعب : أربعة أنبياء أحياء ؛ اثنان في الأرض : إلياس والخضر ، واثنان في السماء : إدريس وعيسى . وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان ببيت المقدس ، وأنهما يجحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل . وأوردنا الحديث الذى فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة ، وبيننا أنه لم يصح شيء من ذلك وأن الذى يقوم عليه الدليل : أن الخضر مات ، وكذلك إلياس عليهما السلام . وما ذكره وهب بن منبه وغيره : أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه ، فجاءته دابة لونها لون النار فركبها ، وجعل الله له ريشاً وألبسه النور ، وقطع عنه لذة الطعام والمشرب وصار ملكياً بشرياً سماوياً أرضياً ، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب - ففي هذا نظر . وهو من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب ، بل الظاهر أن صحتها بعيدة ، والله أعلم .

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثني أبو العباس أحمد ابن سعيد المعداني ببخارى ، حدثنا عبد الله بن محمود ، حدثنا عبدان بن سنان ، حدثني أحمد بن عبد الله

(١) الآيات : ١٢٣-١٣٢ (٢) قيل كان من ذهب ، طوله عشرون ذراعاً وله أربعة أجنحة ، وقد فتنوا به .

البرقي ، حدثنا يزيد بن يزيد البلوي ، حدثنا أبو إسحاق الفزاري عن الأوزاعي عن مكحول عن أنس ابن مالك قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلنا منزلاً فإذا رجل في الوادي يقول : اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المتاب لها ، قال : فأشرفت على الوادي فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع ، فقال لي من أنت ؟ فقلت ، أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، قال فأين هو ؟ قلت هوذا يسمع كلامك ، قال : فآته فأقرئه السلام ، وقل له أخوك إلياس يقرئك السلام . قال فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم ، ثم قعدا يتحادثان ، فقال له : يا رسول الله إني ما آكل في السنة إلا يوماً ، وهذا يوم فطري فأكل أنا وأنت . قال : فنزلت عليهما مأدعة من السماء ، عليها خبز وحوث وكرفس ، فأكلا وأطعماني وصلينا العصر ، ثم ودعه ورأيت مره في السحاب نحو السماء - فقد كفانا البهتي أمره ، وقال : حديث ضعيف بمره .

والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في مستدركه على الصحيحين ، وهذا مما يستدرك به على المستدرك ؛ فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه . ومعناه لا يصح أيضاً ؛ فقد تقدم في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في السماء . . . إلى أن قال : ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » . وفيه أنه لم يأت رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه ، وهذا لا يصح ؛ لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء . وفيه أنه يأكل في السنة مرة ، وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب ، وفيما تقدم عن بعضهم : أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر ، وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شيء منها . وقد ساق ابن عساکر هذا الحديث من طريق أخرى واعترف بضعفها ؛ وهذا عجب منه ؛ كيف تكلم عليه ؟ فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة عن هانيء بن الحسن عن بقية عن الأوزاعي عن مكحول عن واثلة عن ابن الأسقع ، فذكر نحو هذا مطولاً . وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك ، وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان ، قالا : فإذا هو أعلى جسماً بذراعين أو ثلاثاً ، واعتذر بعدم قدرته لثلاث نفوس الإبل . وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنة ، وقال : إن لي في كل أربعين يوماً أكلة ، وفي المائدة خبز وورمان وعنب وموز ورطب وبقل - ما عدا الكراث . وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر فقال عهدى به عام أول ، وقال لي : إنك ستلقاه قبلي فأقرئه مني السلام . وهذا يدل على أن الخضر وإلياس - بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث - لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة ، وهذا لا يسوغ شرعاً ؛ وهذا موضوع أيضاً .

وقد أورد ابن عساکر طريقاً فيمن اجتمع بإلياس من العباد ، وكلها لا يفرح بها ؛ لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها . ومن أحسنها ما قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني بشر بن معاذ ، حدثنا حماد (٤٧ - بداية أول)

ابن واقد عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة ، فدخلت حائطاً أصلي فيه ركعتين فافتتحت : (حمّ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب * ذى الطول) - فإذا رجل من خلفي على بغلة شهباء ، عليه مقطعات يمنية فقال لي : إذا قلت غافر الذنب - فقل ياغافر الذنب اغفر لي ذنبي ، وإذا قلت قابل التوب - فقل ياقابل التوب تقبل توبتي ، وإذا قلت شديد العقاب - فقل يا شديد العقاب لاتعاقبني ، وإذا قلت ذى الطول - فقل يا ذا الطول تطول عليّ برحمة ، فالتفت فإذا لأحد . وخرجت فسألت : مر بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية ؟ فقالوا ما مر بنا أحد ، فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس .

وقوله تعالى : (فسكذّبوه فإنهم لمحضرون) أى للعذاب ؛ إما فى الدنيا والآخرة ، أو فى الآخرة . والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون . وقوله : (إلا عباد الله المخلصين) أى إلا من آمن منهم . وقوله : (وتركنا عليه فى الآخرين) أى أبقينا بعده ذكراً حسناً له فى العالمين ، فلا يذكر إلا بخير ، ولهذا قال : (سلام على إلياسين) أى سلام على إلياس . والعرب تلحق النون فى أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها^(١) كما قالوا : إسماعيل وإسماعين ، وإسرائيل وإسرائيلين ، وإلياس وإلياسين . وقد قرئ : سلام على آل ياسين - أى على آل محمد ، وقرأ ابن مسعود وغيره : سلام على إدراسين ، ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : إلياس هو إدريس . وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم ، وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق . والصحيح أنه غيره كما تقدم ، والله أعلم .

و بتوفيق الله تعالى قد تم الجزء الأول من كتاب : « البداية والنهاية » ويليه الجزء الثانى وأوله :
(باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام)

(١) قيل : لأنها لغة فى إلياس ، وقد اختيرت هنا رعاية للفواصل ، ولعل لزيادة الباء والنون معنى فى السريانية .

فهرس الجزء الاول
من « البداية والنهاية » لابن كثير

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
« وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث »	١٠٧	مقدمة - تعريف بالمؤلف - تعريف بالكتاب	٤ ، ٣
« إدريس عليه السلام »	١٠٨	مقدمة المؤلف - عرض لأهم موضوعات الكتاب	٨ ، ٥
قصة نوح عليه السلام بالتفصيل - أولاده	١١٠	« فصل » في بيان خلق السموات والأرض والقلم	٨
ذكر شيء من أخبار نوح نفسه	١٢٩	« فيما ورد في صفة خلق العرش والكرسي »	١٠
« صوم نوح عليه السلام »	١٢٩	ذكر اللوح المحفوظ	١٥
« حجه عليه السلام »	١٢٩	« باب » ما ورد في خلق السموات والأرض وما بينهما مفصلاً	١٥
« وصيته لولده عليه السلام »	١٣٠	« باب » ما جاء في سبع أرضين	٢٠
قصة هود عليه السلام	١٣١	« فصل » في البحار والأنهار التي وردت في الأحاديث	٢٣
« صالح عليه السلام - ذكر قصة أبي رغال من بني ثمود »	١٤٢	« في بيان مخلوقات الله في البراري والبحار »	٣٧
ذكر مرور النبي ﷺ بوادي الحجر من أرض ثمود « عام تبوك »	١٥٠	« باب » ذكر ما يتعلق بخلق السموات والأرض وما فيهن من الآيات	٣٨
قصة إبراهيم الخليل عليه السلام . مناظرته لقومه	١٥٢	الكلام على الحجرة - وقوس قزح	٤١
مناظرته مع النمرود الذي ادعى الربوبية	١٦١	« باب » ذكر خاق الملائكة وصفاتهم . صفة	٤٢
ذكر هجرة الخليل إلى الشام ودخوله الديار المصرية ، ثم استقراره في الأرض المقدسة	١٦٣	جبريل - إسرافيل - ميكائيل - عزرائيل	٥٣
ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر	١٦٧	« فصل » في أقسام الملائكة ووظائفهم	٥٣
هجرة إبراهيم بانه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران	١٦٧	« في المفاضلة بين الملائكة والبشر »	٥٨
قصة الذبيح	١٧١	« باب » ذكر خلق الجن وقصة الشيطان	٥٩
ذكر مولد إسحاق عليه السلام	١٧٥	« ما ورد في خلق آدم عليه السلام »	٧٤
« بنائة البيت العتيق »	١٧٧	فضله على الملائكة - موضع الجنة التي دخلها	٨٨
« ثناء الله ورسوله على خليله إبراهيم »	١٨١	أكله من الشجرة ، وخروجه من الجنة	٨٨
ذكر قصره في الجنة	١٨٧	ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام	٩٣
« صفة إبراهيم عليه السلام »	١٨٨	« الأحاديث الواردة في خلق آدم »	٩٣
		ذكر قصة ابني آدم « قابيل وهابيل »	١٠١

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
سؤال الرواية . قصة عبادتهم العجل ... الخ		» وفاته وما قيل في عمره	١٨٨
ذكر حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان	٣١٧	» أولاده عليه السلام	١٩٠
قصة بقرة بنى إسرائيل	٣١٩	قصة مدين «قوم شعيب عليه السلام»	١٩٩
» موسى والخضر عليهما السلام	٣٢١	باب ذكر ذرية إبراهيم »	٢٠٧
ذكر الحديث الملقب بحديث الفتون	٣٢٦	» » ذكر إسماعيل	٢٠٨
ذكر بناء قبة الزمان	٣٣٥	» إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام	٢١٠
قصة قارون مع موسى عليه السلام	٣٣٦	» ما وقع من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل . قصة يوسف عليه السلام بالتفصيل	٢١٤
شماله - صفاته - وفاته		قصة أيوب عليه السلام	٢٣٩
ذكر فضائل موسى عليه السلام	٣٤٠	قصة ذى الكفل	٢٤٤
ذكر حجته عليه السلام إلى البيت العتيق	٣٤٤	باب ذكر أم أهلكوا بعامه ، منهم أصحاب الرس	٢٤٦
ذكر وفاته » »	٣٤٥	قصة قوم يسوهم ، أصحاب القرية	٢٤٨
ذكر نبوة يوشع وقيامه بأعباء بنى إسرائيل بعد موسى وهرون عليهما السلام ٣٥٠ أسباب بنى إسرائيل ونقبائهم ٣٥١ قصة بلعام بن باعوراء	٣٤٨	قصة يونس عليه السلام	٢٥١
ذكر قصتي الخضر وإلياس عليهما السلام ٣٥٧	٣٥٥	ذكر فضل يونس » »	٢٥٦
الخلاف في اسم الخضر ونسبه ونبوته وحياته		» قصة موسى الكليم »	٢٥٦
٣٥٩ وصية الخضر لموسى ٣٦٠ الخضر يبيع نفسه ٣٦١ قصة ماشطة بنت فرعون		» فضل » في تحريض كبراء القبط فرعون على موسى بعد إسلام السحرة . هلاك فرعون وجنوده	٢٨٠
قصة إلياس عليه السلام	٣٦٧	» فضل » فيما كان من أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون وجنوده	٢٩٧
الفهرس	٢٧١	» فضل » في دخول بنى إسرائيل التيه .	٣٠٤

« تنبيه » : حدثت أخطاء مطبعة يستعمل القارىء إدراكها يسر ونحن نثبت أهمها فيما يلي :

صواب	خطأ	سطر	صفحة	صواب	خطأ	سطر	صفحة
جميعهم	جميعهم	٥	١٤٧	وذكر كلام	وذكر كلام	٢٣	١١
مشارقها	مشارقها	١٨	١٦٦	القاسم	القاسم	٢	٤١
يضرب بنفسه	يضرب بلبه	٣	١٦٨	حدثنا	حدثنا	٢	٤١
القتول	القتو	٢	٢٦٢	ولا تتأال	ولا تتأال	٤	٥٥
في البر الآسبوى	في السير الآسبوى	٢	٢٩٣	وتفسره	وتفسره	٢٤	٦٥
مصر	مصرى	٦	٢٩٨	يوم السقيفة	يوم السقيفة	١٢	١١٧

مطبعت البعث للدراسات والبحوث

شارع الشيخ القويضي رقم ٣٨ ب بالطاهر



D
17
.I12
v.1

FEB 14 1972

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU15001750

RECAP